الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

سألوني عن المرأة
سألوني في التفسير

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجار الله الخرافي

المجلد الثامن

سلسلة جمع تراث علماء الكويت - ٢ -

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

٨

تأسست عام (١٤٠١هـ / ١٩٨١م)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

(١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بمكتبة الكويت الوطنية

ISBN: 978-9921-802-01-6

البريد الإلكتروني (الإيميل)

Info@alnouri.org

هاتف: (٢٢٥٤٠٢٨٠)، (٢٢٥٤٠٢٧٠)، فاكس: (٢٢٥٤٠٢٦٠)

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية

جمعيةٌ كويتيّةٌ خيريّةٌ تُساهِمُ في بناءِ المُجتمعاتِ وتنمِيَتِها

وتُكملُ المَسيرةَ الخَيِّرَةَ للمغفور له بإذن الله الشَّيخ عبد الله النُّوري رحمه الله

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

سألوني عن المرأة
سألوني في التفسير

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجار الله الخرافي

المجلد الثامن

سلسلة جمع تراث علماء الكويت - ٢ -

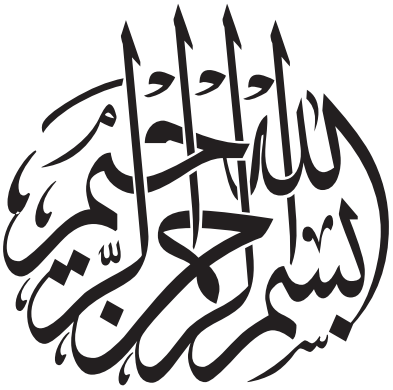
بسم الله الرحمن الرحيم

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله

سألوني عن المرأة

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجار الله الخرافي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الدكتور عبد العزيز المنصور

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على الرَّسول الأمين محمَّد خاتَم الأنبياء والمرسلين الَّذي حمل الرِّسالة، وأبلغ الأمانة، وعلَّمنا شرع الله وحدوده، وبعد:

فهذا الكتاب بين يدي القارئ الكريم هو مجموعة أسئلةٍ وردودها، أرسلها أصحابها وصاحباتها لفضيلة الشَّيخ عبد الله النُّوري يطلبون فيها رأيًا أو فتوىً أو إرشادًا حسب نهج الشَّرع في كلِّ ما له صِلَةٌ بقضايا المرأة والأسرة، وما تفرَّع عنهما ممَّا له مِسَاس مباشر بحياتنا ومستقبلنا.

ولا شكَّ أنَّ لكلِّ إنسانٍ مشكلةً ما يبحثُ لها عن حلٍّ، وكما يقال: لا جديدَ تحت الشَّمس، فإنَّ المشكلات قد تتشابه أو تتلاقى في نمطٍ معيَّن أو إطار واحد، وقد تصادفُ أحدنا مشكلةٌ مشابهةٌ لما جمعناه هنا ويتعلَّقُ بالمرأة، فيجد لها الجواب والإرشاد، ويستفيد وينتفع بعلمٍ وهبَهُ الله سبحانه لفضيلة الشَّيخ النُّوريِّ لينفع به النَّاس فيكون له ذلك رضوانًا عند الله ونورًا يسير أمامه في الآخرة.

وفضيلة الشَّيخ عبد الله النُّوريِّ -كما لا يخفى على الجميع- رجل علمٍ وفضيلةٍ، وهو حين يدْلي برأي يضع شرعَ الله في المقام الأوَّل، وينقل ذلك بأسلوب أبويٍّ تربويٍّ إرشاديٍّ محبَّبٍ؛ فلا يؤذي مشاعر أحدٍ، ولا يُنَفِّرُ قارئًا أو مستمعًا، خاصَّةً أنَّ هذه الأسئلة جاءت ردودها عبر

الإذاعة والتِّلفزيون.

وإذا كنَّا قد حذفنا أسماء السَّائلين والسَّائلات عمدًا؛ فإنَّما لنتجنَّب إحراج أحد، ولأنَّ العِبْرة في السُّؤال والجواب، وليس بمعرفة مَنْ سأل ما دامت غايتنا أَنْ ينتفع الآخرون بهذه العِبْرة ويستفيدوا من الجواب.

ونحن حين نقدِّم هذه المجموعةَ من الأسئلة وردودها للقرَّاء فإنَّما نهدِف إلى تسليط ضوء الإسلام، ورأي الإسلام على قضايا المرأة، خاصَّةً في الظُّروف المعاصرة والمعقَّدة الَّتي نحياها، والَّتي صِرْنا فيها نشعر بأنَّنا غرباءُ ضائعون تائهون ما لم تتداركْنا رحمة الله.

ولأنَّ المرأة ركنٌ أساسٌ في حياة المجتمع فإنَّ الإسلام قد وسَّع من دائرة إنصافها، ونظر إليها نظرةً لم تكن المجتمعات الأخرى لا في زمن الإسلام الأوَّل، ولا حتَّى في هذا الزَّمن لِتُعامِل المرأة بموجبها، أو كما يعاملها الإسلام ويتصرَّف إزاءها.

فتكريمًا للمرأة وإنصافًا لها نضع هذا الكتاب بين يدي القرَّاء ليعرفوا حدود الله في قضايا المرأة ومتفرَّعاتها في ما يتعلَّق بالعبادات أو شؤون الدُّنيا.

والله الموفِّق

د. عبد العزيز المنصور

المرأة في الإسلام (١)

طلبت إليَّ إحدى تلميذاتي أن أكتب عن المرأة في الإسلام، وتكريم الإسلام لها، وكيف كانت حالُها قبل نزول القرآن في الأمَّة العربيَّة، وعند غيرها من الأمم، وماذا أعطاها القرآن من تكريم.

والطَّلب عزيزٌ، والطَّالب عزيزٌ، والمطلوب له الموضوع عزيزٌ، فلم أعتذر، لا سيَّما أنَّي أُقدِّر المرأة وأحترمها فهي: أمي أوَّلًا، وهي زوجتي وشريكة حياتي وأمُّ أولادي ثانيًا، وهي بعد ذلك كلِّه أختي أو بنتي.

وخير ما أبدأ به كلامي في الموضوع قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النِّساء: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجرَات: ١٣].

مكانةٌ قرَّرها الحكم العدل، الرَّؤوف الرَّحيم للمرأة على أساسٍ من التَّآخي بينها وبين أخيها الرَّجل، وأعطاها خيرًا ممَّا يعطيها أسخى مُدَافعٍ عن المرأة وعن حقوقها في القديم والحديث.

ولا يزال الإسلام يهتِف للمرأة بأنَّها شقيقة الرَّجل، كما جاء في الحديث الشَّريف: «**إنَّما النِّساء شقائق الرِّجال**»[1]، رواه أبو داود

(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٣)، وأبو داود، رقم: (٢٣٦)، والدارمي، رقم: (٧٩١)، وأحمد، رقم: (٢٦١٩٥).

والتِّرمذيُّ والدَّارِميُّ والإمام أحمد.

ولنسأل التَّاريخ عما كانت عليه المرأة حين كان يتنزَّل القرآن على محمَّد ﷺ، ولنقارن بين المرأة في الجاهليَّة العربيَّة قبل نزول القرآن ومكانتها بعد نزوله، ثمَّ لنقارن بين المرأة في الإسلام وغيرها في الأمم الأخرى وإلى عهدٍ قريبٍ.

إنَّ الكثير من المستشرقين والمندسِّين وبعض من تلقُّوا علومهم في الغرب، وبُهِرُوا بالحضارة الغربيَّة -حضارة القشور- يحلو لهم أن يلصقُوا بالإسلام الاتِّهام تلو الآخر، وهم يقولون: إنَّ الإسلام هو المسؤول عن تقييد حركة المرأة، وإنَّه يقف حجر عثرةٍ أمام انطلاقها، ومن هنا سنعقد مقارنةً سريعةً بين وضع المرأة في الإسلام ونظيره في الدِّيانات الأخرى؛ لنوضِّح أنَّ هذه الكلمات هي محض افتراءٍ لا أساسَ له من الصِّحَّة، ولا يقوم على منطقٍ مقبولٍ.

كان العربيُّ لا يرحِّبُ بولادة الأنثى، وكان الرَّجل في بعض القبائل إذا وُلِدَت له الأنثى علاه الغمُّ والكَدَر، وأخذ يعالج نفسه أيتركها على مَضَضٍ ومهانةٍ أم يتخلَّص من عارها فيدفنها حيَّةً في التُّراب؟ كما نعى القرآن الكريم عليهم هذا الجهل بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النّحل: ٥٨-٥٩]، ولِنَذْكُر الآية الكريمة من سورة التَّكوير: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التّكوير: ٨-٩].

وكان الرَّجل من العرب إذا مات عن زوجةٍ ليس له منها أبناءٌ قام أكبر أبنائه أو أقواهم مركزًا فطرح عليها ثوبه فورثها كما يُوْرَث المتاع، وهو

بعد ذلك حرٌّ أيتَّخِذها زوجةً له أو يزوِّجها من يشاء ويملك صَدَاقها؟ وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ... ﴿١٩﴾﴾ [النِّسَاء: ١٩].

والمرأة كانت لا تملك شيئًا ولا تشارك في ميراثٍ.

وإذا ذكرنا بعض النِّساء العربيَّات من ذوات الثَّروة كخديجة بنت خويلدٍ فإنَّهنَّ نادراتٌ جدًّا، ولا حكم للنَّادر.

واليهوديَّة دين سماويٌّ لا ندري عن حقِّ المرأة في كتابه المقدَّس القديم، ولكنَّا علمنا أنَّ المرأة لا تَرِثُ، وأنَّه للأب أَنْ يبيع ابنته وهي طفلة.

وفي المسيحيَّة غلا[١] رجال الكنيسة غلوًّا في حقِّ المرأة، حتَّى إنَّه كان من موضوعاتهم الَّتي يتدارسونها في حقِّ المرأة -مثلًا- هل للمرأة أن تعبد الله كما يعبده الرَّجل؟ هل تدخل المرأة الجنَّة؟ هل نسمة المرأة باقيةٌ أم فانيةٌ؛ أي: هل هي حيْوانٌ أم إنسانٌ؟ وإن كانت إنسانًا فإنَّما خلقت لخدمة الرَّجل.

أمَّا الأمم الوثنيَّة:

ففي الهند وإلى عهدٍ قريبٍ كانت المرأة لا تأكل مع زوجها بل تأكل فضلتَهُ[٢] ولا تمشي بجانبه، بل خلفه بمسافةٍ حتَّى لا تطأَ ظلَّه، وتقول أساطيرهم: إنَّ النِّساء دَنِسَات[٣] نَجِسَات كالباطل، وإذا مات الرَّجل

(١) الغلو: تجاوز الحد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٩/ ١٤٢).
(٢) الفضلة: البقية من الشيء كالطعام وغيره إذا ترك منه شيء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ١٧٤).
(٣) الدنس: الوسخ، ودَنَسَهُ: سوء خلقه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٦/ ٩٢).

وجب على زوجته أن تموت معه.

وفي الصِّين إذا ماتت الأنثى فلا يبكي عليها أحدٌ، وإذا اختفت فلا يسأل عنها أحدٌ، ولا تشتغل المرأة إلَّا في أَخَسِّ الأعمال وأحطِّها وأحقرِها.

وفي اليونان مهد الحضارة العالميَّة القديمة كانت المرأة معزولةً عن المجتمع، تعيش في أعماق البيوت على أنَّها من سقط المتاع.

وفي الرُّومان كذلك إذا تزوَّجَت المرأة انقطعت صِلَتُها بأسرتها، وللزَّوج أن يحكم عليها بالإعدام، وإذا توفِّي الزَّوج دخلت في وصاية إخوته أو أعمامه أو أبنائه الكبار.

هذه نظرةٌ سريعةٌ إلى وضع المرأة في بعض الأديان والمذاهب أمام نزول القرآن، عرضنا لها عرضًا مُركَّزًا ومختصرًا، وهذه الأوضاع حقائق منصوصٌ عليها في كُتُب التَّاريخ.

ثمَّ نأتي بعد ذلك للإسلام، وماذا أعطى المرأة وكيف عاملها؟

لقد نزل القرآن الكريم في مكَّة قَبَسًا[1] من نورٍ يَشِعُّ في ظلمات الجاهليَّة، وقال للنَّاس: إنَّ الذَّكر والأنثى سواءٌ، فقال في سورة اللَّيل المكِّيَّة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [اللَّيل: ١-٣]، وفي سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١] قال: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩]، وفي سورة النَّجم -وهي من أوائل السُّوَر الَّتي نزلت في مكَّة- يقول البارئ ﷻ:

(١) القبس: الشعلة من النار. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٦/ ٣٥٠).

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦﴾ [النّجم: ٤٥-٤٦].

إذن ما الَّذي يُفضِّل الذَّكر على الأنثى؟ أَليسَ المنشأ واحدًا؟ والطَّريق واحدًا؟

لا شكَّ أنَّ الجواب: بلى، لكن هذا التَّنزيل لم يؤثِّر في الشُّعوب الأُخرى، فقد ظلَّت المرأة تُقاسي الأمرين عند غير المسلمين، وظلَّت المرأة هي هي، وما تزال حتَّى الآن في اليونان وفي بعض البلاد الفرنسيَّة وفي البلاد الإسكندفانيَّة لا تَرِثُ زوجها ولا أبويها، في بعض البلاد الغربيَّة يمتلِكُ الزَّوج قانونيًّا أموال زوجته متى عقد زواجه منها، وتُمْنَع من حقِّ التَّصرُّف فيه، وإن افترقا.

وإلى ما قبل سنة (١٩٤٠م) كان توقيع المرأة في فرنسا لا يُعْتمَد رسميًّا ولا يُصادَقُ عليه، إذا كان لها زوجٌ، ولا يُعتبَر أيُّ صكٍّ وقَّعت عليه امرأةٌ، فأين كلُّ هذا من مكانة المرأة في الإسلام الَّتي سنذكرها لكم؟!

جاء الإسلام وجعل المرأة كالرَّجل، فإن كانت والدةً فهي مساويةٌ للوالد، فقد أوجب على المسلم الإحسان لوالديه، ولكنَّه خصَّ الأمَّ بالذِّكْر فقال: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وكما أمره بالمساواة بين رعاية أبيه وأمِّه أمره بالمساواة برعاية بنيِّه وبناته، فقال: «**ساووا بين أولادكم في العطيَّة فلو كنت مفضِّلًا أحداً لفضَّلت النِّساء**»[١].

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥٣٤٦).

ولمَّا ذَكَر تعذيب آل فرعون لبني إسرائيلَ في قتل الأبناء واستحياء النِّساء قال جلَّ شأنه: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١]؛ أي: إنَّ بقاء النِّساء بلا رجالٍ بلاءٌ.

وفي المدينة المنورة أنزل الله جلَّ جلاله على نبيِّه ﷺ قِسْمَة المواريث، وقدَّمها بالآية الكريمة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النِّسَاء: ٧]، فهي تَرِث في تركة قريبها الميِّت كما يَرِثُ الذَّكر.

إذن فالمرأة إنسانٌ ذات عقلٍ مؤهَّلٍ للتَّديُّن، ذات روحٍ إنسانيَّة لائقةٍ بتقوى الله، وتأكيدًا لمساواتها هذه يجب أن تكون مستقلَّةً كلَّ الاستقلال، ومسؤولةً عن نفسها عند الله، فلا تَزِرُ وِزْرَ[1] زوجها وأخيها، ولا يزر هو وِزْرَها، فإنَّه لا تزر وازِرَةٌ وزر أخرى، ولا تغني نفسٌ عن نفسٍ شيئًا، ولهذا عندما هاجر النَّبيُّ ﷺ وبايعه الرِّجالُ أَذِنَ عليه الصَّلاة والسَّلام بمبايعة النِّساء، فقال جلَّ جلاله في كتابه العزيز لنبيِّه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [المُمتَحنَة: ١٢]، فالمرأة شخصيةٌ مستقلَّةٌ، وذات مسؤوليَّةٍ مستقلَّةٍ.

وقرَّر الإسلام للمرأة حقَّ التَّملُّك بعد أن كانت محرومةً منه في الجاهليَّة، فتَرِث أباها إن كانت بنتًا، وتَرِث ابنها إن كانت أمًّا، وزوجها إن كانت زوجةً، وتَرِث أخاها في بعض الأحيان إن كان لها مكانٌ في الميراث.

---

(١) الوزر: الإثم والثقل والكارة الكبيرة والسلاح. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ٣٥٨).

ومهرها لها، فلا يجوز لأحدٍ أن يتصرَّف فيه، وتملِك سائر أصناف المال بكافَّة أسباب التَّملُّك، وتمارس التِّجارة بما فيها من كسْبٍ مباحٍ، ولها أن تَضْمن وتُضَمِّن، ولها أن تَهِبَ وتوصِي، ولها أن تُخاصِم أمام القضاء بنفسها أو بمَنْ توكِّله عنها، ولها أن تشهد.

هذه الدَّرجات أعطاها إيَّاها الإسلام بعد أن كانت محرومةً منها.

وليعلم أخي القارئ: أنَّ أوروبَّا بما فيها من مدنيَّةٍ وحضارةٍ لم تبلغ بالمرأة حتَّى الآن الدَّرجةَ الَّتي رفعها إليها الإسلام، وكلُّ الَّذي بلغته أوروبَّا أَنْ حَصَلَت للمرأةِ على حقِّ الطَّلاق، والخَلاعَةُ.

فما تزال المرأة في بلاد الغرب دون الدَّرجة الَّتي رفعها الإسلام إليها، ولا تزال هناك قوانينُ وعاداتٌ تمنع المرأة من حقِّ التَّصرُّف في مالها بدون إذْن زوجها، وغير ذلك من الحقوق الَّتي منحتها الشَّريعة الإسلاميَّة لها من نحو (١٤) قرنًا.

وممَّا قرَّره الإسلام للمرأة أهليَّتَها الاجتماعية أنَّها متى بلغت وظهرت عليها علامات الرُّشْد زالت عنها الولاية والوصاية، فيكون لها حقُّ التَّصرُّف الكامل في شؤونها الماليَّة والشَّخصيَّة في حدود الشَّريعة.

وعند الإمام أبي حنيفة لا تُجبَر على الزَّواج، بل تخيَّر، مُستنِدًا إلى الحديث الشَّريف عن تلك الفتاة الَّتي جاءت إلى رسول الله ﷺ، وهي الخنساء بنت جذام، «**قالت للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ أبي زوَّجني من ابن أخيه ليرفع بي خَسِيْسَتَهُ[1]، وأنا له كارهةٌ، فأذِن لها النَّبيُّ ﷺ بفسخ النِّكاح، ولكنَّها**

(١) الخسيس: الدنيء، والخسيسة والخساسة: الحالة التي يكون عليها الخسيس. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر [٢/ ٣١].

بعد ذلك قالت: رضيت بما فعل أبي، فسألها عن اعتراضها فقالت: إنَّما فَعَلتُ ذلك ليعرف النِّساء ألَّا عليهنَّ ولا إجبار»، والحديث رواه البخاريُّ ومسلمٌ[١].

هنا حديثٌ آخر ذكَرَه أئمَّة الحديث، ولفظه: «**الثَّيِّبُ أحقُّ بنفسها من وليِّها والبِكْرُ تستأذن في نفسها وإِذنُها صمتها**»[٢].

لكن مع ذلك كلِّه قال: لا زواج بلا وليٍّ، ولا إِكراه للوليِّ على المولية.

وحتَّى في الحرب للمرأة أن تُجِير وأن تحمي، فقد جاء في «**تاريخ فتح مكَّة**» أنَّ أمَّ هانئٍ بنت أبي طالب أخت عليٍّ ﵄ أجارت رجلًا من المشركين، فجاء عليٌّ ليقتله فأسرعت أمُّ هانئٍ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، زَعَمَ ابن أبي طالب أنَّه قاتل رجلًا أَجرْته، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «**فقد أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانئٍ**»[٣]، «**المسلمونَ يدٌ على من سواهم، ويجير عليهم أدناهم**»[٤].

والإسلام أمر الأب المسلم أَنْ يعتني بتربية بنته وبتعليمها؛ لأنَّ المرأة نصفُ المجتمع، فلا بدَّ من إصلاح هذا النِّصف، وإلَّا بقي هذا المجتمع أشلُّ.

وفي الحديث الصَّحيح الَّذي رواه مسلمٌ والبخاريُّ يقول الرَّسول ﷺ:

---

(١) لم أقف عليه في البخاري ومسلم، ورواه ابن ماجه، رقم: (١٨٧٤)، وأورده النسائي في السنن الكبرى، رقم: (٥٣٩٠).
(٢) رواه مسلم، رقم: (١٤٢١).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٣٥٧).
(٤) رواه أحمد، رقم: (٦٦٩٢).

«**من بُليَ من هذه البنات بشيء فأحسن إليهنَّ كنَّ له سِترًا من النَّار**»[١].

وضرب عليه الصَّلاة والسَّلام المثل الأعلى في تكريم البنت حين خرج إلى المسجد يحمل أمامة بنت بنتِه زينب حين كان النَّاس يأنفون حتَّى من الابتسامة للبنت.

و«**طَلَبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ...**»[٢]، وحكم الحديث يَشْمَل كلَّ المسلمين رجالَهم ونسائَهم كما يُفهَم من ذلك في الشَّريعة الإسلاميَّة حين نادى القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... ﴿١٩﴾﴾ [النِّسَاء: ١٩]، ويعني بهذا النِّداء: الرِّجال والنِّساء.

والمرأة مَصنَع الحياة، فقد غَرَسَ الله ﷻ في قلب الكائن كلِّ كائنٍ حبَّ البقاء، والإنسان من الكائنات، والبقاء لا يكون إلَّا بالزَّواج، لكنَّ الزَّواج في الإسلام غيره عند سائر البشر.

الزَّواج في الإسلام رباطٌ عظيم، وعقدٌ مكرَّمٌ مقدَّسٌ يُعقَد على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله، وهو الطَّريق لبقاء الجنس البشريِّ، خليفة الله في أرضه، الَّذي به تُعمَر الأرض وتُشَاد الحضارة، والأمُّ هي المصنع لهذا الجنس؛ لهذا كافأَها الله ﷻ بأن جعل الجنَّةَ تحت أقدامها إذا أحسنت تربية ولدها، وأدَّت الواجب عليها لزوجها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**الجنَّةُ تحتَ أقدَامِ الأمَّهات**»[٣].

والزَّوجة تؤخذ بأمانة الله، وعلى ما في كتاب الله وسنَّة رسوله لها

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٩٩٥)، ومسلم، رقم: (٢٦٢٩).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٩).
(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٠٧٨).

هديَّة التَّكريم المهرُ ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ... ﴿٤﴾﴾ [النِّساء: ٤]، فالمهر صدقةٌ، والصَّدقة ليست ثمنًا للمرأة، ولكنَّها مِنحَة تكريمٍ.

المرأة ليست سِلعَة في سوق الزَّواج، فالزَّواج ليس تجارةً، وإنَّما هو شَركَة حياةٍ؛ لهذا قال البارئ جلَّ شأنه: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ [النِّساء: ٤]؛ أي: تنازلن لكم عن هذا الصَّداق.

والمرأة شريكة زوجها في حياته، فهي سَكَنه إذا عاد من كدحه وكدِّه، ولها رأيها في رعاية بيتها، كما قال رسول الله ﷺ: «**والمرأة راعيةٌ في بيتِ زوجِهَا ومسؤولةٌ عن رعيَّتِها**»(١).

ولم يَحرِم الإسلام المرأة من الخروج إلى العمل، بل شجَّعها على ذلك بشرط أَنْ تحترم أنوثتها وأمومتها، وتختار العمل الَّذي يتناسب مع تكوينها الجسديِّ والنَّفسيِّ على أن تكون واثقةً من نفسها، محترمةً في مِشْيَتها وفي حديثها، لكن متى كانت زوجةً، ومتى كانت أمًّا فأفضل الأعمال لها وأكرمها عند الله حُسْنُ التَّبعُّل(٢)، ومعنى التَّبعُّل: العمل البيتيِّ أو العمل في بيت الزَّوجيَّة.

وهنا أودُّ أن أثير نقطةً هامَّةً جدًّا: إنَّ بعض النِّساء والرِّجال أيضًا يُهوِّنون من وظيفة المرأة في بيتها، وفي اعتقادي أنَّ هذه الوظيفة هي أهمُّ من أيِّ عملٍ تتولَّاه المرأة خارج البيت، إنَّ المرأة نصف المجتمع كما يقولون، وأنا أقول: إنَّها النِّصف الَّذي يتوقَّف عليه صلاح المجتمع أو فساده، فإذا صلَحت صلَح المجتمع كلُّه، والعكس بالعكس، إنَّ مهمَّة

(١) رواه البخاري، رقم: (٨٩٣)، ومسلم، رقم: (١٨٢٩).
(٢) التبعل: حسن العشرة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (١/ ١٤١).

تربية الطِّفل وتنشئته ورعايته الرِّعاية السَّليمة هي مهمَّةٌ صعبةٌ وفي غاية التَّعقيد، فعلماء النَّفس يقولون: إنَّ أخلاقيات الطِّفل تُشَكَّل في السِّنين الأولى من عمره -في سنوات الطُّفولة-، وهنا تبرز أهميَّة الدَّور الَّذي على المرأة أَنْ تقوم به، وحين تنجح في القيام بهذه المهمَّة سينعكس هذا كلُّه على المجتمع، وستتغيَّر الصُّورة جذريًّا.

وفي اعتقادي أيضًا أنَّ كلَّ المظاهر السَّلبيَّة الَّتي نراها الآن حولنا، وفي أطفالنا وشبابنا، ما هي إلَّا نتاجٌ طبيعيٌّ لانشغال المرأة -الأمِّ- عن وظيفتها الأساسيَّة.

إنَّ الإسلام حين ألزم الرَّجل بالإنفاق على زوجته أراد لها أن تعيش في بيتها معزَّزةً مكرَّمةً، آمنةً على نفسها، فارغةً لتربية أولادها، وأراد أن يحميها ممَّا قد تلاقيه من إهاناتٍ ومضايقاتٍ خارج بيتها، في حين تستطيع ببساطةٍ أن تتفرَّغ لهذا البيت وللأبناء دون حاجةٍ إلى مشقَّةٍ أو عناءٍ.

ولعلَّ أخطر ما يواجِه المرأة من جرَّاء نزولها إلى العمل هي المشاكل الماديَّة الَّتي تنطلق بِحِدَّةٍ في كلِّ البيوت الَّتي يعمل فيها الأب والأمُّ أيضًا، إنَّ هذه المشاكل تهدِّد بخراب الكثير من البيوت، بل تَهدِمها فعلًا أو على الأقلِّ تشوِّه العلاقة الجميلة بين الرَّجل وزوجته، وتهدِّد بخراب هذه العلاقة الَّتي يجب أن تكون عامرةً كما أراد الله لها أن تكون.

ثمَّ إنَّ الاختلاط بصورته الحاليَّة، واختلاط الحابل بالنَّابل[1]، وعدم

(١) الحابل: السَّدَى، النابل: اللُّحمة، ويقال ذلك في الاختلاط. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ٢٦٧).

وجود معايير يتقيَّد بها الرَّجل والمرأة هي مؤشرٌ خطيرٌ يهدِّدُ أمن المرأة وأمانها وكرامتها.

وزيارةٌ واحدةٌ إلى محاكم الأحوال الشَّخصيَّة هي خير مِصدَاقٍ لقولي: إنَّ (٧٠٪) من حالات الطَّلاق حَسْب آخر الإحصائيَّات هي بين زوجٍ وزوجه يعملان، والاختلاطُ في العمل سبَّبَ الغَيْرَةَ، والغَيْرَةُ سبَّبت الشِّقاق.

من هنا أراد الإسلام لهذه العلاقة المقدَّسة -علاقة المرأة بالرَّجل- أن تدوم وتستمرَّ وتثمر وتعطي، ففضَّل للمرأة أن تلزم بيتها؛ لترعى أسرتها وتتفرَّغ لها دون أن تُضَارَّ أو تُظلم، وهي في نفس الوقت سيِّدة بيتها.

المرأة في الإسلام (٢)

المرأة صِنو[١] الرَّجل ونصفه الَّذي لا بدَّ منه، بل نصفه المكمِّل له، ولولا الرَّجل لَما كان نساءٌ، ولولاها لَما كان رجال.

إذن فهي إحدى جناحي المجتمع، يستحيل أن يعيش ويسموَ إذا بُتِرَت، وهي إحدى رجليه، ولن يتقدَّم أبدًا متى شُلَّت.

فقضيَّة المرأة إذن هي نصف قضيَّة الأمَّة، والحديث عنها هو الحديث عن نصف الإنسانيَّة، أو عن أمِّ الإنسانيَّة، ومنذ زمنٍ طويلٍ، ونحن نسمع ونقرأ بين آنٍ وآنٍ، كلمةً من هنا وكلمةً من هناك، وتتجاوب هذه الكلمات

(١) الصنو: الأخ الشقيق. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٤٤٥).

مطالبةً بحقوق يدَّعي أصحابها أنَّها «**حقوق المرأة**»، ويُسْمَع صوتٌ ثالثٌ ينادي بمساواة المرأة بالرَّجل، يطالب هذا ويطالب ذاك بمنح المرأة ما للرَّجل من وظائفَ وامتيازاتٍ، هذا ما نسمعه من أصواتٍ، وهذا ما نقرؤه في الصُّحف من مطالباتٍ، والمرأة في كلِّ هذا وذاك مظلومةٌ، وضحيَّة هذا الظُّلم هي المرأة نفسُها، وأرجو من القارئ الكريم أن يتدبَّر كلمتي هذه، فلا يتعجَّل بالحكم لي أو عليَّ قبل سماعها.

إنَّ المرأة مغلوبةٌ على أمرها، والرَّجل يستأثر بالكثير من حقوقها، بل اغتصب قسمًا كبيرًا من امتيازاتها، فهل يريد هؤلاء المطالبون بحقوق المرأة، أو مساواتها مع الرَّجل ظلمًا يضافُ إلى ما تعانيه من ظلم، وإجحافًا فوق ما تنوء[1] به من إجحافٍ؟!

إنَّ الإنصاف كلَّ الإنصاف يقضي بأن نَعُدَّ أنَّ كلًّا من «**الرَّجل والمرأة**» إنسانٌ، خلقهما الله في هذه الحياة ليكونا شريكين، يقتسمان على السَّواء نعماء الحياة وشقاءها، كلٌّ بالقَدْر الَّذي يستطيعه، والمجال المرسوم له، هكذا تقول الطَّبيعة؛ طبيعة الرَّجل وطبيعة المرأة، الطَّبيعة الَّتي كوَّن الله عليها خِلْقَة الاثنين، والله جلَّ جلاله جعل لكلٍّ من المرأة والرَّجل طاقةً ومجالًا يختلف بعضها عن بعض باختلاف تكوينهما، هذه سنَّة الله، ولن تجِد لسنَّة الله تبديلًا.

الرَّجل مخلوق قويٌّ، سرُّه في سَعَة عقله، وفي قوَّة عضلاته، وفي تحمُّله الأعباءَ الثِّقال، وفي صبره على البأساء والضَّراء، له ميدان الحرب، وعليه عبء العمل الثَّقيل المضني، وعليه تقع المسؤوليَّة، وهو

(١) ناء بالحمل: إذا نهض به مثقلاً، وناء به الحمل: إذا أثقله وأماله، انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/ ٤٧١).

الَّذي يحمل أوزار الحكم والإدارة والقيادة، وكلُّ ذرَّة من هذه المسؤوليَّات والتَّبعات إنَّما هي ذرَّةٌ من طاقةٍ جبَّارة قهَّارة، إنْ قهرها رفعتْه درجاتٍ عُليا، وإن قهرتْه أودت بحياته، أو أذلَّته في هذه الحياة.

أمَّا المرأة فشيء لطيف، سرُّه في لطفه، وهي نفسها تشعر بهذا اللُّطف، وهي مخلوقٌ جميلٌ، قوَّته في جماله، شعورها مرهفٌ، حسَّاسٌ؛ سحرها بهذا الرَّهْف والحِسِّ، وهي فوق ذلك مخلوقٌ محبوبٌ، يحبُّها الطِّفل لأنَّها والدته، ويحبُّها الوالد لأنَّها بنته، ويحبُّها الرَّجل لأنها زوجه أو أخته، وتحبُّها المرأة الأخرى إذا كانت لها أختًا أو أمًّا، أو صاحبةً.

وإنَّ من المضحِك أن نستمع لرجلٍ يتبجَّح[1] بجماله ونعومته ولطفه ورشاقته، ومن المضحِك أيضًا أن نستمعَ لامرأةٍ تباهي بخشونتها وقوَّتها القاهرة، وتفاخر بساعديها المفتولين وحملِها الأثقالَ، كلاهما كاذبٌ أو هازلٌ، لا يعرف الحياة وقيمتها.

فإن باهى الرَّجل صادقًا فإنَّما يباهي بخشونته وقوَّة عضلاته، وإن تمنَّى فإنَّما يتمنَّى زوجةً جميلةً، وبيتًا هادئًا، ومَنصِبًا عالياً، ومكانةً ترفعه في أعين الرِّجال.

وإن باهت المرأة صادقةً، فإنَّما تباهي بنعومتها، ولطفها ولينها، وإن تمنَّت فإنَّما تتمنَّى زوجًا إذا رآها سُرَّ بجمالها، له مكانةٌ مرموقةٌ، تفتخر به على أترابها[2]، ولها فوق ذلك كلِّه بيتٌ هادئٌ تسود المحبَّة ساكنيه،

---

(١) تبجح به: فخر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٢٩٧).

(٢) التِّرْبُ: منْ وُلِدَ مَعَك، وأكثر ما يكون ذلك في المؤنث، والجمع: أتراب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٦٧).

وعائلةٌ مجتمعةٌ كلمتها، يفيض عليها الحبُّ والحنان ما دامت الحياة تنبض في عروق أفرادها.

الكلام في المرأة والمطالبة بأحقِّيتها، أو عدم أحقِّيتها لا يغيِّر من طبيعة المرأة وتكوينها، ولا من طبيعة الرَّجل وتكوينه، وهؤلاء المطالبون بأحقِّية المرأة، وأولئك المطالبون بعدم أحقِّيتها، كرقَّاص السَّاعة لا يستقرُّ مطلقًا، ولا يستفيد شيئًا إلَّا مرور الزَّمن.

فالَّذين يجنحون بها إلى تقاليد السَّتر يريدون المرأة أن تكون في سجونٍ مُقفَلةٍ، أسوارها عاليةٌ، تسودها ظُلُماتٌ بعضها فوق بعض، لا تُبْصِر عالمًا، ولا ترى من جمال الطَّبيعة شيئًا، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، والَّذين يجنحون بها إلى تقاليد الغرب يريدونها عاريةً مُسفِرةً، لا تعرف بيتًا ولا أطفالًا، وربَّما لا تعرف زوجًا ولا استقرارًا عائليًّا، وهؤلاء وأولئك يذهبون في جنوحهم هذا وذاك إلى الإسلام، يتصيَّدون منه الشَّواهد لأهوائهم، ويطبِّقونها على مبادئهم، والإسلام بتعاليمه بعيدٌ عن كلِّ ما يدعون، وعن كلِّ ما يذهبون إليه، وعن كلِّ ما يستدلُّون به.

وقضيَّة المرأة، هي في الحقيقة قضيَّة أمَّهاتنا وأخواتنا وبناتنا وزوجاتنا، هي قضيَّة نصف الأمَّة -كما قلت في مَبْدأ حديثي هذا- وليس صحيحًا أنَّ نهضم حقَّ المرأة لأنَّها أنثى، ولا أن نحترم الرَّجل ونرفع من مكانته؛ لأنَّه رجل، فربَّما امرأة هي أفضل من ألف رجلٍ، وما قيمة الشَّارب ينبت في رأسٍ لا يفيد في تفكيره، وما قيمة لَحيةٍ نبتت على وجهٍ لا يُؤْبَه به، ولا يُلْتَفَت إليه؛ لأنَّه عالة على المجتمع وعلَّة مزمنةٌ من علله.

والإسلام فضَّل نساءً كثيراتٍ على كثيرٍ من رجال الصَّدر الأوَّل في الإسلام.

الإسلام لا يُفَضِّل امرأةً على رجلٍ ولا يفضِّل رجلًا على امرأةٍ، ولقد قال الإسلام كلمته الباقية الخالدة الَّتي لا تُبَدَّل ما بقيت في الأرض نسمة حياةٍ، والَّتي هي دستور سائر الأمم، لقد قال الإسلام: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

فالأصلح إذن هو الأفضل، والأنفع للأمة هو الأكرم، سواءٌ كان هذا الأصلح رجلًا أو امرأةً، فالله خلق للمرأة عقلًا، وهداها إلى عمل الخير، وأَوْضح لها سبيلَهُ، وخلق للرَّجل عقلًا، وهداه لفعل الخير، وأوضح له سبيلَهُ، فمن كان نفعه أعمَّ، وخيره أوسعَ وأجدى كان هو الأفضل.

وإنَّ من أهم الأغراض الَّتي جاء الإسلام من أجلها هي هدم ما كان عليه أهل الجاهليَّة من هضم المرأة، وإذلالها، واحتقارها، والتَّفريط أحيانًا في حياتها، حتَّى إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يعطف على النِّساء أكثرَ ممَّا يعطف على الرِّجال، فقد قال صلوات الله عليه في حديثٍ رواه الطَّبرانيُّ: «**ساووا بين أولادكم في العطيَّة، ولو كنت مفضِّلًا أحدًا لفضَّلت النِّساء**»[(١)]، والسَّبب في ذلك أنَّهن سريعات التَّأثُّر، رقيقات الشُّعور، وهنَّ أجدر بالبرِّ من إخوتهنَّ الذُّكور.

وكان ﷺ يقول: «**لا تَكْرهُوا البنات فإنهنَّ المُؤْنِسَاتُ الغالياتُ**»[(٢)]، وفي حديثٍ رواه أحمد والتِّرمذيُّ عن عائشة أمِّ المؤمنين، ورواه البزَّار عن أنس بن مالكٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما النِّساء شقائقُ الرِّجال**»[(٣)]، يدلُّ هذا الحديث، على ما جاء به الإسلام من عنايةٍ

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥٣٤٦).
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٧٣٧٣).
(٣) رواه الترمذي، رقم: (١١٣)، وأحمد، رقم: (٢٦١٩٥).

بالمرأة، وتوفيرٍ لحقوقها، وهدمٍ لما كانت عليه قبل الإسلام من تَعَسٍ وسوء حالٍ وإهانةٍ لآدميَّتها، فقرَّر للمرأة حقَّها في الحياة من التَّملُّك والعمل، وحريَّة التَّمتُّع بما خلق الله لها طبقًا لما للرَّجل من حقٍّ في الحياة، فهي تَملكُ، وتعمل في حريَّةٍ في حدود الحياء والأدب.

بقي إذن درجة تَقدُّم الرِّجال عليهنَّ في مواطن الخوف والقوَّة، والنَّجدة والأعمال الشَّاقَّة، وتحمُّل الأعباء والمسؤوليَّة، فإذا كان للرَّجل هذه الدَّرجة بطبيعة تكوينه، فإنَّ للمرأة أيضًا مميِّزاتٍ معدومةٍ في الرَّجل، وهي تُعدُّ درجةً لها أيضًا، إنَّها مقدَّمةٌ على الرَّجل في مواطن الرِّفق والأدب والحياء والدِّعة والاحتشام، والابتسامة في وجوه الرِّجال، ورعايتهم صغارًا وكبارًا.

من يحنو على الرَّجل، ويَرِقُّ له، ويلطف به، ويسلِّيه ويمسح وجهه، ويربِّت على كتفيه إذا دخلت المرأة ميدان العمل؟!

ومن يعطِف على الطِّفل، ويرعى ضعفه، ويهدهده ويهزُّ مهده، ويرعى نظافته وغذاءه إذا تركت المرأة البيت إلى الوظيفة؟!

أقول: مرحى لدين الإسلام، فقد قال نبيُّ الإسلام عليه الصَّلاة والسَّلام: «**المرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها ومسؤولةٌ عن رعيَّتها**»[1]، فكيف ترعى البيت وتكون مسؤولةً عنه، وقد خرجت منه إلى الوظيفة تاركةً كلَّ مسؤوليَّاتها؟!

(١) رواه البخاري، رقم: (٨٩٣)، ومسلم، رقم: (١٨٢٩).

الأسرة في الإسلام

شجرة تنبُت في المجتمع كما تنبُت الأشجار في البستان.

والأسرة زوج وزوجة، ذكر وأنثى تزوَّجا زواجًا فكان بينهما ازدواج كوَّنا به زوجيَّةً، أنبتت في بستان المجتمع شجرة يُرْجَى ثمرها للمجتمع.

والزَّواج فطرة؛ أي: إنَّه نظامٌ أزليٌّ يلْتمُّ به شمل كلِّ شيء ممَّا خلق الله، ويصلُح عليه وجوده، وتخرج به ثماره، قال ﷻ في مُحْكم تنزيله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذّاريات: ٤٩]، ومن كلِّ شيءٍ: كلمةٌ تنسحب على كلِّ ما نشاهد بلا حصرٍ من حيٍّ وجامدٍ، من صامتٍ وناطقٍ، أشياءَ أدركناها، وأشياء لم ندركها.

لقد عرفنا علميًّا أنَّه لولا الرِّيح لما كان مطرٌ، «**والرِّياح لواقح السَّحاب**» كما قال القرآن الكريم، وعرفنا أخيرًا أنَّ الماء من عنصرين اجتمعا فصارا ماءً، وعرَفنا أيضًا أنَّ الكهرباء من سلكين: سالبٌ وموجبٌ، فلو انفرد أحدهما عن الآخر فلن يعطيا الفائدة المرجوَّة من النُّور والطَّاقة، ومتى اجتمعا نفعا، وهكذا الزَّواج إنسانٌ وإنسانةٌ، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: ٢١].

سنَّةٌ من سُنَن الله، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فَاطِر: ٤٣].

يجب أن يلتئم الشَّطر مع الشَّطر ليكمل الوجود، وتخرج الثَّمرة،

ويبقى جنس الإنسان خليفةٌ في أرض الله كما أراد الله أن يكون.

خلق الزَّوجين من جوهرٍ واحدٍ، أو كما قال الله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الزُّمَر: ٦]، خلقهما شطرين ثمَّ جعل كلًّا منهما سكنًا للآخر، فالأنثى سكن الرَّجل يستريح إليها إذا تعب من كدِّه، ويأوي إليها إذا فرَغ من عمله، وجعل بينهما المودَّة والرَّحمة ليدوم الاجتماع، ويثمر التَّفاهم بين الزَّوجين الإنسانين المخلوقين من نفسٍ واحدةٍ.

الحيْوان: كلُّ أصناف الحيْوان، ذكرٌ وأنثى، لكنَّهما لا يسكن بعضهما إلى بعض، فالأنثى متى طلبت الذَّكر بحثت عنه، وإذا أشبعت رغبتها منه تركته، وإن لم تكن في حاجةٍ إليه وطلبها هو ضربته أو آذته، وهي في أكثر الحيْوان أقوى هيكلًا، وأكثر شراسةٍ من الذَّكر، وهناك حيوانات كالأسد -مثلًا- أو كالحَمَام، يبقى الذَّكر مع الأنثى حتَّى يثمر اجتماعهما، وإذا نضجت الثَّمرة افترقا.

أمَّا الإنسان فجوهره غير جوهر الحيوان.

الإنسان: إلف مألوف، ثنائيُّ التَّكوين، هو في الخِلْقة حيوانٌ، لكنَّه في المعنى أشرف، وفي المكانة أسمى، وهو السَّيِّد المُسلَّط: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، والرَّسول ﷺ أخبرنا بأنَّه: «**لا خيرَ في من لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ**»(١).

ومتى بلغ الإنسان سِنَّ الزَّواج شعر بالوحدة والفراغ والقلق والاضطراب النَّفسيِّ، إنَّه يريد رفيقًا يشاركه الحياة، ويسكن إليه، ويملأ فراغ عاطفته، ويستريح معه، ويشاركه حياته، ويفضي إليه بسرِّه.

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٢٨٤٠).

إذن لا بدَّ له من زوجٍ، وهذا معنى قول الله ﷻ: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا...﴾ [الرُّوم: ٢١].

وبالزَّواج تسكن النَّفس من النَّاحية الغريزيَّة، ومن النَّاحية العاطفيَّة، ولعلَّ فيما قلت إشارةً إلى قول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١]، وهنا اذكر الحديث الشَّريف ولا أدري مدى صحَّته:

«**إنَّ الرَّجل إذا نظر إلى امرأته ونظرت إليه نظر الله إليهما نظرة رحمةٍ، فإذا أخذ بكفِّها تساقطت ذنوبهما من خلال أصابعهما**»[(١)]، والحديث هذا إذا صحَّ فإنَّه خاصٌّ بالزَّوجين العفيفين.

ولا ننسى قوله ﷺ: «**وفي بُضْعِ أحدكم صدقةٌ، فقال أحد الصَّحابة رضوان الله عليهم: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟ قال عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام: أرأيتم لو وضعها في الحرام أكانَ عليه وِزْرٌ؟ قالوا: بلى، قال: فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**»[(٢)].

والزَّواج من القضايا الإنسانيَّة الكبرى الَّتي تَعْمُرُ بها الحياة، ويبقى بها الجنس الإنسانيُّ، وتجمع بين الدِّين والدُّنيا؛ لهذا شرَّع القرآن الكريم في سورة البقرة وسورة النِّساء وسورة الطَّلاق لهذه السُّنَّة تشريعاتٍ لا بدَّ منها لبقاء الجنس الإنسانيِّ.

والإسلام قرَّر بطلان زواج المرأة بلا وليٍّ، فإن كانت رشيدةً فلا بدَّ من استئذانها، والوليُّ منفِّذٌ، والأحاديث وردت في ذلك تقول: «**إنَّ الثَّيِّب أحقُّ بنفسها من وليِّها، والبِكْر تستأمر وإذنها سكوتها**»[(٣)]، وحديث

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٤٣٧).
(٢) رواه مسلم، رقم: (١٠٠٦).
(٣) رواه مسلم، رقم: (١٤٢١).

آخر: «**لا تنكح الأيِّم**[١] **حتَّى تستأمر، ولا البكر حتَّى تستأذن**»[٢]، والأيِّم هي ما نسمِّيها نحن في عُرْفِنَا «**العانس**»[٣].

وقد أبطل النَّبيُّ ﷺ عقد زواج أبرمه أبٌ على كُرْهٍ من ابنته، فجاءت تشكوه قائلةً: «**يا رسول الله، إنَّ أبي زوَّجني من ابن أخيه؛ ليرفع بي خسيسته، وأنا له كارهةٌ، فردَّ النَّبيُّ ﷺ نكاحها، ولكنَّها بعد ذلك رجعت إلى النَّبيِّ ﷺ، وقالت: يا رسول الله، إنِّي أجزت ما صنع أبي، ولكنِّي أردت أن تعلم النِّساء أنَّ ليس للآباء من الأمر شيءٌ**»[٤]؛ تعني: أن لا إكراه للوليِّ في تزويج موليِّته ممَّن تكره، ومع هذا كلِّه فقد أخبرنا النَّبيُّ ﷺ أنَّ «**لا نكاحَ إلَّا بوليٍّ**»[٥]، و«**من تزوَّجت بغير إذن وليِّها فنكاحها باطل**»[٦]، وإن كان وليُّها عاضلًا -أي: مانعًا لها من الزَّواج؛ ظلمًا أو كما تعتقد أنَّه ظلمٌ- تشكه إلى وليِّ الأمر، فإن تحقَّق فيه الظُّلم تحوَّلت ولايتها منه إلى وليِّ الأمر في البلاد الَّذي يزوِّجها أو يأمر بزواجها.

وهذا ما اتَّفق عليه جمهور المسلمين، خلفًا عن سلفٍ؛ إذ لا بدَّ في

---

(١) الأيم من النساء: من لا زوج لها بكرًا أو ثيبًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣١/ ٢٥٥).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥١٣٦)، ورواه مسلم، رقم: (١٤١٩).

(٣) العانس: هي البكر التي لم تتزوج. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٦/ ٢٩١).

(٤) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٧٤)، وأورده النسائي في السنن الكبرى، رقم: (٥٣٩٠).

(٥) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٨١)، والترمذي، رقم: (١١٠١)، من طريق أبي موسى بلفظ: «**لا نكاح إلا بولي**».

(٦) رواه الترمذي، رقم: (١١٠٢)، وقال: هذا حديث حسن، بلفظ: «**أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها... إلخ**».

الزَّواج من وليٍّ، وشاهدي عدلٍ، وللوليِّ أن يمنع مولِّيته من الزَّواج من غير الكفء، وله أن يفسخ النِّكاح.

والكفاءة في عهد النُّبوَّة دينٌ وأمانةٌ، كما جاء في الحديث الشَّريف: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوِّجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيرٌ**»(١)، والكفاءة عند بعض المجتمعات نَسَبٌ، وعند بعضهم ثروةٌ ومالٌ، وعند بعضهم شجاعةٌ أو جاهٌ، والكفاءة في يومنا هذا شهادةٌ علميَّةٌ، ولكن لن يفوز إلَّا من ظفر بصاحب الدِّين؛ لأنَّ صاحب الدِّين أمينٌ.

علمًا بأنَّ الزَّواجَ نصيبٌ، والمزوِّجُ ربُّ السَّماء، وللحظِّ في ميدان الزَّواج جولاتٌ، فكم من خاملٍ نبه ذِكره، وكم من مُعدَمٍ أيسر أمره وبالعكس.

والزَّواج إيجابٌ وقَبُول، إيجابٌ من وليِّ المرأة وقَبُول من الزَّوج أمام الشَّاهدين، أمَّا الورقة الَّتي نسمِّيها الآن وثيقةَ الزَّواج فإنَّها بِدعةٌ، وأوَّل ورقة زواجٍ كُتبت في الكويت صدرت من المحكمة في سنة (١٣٦٦هـ) الموافق أوائل سنة (١٩٤٧م).

كلُّ ما ذكرناه آنفًا هو مَدْخلٌ للحديث عن الأسرة الَّتي هي -كما يقولون- النَّواة الأولى للمجتمع الإنسانيِّ، أيِّ مجتمعٍ في أيِّ بقعةٍ من الدُّنيا.

وربَّما أكون قد أطلت الحديث بعض الشَّيء، والمقام لا يسمح بالإطالة، ولكنِّي أردت أن أثبت أنَّ الإسلام أكَّد بآياته البيِّنات قدسيَّة

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

الأسرة، وأراد لها البقاء وعدم التَّفكُّك، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ۚ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النِّسَاء: ٣٥].

ونلاحظ أنَّ التَّعاليم الإسلاميَّة الَّتي أرادت دوام الأسرة كفلت للمرأة بوصفها سكن الرَّجل، ومصنع الإنسانيَّة والأمُّ المربِّية، والزَّوجة الحانية، عدَّة ضماناتٍ قويَّةٍ منها:

أولًا: النَّفقة:

فالزَّوج هو المتكفِّل بالإنفاق على زوجته، وتهيئة البيئة الملائمة لها ماديًّا ومعنويًّا، إنفاقٌ من غير تقتير ولا إسرافٍ، تطبيقًا للآية الكريمة: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ [الطَّلَاق: ٧]، فالرَّجل ملزَمٌ بالإنفاق على زوجته، وإن كانت أغنى منه، إلَّا أن يكون الرَّجل مصابًا بعاهةٍ لا يستطيع العمل معها، فحينئذٍ يجب أن تبحث المرأة عن مكانها في مثل هذه الحالة، وإذا عُدِمَت المروءة وطلبت المرأة الطَّلاق من مثل هذا الزَّوج فلها ذلك.

ثانيًا:

على الزَّوج أن يفي بالشَّرط الَّذي قاله عند العقد ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩]؛ أي: إنَّ الواجب عليه أن يعطي من نفسه ومن ماله ومن كلمته؛ حتَّى تبقى العلاقة قائمة.

وهنا أحبُّ أن أقول: إنَّ الكلمة الطَّيِّبة أقوى أثرًا في بقاء العلاقة الحسنة من البذل والعطاء، فمتى تبادل الزَّوجان هذه الكلمة في كلِّ شأنٍ من شؤونهما أثمرت ثمرتها الطَّيِّبة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ

كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]، وقد جرَّبنا الكلمة الطَّيِّبة فوجدناها الدَّواء النَّافع، والشِّفاء النَّاجع لكلِّ خلافٍ يحصل بين النَّاس، سواءٌ بين الأصدقاء أو بين الأقارب أو بين الأزواج.

ولنضرب مثلًا: زوجًا ينفق من سعةٍ وبسخاءٍ، ولكنَّه يدخل بيته بوجهٍ عبوسٍ، ويخرج بمثله، وآخرُ لا يجد ما ينفقه، ولكن بسمته تضيء هذا العسر، وكلمته الطَّيِّبة تداوي هذا البؤس.

أظنُّ أنَّ هذا خيرٌ من ذاك، وسيفتح الله عليه فيما بعد: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطّلاق: ٤]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطّلاق: ٧].

ثالثًا:

ألزم الإسلام الرَّجل بحماية بيته، وبذل كلِّ غالٍ ونفيسٍ في تحقيق الأمن لأسرته؛ لأنَّه القوَّام.

وعلى ذكر القوامة أحبُّ أن أقول: إنَّ قوامة الرَّجل معناه المسؤوليَّة، لا سيَّما أنَّه مكلَّفٌ بالإنفاق والحماية، فهو قوَّام بهما، لا كما يفهمها الجاهلون قوامة سلطةٍ واستبدادٍ، ودكتاتوريَّةٍ، وإهانةٍ وعجرفةٍ[1].

رابعًا:

حرَّم الإسلام اعتداء الرَّجل على أهله بلا سببٍ، فقال جلَّ شأنه في

(١) العجرفة: جفوة من الكلام، وخرق في العمل، والإقدام في هوج. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٤/ ١٢٢).

سورة النِّساء: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، فالهجر حرام، والرَّجل العاقل هو الَّذي يعمُر بيته بحضوره ساعات فراغه، يؤنس أهله بكلماته الطَّيِّبة، ويملأ عيون زوجته بالنَّظر إليه، ويودِع في قلوبهم محبَّته، وفي الحديث الشَّريف: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا، وخياركم خياركم لنسائهم**»(١).

وما دمنا قد ذكرنا الحقوق الواجبة على الزَّوج لزوجته فمن باب إتمام الحديث أن نذكر ما يجب على الزَّوجة لزوجها:

١- على المرأة أن تطيع زوجها في غير معصية الله، وفي الحديث أيضًا: «**خير النِّساء من تَسُرُّ زوجها إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، وتحفظ غيبته في نفسها وماله**»(٢).

٢- أن تحافظ على أموال زوجها وأولاده وبيته: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النِّسَاء: ٣٤].

٣- أن تحافظ على النَّظافة -والنَّظافة من الإيمان- نظافة منزلها وأولادها ونفسها، وليس كالنَّظافة شيءٌ يجلب السُّرور، وفي الحديث: «**إنَّ الله نظيفٌ يحبُّ النَّظافة**»(٣).

٤- والتَّدبير من واجبات المرأة فلا تسرف ولا تقتر، ولا تكلِّف زوجها ما لا يطيق.

٥- تداري خاطر زوجها فتحبُّ من يحبُّ، وتكره من يكره، ولا تأذن

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٦٢)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى، رقم: (٨٩١٢).
(٣) رواه الترمذي، رقم: (٢٧٩٩)، وقال: هذا حديث غريب.

لأحدٍ ممَّن يكره بدخول بيته.

٦- روى البخاريُّ في «**صحيحه**» أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يحلُّ لامرأةٍ أن تصوم وزوجها شاهدٌ إلَّا بإذنه ولا تأذن في بيته إلَّا بإذنه**»(١)، ومعنى هذا: أن تمتنع عن صيام النَّفل ما دام زوجها حاضرًا، أمَّا القضاء الواجب فالأمر فيه لله وليس للزَّوج، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

والحجُّ النَّفل يجب عليها أن تستأذنه فيه، حتَّى لو غاب عنها طويلًا، وعرفت أنَّ غيبته تستغرق سفرتها.

والصَّدقة من ماله حرامٌ عليها حتَّى يأذن لها فيها، أو تستأذنه فيسمح.

ختامًا: أحبُّ أن يفهم الجميع أنَّ الرَّجل، وإن بلغ من السِّنِّ الكهولة فهو في بيته كالطِّفل، يحبُّ من زوجته المجاملة، وتعجبه منها البسمة، ويأنس للُطفها ومديحها له وثنائها عليه، ويطمئنُّ لدعائها، ويرتاح للَمستها الحانية، وكلُّ زوجةٍ تذكر من زوجها أنَّه إذا أهمَّه أمرٌ، ورأى من زوجته الحنوَّ والإخلاص شكا إليها همَّه، ولعلَّه يلتمس الفرج في قربها، فيضع رأسه على صدرها ليشعر بالرَّاحة من حنانها الدَّافئ، أو من كلمةٍ تقولها له يجد فيها الفأل الحسن.

فما أعظم أن تكون الزَّوجة وفيَّة لزوجها، وما أعظم تلك الزَّوجة الَّتي تجعل من زوجها محترمًا في شعبه، عظيمًا في عائلته، كريمًا في أخلاقه، مستقيمًا في سلوكه، متقنًا لعمله، مؤدِّيًا لواجباته، صادقًا في قوله، مُهَابًا بين صحبه، مؤمنًا بربِّه وبدينه، ولكنَّه مع كلِّ ذلك فهو في بيته كالحمَل الوديع.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥١٩٥)، ورواه مسلم، رقم: (١٠٢٦).

وأكرم وأنعم وأعظم بتلك الزَّوجة الَّتي تجعل من زوجها هذا الإنسان، فيصدق فيها المثل القائل: «**وراء كلِّ عظيم امرأة**».

بمناسبة يوم الأمِّ

بمناسبة العشر الأواخر من شهر مارس «**آذار**»، والَّذي اتَّخذه بعض النَّاس يومًا للأمَّهات، وسمُّوه عيد الأمومة أو عيد الأمِّ -علمًا أنَّه ليس في الإسلام إلَّا عيدان: عيد الفِطر، وعيد الأضحى- أحببت أن يعلم إخوتي المشاهدون والمشاهدات أنَّ يوم الأمِّ في الإسلام هو كلُّ يومٍ في العام، وأنَّ ليس لها في العام يومٌ مخصَّصٌ، فالأمُّ قبل أن تكون أمًّا كانت امرأةً، والإسلام أعطاها الحقَّ في اختيار زوجها، ثمَّ نبَّهَ الزَّوج إلى عظيم فضلها ومكانتها، وأنَّها خلقت منه؛ لأنَّ الخالق قال: ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعرَاف: ١٨٩]، ويجد أنسه في جوارها، فقال جلَّ جلاله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾ [الرُّوم: ٢١]، وقال: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧].

وأوصى الخالق جلَّ جلاله هذا الرَّجل بحسن معاشرة زوجته وجميل مودَّتها، فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٩].

وأخبرنا السَّيِّد الكريم الرَّسول الرَّحيم: أنَّ «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**»(١)، وقال لنا: «**خياركم خياركم لنسائهم**»(٢)، وقال: «**ما**

(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٦٢)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) رواه الترمذي، رقم: (١١٦٢)، وقال: حديث حسن صحيح.

أكرم النِّساء إلَّا كريم ولا أهانهنَّ إلَّا لئيم»[١].

ولقد كرَّم الله المرأة فجعل منها أوَّل قلبٍ خفق بالإسلام، ذلك قلب خديجة بنت خويلدٍ، أوَّل قلب صدَّق رسالة محمَّدٍ ﷺ.

وخلَّد الإسلام ذكْر خولة بنت مالكٍ، تلك الَّتي سمع الله قولها في سمائه تجادل رسول الله ﷺ في زوجها، وتشتكي إلى الله.

والمرأة بين يدي الإسلام شقيقة الرَّجل وشريكته، و«**النِّساء شقائق الرِّجال**»[٢]، كلامٌ قاله المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

والمرأة بنتٌ أو أختٌ أو زوجٌ أو أمٌّ، ولكن منهنَّ حقٌّ، ولهنَّ مثل الَّذي عليهنَّ، وللرِّجال عليهنَّ درجةٌ وقامةٌ، تلك هي درجة الواقع الملموس، رعاية محيطة، ورأيٌ، ومشورة، وتعاون، ومحبَّة، لا استبدادٌ في الرَّأي ولا عنفٌ، بل درجةٌ تفرضها سنَّة الوجود الَّتي أوجبت أن يكون لكلِّ مجتمعٍ رئيسٌ يسوسه ويرعاه، ويدبِّر أمره، ويحفظ كيانه حتَّى لا ينفلت الكيان ويتفرَّق المجموع.

أقول: إنَّ المرأة قلب المجتمع النَّابض، والرَّجل عقله المدبِّر، ولا تستقيم حياةٌ بلا قلبٍ ينبض، وبدون عقلٍ يرشد، كلاهما لا بدَّ منه للسَّير بالحياة إلى غايتها.

والرَّجل الَّذي لا زوجة له مسكينٌ، كما أخبرنا بذلك النَّبيُّ الهادي ﷺ.

والمرأة الَّتي لا زوج لها مسكينةٌ.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٢٣٤).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١١٣)، وأبو داود، رقم: (٢٣٦).

ومتى اجتمع زوجان على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله كوَّنا أسرةً، والأسرة السَّعيدة لبنةٌ قويَّةٌ في بناء المجتمع، وبستان ناضرٌ، ثمرتها الذُّرِّيَّة.

إذن فالزَّواج بداية الحياة السَّعيدة، وبه يكون الزَّوجان والدين: يكون الرَّجل أبًا، والمرأة أمًّا، والأبوَّة نعمةٌ، والأمومة نعمةٌ، وبعض العقلاء عدَّ الأبوَّة والأمومة رسالةً على كلِّ إنسانٍ أن يؤدِّيها للإنسانيَّة تربيةً للطِّفل وبرًّا به، وتعليمًا له، ورعايةً، وأداء واجبٍ على الوالدين للولد، وإحسانًا منهما إليه.

ومكافأةٌ لهذا كلِّه، جاء في الكتاب الكريم في سبع آياتٍ أمرٌ ببرِّ الوالدين، لكن الأحاديث الشَّريفة نوَّهت إلى أنَّ حقَّ الأمِّ من البرِّ والتَّكريم وحسن الرِّعاية أوجب وأعظم من حقِّ الأب؛ نظرًا لما تتحمَّله من العناء وما تتكبَّده من المشاقِّ في سبيل الحمل والوضع، وما تبذله من سهرٍ مُضْنٍ في تربية الطِّفل ورعايته وتمريضه، وعلاجه، وتغذيته، وسائر ما هو مطلوبٌ منها؛ لتنشئته حتَّى يشبَّ ليصبح عضوًا في جيل الأمَّة الصَّالح النَّافع.

تتحمَّل الأمُّ في سبيل ذلك أضعاف ما يتحمَّله الأب من المتاعب والمشاقِّ والآلام.

وعلى من يريد الوصول للسَّعادة والفوز بنعيم الجنَّة أن يعرف حقَّ أمِّه بإكرامها وإعزازها، وبذل كلِّ مُرْتَخَصٍ وغالٍ لمرضاتها، لا في يومٍ واحدٍ من أيَّام السَّنة، وإنَّما في كلِّ يوم من أيَّام السَّنة، بل في كلِّ ساعةٍ من ساعاتها.

هذا هو الفضل الَّذي عرفه الإسلام للأمِّ، وسما بحقِّها على حقِّ

الأب، ولنقرأ الآية الكريمة رقم (١٤) من سورة لقمان قول الله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، ولنقرأ الآية (١٥) من سورة الأحقاف قول الله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، والفصال معناه: الرَّضاع.

من هنا كان تكريم الأمومة ممَّا يحثُّ عليه الإسلام ويدعو إليه، والإسلام لا يدعو إلَّا لخيرٍ، ولا يحثُّ إلَّا على الخير، وتكريم الأمومة معناه تكريم المعاني النَّبيلة الَّتي تتمثَّل في كلِّ أمٍّ فاضلةٍ، تسير على هدى الفطرة الإنسانيَّة السَّليمة، وتقوم بواجباتها نحو أسرتها وأولادها، لا يشغلها عن أداء هذا الحقِّ شاغلٌ، ولا يصرفها عن العناية به أيُّ صارفٍ.

لمثل هذه الأمِّ يجب على المجتمع أن يتَّخذ كلَّ يومٍ من أيَّام السَّنة عيدًا سعيدًا لها.

ولمثل هذه الأمِّ نقول: صدق رسول الله ﷺ حين قال: «**الجنَّة تحت أقدام الأمَّهات**»[1].

ديمومة الأسرة في الإسلام

كنَّا قبل أربعة أيَّام في اليوم الحادي والعشرين من مارس، وهو ما يسمُّونه عيد الأسرة، وهو عيد تقليديٌّ عرَفناه منذ عشر سنواتٍ مضت باسم عيد الأمِّ، ثمَّ تحوَّلَ اسمه إلى عيد الأسرة، ولم نكن نعرف هذا

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٠٧٨).

العيد من قبل؛ لهذا كان عليَّ أن أتكلَّم في الموضوع؛ إيضاحًا لما أوجبه الإسلام للأسرة، وللمحافظة على ديمومتها، فالأسرة لَبِنَةٌ في بناء المجتمع تبدأ بزوجين، والزَّواج نظام ربَّانيٌّ قديم قِدَمَ الخليقةِ، أقامه الله في كلِّ مخلوق حيوانيٍّ أو نباتيٍّ، والله جلَّ شأنه من حكمته وقدرته في خلقه ذكَر ذلك، فقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذّاريَات: ٤٩]، وعندما عدَّدَ نعمه على البشر ذكَر الزَّوجات بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١]، كلُّ إنسان لا بدَّ أن يتَّخذ له زوجًا؛ الذَّكر والأنثى، كلُّ واحدٍ منهم شَطْرٌ يجب أن يلتئِم مع شطْره الآخر، فإذا التأما صارا زوجين وكوَّنا أسرةً، وكلُّ شطرٍ سَكَن لزوجه، فهي له سكَنٌ، وهو لها سكَنٌ، حاجة قائمة بين اثنين، كلُّ واحد منهما يسكن إلى الآخر ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١].

إذن المودَّة التئام، والرَّحمة ثمرةُ الالتئام، وهما السَّكن، ثمَّ إنَّ الإنسان مخلوقٌ، ولكنَّه مخلوق اجتماعيٌّ، وليس هو كالحيْوان، فلكلِّ صِنْفٍ من الحيْوان طبيعة خاصَّةٌ به لا يحيْد عنها، ولا تتبدَّل هذه الطَّبيعة، فلها مواسمها، ولها فصولها، ولها طبائعها، التي فُطِرَ عليها الحيْوان، لا يمكن أن تتغيَّر، أمَّا الإنسان فمدنيٌّ بطبيعته، يميل إلى الاستقرار بالزَّواج، والتَّعاون على بناء سكن، ويميل إلى التَّجمُّع ببناء المدن، ولا يستطيع أن يعيش وحدَهُ مهما كانت الأحوال؛ لهذا قالوا: إنَّ الأسرة لبِنَة من لبِنات المجتمع، فالمدينة أو القرية مكوَّنة من أُسَرٍ يلتفُّ بعضها حول بعض، يبنون بيوتهم حول بعضهم البعض، ومن هذه البيوت تتكوَّن المدينة، ومن سكَّانها يتكوَّن المجتمع، والزَّواج شريعة، والإسلام أوجبَ الزَّواج على

القادر عليه، إذا خاف العَنَتَ، والعَنَتُ معناه: الزِّلة والوقوع في الإثم.

والإسلام قدَّرَ أنَّ الزَّواج من سُنن الأنبياء، بدليل قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرّعد: ٣٨]، والرَّسول ﷺ قال: «**إذا تزوَّجَ العبد فقد استكمل نصف دينه، فليتَّق الله في النِّصف الآخر**»(١)، وقال: «**إذا جاءكم من ترضَون دينه وأمانته فزوِّجوه - أو فأَنكِحوه - إلَّا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد كبير**»(٢)، وقال: «**الزَّواج سنَّتي، ومن رَغِبَ عن سنَّتي فليس منِّي**»(٣).

فالزَّواج فرض لازمٌ على كلِّ مسلم قادرٍ على تكاليفه، فمن تركَه أو تثاقل عنه بدون سببٍ أو بدون عذرٍ وجيهٍ فهو آثمٌ.

إذن فالامتناع عن الزَّواج تقصيرٌ في بناء أسرة في صنع لَبِنَة في مجتمعه.

الزَّواج بمعناه الحقيقيِّ صِلَة بين اثنين على كتاب الله وسنَّة رسوله، صِلَةٌ مقدَّسةٌ قدَّسَهَا الإسلام، وأفردَ لها في القرآن آياتٍ كثيرةً؛ للمحافظة على بقائها، وديمومتها، وإسعادها.

اسمعا منِّي، أيُّها الأخُ الكريم، وأيَّتُها الأختُ الكريمة، عندما ذكَر الإسلام الصِّيام، وأباح لنا الأكلَ والشُّرب في اللَّيل في رمضانَ، ثمَّ ذكَر النِّساء، ماذا قال؟!

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٤٠٣).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) رواه البخاري، رقم: (٥٠٦٣)، ومسلم، رقم: (١٤٠١)، بلفظ: «**... لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

قال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧]، ما معنى ذلك يا ترى؟!

المعنى: أنَّ الإنسان ليس له غنىً عن اللِّباس، فلا يمكن أن يظهر عاريًا أمام النَّاس، لا هي، ولا هو، فلا بدَّ من ستْرٍ، فالمرأة سِتر الرَّجل، وهو سِترها، هذا ما ظهر لي من الآية الكريمة.

والَّذي قاله المفسِّرون: إنَّ اللِّباس هو الشَّيء المُبَاشِر للجسم، والمرأة للرَّجل كذلك، وهو لها مثل ذلك.

وليس الزَّواج لِلَّذَّةِ كما يفكِّر به عباد اللَّذَّة الَّذين سلبت اللَّذَّةُ عقولَهم، فذهبوا يجرُون وراءها، ويشترونها بأغلى الأثمان، ويُضيِّعُون أسرَهم وعيالَهم وأولادَهم في المآزق والمزالق، نبذوا حياة الأسرة وطَمأنينَتها، وركنوا إلى المتعة، كلَّما فترت رغبةُ أحدهم في أنثى طلبَ تجديد المتعة مع أخرى غيرها، غرَّهم ضخامة المَكْسَب ووفْرَة الرَّصيد، وعاشوا في هناءٍ مؤقَّت، تعقبُهُ - لا بدَّ - في المستقبل حسراتٌ وندامةٌ ما مثلها حسراتٍ وندامةٍ.

نعود إلى حديثنا عن الأسرة فنقول:

الإسلام جعل أيَّام العام كلَّها أعيادًا للأسرة؛ لأنَّ الزَّواج - كما قلت - على ما في كتاب الله وسنَّة رسولهِ إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان، فـ«**لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ**»[1]، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٩]، والزَّوج سيِّد الأسرة وعميدها، ولكنَّ الزَّوجة ملِكَة البيت، والبيت واحةُ الرَّجل

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٣٠٧٥).

وسكنه، وجنَّةُ الطِّفل ومرتَعِه، فإن شاءت الزَّوجة الملِكَة أن تجعلَ من البيت جنَّةً زاهرةً استطاعت ذلك برقَّتِها، ولطفها، وجعلت للأطفال من هذه الجنَّة مرتَعًا مريحًا هادئًا، يرتعون فيها ويمرحون، ويغدون ويروحون، في أُنْسٍ وفرحٍ، وهم كالحُوْرِ في الجنَّة، وجوههم ناضرةٌ، وأيَّامهم سعيدةٌ، ولياليهم هادئةٌ هانئةٌ، وللزَّوج في هذه الواحة سكنٌ مريحٌ، لا يسمع فيها إلَّا سلامًا ولا يشُمُّ إلَّا عبيرًا، ولا يرى إلَّا بِشْرًا، وصدق المصطفى ﷺ حين قال: «**الدَّنيا متاعٌ، وخير متاعها المرأة الصَّالحة**»[1]، وقوله ﷺ: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله ﷻ خيرًا له من زوجةٍ صالحةٍ، إن أمرها أطاعتْهُ، وإن نظر إليها سرَّتهُ، وإن أَقْسَمَ عليها أبَرَّته، وإن غابَ عنها نَصَحَتْهُ في نفسها ومالها**»[2].

وأحبُّ أن أقول للمشاهدين والمشاهدات: إنَّ جمال الوجه قد ينقلب يومًا إلى قُبْحٍ، وإنَّ القبْح قد ينقلِب إلى جمالٍ، ولا أقول ذلك جُزَافًا، وإنَّما أقوله بعد تجرِبَةٍ طويلةٍ، فكم من جمالٍ صارخٍ فرح به أحدُ الزَّوجين، ولم تَطُلِ الفرحةِ بالحصول عليه؛ لأنَّ سوءَ خُلُقِ أحدهما مع الآخر قَلَبَه إلى قُبْحٍ، وكذلك حُسْن المعاملة ولِين الجانب وإحسان المعاشرة صيَّرَت من القبْحِ جمالًا صارخًا، إذاً صَدَق من قال: إنَّ الجمالَ جمالُ الرُّوح.

وبهذه المناسبة أَذكُرُ المثلَ القائل: «**قرد يوالف أخيرُ من غزالٍ يخالف**».

(١) رواه مسلم، رقم: (١٤٦٧).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٥٧).

الرَّجل القوَّام

الحمد لله الَّذي هدانا للإسلام، وما كنَّا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله، وصلاة الله وسلامه على نبيِّ الإسلام ورسول السَّلام محمَّدٍ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصَّلاة والسَّلام.

وبعد:

واجب المسلم كلِّ مسلمٍ - ذكرًا أو أنثى - أوَّل ما يكلَّف أن يعرِفَ ربَّه الَّذي خلقه؛ لأنَّ الإسلام قال: «**إنَّ معرفة اللهِ رأسُ العلمِ**».

وقال نبيُّ الإسلام ﷺ: «**رأس الحكمة مَخَافة الله**»[1]، ولا مخافةَ إلَّا بعد معرفةٍ.

وقال أيضًا ﷺ: «**رأس هذا الأمر الإسلام، ومن أسلم سَلِمَ**»[2]، والإسلام توحيدُ اللهِ.

وبعد أن يعرف ربَّه يجب عليه أن يعرِفَ نفسه، ومن عرَف نفسه عرَف غيره، وعرَف مكانه في مجتمعه، وعرَف الواجبَ الَّذي خُلِقَ من أجله، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: ٥٦].

وكلُّنا نعرِف أنَّنا بنو البشر، وأنَّ أبا البشر آدم الَّذي جعله الله خالقُهُ خليفةً في الأرض.

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٥٨٧٣).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٢).

ولنبدأ حديثَنا هذا اليوم بقراءة الآياتِ الثَّلاثِ: (١١٥) إلى (١١٧) من سورة طه:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طـٰه: ١١٥-١١٧]، ولنتدبَّرَ قوله تعالى في خطابه تحذيرًا للزَّوجين ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طـٰه: ١١٧]، ثمَّ إفرادَ آدمَ بقوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طـٰه: ١١٧] بحياتك خارج الجنَّةِ؛ لأنَّ حياتَكُما على الأرض تعبٌ وتكاليفٌ وسعيٌ وشقاءٌ مسؤولٌ عنها الرَّجل وحدَهُ دون المرأة،

فـــ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ... ﴿٣٤﴾﴾ [النِّسَاء: ٣٤].

وكما قلنا في حديثنا الماضي يوم (٢٨/ ٥/ ٧٩): إنَّ المرأة في بيتها مُتَبَتِّلَةٌ[١] تتعبَّد ربَّها بما هي مسؤولةٌ عنه لزوجها ولأولادها، كذلك الرَّجل يتعبَّدُ ربَّه بعمله؛ لكسب قوتِهِ، وإطعامِ زوجته وأولاده، والتَّوسعة عليهم في النَّفقة حتَّى لا يتطلَّعوا إلى الغير.

وهو بعمله هذا في جهادٍ سواءٌ كان عاملًا أو تاجرًا أو موظَّفًا، فهو كمن عاد من إحدى غزواته، وعندما قاربَ المدينةَ قال ما معناه: «**عدنا إلى الجهاد الأكبر**»[٢]؛ أي: للسَّعي وراء الرِّزق للإنفاق على مَنْ كُلِّفْنَا بهم.

---

(١) التبتل: الانقطاع إلى طاعة الله ﷻ. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٢٨/ ٥٢).

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٣٦٢)، بلفظ: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**».

ولا ننسى الحديث الشَّريف الَّذي يخبرنا فيه الرَّسول الأمين ﷺ أنَّ: «**التَّاجر الصَّدوق الأمين مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء**»[١]، رواه التِّرمذيُّ عن أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ.

والحديث الَّذي يحكي لنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ جلس مع أصحابه ذاتَ يومٍ، إذ نظروا إلى شابٍّ ذي جَلَدٍ[٢] وقوَّةٍ، وقد بَكَّرَ يسعى، فقال الصَّحابة رضوان الله عليهم: ويحَ هذا، لو كان شبابه وجَلَدُه في سبيل الله، فقال ﷺ ما معناه: «**لا تقولوا هذا، إنَّه إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّهَا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشَّيطان**»[٣]، رواه الطَّبرانيُّ عن كعب بن عجرة.

إذن فالسَّعي في طلب الرِّزق عبادةٌ اختياريَّةٌ لا تسخيرٌ فيها ولا قهرٌ، لكنَّ المسألة مَذَلَّةٌ، ومن سأل، وهو قادرٌ على العمل، جاء يوم القيامةِ بوجهٍ كالحٍ؛ لأنَّ مسألَتَه تأتي في وجهه نُكْتَةً يوم القيامة، ومعنى النُّكْتَة: سوادٌ أو تشويهٌ.

ولنذكر كذلك الحديث الَّذي رواه مسلمٌ في «صحيحه» أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**دينارٌ أَنفقْتَهُ في سبيل الله، ودينارٌ أنفقْتَه في رقَبةٍ، ودينارٌ تصدَّقتَ به على مسكينٍ، ودينارٌ أنفقْتَه على أهلك، أعظمها أجرًا**

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٢٠٩)، وقال: هذا حديث حسن.
(٢) الجلد: القوة والصبر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (١/ ٢٨٤).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٦٨٣٥).

الَّذي أنفقْتَه على أهلِك»[١].

والحديث الثَّاني الَّذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «**إنَّك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلَّا أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تضعه فِي فِي امرأتك**»[٢]؛ أي: في فمها.

هذا هو دينُنا، جعل كلَّ شأنِ المسلم عبادةً ما دام المسلمُ يبتغي بعمله وجهَ اللهِ.

النَّفقة على النَّفس عبادةٌ، وهي على الأهل والأقارب عبادةٌ، وهي على الأولاد عبادةٌ، وعلى الزَّوجة عبادةٌ، ولكنَّها على الزَّوجة أعظمُ أجرًا، لماذا؟

لأنَّك أخذتَها من أبويها بأمانةِ اللهِ، وعلى ما في كتاب الله وسنَّةِ رسوله، وبذلك أصبحت أَلْصَقُ بالرَّجل من ذويه، وهو بها كذلك، وصدق الله العظيم: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧].

نعود الآن إلى ما بدأنا، إلى قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٤].

وما هي هذه القوامة؟ وما هو التَّفضيل؟ وما حكم الإنفاق؟

أمَّا التَّفضيل فقد ذكرناه في مجلِسنا الأوَّل يوم (٢٨/ ٥/ ٧٩)، وقلنا: إنَّه تفضيل خشونةٍ على نعومةٍ، وصبرٍ على عاطفةٍ، وجَلَدٍ على رِقَّةٍ، ومَعْدِن فِطرةٍ في الرَّجل، ليست هي من كسبه ولا صنعته، على مَعْدِن فِطرةٍ في الأنثى، ليس لها فيه كَسْبٌ ولا صَنْعَةٌ.

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٩٩٥).

(٢) رواه البخاري، رقم: (١٢٩٥).

أمَّا في الجوهر النَّفسيِّ فليسَ هناك امتيازٌ ولا تفضيلٌ.

والإسلام بحكمته جعل الزَّواج علاقةً بين فردين من أسرتين؛ ليجعل من هذه العلاقة آسرةً تؤلِّفُ بين الأسرتين، وربَّما ألَّفت بين أكثرَ من تَلكُمُ الأسرتين.

وفي أثناء مرحلة الإعداد للزَّواج نرى الشَّريعة الإسلاميَّة تُلقِي على كاهل[1] الزَّوج فريضةَ الصَّدَاق؛ فريضة ماديَّة كنِحْلةٍ منه لزوجته المُستقْبَلَة.

ثمَّ نراه مكلَّفًا بإعداد المنزل ونفقاتِ الِخبطة والزَّواج، وربَّما كانت نفقاتٌ أخرى غيرها تجعل من الزَّوج القوَّام المُنفِق، قوامته تَتَمثَّل في رعايةٍ حكيمةٍ تتحقَّق بها مصلحةُ الأسرة ومصلحة المرأة نفسِهَا. علمًا أنَّه لا تحديدَ لهذه النَّفقات، على أن لا تصلَ إلى التَّبذير الَّذي يكرهه الله.

بينما نرى في بعض البلاد الإسلاميَّة عربيةً وغيرَ عربيَّةٍ تجعل من المرأة شريكًا ملزَمًا في هذه النَّفقات، وربَّما كانت نفقاتها أكثرَ من نفقاتِ الزَّوج.

ونحنُ - معشر الكويتيِّين - ما زلنا متمسِّكين بهذه المَكْرُمة الَّتي ندب الله لها عبادَهُ الصَّالحين، فالحمد لله على ذلك، وأسأله أن يزيدنا تمسُّكًا بالمَكْرُمات الَّتي يرضاها لعباده الصَّالحين.

ومع ذلك فالإسلام لا يمنعُ المرأةَ أن تتبرَّع بشيءٍ من هذه النَّفقات بالرَّخيص منها أو الغالي، أقول: تبرُّعًا لا إلزامًا، ولا ننسى المثلَ

(١) الكاهل: الحارك، وهو فروع الكتفين، أو هو مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق، وهو الثلث الأعلى، وفيه ست فقر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ٣٦٢).

الكويتيَّ القائلَ: «**المأخوذ حيًّا كالمأخوذ قهرًا**»، فلا تُسْتَفَزُّ المرأة للإنفاق، فليس من المروءةِ الإسلاميَّة ولا الفضيلة العربيَّة أن نرى ذلك فينا.

فإذا تزوَّج الزَّوجان كوَّنا بزواجهما أسرةً، والإسلام يريد البقاء لهذه الأسرة.

أمر الرِّجال أن يعاشروا زوجاتهم بالمعروف، وأن لا يبغوا عليهنَّ سبيلًا، وأمر المرأة أن تكون ودودًا.

وأرجو أن تسمعنَ هذا الحديث الَّذي رواه الطَّبرانيُّ عن أنسِ بنِ مالكٍ عن النَّبيِّ ﷺ:

«**ألا أُخبركُم بنسائكم في الجنَّةِ؟**»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**ودودٌ ولودٌ، إذا غضبت أو أُسِيء إليها أو غضب زوجُها قالت: هذه يَدِي في يدكَ، لا أكتحِلُ بغَمْضٍ حتَّى ترضى**»[1].

والمرأة عاطفيَّةٌ سريعةُ التَّأثُّر، والرَّجل صبورٌ خَشِنٌ، ولا بدَّ لبقاء الزَّوجيَّة من أن تندمجَ عاطفةُ المرأةِ مع صبرِ الرَّجل، وأن تمتزِجَ سرعة تأثُّرها مع خشونته، ولا بدَّ أن يصبِرَ أحدُ الشَّريكين مع الآخر ليُنَفِّذَا إرادةَ اللهِ في بقاءِ هذه العلاقة الَّتي أراد لها طولَ العمر.

إنَّ أبغضَ الحلال إلى الله الطَّلاقُ؛ لأنَّ في الطَّلاق هدمَ أسرةٍ، وربَّما كان فيه تشتيت شملِ أطفالٍ؛ لهذا أمرَ جلَّ شأنه الأمَّةَ بإصلاح ذات البينِ بين الزَّوجين بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ۚ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النِّساء: ٣٥]، وجعل

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (١٧٤٣).

هذا الصُّلح توفيقًا، وجعله خيرًا وإحسانًا وتقوىً.

وأمر الزَّوج أن لا يظهر كُرهًا لزوجته إذا كرهها، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٩].

الإسلام جعل الزَّواج نصف الإيمان أو نصف الدِّين، كما ذكرنا ذلك في حديثنا يوم (٢٨/ ٥/ ١٩٧٩)، وجعله من أعظم متاع الدُّنيا وأكبر نِعَم الله على عباده؛ لِما فيه من مودَّةٍ ورحمةٍ وسكنٍ وذرِّيَّةٍ، وأراد لهذه الصِّفات أن تبقى، وأراد لهذه النِّعمة أن تعيش ليكون بيت الزَّوجيَّة جنَّةً، رضوانها الزَّوج ونعيمها الزَّوجة، وحورها ووردانها الذُّرِّيَّة.

لهذا كان البيتُ المسلمُ أمنيةً يتمنَّاها كلُّ إنسانٍ، ولمَّا كنَّا مسلمين حقًّا كانت البيوت المسلمة جنانًا يرفرِفُ عليها الرِّضا في ظلٍّ وارفٍ من نعيمِ الهدوء والاستقرار.

ختامًا: أقول لكلِّ زوجين أرادا أن يعيشا حياتَهما في شهرِ عسلٍ دائم: ليجعل كلُّ واحدٍ من نفسه عبدًا مطيعًا لرفيقه، يكن له رفيقُه عبدًا مطيعًا، وحينئذٍ تتحقَّقُ فينا إرادة الله تعالى المودَعة في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا۟... ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعرَاف: ١٨٩].

وحينئذٍ يتذوَّقُ النِّعمة؛ نعمة السَّكن الَّتي تفضَّلَ بها الله على بني الإنسان، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا... ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: ٢١].

الإسلام دين الحياة

الحمد لله الَّذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

والحمد لله الَّذي أمرنا بالتَّقوى، وأن نحيا بها مسلمين، وأن نموتَ عليها مسلمين.

ذلك أنَّ الإسلام يريد للإنسان أن يكون فردًا له صفةٌ ووجودٌ في مجتمعه، بل يجدِّدُ لكلِّ فردٍ من أفرادِ المجتمع مكانه ووظيفتَهُ في هذا الوجود، وينظِّم له حياته الخاصَّة في نفسه وأسرته، وحياته العامَّة في مجتمعه، ويحدِّدُ له مسؤوليته عن الواجب المكلَّفِ بأدائه في هذا المجتمع.

هكذا أراد الله لنا أن نحيا بالإسلام؛ لأنَّ الإسلام دين حياةٍ، ولنذكر قول الله تعالى في الآية (٢٤) من سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومن الرَّجل والمرأة كان المجتمع الإنسانيُّ كما قال جلَّ جلاله في الآية (١٣) من سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

وللذَّكر طبيعته، وللأنثى طبيعتها، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠]، هكذا أراد جلَّ شأنه.

الرَّجل قويٌّ خَشِنٌ في جسمه، خَشِنٌ بطبيعته، يتحمَّلُ المَشَاقَّ ويُسهِّلها، ويتقبَّلُ الشَّدائدَ ويذلِّلها، ويلاقي المشاكل ويحلُّها، ويدافع عن

حرِّيَّته وحقوقه وعرضه، يلاقي بنفسه الأعداء من النَّاس ومن غير النَّاس؛ ليدفع شرهم عن حوزته، ويبعد بجهده وجهاده بطشهم عن كيانه، فهو بطبيعته خَشِنٌ، وبمظهره خشن، وسمَّاه علم النَّفس في النَّاس الصِّنف الخشِن.

أمَّا المرأة فهي الصِّنف النَّاعم، خلقها الله على عاطفةٍ فيَّاضةٍ؛ لتربِّي صغيرَ الإنسان، وعلى وجدانٍ رقيقٍ؛ لترعى كباره.

المرأة أمٌّ ولودٌ، مسؤولةٌ عن ولدها حملًا، ثمَّ وليدًا، ثمَّ طفلًا، ثمَّ صبيًّا حتَّى يَشِبَّ.

والمرأة زوجةٌ، والزَّوجة نعمةٌ، وإنَّ من أعظم نِعَم الله ﷻ على عباده الرِّجال أَنْ خلق لهم من أنفسهم أزواجًا ليسكنوا إليها، إلى هذه النِّعمة الَّتي هي من أعظم نعم الحياة.

قال رسول الله ﷺ: «**الدُّنيا متاعٌ، وخير متاع الدُّنيا الزَّوجة الصَّالحة...**»[(١)]، أو كما قال ﷺ، وشاع على ألسنة النَّاس، وسمعنا من أفواه العلماء وفي المجالس كلمة: «**إنَّما النِّساء شقائق الرِّجال**»[(٢)]، وهو حديث شريف رواه أبو داود والتِّرمذيُّ والإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين، ورواه غيرهم عن أنس بن مالكٍ.

ثمَّ سمعنا فيما بعد كلمة جديدة هي: «المرأة نصف المجتمع».

وكلُّنا يعرف ما هو الفرق بين النِّصف والشِّقِّ، فقد ينفصل النِّصف عن

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٤٦٧).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١١٣)، وأبو داود، رقم: (٢٣٦)، وأحمد، رقم: (٢٦١٩٥).

النِّصف، ويبقى لكلٍّ كيانه، ولكلٍّ عمله، ولكنَّ الشِّقَّ لا ينفصل، وهذا المعنى واضح في الفصحى وفي العامِّيَّة.

وذوو الأغراض اتخذوا من الجملة الثَّانية: «المرأة نصف المجتمع» وسيلةً لمآربهم، وتنفيذًا لأغراضهم، بينما كانت الجملة الأولى «**إنَّما النِّساء شقائق الرِّجال**» بعيدةَ المنال عن أن تُحَرَّفَ أو تُسْتَغَلَّ.

معنى الجملة الثَّانية «المرأة نصف المجتمع»: أنَّ المجتمع رجل وامرأة، ويقولون في تفسير هذه الجملة: إنَّ لكلٍّ واحدٍ منهما ما للآخر، وإنَّ كلَّ واحدٍ منهما يعمل ما يريد.

أمَّا معنى الجملة الثَّانية «المرأة شِقٌّ، والرَّجل شِقٌّ»، ولا يستطيع أحدُ الشِّقَّين أن يعمل دون الآخر، فإذا انفصلا شُلَّا، وإذا شُلَّ أحدهما عَجَزَ الثَّاني عن العمل.

واسمحنَ لي أن أقول: إنَّ جهل المسلمين بدينهم شوَّهَ سُمعَتَهم، واتَّخذ الأعداءُ وذوو الأغراض من هذا الجهل سلاحًا ضدَّ الإسلام والمسلمين.

واسمحنَ لي أن أستشهد بهذا البيت:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يستطبُّ به إلَّا الجهالةُ أعيت من يداويها

الإسلام قال لنا: إنَّ المرأة أكثرُ من نصف المجتمع، إنَّها شِقُّه، ومتى شُلَّ شِقٌّ من الجسم عَجَزَ الجسم كلُّه عن العمل.

إذن فما مصير مجتمع عجَز عن تحمُّل مسؤوليَّاته في هذه الحياة؟ وهل يقدِر على النُّهوض من شُلَّ نصفه؟ وهل يمشي سويًّا على صراطٍ مستقيمٍ من مالَ شِقُّه؟!

الإسلام قال لنا: إنَّ المرأة:

١- مُنْجِبة الأجيال، وصانعة المجتمع، فهي المَنْبَتُ والمرعى والمَرْوَى، وهي بعد ذلك كلِّه المَغْدَى والمَرَاح[١].

٢- المرأة المثقَّفَة بانيةُ الأسرة تُحيي في زوجها الأملَ، وتوقِد فيه جَذْوَة[٢] الشَّجاعة، وتقوِّي فيه الهمَّةَ على العمل.

٣- إنَّها سكنُ المجتمع ومأواه ومُنْقَلَبه.

٤- إنَّها القاعدة والأساس الَّذي تقوم عليه لَبِنات المجتمع، وكلُّ بناءٍ لا قاعدةَ له بناءٌ مُنْهَارٌ.

٥- إنَّها النِّعمة العظمى متى كانت صالحةً، وليس أعظم نعمة منها على الرَّجل الصَّالح.

والرَّسول ﷺ أخبرنا أنَّ «**الدُّنيا متاعٌ، ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها**»[٣]، وأنَّ «**مَنْ لا زوجةَ له مسكين مسكين**»[٤]، لا أحفظ لفظَ الحديث، هكذا أذكره، وأستغفر الله.

---

(١) المراح: الموضع الذي يروح منه القوم أو يروحون إليه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٤٣٣).

(٢) الجذوة: هي القطعة من الجمر؛ أي: هو الذي يبقى من الحطب بعد الالتهاب. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٣٧/ ٣٣٥).

(٣) رواه مسلم، رقم: (١٤٦٧)، بلفظ: «**الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**».

(٤) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٤٥٤)، بلفظ: «**مسكين مسكين مسكين رجل ليس له امرأة...**».

إنَّه ﷺ لم يقل: مسكينةٌ من لا زوجَ لها؛ لأنَّ المرأة بطبيعتها سكنٌ للرَّجل، وهي بذات الوقتِ سكنٌ لنفسها؛ لهذا كان الزَّواج نصفُ الدِّين بالنِّسبة للرَّجل، وكلُّنا يعرف الحديث الشَّريف:

«**من تزوَّجَ فقد استكمل نصفَ الإيمان، فليتَّقِ الله في النِّصف الباقي**»[١] رواه الطَّبرانيُّ عن أنس.

وشاعت هذه الجملة: «الزَّواج نصف الدِّين» في أوساط المسلمين في جميع أقطارهم.

هذا كان يومَ كان النَّاس متمسِّكين بدينهم، وأرجو الله أن يُعِيد المسلمين إلى ما كان عليه سلفهم الصَّالح.

أخبرنا المصطفى ﷺ: «**أنَّ ليس هناك من نعمةٍ أعظمُ على الرَّجل من زوجةٍ صالحةٍ، إن نظر إليها سرَّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وفي ماله**»[٢].

كانت المرأة تتعبَّد ربَّها بهذه الصِّفات كزوجةٍ، وتتعبَّده بهذه الصِّفات كأمٍّ، سمَّاها الرَّسول ﷺ صالحةً، وسمَّاها نعمةً، وهي الَّتي تنطبق عليها الصِّفة الشَّائعة على ألسنة النَّاس في هذا الزَّمان: «شريكة الحياة».

إنَّ مَنْ هذه صفاتُها في عبادةٍ دائمةٍ، ولا عبادةَ أحبُّ إلى الله من الجهاد في سبيله، ورسول الله ﷺ أخبرنا أنَّ «**جهاد المرأة حسن**

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٦٤٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٢١١٥)، بلفظ: «**ما أفاد عبد بعد الإسلام خير له من زوج مؤمنة إذا نظر...**».

التَّبعُّل»[١]، والتَّبعُّل: قيام الأنثى بالواجب الَّذي فُرِضَ عليها، والَّتي خُلِقَت له: الزَّوجيَّة والأمومة.

وهنا إتمامًا للحديث معكنَّ أحببتُ أن نستمعَ لهذا الحديث الشَّريف وشرحِهِ: روى مسلمٌ في «صحيحه» عن أنس بن مالكٍ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من عالَ**[٢] **جاريتين حتَّى تُدْرِكا، دخلتُ أنا وهو في الجنَّةِ كهاتين**»[٣] وأشار بإصبعيه.

قال شُرَّاح الحديث: ليس معنى العيالة في الحديث أن يكفيهما الغذاءَ والكِساء فحسب، بل أن يعتني بتربيتهما، وأن يبذل غايةَ ما يستطيع في سبيل تعليمهما، وأن لا يبخلَ بالجهد والمال في سبيل ذلك، حتَّى يغرس فيهما معاني الرِّقَّة والشَّفقة والرَّأفة الَّتي تتحلَّى بها المرأة الكاملة الصَّالحة الرَّاعية الأمينة في بيت زوجها، الحسنةُ القيام على تربية ورعاية أولادها، الصَّابرةُ على الشَّدائد فلا تجزع، الشَّكورةُ فلا تجحدُ[٤]، الوفيَّةُ فلا تُنْكِر، الرَّاضيةُ فلا تعيب.

ولو نفَّذَت كلُّ زوجةٍ مسلمةٍ ما أوجبه عليها دينُها لرأينا عالمنا المسلم يعيش في بحبوحة[٥] السَّعادة وقمَّة العزَّة، مضيئًا بالوجوه الصَّباح، وجوه

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤١٧٢)، بلفظ: «**إنما الصنيعة إلى ذي دين أو حسب، وجهاد الضعفاء الحج، وجهاد المرأة حسن التبعل...**».

(٢) عال الرجل عياله: إذا قام بما يحتاجون إليه من قوت وكسوة وغيرهما. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ٣٢١).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٢٦٣١).

(٤) الجحود: إنكار الحق مع علمه، ويطلق على مطلق الإنكار. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٧/ ٤٧١).

(٥) بحبوحة المكان: أي: وسطه، والبحبوحة: وسط المحلة. انظر: تاج العروس، =

الزَّوجات الصَّالحات، مُعَطَّرًا بالذِّكريات الطَّيِّبات، ذكريات الأمَّهات المؤمنات اللَّواتي كنَّ سكنًا للزَّوج ومدرسةً للولد.

وما كان هذا الإشراق النَّاضر في تاريخ سلفنا الصَّالح ولا كانت هذه الذِّكرى العَطِرَة لماضينا المجيد إلَّا لأنَّ رجالَ ذلك العهد ونساءَه قد عرِفوا الإسلام حقَّ المعرفة، فتعلَّموا أوامره ونواهيه حقَّ العلم، وعلِمُوا أنَّ الإسلام دينُ الحياة ولا حياةَ بلا دينٍ، فتعاونوا على البرِّ والتَّقوى، وتواصوا بالحقِّ وبالصَّبر، ونفَّذَ كلُّ فرد من الأسرة ما وجب عليه، وتباعدَ عما نُهِيَ عنه، فكانت الزَّوجة عونًا لزوجها على طاعة الله، صابرةً معه على حكم الله، دافعةً ولدَها إلى ما يُرضي الله، فكانت كما أرادَ الله لها أن تكون سكنًا يأوي إليه الزَّوج بعد تعبٍ، ومودَّةً يلقاها بعد قسوةٍ، ورحمةً يجدها ويَنْعَم بها بعد شقاءٍ.

وما ألذُّ قول المصطفى ﷺ: «**الدُّنيا متاعٌ وخير متاعها المرأة الصَّالحة**»[1]، رواه مسلمٌ عن عبد اللهِ بن عمرِو بنِ العاص.

أمَّا وقد عرَفنا واجب الشِّقِّ الأوَّل للزَّوج المسلم، وجب علينا أن نعرِف واجب الشِّقِّ الثَّاني لهذا الزَّوج. فإلى حديث قادم نجتمع له إن شاء الله، وإلى أن نلتقي نسألُه المزيدَ من فضله، والعون على شكره، والسَّلام.

= للزبيدي، (٦/ ٢٩٩).

(١) رواه مسلم، رقم: (١٤٦٧).

ذبذبة[١] المرأة بين المدنيَّة والإسلام

سبق أن وقفت في مكاني هذا يوم الاثنين (٢٩) جماد الآخرة (٥/ ٦/ ٧٨) لأقول كلمة بعنوان «المرأة ومكانتها الاجتماعيَّة قبل نزول القرآن وبعده».

ثمَّ وقفتُ بعد أسبوعين يوم (١٣) رجب (٩٨) يوم (١٩/ ٦/ ٧٨) لأقول كلمتي عن الأسرة في الإسلام.

واليوم يسعدني الحضور هنا لأقول كلمتي في «ذبذبة المرأة بين المدنيَّة والإسلام» في عصرنا هذا، وعدم استقرارها بين أولئكَ الَّذين يظهرونَ العطف عليها من قيود الرَّجعية - كما يقولون - محاولين تحريضها على الخروج بلا قيدٍ، ولا شرطٍ من كلِّ دينٍ وعُرْفٍ، وبين أولئك الَّذين يريدون حبسها في الظُّلمات بلا قيدٍ ولا شرطٍ مُظْهِرينَ العطفَ عليها خوفًا من النَّظرات الطَّامعة والشَّهوات الجامحة.

ولو أنَّ المرأةَ المسلمةَ فقهت[٢] دينها وعَلِمَت تعاليمه، فعمِلَت بما عَلِمت، وانتهت عمَّا نهى، وائتمرت بما أمرَ لَما احتاجت إلى دفاع مدافعٍ، ولا إلى عطف عطوفٍ، ولكنَّها بجهلها أضاعت حقوقها الَّتي أعطاها إيَّاها القرآن.

فما هي هذه الحقوق الَّتي ضاعت؟ يجب علينا أن نعرِفها حتَّى

(١) الذبذبة: تردد الشيء. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٢/ ٤٢٥).
(٢) فقهت: فطنت وفهمت. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٣٦/ ٤٥٦).

نستردَّهَا؛ لأنَّها حقوقٌ لم تُغْتَصب، ولكن صاحبتُهَا أهملتها، ولمَّا ضاعت لم تبحث عنها؛ لأنَّها تجهلُها.

المرأة المسلمة اليوم على مُفْتَرَق طُرُقٍ، وعلى كلِّ طريقٍ داعٍ يدعوها بأعلى صوته: أَلَا هلمِّي إليَّ أيَّتُها المسلمة

١- أمامها المرأة الغربية، ببهرجةٍ ومكياجٍ وحريَّةٍ خليعةٍ مُطْلَقةٍ بلا رقابةٍ.

٢- أمامها مدارسُ ومراحلُ تعلُّمٍ، ثمَّ عملٌ ومنافسةٌ للرَّجل في كِلا الميدانين: ميدان التَّعلُّم وميدان العمل.

٣- أمامها الزَّوجيَّة والأمومة والحياة البيتيَّة والفِطرة الَّتي خُلِقَت لها.

وفي المرأة المسلمةِ - وخاصَّةً المرأة العربيَّة - حياءٌ يمنعها من الأولى، وهي الخُلَاعَةُ المُطْلَقة، وفيها طموحٌ لاختيار الثَّانية: منافسة الرَّجل في تعلُّمِهِ وعمله، وقد عرَفنا ذلك في فتاتنا العربيَّة مُنذ القديم في البدو والحضر، ثمَّ فِطرةٌ إلهيَّةٌ، أو كما يسمُّونها الآن طبيعةً تربطها إلى الثَّالثة الَّتي لا محيصَ[1] لكلِّ أنثى عنها.

وفي التاريخ عرفنا المرأة العربيَّة المسلمة، ورجُلَها العربيَّ المسلم منذ نزول القرآن حتَّى عصرنا هذا صِنوين، فهل رأيناها أحسنَ منه؟ كلا، ولا هو بأحسنَ منها أيضًا.

إنَّه لم يسبقها كثيرًا، فإذا تباطَأ تباطَأت، وإذا تقدَّم تقدَّمت، هذا هو الحقُّ الَّذي أثبتَهُ التَّاريخ في الصَّدر الأوَّل من الإسلام، ثمَّ القرون الَّتي

(١) محيص: المحيد والمعدل والمميل والمهرب. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٧/ ٥٤١).

تلته، ثمَّ فيما بعد ذلك في عصور الجهالة السَّوداء، ثمَّ في عصور الحريم، وأعني بهذه الكلمة؛ كلمة «الحريم»: السُّجون المظلمة والحُجُبِ السَّوداء.

إذن، فأين الحقوق الَّتي يطالب بها أولئك الأفَّاكون، الَّذين قلبوا الحقائق ليفتروا على الإسلام ما ليس منه، ويقذفوه بما ليس فيه؟ مستغلِّين جهلَ المسلم والمسلمة بتعاليم دينهم.

وخَسِئُوا، فإنَّ الإسلام أَمْتَنُ من أن ينالَهُ أعداؤه بالإفك[1] أو البهتان[2]، وأقوى من أن يضعِّفوه بالافتراء وقول الزُّور.

كذب - والله - أولئك الَّذين يثيرون أعاصيرَ القذفِ، ويختلِقُون ضروب الكذب وشتَّى المفتريات على الإسلام.

فلنعرِف ما هي الحقوق الَّتي يُطَالب بها أولئك المحامون المدافعون زورًا عن كرامات المرأة المهدورة وحرِّيَّتها المغصوبة!

أيُّ حرِّيَّةٍ تلك الَّتي اغتُصِبَت من المرأة؟ ومن الَّذي اغتصبها؟ وأيُّ كرامةٍ ضيَّعَها الرَّجل من كرامات المرأة؟ ومن الَّذي أضاعها؟ أهي أم هو؟ ومتى ضاعت أو هُدِرَت؟ حتَّى نعرِف الظَّالم والمظلوم.

ولقد قلت في أوَّل حديثي: إنَّ المسؤول عن كلِّ ذلك هو الجهل؛ جهل الرَّجل والمرأة بالدِّين وتعاليمه الرَّشيدة الحافظةِ لحقوق كلٍّ منهما تجاه الآخر.

ولو علمت وعَلِمَ بها، لانقاد الرَّجل المسلم لهذه التَّعاليم، وأدَّى ما

---

(١) الإفك: الكذب. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٢٧/ ٤٤).

(٢) البهتان: الباطل الذي يتحير من بطلانه. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٤/ ٤٥٢).

عليه، وليس كالمسلم منقادٌ لدينه أمام من يعلم أنَّه يعلم.

ونظام الإسلام - كما نعلم - يلتزم بالوسطيَّة، فلا إفراطَ ولا تفريط، ولا إهمال ولا تشديد، والمسلمون أرادَ الله لهم أن يكونوا أمَّةً وسطًا كما قال جلَّ شأنه في كتابه العزيز: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣].

والمرأة العربيَّة المسلمة ما تزال جاهلةً أوامرَ دينها، وإن تعلَّمت في المدارس ونالت الشَّهادات العالية.

أقول: هذا بالنِّسبة للمجتمع كلِّه، ولا أخصُّ بقولي هذا أحدًا.

المرأة العربيَّة المسلمة تجهل دينها، تجهل صلاتها وصومها، تجهل حتَّى أحكام طهارتها وعادتها، ومدارس اليوم ومعاهدها وجامعاتها، لا تعلِّمُ فقهًا، ولا تفقِّهُ دينًا، والشَّهادة إذا لم تُحَصَّنُ بمطالعةٍ وقراءةٍ وبحثٍ لا تحمي صاحبها من عودة إلى الأميَّة أو من جهل مركَّب.

لهذا أقول: إنَّ المرأة - وأخصُّ بقولي هذا أختي وبنتي العربيَّة المسلمة - ضائعةٌ بين إفراط وتفريط، بين مفرِّطٍ ومُفْرِطٍ.

فالمفرِّط - بتشديد الرَّاء - يريد تحريرَ المرأة - كما يزعم - من القيود العتيقة، ويستند فيما يقوله إلى دِيْنٍ.

والمفْرِط - بسكون الفاء - أفرط فشدَّدَ، وظَلَمَ وجار مدَّعيًا الحفاظ من الزِّلة، واستدلَّ على ما يقوله أيضًا بدِيْن.

والدِّين بريءٌ من هذا وذاك؛ لأنَّ الدِّين رحمةٌ بعث الله بها للبشريَّة الرَّحمة المهداة ﷺ، فأين الرَّحمة التي أرادها الإسلام بالنِّساء عند هؤلاء وأولئك؟ وأين هو الدِّفاع عن حقوق النِّساء عند الفريقين؟

أولئك فرَّطوا، ففتحوا للمرأة الباب على مصراعيه لتغدو وتروح كما يريدون، وكما يقولون: حرَّة بلا رقيب ولا حسيب، وأولئك أغلقوا دونها أبواب الرَّحمة وأطفؤوا عليها الأنوار، فلا سميع ولا مجيب.

والمرأة بين هذا وذاك:

كريشةٍ في مهبِّ الرِّيح مرسلة لا تستقرُّ على حالٍ من القلق

أو هي كرقَّاصِ السَّاعة تتردَّد يمينًا وشمالًا بلا استقرار.

وأذكر أنِّي قلتُ هذه الكلمة في التِّلفزيون سنة (٦٣)، وتناولتني بعض الصُّحف بالتَّعنيف.

أعود فأقول: إنَّ جهل المرأة بتعاليم دينها هو الَّذي ضيَّعها.

ولو أنَّها علِمَت وعمِلَت بما علِمَت لكفاها علمُهَا عن دفاع أولئك، واستبدادِ هؤلاء، ولكانت كما أراد الله لها أن تكون نعمةً للزَّوج، وجنَّةً للولد، ورضوانًا للأسرة.

ولنسمع قول النَّبيِّ الكريم ﷺ، الَّذي لا ينطق عن الهوى شاهدًا على ما أقول، قال: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحةٍ، إن نظر إليها سرَّته، وإن أقسم عليها أبرَّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**»[(١)].

ويقول: «**الدُّنيا متاعٌ، وخير متاع الدُّنيا المرأة الصَّالحة**»[(٢)]، المتاع: النِّعمة.

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٥٧).

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٤٦٧).

ويقول: «**الجنَّة تحت أقدام الأمَّهات**»[١].

ولِنعرض بعض الأمثلة لِما يجري بين النَّاس من حقوقٍ مهدورةٍ للمرأة، جرى عليها العُرْف، واتُّهِمَ بها الدِّين.

١- قالوا: إنَّ صوت المرأة عورةٌ، وشدَّدوا في ذلك حتَّى كتموا صوتها، وبحثت في ذلك فلم أجد دليلًا على ما قيلَ بل وجدت:

أ - أنَّ ولائدَ الأنصار استقبلن النَّبيَّ ﷺ عند دخوله المدينة مهاجرًا إليها، وهنَّ يضربنَ الدُّفوف، يُغَنِينَ أغنيتهنَّ بأصواتهنَّ الحُلوة الرَّقيقة: «طلع البدر علينا من ثنيَّات الوداع، وجبَ الشُّكر علينا ما دعا لله داع، أيُّها المبعوث فينا جئتَ بالأمر المُطَاع».

ولو كان صوت المرأة عورةً لَما فعلنَ ذلك أمام النَّبيِّ ﷺ وجمهور مستقبليه من أصحابه، أو لنهاهنَّ عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام.

ب - وكان عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام يجلس في مسجده الشَّريف في المدينة المنورة، والرِّجال والنِّساء حوله، كلُّ جنس في جانبٍ يستمع الجميع إلى تعاليمه الشَّريفة، ويسأله الجميع عن تفاصيلها، وكان من تعاليمه ﷺ أَنْ «**نهى الرَّجل والمرأة أن يبوحا أو يكشِفَا سرَّهما في خلوتهما، فقامت إحدى الحاضرات في المسجد، وقالت: يا رسول الله، إنَّهم ليفعلون، وإنَّهنَّ ليفعلنَ**»[٢]، وهذا دليلٌ على أنَّ النِّساء يحضرنَ مجلسه الشَّريف مع الرِّجال، ويتكلَّمنَ ويسألنَ، ولو كان صوتُ المرأةِ عورةً لَما تكلَّم النِّساء بحضرةِ الرِّجال في مجلسِ الرَّسول ﷺ.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٠٧٨).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤١٤).

ولكنَّ الإسلام بتعاليمه الرَّفيعة الفاضلة أمرَ الرِّجال أن يغضُّوا من أبصارهم، وأمر النِّساء أن يغضضنَ من أبصارهنَّ، وأن يحفظ هؤلاء وهؤلاء أبصارهم وأبصارهنَّ على الحلال.

وأمرَ النِّساء أن يدنينَ من جلابيبهنَّ، وأن يضربنَ بخُمُرِهنَّ على جيوبهنَّ، وأن يخفينَ زينتهنَّ إلَّا عن المحارم من آباءٍ وأبناءٍ وأخوةٍ وأعمامٍ وأخوالٍ وأزواجٍ.

الإسلام قال: إنَّ كلَّ جسم المرأة عورةٌ إلَّا وجهها وكفَّيها، ولا يحلُّ لها أن تُظْهِرَ منه غيرهما إلَّا لزوجها الَّذي تزوَّجَها على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله.

أمَّا تلك الَّتي لا تبالي أن تخلع حياءها للقاصي والدَّاني، وأن تكشِفَ سِترها للقريب والغريب، وأن تجعلَ من زينتها مَلْفَتَ أنظارِ المستهترين، ليقال عنها: إنَّها جميلةٌ أو رشيقةٌ أو فاتنةٌ، فتلك قد خالفت أمر الله وأمر رسوله، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزَاب: ٣٦].

٢- ومن الأمثلة الَّتي اتُّهم بها الدِّين ما يلي:

نشب الخلاف بين الزَّوجة والأمِّ فما هو الحلُّ؟

لا بدَّ من أحدِ أمرين، كلاهما مرٌّ، أو أحلاهما مرٌّ، إمَّا أن تُحَلَّ عقدة النِّكاح فتنهدم الأسرة ويتفرَّق شملها ويضيع الأولاد، أو أن يعقَّ الرَّجل أمَّه كما يظنُّ البعض، والإسلام لم يردَّ هذا ولا ذاك.

قال أولئك الَّذين أهدروا كرامة المرأة: ليُطِع الرَّجل أمَّه، ولْتَذهب زوجته وأولاده إلى الجحيم؛ لأنَّ الله قضى بالوالدين إحسانًا، ونسوا أنَّ الله ﷻ أمر بلمِّ شمل الأسرة والمحافظة على الأولاد، وأنَّه جلَّ شأنه

قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ۚ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النِّسَاء: ٣٥].

والأمُّ عنيدةٌ، ترى أنَّ الزَّوجة قد استأثرت بولدها، واغتصبته منها، وكلُّ الأمَّهات كذلك إلَّا مَنْ عصم الله، ومن علمت ربَّها وخافته، وتذكَّرت تاريخها مع أمِّ زوجها، وقارنت بين الماضي والحاضر، أمَّا الأمُّ الجاهلة فإنَّها نسيت نفسها والماضي، ولا تذكُر إلَّا الحاضر.

الإسلام يقول للرَّجل: كن حكيمًا، ووفِّق بين أفراد عائلتك، فأنت القوَّام وأنت المسؤول، الإسلام يقول للأب: اتَّقِّ الله في أولادك، ويقول للزَّوج: اتَّقِّ الله في زوجتك، ويقول للابن: اتَّقِّ الله في أمِّك، ويقول للزَّوجة والأمِّ: اتَّقِّيا الله، والتزموا جميعًا طريق المودَّة والمحبَّة بالقول السَّديد، فإنَّه لا وسيلة أفضل من الكلمة الطَّيِّبة، بها يَبعُدُ الشَّرُّ، ويُنسى الحقدُ، وتطيب الثَّمرة.

ثمرة الكلمة الطَّيِّبة الَّتي ضرب الله مثلها، كشجرةٍ طيبِّةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها في السَّماء، تؤتي أُكُلها كلَّ حين بإذن ربِّها.

الإسلام يقول للزَّوج: فَرِّق بين الأمِّ والزَّوجة إن كنت ذا سَعَةٍ، وشقَّ عليك أن تؤلِّفَ بينهما.

٣- ومِنَ التَّزَمُّتِ الَّذي اتُّهم به الإسلام حجب الخطيب عن خطيبته أيَّام الخطبة، والإسلام بريء من ذلك، فقد قرأنا في كتب الحديث الشَّريف أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر خُطَّابًا كثيرين أن ينظروا إلى خطيباتهم.

فقد قال ﷺ لرجل أراد أن يتزوَّج: «**هل نظرت إليها**»، قال: لا، قال: «**اذهب فانظر إليها**»[١].

وفي حديث آخر قال للرَّجل: «**انظر إليها، فإنِّي أرجو يُؤدَم**[٢] **بينكما**»[٣]، وبالإِدَام يطيب الطَّعام، ويستساغ طعمه، ويمرأ أكلُهُ.

وفي حديث ثالث قال لرجلٍ خطب امرأةً من الأنصار: «**انظر إليها، فإنَّ في أعين الأنصار شيئًا**»[٤].

والرُّؤية قبل الزَّواج تجعل كلًّا من الخطيبين يُقْدِم على بصيرةٍ وبيِّنَةٍ من صاحبه.

أمَّا ذلك الَّذي لم يرَ صاحبه أثناء فترة الخِطبة، فإنَّ خياله ينصرف إلى شتَّى الاتِّجاهات، حَسنِها أو سيِّئها، فإذا عرف شريكه استقرَّ خياله، وارتبط بشخصه المعيَّن، ممَّا يجعل عواطفه نحوه في نموٍّ متزايدٍ ومضطردٍ.

ومن العيب الشَّديد، ومن ضياع الغَيْرَة، والمُنْكَر الَّذي نهى عنه الدِّين - وهذا ما يريده المفرِّطون - الإهمال الَّذي يتعمَّدُه اليوم بعض النَّاس، الَّذين تغافلوا عن أوامر دينهم، فاستباحوا الخَلْوة بين الخَاطبَين الَّذين تعجَّلا بعض المُتَعِ قبل أوانها.

والواجب يحتِّم على الخاطبين أن يمتنعا عن هذه الخَلْوة، حتَّى ينعما

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٤٢٤).

(٢) يؤدم: أي: تكون بينهما المحبة والاتفاق. يقال: أدم الله بينهما يأدم أدمًا: أي: ألَّف ووفَّق. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (١/ ٣٢).

(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٥٢٥).

(٤) رواه مسلم، رقم: (١٤٢٤).

بها ليلة الزَّواج كمتعةٍ مدَّخَرةٍ أو كثمرةٍ تُقْطَف ليلة الزِّفاف.

إلى هنا انتهى بنا الوقت، والحديث لذيذٌ، وأرجو أن أوفَّق بمواصلته في وقتٍ آخرَ، سائلًا المولى ﷻ أن يرزقنا العفو والعافية، وأن ينعم علينا بما يرضاه لنا في ديننا ودنيانا وصحَّتنا، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

الحجاب والتَّبرُّج وصيانة المرأة

قال الله ﷻ لنبيِّهِ المصطفى محمَّد عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزاب: ٥٩].

قرأت هذه الآية مرَّاتٍ عديدةً، وكلُّ مرَّةٍ أقف عندها أتأمَّل معناها، ويبدو لي من قراءتها تفسيرٌ لمعانيها أعظمُ ممَّا فكَّرت فيه من قبل، حتَّى استلمت صباح ذات يومٍ رسالةً من البريد بعثَتها لي فتاةٌ جامعيَّةٌ كويتيَّةٌ، تخبرني عن محاورةٍ جرت بينها وبين زميلةٍ لها حول تفسير هذه الآية، وأنَّها فسَّرتها بمعنى لم يخطر لي على بالٍ.

الحقُّ أنَّ هذا المعنى لم يخطر على بالي من قبل ولا على بال أحدٍ من المفسِّرين الَّذين قرأتُ لهم.

إنَّها تفسِّر قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

إنَّ الحجاب سلاح للمرأة، والمرأة المتحجِّبة مهابة لا يستطيع مَنْ في قلبه مرضٌ أن يدنو منها أو يؤذيها بكلامٍ جارحٍ؛ لأنَّ الحجاب سلاحٌ فتَّاكٌ.

والحقُّ أنَّه تفسيرٌ صحيحٌ للآية: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]، لكن ترْك قراءة القرآن والجهلُ بتفسير القرآن، والابتعاد عن تنفيذ أحكام القرآن أفسدَ العقول، وأعمى البصائر، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: ٤٦].

الإسلام جاء بدينٍ، هو الحياة، كلُّ الحياة.

الإسلام قال للإنسان: إنَّ لنفسك عليك حقًّا، وإنَّ لربِّك عليك حقًّا، وإنَّ للمجتمع الَّذي تعيش فيه عليك حقًّا.

إنَّه حقٌّ عليك لأهلك، وحقٌّ لولدك، وخادمك، وجارك وزبونك، وكلِّ من لك اتِّصالٌ بهم من مواطنيك أو البشريَّة عامَّةً.

جاء الإسلام ليرتفع بالإنسانيَّة ارتفاعًا عقليًّا وفكريًّا؛ لتسعد وتستقيم، قال الإسلام للنَّاس: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأهمُّ ما يعيشه الإنسان في هذه الحياة صِلَة الرَّجل مع زوجته، والزَّوجة عند البشر شريكةُ حياةٍ، هذه فِطرة، فطر اللهُ النَّاس عليها منذ خَلَقَ أصل البشر، فأوَّل مدنيَّةٍ يتمدَّنها الإنسان أن تكون له زوجةٌ يبني بعشرته معها سَكَنَه واستقراره، وينتج عن هذه الزِّيجة كَثْرةٌ تتكوَّن منها الجماعة حتَّى تكبر، وهذه طبيعة بشريَّة خالفت بها الطَّبيعة الحيوانيَّة، فالحيْوان لا يهتمُّ بجماعةٍ، ولكنَّ الإنسان الَّذي كرَّمه الله على سائر مخلوقاته تقيَّدَ بها، وعدَّهَا من أساس مدنيَّته، وتفضَّل الله بها عليه، فقال جلَّ جلاله في كتابه العزيز:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النِّسَاء: ١].

والحيْوان لا يتقيَّد بأنثاه، فلا يبالي أيَّ أنثى اتَّصل بها، ولا أيَّ ذكرٍ اتَّصلت به، ومِنَ الحيوان مَنْ يتمسَّك بأنثاه حتَّى تلد، ويشتركان في تربية الصَّغير حتَّى يستطيع السَّعي ثمَّ يتركانه، ثمَّ يتركان بعضهما، لكنَّ الإنسان يعيش مع زوجه، وقد يعيشان الحياة كلَّها.

والإنسان لا يرضى أن يستبدل زوجه بزوجٍ آخرَ، يغار كلٌّ منهما على الآخر، فلا يرضى لزوجته ولا هي لزوجها أن يعيش مع أُخرى أو تعيش مع آخرَ؛ لهذا أراد الله جلَّ شأنه - لكي تستقرَّ هذه الحياة - أن تكون المرأة مصونةً قبل الزَّواج للرَّغبة فيها، وبعد الزَّواج لتبقى الحياة الزَّوجيَّة، الَّتي هي الأسرة، والَّتي من مجموعها يتكوَّن المجتمع، حتَّى تبقى المرأة المسلمة عزيزةً، مكرَّمةً، مصونةً، فاضلةً، شريفةً، شملها الله بالسَّتر، فلا يُرَى منها إلَّا وجهها وكفَّيها، تحفظ كامل زينتها للزَّوج، وتعيش خارج مَخْدَع الزَّوجيَّة مع الفاضلات المسلمات المؤمنات القانتات الصَّالحات، لا مع المقلِّدات البعيدات كلَّ البعد عن دينهنَّ وعروبتهنَّ، فلا بإسلامهنَّ تمسَّكنَ، ولا بقوميَّتهنَّ احتفظنَ، والَّلائي يرَينَ في تقليد الغرب المدنيَّة والانطلاقَ كما يقلن.

إنَّ الإسلام أخبرنا أنَّ كلَّ بدن المرأة عورةٌ إلَّا الوجه والكفَّين.

وأود أن أسأل تلك الَّتي تخرج خارج البيت بكامل زينتها لمن تتزيَّن؟ أليس ذلك دليلًا على أنَّها تريد أن تكون مَلْفتَ أنظارِ مَنْ في الطَّريق، والَّذين في قلوبهم مرضٍ؛ ليقولوا لها ما يقولون.

إنَّها بعرْضِ زينتها أمام الآخرين شجَّعتهم أن يقولوا لها ما يشاؤون، وأن يُسمِعوها من القول ما يريدون، وأشعرتهم أنَّها تتلذَّذ بمثل هذا

الكلام، ولو كانت غير ذلك لأَدْنَت عليها من جلبابها، فاحترمت وعرَفت أنَّها صالحةٌ، ولم تُؤْذَ بقولٍ ولا إشارةٍ؛ لأنَّ سلاحها الَّذي هو السَّتر منع من في قلبه مرض أن يطمع بها فيقول لها ما يقول أو يطيل النَّظر إليها.

ريح الولد من ريحِ الجنَّةِ

الإسلام منهج حياة للبشر بكلِّ مقوِّماتها، يحدِّد مكان الإنسان في هذا الوجود، كما يحدِّد الغاية من وجوده، والإسلام - كما عرفناه من كتاب الله وسنَّة نبيِّه - نظام حياةٍ.

فللأسرة نظامها في الإسلام، وللمجتمع نظامه، وللدَّولة نظامها، وهو نظام سياسةٍ في مختلف وجهاتها، ونظام اقتصاد، ونظام تربيةٍ وتعليم، ولم يعجز الإسلام في يومٍ من الأيَّام عن أن يرتِّب هذه الأنظمة كلَّها، وموضوع درسنا اليوم تربية الولد، هبة الواهب الأعظم لوالديه، والولد في اللُّغة يعني: الابن والبنت، فكلاهما ولدٌ؛ لأنَّه مولودٌ بين والدين.

والولد أمل الحياة، وثمرة الأسرة، والغاية المقصودة من الزَّواج، والولد بركةُ البيت، والرَّسول المصطفى ﷺ قال: «**بيتٌ لا صبيانَ فيه لا بركةَ فيه**»[1]، وكلمة صبيان تشمل الذُّكور والإناث.

والولد ريحانة والديه، والرَّسول الكريم ﷺ قال: «**ريح الولد من ريح الجنَّة**»[2]، وأطفال اليوم هم اللَّبِنات الَّتي يشاد منها بناء مجتمع

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٩٣٨).
(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٤٠٢).

المستقبل، بل هم البناة الَّذين سيقيمون صرح مجد أمَّتهم في الغد، فالصِّبيان رجاله وآباؤه وأمله، والصَّبايا أمَّهاته ومآله.

وبقدر ما نبذل في تربيتهم وتقويمهم يكون للأمَّةِ مكانةٌ وعزَّةٌ، وبقدر ما يُهمَلون فتتمكَّن من قلوبهم أساليب الانحراف يكون للأمة هوانٌ في القوَّةِ، وضَعفٌ في التَّوجيه، وانحلالٌ في الخُلق؛ لذا كان على المسؤولين عن الأطفال إعدادهم ليكونوا أعضاءً صالحين في جسم المجتمع، بدايةً من الحضانة ثمَّ التَّربية ثمَّ التَّعليم.

وفي عطف الأبوين على ولدهما أيَّام الحضانة ما يكفي، وليس كالوالد حاضنًا لطفله، والأمُّ بطبيعتها أحنُّ وأرحم وأكثر رعايةً، والأب حضنُ هذا الحنان وهذه الرِّعاية، والحضانة تحتاج إلى معرفةٍ وخبرةٍ، وهي بذاتها علمٌ يتلقَّاها الولد من والديه خلفًا عن سلفٍ، وعندنا مثل كويتيٌّ يقول: «لولا المربِّي ما عرفت أربي»؛ يعني: لولا تربية والدي لي ولأخوتي ما عرفت كيف أربِّي أولادي، حرَّفَ رواة هذا المثال ألفاظَهُ فقالوا: «لولا المربِّي ما عرَفت ربِّي».

ولنذكر شيئًا من تربيتنا لأولادنا في ماضينا الَّذي أدركناه نحن - الكويتيِّين - في النِّصف الأوَّل من هذا القرن، لم تكن عندنا يومئذٍ هذه الوسائل الَّتي نراها الآن، والَّتي صارت وسيلة للتَّرفيه والتَّبذير، مثلًا كان البحر وسيلة التَّطهير لكلِّ شيءٍ، وأَنعِمْ به وسيلةً للتَّطهير، فهو كما قال رسول الله ﷺ: «**هو الطَّهور ماؤه الحِلُّ ميتته**»[1].

كان الولد يُولَد بين أبويه المسلمين، وكانت القابلة تتلقَّاه باسم الله

(١) رواه الترمذي، رقم: (٦٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وبذكر الله، وجميع الحاضرات يتلقَّونه بالحمدِ لله على السَّلامة.

لم نكن نعرف يومها العقدَ النَّفسيَّة ولا الانهيارَ العصبيَّ، ولا الحبوب المنوِّمة، اللَّهم إلَّا عند نفرٍ قليلٍ جدًّا، كضَرَّةٍ مغلوبةٍ على أمرها، أو أولاد مظلومين من قِبَل زوجة أبٍ حقودٍ ظالمةٍ، أو كَنَّةٍ في عصمة زوجٍ ضعيف الإرادة أمام أمِّه المستبدَّةِ.

أمَّا الآخرون فكانوا ينامون اللَّيل سباتًا ملء الجفون؛ لأنَّهم يؤمنون بالله ربًّا، لا مفرَّ لهم من قضائه وقدره، مؤمنون بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [يُونس: ١٠٧].

فأين حاضرنا من ماضينا؟!

عشنا ماضينا في عُسْرٍ ماديٍّ، وخشونة عيشٍ، وجفوةٍ في الحياة، وعسرٍ في الكسب، ولكن يسود هذه الصِّفات نعمةُ الإيمان بالله، واستقرار النَّفس، وهناء البال.

أمَّا حاضرنا فيعيشه في يُسْرٍ ماديٍّ، ونعومة نعمةٍ، ورفاهة عيشٍ، وسهولةٍ في الكسب، يخالطها فقرٌ في العقيدة، وبؤس في النَّفس، وتوتُّرٌ عصبيٌّ، وعدم استقرارٍ. فأين هذا من ذاك؟!

ولنعد إلى موضوعنا:

الطِّفل يولد سميعًا، كما عرفنا حديثًا أنَّ أوَّل حاسَّةٍ يحسُّ بها الإنسان بعد الولادة السَّمعُ، ولهذا نرى ذكر هذه الحاسَّة مقدَّمًا في أكثر آيات القرآن الكريم.

ولمَّا كان الطِّفل يولد سميعًا كان على والديه أن يُسْمِعاه ذكرَ الله وذكر

رسوله حتَّى يتربَّى على الدِّين.

قيل لي يومًا: وما شأنُ الأطفال بالدِّين وهم بعدُ لم يكلَّفوا؟

فكان جوابي لهم: عجبًا يا قوم! ومتى قام بناءٌ على غير أساسٍ؟ وأيُّ بناءٍ أقوى؟ أذاك الَّذي قام على قواعدَ ثابتةٍ أم الَّذي قام على شفا جُرْفٍ هار[1]؟

وأحسن بقول الشَّاعر العربيِّ:

وينشأُ ناشئ الفتيان منَّا ... على ما كان عوَّدَهُ أبوه

الولد - كما قلنا - أمل والديه، ففي الذَّكَر بقاء ذِكْر أبيه وعائلته، وفي الأنثى عظيم أجرٍ، والوالدان يريان في الولد - ذكراً أو أنثى - صورة جوهرهما، وخاصَّةً الأب عندما يتمثَّلُ في ولده استمرار هذا الجوهر وحسنَ الذِّكر والإسلام، اهتمَّ بالطِّفل أكثر من اهتمامه بالكبير، فجعله أوَّل ما جعله هبةً من مالك الملك: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

فواجب على المسلم أن يتقبَّل هذه الهبة بالشُّكر والفرح والعناية بها والمحافظة عليها، أمَّا التَّفريط فيها إهمالها فإنَّه كفرانٌ لحقٍّ من أهداها.

قال ﷺ: «**أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم، فإنَّ أولادكم هديَّة الله إليكم**»[2].

فإذا خرج إلى الدُّنيا كان ريحه من ريح الجنَّة، وكان سبب البركة في

(١) هار القوم يهورهم هورًا: إذا قتلهم وكبَّ بعضهم على بعض كما ينهار الجرف، وهار البناء هورًا: هدمه. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٤/٤٤٦).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٦٧١).

البيت، وبيتٌ لا أطفال فيه لا بركة فيه، وكم من طفلٍ كان وجوده فاتحة خيرٍ وبركةٍ على أبويه.

والطِّفل المسلم هو المنشأ الَّذي يُبْنى من مواده حِصن الإسلام، لا فرقَ بين ذكور الأطفال وإناثهم؛ لهذا وجب على الوالدين تنشئةَ الطِّفل على الخير، وأوَّل هذا الخير الحبُّ.

وما هو الحبُّ؟ قوَّةٌ داخليَّةٌ تنمو معها جاذبيَّته إلى جهةٍ معيَّنةٍ تتدرَّج في النُّمو، لا تلبثُ أن تكون قوَّةً عقليَّة تتغلَّب على كلِّ القوى والحواس، إذًا فلنُرَبِّ أولادنا على الحبِّ ولنعلِّمهم إيَّاه.

وأوَّل حبٍّ يتعلَّمه الولد من أبويه حبُّ الله ورسوله، يعلِّمانه هذا الحبَّ حتَّى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من كلِّ شيءٍ، حتَّى من والديه ونفسه الَّتي بين جنبه، ويعلِّمانه أنَّ الله يحبُّه، ولهذا أعطاه الحياة، وأعطاه الأبوين ليرعيانه ويطعمانه ويحبَّانه، فيجب عليه أن يكافئ حبًّا بحبٍّ.

يعلِّمانه هذا بقدرِ ما يتَّسع لإدراكه، أو ما يستوعبه عقله، ثمَّ يعلِّمانه حبَّهما بما يظهرانه له من حنوٍّ ممزوجٍ بالحبِّ.

ومن مظاهر هذا الحنوِّ عكوف الأمِّ على حضانة طفلها، وعدم اعتمادها في هذه الحضانة على غيرها، وإشعار هذا الطِّفل أنَّ الأبَ يشقى في هذه الحياة ليسعد ولده، ويكدح ليستريح ولده، حتَّى إذا أدرك الولدُ وعرف معنى الحياة نما معه هذا الحبُّ لوالديه، حتَّى إذا رأى منهما عطفًا على إخوته وأخواته حاكاهما في هذا العطف فتنشأ الأسرة على الحبِّ.

وهنا أودُّ أن أذكر شيئًا لا أدري إن كنتنَّ شاهدتنَّ مثله: هل تعرفنَ أنَّ

الطِّفل يشعر بحبِّ أبويه بعضهما البعض؟

نعم، إنَّه يشعر بذلك، وترتاح نفسه، ويشرب لبنَ أمِّه هنيئًا مريئًا[١] ممزوجًا بالحبِّ، ومتى تخاصم الوالدان قلق الطِّفل، فلا يهنأُ بغذاءٍ ولا نومٍ، فيبغض الاثنين، وربَّما اختلى بأحدهما فلقَّنه كُرْه الثَّاني، ولنعرف أنَّ أسعد ساعةٍ عند الطِّفل ساعةَ يرى أبويه سعيدين متحابَّين، وهو في حِجْر أحدهما، يناغيهما ويبتسمان له، فينشأ في جنَّةٍ من الحبِّ يترعرع فيها سعيدًا.

«ابن المطلَّقة»

بقي علينا أن نعرِف طفلًا له أبٌ وله أمٌّ، لكنَّه فقد رعايةَ أبيه، وحُرِمَ من حنان أمِّه، طلَّق أبوه أمَّهُ فتزوَّجت رجلًا غير أبيه، وتزوَّج أبوه امرأةً غير أمِّه، أليسَ مثلُ هذا يتيمًا؟ لا والله، بل إنِّه أضيع من اليتيم.

نرى للأيتام ملاجئَ ومدارسَ وجمعياتٍ تعاونيَّةً تتلقَّفهم، لكن هذا ضائعٌ، إنَّ له أبًا وأمًّا، وقديمًا قال الشَّاعر:

ليس اليتيم هو الَّذي أبواه قد ... تركا الحياة وخلَّفاه ذليلا

إنَّ اليتيم هو الَّذي تَلْقَى له ... أمًّا تخلَّت أو أبًا مشغولا

ومثل هذا الطِّفل عاش كئيبًا مشرَّدًا منبوذًا، أسلمته المقادير إلى

(١) المريء: صفتان من: هَنَأَ الطَّعام ومرأَ: إذا كان سائغًا لا تنغيص فيه، والمريء: ما يحمد عاقبته. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١/ ٤٢٨).

الحرمان، فلا زوجةُ الأبِ ترحم، ولا زوج الأمِّ يحنُّ أو يعطف، وكلاهما عدوٌّ له دون أن يدري سببًا لهذا العداء، إنه لم يَجْنِ.

زوجة الأب أساءت إليه فجعلت منه عدوًّا لها، ولو أحسنت لكان لها الصَّديق الوفيَّ والابن البارَّ، وكم من زوجة أبٍ أحسنت فربحت ولدًا لم تحبل به ولم تلِده.

ونختم حديثنا معكنَّ بذكر هذه الحكاية.

«سفعاء[١] الخدَّين»

أمٌّ مات عنها زوجها، وهي ذات مَنْصِبٍ ومالٍ وجمالٍ، وترك لها أيتامًا فتأيَّمت عليهم، وحبست نفسها على خدمتهم حتَّى تغيَّر لونها، وانطفأ جمالها، ونسيت وسائل الزِّينة، ومظاهر الجمال في سبيل تربية أيتامها والمحافظة عليهم.

حسب هذه السيِّدة مكانةً عند الله قول النَّبيِّ ﷺ: «**أنا وامرأة سفعاء الخدَّين في الجنَّة كهاتين**»[٢] وأشار بإصبعيه الكريمين السَّبَّابة والإبهام.

والسَّفع معناه: تغيُّر اللَّون من بقعٍ سوداءَ تكون في الوجه يتغيَّر من آثارها لون البشرة.

---

(١) السفعة: نوع من السواد ليس بالكثير، وقيل: هو سواد مع لون آخر، وأراد أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها واسودَّ إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (٢/ ٣٧٤).

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٤٠٠٦).

هذا هو إرشاد الله وإرشاد رسوله في تهيئة اللَّبِنات الَّتي يشاد منها صرح المجتمع الإسلاميِّ ليمتدَّ ظلُّه، وتكثُر ثماره.

وفَّقنا الله جميعًا إلى اتِّباع تعاليم الإسلام وتنفيذها، والله الموفِّق، أقول قولي هذا وأستغفرُ الله.

واجب الوالدين نحو البنت

الآن نريد أن نستعرض قضيَّة الأمِّ الَّتي عكفت على تربية ابنتها نحو عشرين عامًا، ثمَّ زوَّجها أبوها من دون علمها واستئمارها.

باعها للزَّوج بسيَّارة مرسيدس من دون أن يعطي البنت من ثمن هذه السَّيَّارة شيئًا، ومن دون أن يستشيرها، ومن دون أن تعلم الأمُّ بهذا الزَّواج، ومن دون أن يرى الخطيب خطيبته قبل الزَّواج، وإنَّما كان الأمر كما يقولون: «خذوه فغلُّوه».

وكنت قد عرضت هذه القصَّة على إخوتي وأخواتي المشاهدين والمشاهدات، وقد وصلتني رسائلَ كثيرةً، لا تقلُّ عن (٦٠) رسالةً، ولكلٍّ رأيه.

أستخلص من هذه الأجوبة الأمر الموافق للشَّرع الَّذي لا يخالفه ولا يتناقض وإيَّاه.

ذلك أنَّ الأمَّ ضحَّت بشبابها؛ لكي تعيش هذه البنت عزيزةً برعايتها، من دون أن تذِّل لزوج أمٍّ أو تتعقَّدَ من سوء معاملةٍ، عاشت كأحسن ما تعيشُ طفلةٌ مرعيَّةٌ تشبع هنيئًا وتلبس ناعمًا، وتنام ملءً جفنيها، ثمَّ تصبح

لتذهب إلى المدرسة برعاية أمِّها الَّتي تقودها إلى المدرسة ذاهبةً إليها، ومن المدرسة عائدةً منها إلى البيت، وهكذا عاشت طفولتها، وإذا بها في يوم من الأيَّام يقال لها: إنَّ بنتك عروسٌ، ففُوجِئت أنَّ الوالد عقد وقبض الثَّمن سيَّارة مرسيدس.

وتقول الأمُّ: إنَّها دفعت البنت إلى الزَّوج عريانة؛ لأنَّها لا تملك ما تجهِّزها به، وكان الواجب على الأمِّ أن ترفض هذا الزَّواج، بأن ترفع دعوى إلى المحكمة تطلب فسخ العقد الجائر؛ لأنَّ البنت لم تقبض من المهر شيئًا، وكان الواجب عليها أن تمتنع من قبول هذا الزَّواج، وإن كان لا بدَّ من قبوله لرضاء البنت به أن تطلب النَّفقة الماضية، نفقةَ العمر الَّذي عاشته البنت برعايتها.

لكنَّني فهمت من رسالة الأمِّ أنَّ البنت كانت مُكْرهةً على القبول أيضًا، ولا أدري مَنْ الَّذي أكرهها؟

هذا هو الحلُّ الَّذي استخلصته من بعض الرَّسائل الَّتي وصلتني من الكويت، ومن البصرة، ومن المنطقة الشَّرقيَّة في المملكة العربيَّة السعوديَّة.

وإنِّي أشكر المشاهدين والمشاهدات لتعاونهم معي.

والحقَّ أقول: إنَّني سررت كثيرًا باستلام هذه الرَّسائل؛ لأنِّي اطمأننت إلى أنَّ الحديث يُسْمَعُ ويُفْهَمُ، وخير الكلام كما يقول علماء النَّحو: «ما حَسُن السُّكوت عليه بين المتكلِّم والسَّامع».

وأقول أيضًا للآباء الكرام كلِّ الآباء: مهر البنت مِلْك للبنت، ولا يحِلُّ للأب ولا للأمِّ ولا للوليِّ - أيِّ وليٍّ - أن يأخذ من هذا المهر شيئًا

كَثُرَ أم قلَّ، بل عليه أن يزيدَ عليه ما يكفي؛ لكي تجهَّزَ البنت إلى زوجها مكرَّمَةً عزيزةً، لا ذليلةً كئيبةً.

والوالد الَّذي يأخذ من مهر ابنته، أو الوليُّ الَّذي يأخذ من مهر مولِّيته، يصفه الكويتيِّون بلغتهم العامِّيَّة بأنَّه «ذو نفسٍ دنيئةٍ» حتَّى في الماضي.

والله ﷻ قال في كتابه العزيز: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النِّسَاء: ٤].

أمَّا قول القائل - لاسيَّما من كان جاهلًا من القائلين-: يا للعجب! أنا أربِّي وأطعم، وأكسو وأُعلِّم، ثمَّ يأتيني إنسان يأخذها منِّي بلا مقابلٍ، ولا آخذُ منه شيئًا «أنا ربَّيت، ولغيري صفيت».

نعم يا أخي، هذا واجبك، وهذا فرضٌ فرضه الله عليك.

الله ﷻ قال لك: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطَّلَاق: ٧].

أنت مأمورٌ بالتَّربية، ومطلوبٌ منك الإنفاق حتَّى يشِبَّ الابن، ويقدِر على الكسب، وحتَّى تشِبَّ البنت وتتزوَّج، أمرٌ واجبٌ عليك، مثل الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم.

واحمدْ ربَّك على هذه النَّفقة إن كانت عن طيب نفسٍ وبلا منَّةٍ، فهي أفضل ما يعمله الإنسان في دنياه ويقدِّمه لآخرته؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ أخبرنا عن رجلٍ أنفق أربعةَ دراهمَ: درهمٌ تصدَّقَ به، ودرهمٌ أنفقه في سبيل الله لإعانة المجاهدين، ودرهمٌ أعان به في عتق رقبةٍ، ودرهمٌ أنفقه على

أهله. أخبرنا عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام «**أنَّ أفضل هذه الدَّراهم الأربعة هو: ما أنفقه على أهله**»[١]، وهذا معنى الحديث الَّذي رواه مسلم.

الإنفاق على الأهل مطلوب، والرَّجل الَّذي قصَّرَ بالإنفاق على أولاده مدينٌ، وهذا الَّذي قصَّر بالإنفاق على بنته (١٩) سنةً مَدِينٌ بنفقتها لأمِّها، وهو بعد ذلك كلِّه ظالمٌ، ونعوذ بالله من الظُّلم والظَّالمين؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لنا: «**الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة**»[٢]، وأخبرنا «**أنَّ بيت الظَّالم خرابٌ**»[٣]؛ لأنَّ الله جلَّ جلاله قال في الحديث القدسيِّ فيما رواه الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»: «**وعزَّتي وجلالي لأنتقمنَّ من الظَّالم في عاجله وآجله**»[٤].

(١) رواه مسلم، رقم: (٩٩٥)، بلفظ: «**. . . ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك**».

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٧)، ومسلم، رقم: (٢٥٧٩).

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٢٨٠)، بلفظ: «**دار الظالم خراب. . .**».

(٤) لم أقف عليه في المسند، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٦٥٢).

أسئلة وردود

حدود طاعة الوالدين

السُّؤال:

تزوَّجت منذ عشر سنواتٍ، وأنجبت من زوجي ستَّةً، عاش منهم ثلاث إناثٍ فقط، وما زلنا نعيش في مودَّةٍ وصفاءٍ من دون أيِّ كدرٍ، قبل شهرين أشارت حماتي على ابنها - زوجي - أن يتزوَّج قريبةً له؛ لأنَّها ذات مالٍ؛ خوفًا من أن يتزوَّجها غريب يستحوذ على مالها، فرفض زوجي هذا العرض، ولكنَّ أمَّه صرَّحت بغضبها عليه، وقالت له: إذا لم تتزوَّج قريبتك فإنِّي أغضب عليك في الدُّنيا والآخرة، وزوجي متديِّنٌ، ويلتمس دائمًا رضاء أمِّه، ويعتقد أنَّ أسبابَ سعادته في بيته وفي عمله هو من رضاء أمِّه عليه، وأنا أخشى عواقب هذا الزَّواج، فإنَّ الضَّرَّة هي كاسمها ضارَّةٌ، وأخشى أن يتكدَّر هذا الصَّفاء، وأن تنهدم هذه السَّعادة، وأن تضيع البنات، فهل تجبُ على زوجي طاعة أمِّه في هذا العرض؟ وهل يطيعها في هدم أسرةٍ تأسَّسَت على الحبِّ والصَّفاء؟

وقبل أن أجيب السَّائلة أحبُّ أن أمهِّد الجواب:

قال الله في كتابه العزيز: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسرَاء: ٢٣]، ذلك أنَّ الوالدين بذلا جهدًا في إيصال الخير إلى الولد، وإبعاد الضُّرِّ عنه حين كان ضعيفًا، لا يستطيع جلب خيرٍ، ولا دفع ضرٍّ، فوجبت على الولد مقابلة الإحسان بالإحسان.

والولد قطعةٌ من الوالدين، فهو كما يقول المثل: «فِلذةٌ من كبده»

يؤلمهما ما يؤلمه، ويفرحهما ما يفرحه، وما أصدق الشَّاعر:

وإنَّما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

نفهم من هذا أنَّ لا نعمة تصل إلى إنسانٍ بعد نعمة الخالق عليه أكثر من نعمة الأبوين، ولهذا قرن جلَّ شأنه الإحسان إلى الوالدين بعبادته، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسرَاء: ٢٣]، ثمَّ أردفها بشكر نعمة الوالدين بقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البَقَرَة: ٨٣]، ثمَّ فصَّل هذا الإحسان بقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسرَاء: ٢٣]:

١- ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

٢- ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾.

٣- ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

٤- ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾.

٥- ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسرَاء: ٢٤].

معنى ذلك أنَّه إذا وصل الأبوان أو أحدهما إلى حال الضَّعف والعجز وجب على الولد:

أوَّلًا - أن لا يتأفَّف من شيءٍ يراه منهما أو من أحدهما، بالكلام القاسي أو ما يشبهه، بل ليصبر، وليحتسب الأجر عليه كما صبرا عليه حين كان صغيرًا.

ثانيًا- أن لا يردَّ عليهما بكلامٍ يزجرهما به، كتكذيبٍ لما يقولان، أو يخاطبهما بلفظٍ قاسٍ وبصوتٍ عالٍ من دون حاجةٍ إلى ذلك، أو يخالفهما

بقولٍ على سبيل الردِّ.

ثالثًا- أن يقول لهما قولًا حسنًا مقرونًا بالاحترام والتَّقدير ممَّا يقتضيه حسن الأدب، وترشد إليه المروءة، ولا يرفع صوته أمامهما.

رابعًا- أن يتواضع لهما ويتذَلَّل رحمةً بهما، وشفقةً عليهما، وأن يطيعهما إذا أمراه بشيءٍ ليس فيه معصيةٌ لله ولا ضررٌ عليه.

خامسًا - أن يدعو الله لهما بالرَّحمة جزاءً لما أسدياه له من جميلٍ فإنَّهما عند الكِبَر في ضعفٍ كان في مثله عند الصِّغر، لكنَّهما كانا يرعيانه بحنانٍ وهما يتمنَّيان حياته، وهو اليوم إن رعاهما فإنَّه يترقَّب موتهما.

فليتوجَّه إلى الله داعيًا إيَّاه أن يرحمهما، فرحمة الله أوسع، ورعاية الله أشمل، وجناب الله أرحب، وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من سهرٍ وحنوٍّ ممَّا لا يقدر على جزائه الأبناء.

هذا تمهيدٌ لجواب السَّائلة.

الجواب:

فأبدأُه بقول الله ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان: ١٥]، فلا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

وزواج الثَّانية في هذا اليوم جريمة؛ لأنَّ فيه هدم أسرة وتشتيت ذرِّيَّةٍ، وضياع أولادٍ، والرَّجل الَّذي أمرته أمُّه أن يتزوَّج ثانيةً لا آمنُ عليه أن تغلبه الثَّانية على أمره فيهجر أمَّ أولاده الَّتي عاش معها السَّنوات العشر الماضية فتبقى معلَّقةً، لا هي بالزَّوجة، ولا هي بالمطلَّقة، أو يطلِّقَها فيُيَتِّم أولاده منها، وهو حيٌّ يرزق.

وأحبُّ أن أذكر هذا الحديث ليقرأه ويسمعه الآباء والأمَّهات، يقول الحديث: جاء رجلٌ إلى أبي الدَّرداء فقال: إنَّ أبي لم يزل بي حتَّى زوَّجني، وإنَّه الآن يأمرني بطلاقها، قال أبو الدَّرداء: ما أنا بالَّذي آمرك أن تطيع والدك، ولا بالَّذي آمرك أن تطلِّق امرأتك، غير أنَّك إن شئت حدَّثتك بما سمعت من رسول الله ﷺ: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فحافظ على ذلك الباب إن شئت أو دعه**»(١).

معنى ذلك: أنَّ الإحسان إلى الوالدين محصورٌ في الأمور الخمسة الَّتي ذكرتها الآية الكريمة، وطاعتهما واجبةٌ فيما يرضي الله، ولا يضرُّ بحياة أحدٍ، ولا بخراب أسرةٍ، ولا بتشتيت شملٍ ولا بضياع أولادٍ.

وأقول: إن كنت تشعر في نفسك بالعدل، فلا مانعَ من أن تتزوَّج، وإلَّا فامتثل قول الله ﷻ لك: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النِّسَاء: ٣]، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

ولا بدَّ أن تسمع كلام النَّبيِّ الكريم محمَّد ﷺ إذ يقول: «**من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشِقُّهُ مائلٌ**»(٢).

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٩٠٠)، وقال: هذا حديث صحيح.
(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٨١٩).

لتسكنوا إليها

السُّؤال:

مشاكل كثيرة - لا سيَّما في عصرنا الحاضر - تحصل بين الزَّوجين، لا شكَّ أنَّها تثور لأدنى سببٍ، تأخذ كلَّ واحدٍ منهم العزَّة بالإثم، ثمَّ يتَّسع الخلاف فيحصل الطَّلاق.

وكنَّا نسمع فيما مضى أنَّه متى حصل شيءٌ من ذلك بين زوجٍ وزوجةٍ سارع المصلحون إلى الإصلاح؛ امتثالًا لأمر الله ﷻ: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النِّسَاء: ٣٥]، وابتغاءً لما عند الله من ثوابٍ وعد الله به عبادَه المصلحين ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النِّسَاء: ١١٤].

أمَّا اليوم فلا هذا ولا ذاك، ويا ليت أنَّ حصاد الطَّلاق يجنيه الزَّوجان أو أحدهما، لكن مع الأسف إنَّ هذا الحصاد لا يأكله إلَّا الطِّفل الَّذي وُلِدَ بين هذين الزَّوجين.

أكتب هذا إليك راجيًا أن تنصح، والنَّصيحة لله؛ لأنَّ الكلمة الطَّيِّبة تؤتي ثمرتها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها، فتمحو الأحقاد وتغسل الأضغان، وتُسَهِّل العسير، وتضيء الحالك.

فلو أنَّ أحدَ الزَّوجين لانَ للآخر لعاشا سعيدين، وعاش أطفالهما معهما سعداء، فما قولك؟

الجواب:

المرأة والرَّجل إنسانان لا غنى لأحدهما عن الآخر منذ بَدْءِ الخليقة حتَّى يومنا هذا، كلاهما نصفٌ لا يَكْمُلُ إلَّا بنصفه الآخر، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١].

الرَّجل يسكن إليها، وهي تسكن إليه، ولا غنى لأحدهما عن الثَّاني أبدًا، ولا حكم للشَّاذِّ؛ لأنَّ الشَّاذَّ ناقص الخِلْقَة أو الخُلُق.

والزَّواج بين رجلٍ وامرأةٍ في كلِّ شريعةٍ من الشَّرائع يتمُّ بطقوسها الدِّينيَّة، وهو في الإسلام ينعقد على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله إمساكٍ بمعروفٍ أو تسريحٍ بإحسانٍ.

وأرجو من المشاهدين الأفاضل أن يتفهَّموا معنى هاتين الكلمتين: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩].

المعروف معناه كبير، يجب أن يكون من الزَّوج والزَّوجة لا من واحدٍ منهما، حتَّى يملِّك كلٌّ واحد منهما الآخر هذا المعروف، والمعروف هو تلطُّفٌ ورِفقٌ وفضيلةٌ، ولينٌ بالقول، واستقامةٌ وإحسانٌ، وأمانٌ من الطَّرفين، ورِقَّةٌ من المرأة، ورجولةٌ من الرَّجل.

أمَّا إذا تعصَّبَ كلٌّ منهما لرأيه، وأخذته العزَّة بالإثم فإنَّ الخلاف سيزيد سوءًا، وشقَّتُه ستتَّسع، ثمَّ بعد ذلك ينتهي بالطَّلاق، والله ﷻ لا يرضى باتِّساع شُقَّة[1] الخلاف بين الزَّوجين، وإنَّما يريد الإصلاح، كلَّ الإصلاح.

---

(١) الشقة: البعد. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٢٥/ ٥١٥).

إنَّ الله ﷻ مدح الإصلاح بقوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ [النِّسَاء: ١٢٨]، وأمر الأمَّةَ بتمكينه بين أفرادها فقال: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفَال: ١]، وخصَّصَ الأسرة بهذا الأمر، الأمر بالإصلاح بين الزَّوجين، بقوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النِّسَاء: ٣٥]، ووعد الزَّوجين اللَّذين يريدان الإصلاح بالتَّوفيق بقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النِّسَاء: ٣٥].

وأعتب على المرأة الَّتي قال عنها الفيلسوف الهنديُّ: إنَّ الله خلق المرأة وأودع فيها خفَّةَ الورقة، ونظرةَ الظَّبي، ورطوبة الندى، وإشراقة الشَّمس، ووداعة الأرنب، وحلاوة العسل.

أعتب على من هذه صفاتها - وإنَّها لصفاتٌ حقيقيَّة عرفناها في أمَّهاتنا وجدَّاتنا - كيف انقلبت حلاواتها إلى مرارةٍ، ووداعتها إلى غِلظةٍ، وسلامتها إلى حقدٍ، وما هو سبب ذلك؟

أرجو من بنتي المسلمة أن تعود إلى تلك الصِّفات: خفَّة الورقة، وإشراقة الشَّمس، ورطوبة الندى، ووداعة الأرنب، وحلاوة العسل؛ لتجعل من بيتها جنَّةً وارفة الظِّلال، دانية القطوف، تُؤْتِي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن الله ثمارًا طيِّبَةً، رضوانها: الزَّوج، وحورها وولدانها: أولادهما، وهي الراعية، الرَّقيقة، الرَّفيقة.

بالله عليكم أيُّها الإخوة المشاهدون والأخوات المشاهدات: أليست هذه هي الجنَّة؟ إنَّها لا شكَّ هي هي، يجد الزَّوج فيها سكنه وراحته وهناءه، يشرب مريئًا، ويأكل هنيئًا، وينام هادئًا هانئًا، ويصحو نشيطًا، والزَّوجة كذلك لا تملُّ ولا تتعب، والأولاد يشتاقون إلى البيت إذا غابوا عنه، ولا يملُّون إذا وجدوا فيه.

قولوا معي: آمين، اللَّهمَّ ارزقنا نعيم الجنَّة في الآخرة، ولا تحرمنا لذَّتها في الدُّنيا.

الملكيَّة محترمةٌ والنَّاس أحرارٌ

السُّؤال:

أنا زوجةٌ وأمٌّ، وأعمل موظَّفةً، زوجي يأخذ مرتَّبي كاملًا ويعتبره حقًّا من حقوقه ويتصرَّف فيه تصرُّفَه في مِلْكِه من دون أن أعرف كيف يتصرَّف، لا أعرف شيئًا عن راتبه، ولا التزاماته، ولا ديونه، ولا حتَّى عن مرتَّبي حين يستلمه، هل للزَّوج الحقُّ في امتلاك زوجته وما تملك؟ هل له حقُّ امتلاك راتبها أو بعضه؟ أرجو أن يكون الجواب مطابقًا لحكم الإسلام.

الجواب:

الإسلام يقول: «متى استعبدتم النَّاس وقد ولدتهم أمَّهاتهم أحرارًا؟»، والزَّوجة حرَّةٌ بحكم الله، وليست مِلْكًا للزَّوج، وإن عقد عليها؛ لأنَّ العقد عقدُ زواجٍ وشركةُ حياةٍ، وليس عقد تملُّكٍ أو بيعٍ، والزَّوجة حرَّة في مالها تتصرَّف فيه كما تشاء، سواءٌ كان المال ميراثًا أو كسبًا أو هبةً، حتَّى لو كان هبةً منه لها، لا يملك الزَّوج في مال زوجته شيئًا، إلَّا إذا كان عن طيب نفسها، والزَّوج ملزمٌ شرعًا بالإنفاق عليها طعامًا وكسوةً وسكنًا وعلاجًا، والرَّاتب الَّذي تتقاضاه الزَّوجة مِلْك للزَّوجة، لا يحِلُّ للزَّوج أن يأخذ منه شيئًا إلَّا عن طيبِ نفسِ الزَّوجة؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النِّسَاء: ٤].

هكذا قال الإسلام، وهكذا فعل السَّلف الصَّالح، فقد أدركنا منهم الرَّجل المحتاج المدين يأبى أن يتصاغر وتتصاغر نفسه فيمدَّ يده، حتَّى إلى ما وهبه لزوجته لسداد حاجته.

هل تزوَّجت خديجة قبل زواجها بالنَّبيِّ؟

السُّؤال:

هل كانت أمُّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها، متزوِّجةً قبل زواجها برسول الله؟

الجواب:

خديجة بنتُ خويلدِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى بن قصي، هي أمُّ المؤمنين، زوجة سيِّد المرسلين وخَاتَم النَّبيِّين، محمَّد بن عبد الله بن عبد المطَّلب بن هاشم بن عبدِ مناف بن قصي.

يجتمع نسبها مع النَّبيِّ ﷺ في قصي بن كلاب، الأب الرَّابع لها، والأب الخامس للنَّبيِّ ﷺ.

تزوَّجها قبل النَّبيِّ: أبو هالة بن زرارة، من بني تميم، وتزوَّجها عتيق بن عائذ من بني مخزوم، واختلف في مَنْ هو الأوَّل؟ ولم يتزوَّج النَّبيُّ ﷺ قبلها، وهي أوَّل نفسٍ آمنت بالنَّبيِّ، وبذلت في سبيل الدَّعوة مالها وجهدها.

وَلَدَت للنَّبيِّ ﷺ أولادَه كلَّهم إلَّا إبراهيمَ، فولدت القاسم وعبد الله، وماتا طفلين، وولدت زينب ورقيَّة وأمَّ كلثومٍ وفاطمةَ، وأعمارُ الجميع

حسب التَّرتيب الَّذي ذكرناه.

تزوَّج أبو العاص بن الرَّبيع بزينب، وتزوَّج عتبة وعتيبة ابنا أبي لهبٍ برقيَّة وأمِّ كلثوم ابنتي محمَّد ﷺ، ولمَّا نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١] أمر أبو لهب ابنيه بأن يطلِّقا ابنتي الرَّسول قبل الدُّخول بهما، وقال: رأسي بين رؤوسكما حرامٌ، إن لم تطلِّقَا بنتي محمَّد.

فزوَّج النَّبيُّ ﷺ رقيَّة لعثمان، وهاجر بها عثمان الهجرة الأولى إلى الحبشة، وظلَّت مع عثمان رضي الله عنها، ومرضت في المدينة أثناء سفر النَّبيِّ والغزاة إلى بدر، وتوفِّيت أثناء رجوع النَّاس منها، وقيل: إنَّ زيد بن حارثة جاء إلى المدينة يبشِّر بالنَّصر، وقد فَرَغَ النَّاس من دفنها رضي الله عنها، بعد ذلك زوَّج النَّبيُّ ﷺ عثمان بأمِّ كلثوم، وماتت عنده قبل وفاة أبيها، وكذلك زينب.

أمَّا فاطمة، وهي أصغر أولاد النَّبيِّ ﷺ من خديجة فقد زوَّجها النَّبيُّ بأمر الله عليَّ بن أبي طالب، وهي الَّتي انحصرت ذريَّة النَّبيِّ عليه السلام فيها؛ لأنَّ زينب أنجبت أمامة، وماتت أمامة، ولم تنجب، ورقيَّة وأمُّ كلثوم لم تنجبا.

أمَّا فاطمة فماتت بعد النَّبيِّ بستَّة أشهرٍ، فعاش من ذرِّيَّتها الحسن والحسين، وعاش من ذرِّيَّة الحسن ابنه الحسن المثنى، وعاش من ذرِّيَّة الحسين ابنه عليٌّ زين العابدين، وبارك الله في ذرِّيَّتهما.

تسابق عائشة رضي الله عنها مع النَّبيِّ ﷺ

السُّؤال:

قرأ في مجلة إسلاميَّةٍ أنَّ الرَّسول ﷺ خرج في بعض أسفاره، ومعه زوجته عائشة، قالت عائشة - وكانت جاريةً-: لم أحمل اللَّحم، فقال الرَّسول ﷺ: «**تقدَّموا**»، فتقدَّموا، ثمَّ قال: «**تعالي حتَّى أسابقك**»، فسابقتُهُ فسبقته، قالت: حتَّى إذا حملت اللَّحم، وكنَّا في سفرةٍ أخرى، قال ﷺ: «**تقدَّموا**» فتقدَّموا، ثم قال: «**تعالي أسابقك**»، فسابقته فسبقني، فجعل ﷺ يضحك ويقول: «**هذه بتلك**»[1]، ويسأل عن صحَّةِ هذا الكلام.

الجواب:

أرجو أن يعلم السَّائل أنَّ النَّبيَّ ﷺ بشرٌ مثلنا، وكونه أُرسِل لهداية النَّاس وتعليمهم حياة الجِدِّ والعمل، لا يعني أنَّ حياته كانت خاليةً من شيءٍ يُدْخِلُ به السُّرور على أهله وخاصَّته.

والنَّبيُّ ﷺ زوجٌ، وأبٌ، وعليه واجباتٌ تجاه الزَّوجة أو الأولاد، وكان يعرِف هذه الواجبات.

روي عنه أنَّه كان يصلِّي مدَّةً، وجاءت بنته أمامة، بنت أبي العاص من زوجته زينب بنتِ رسول الله واعتلت ظهره وهو ساجد، فأبطأ في

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٦٢٧٧).

سجوده، وأنكر النَّاس ذلك منه، فقالوا له في ذلك، فقال لهم: «**كرهت أن أعجلها**»(١).

وحدثت مثل هذه القصَّة مع أحد ولدي فاطمة في المسجد، وقال: «**إنَّ ابني امتطاني فكرهت أن أعجله**»(٢).

وثبت أنَّه ﷺ «**كان يحلب شاته**»(٣)، «**ويخصِفُ نعله، ويحمل حاجته، وكان يحمل مع أصحابه الطِّين والحجارة لبناء المسجد**»(٤).

هذا الخبر صحيح، والخبر الَّذي سأل عنه السَّائل صحيح، وهذا ممَّا يؤيد أنَّ النَّبيَّ ﷺ واحدٌ من البشر، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، كما أنَّه زوجٌ ووالدٌ.

وعمل النَّبيِّ هذا تعليمٌ لنا لنقتدي به في أعماله حتَّى لا نكون جبَّارين على نسائنا، شياطينَ في بيوتنا، قُساةً على أولادنا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزَاب: ٢١].

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٧٤)، بلفظ: «**بينا نحن جلوس في المسجد ننتظر الصلاة، خرج علينا رسول الله ﷺ على عاتقه بنت بنته أمامة...**».

(٢) رواه أحمد، رقم: (١٦٠٣٣).

(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٦١٩٤)، بلفظ: «**كان بشرًا من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه**».

(٤) رواه أحمد، رقم: (٢٤٩٠٣)، بلفظ: «**كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم**».

أمُّ كلثوم.. زوجة عمر

السُّؤال:

من هي أمُّ كلثوم الَّتي تزوَّجها عمر؟

الجواب:

ذُكِرَ أنَّ الجوزيَّ رحمه الله قال في كتابه المسمَّى «تاريخ عمر» عن الزُّبير بن بكَّار: قال: خطب عمر أمَّ كلثوم من عليِّ بن أبي طالب، فقال له عليٌّ: إنَّها صغيرةٌ، فقال عمر: زوِّجنيها يا أبا الحسن، فإنِّي أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد، فقال عليٌّ: إن رضيتها زوَّجتكما... إلى أن قال: فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين، فجلس إليهم، فقال لهم: رفِّئوني، رفِّئوني[1]، فقال: بماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: تزوَّجت أمَّ كلثوم بنت عليِّ بن أبي طالب، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلُّ نسبٍ وسببٍ وصهرٍ منقطعٌ يوم القيامة، إلَّا نسبي وسببي وصهري**»[2]، فكان لي به النَّسب والسَّبب، وأردت أن أجمع إليه الصِّهر، قال: فرفَّؤوه، فولدت له زيدًا ورقيَّةَ.

وهذا يدلُّ على أنَّ أمَّ كلثوم هذه من نسل فاطمةَ رضي الله عنها؛ لأنَّ النَّسب يجمع عمر برسول الله ﷺ في كعب بن لؤي: الجدِّ السَّابع للنَّبيِّ ﷺ،

(١) رفأه: إذا قال له: بالرفاء والبنين؛ أي: بالتلاؤم والاتفاق والبركة والنماء وجمع الشمل. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١/ ٢٤٨).
(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣٧٥٩٠).

والسَّبُب هو الذَّريعة، أو ما يُتَوصَّل به إلى غيره، ولعلَّه يقصد بذلك: زواج النَّبيِّ ﷺ من بنته: حفصةَ، أو يقصد: الإسلام.

ورفَّؤوه: مأخوذٌ من الرَّفاء، والرَّفاء معناه: الالتئام والاتِّفاق، كما يرفأ الثَّوب بين سداه ولحمته، وعندما يُهنِّئ النَّاس أحدًا لزواجه يقولون له: بالرَّفاء والبنين؛ أي: يدعون له ولعروسه بالاتِّفاق والوئام وإنجاب الذُّرِّيَّة.

الحجاب الأسود

السُّؤال:

متى كان الحجاب الأسود فرضًا على المرأة المسلمة، وقيدًا لها؟ لقد قرأت في كتاب الله تعالى قوله في سورة النُّور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النُّور: ٣١]، كما قرأت في سورة الأحزاب قوله جلَّ شأنه: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ...﴾ [الأحزَاب: ٥٩]، وليس في هاتين الآيتين ما يشيرُ إلى الحجاب الأسود الَّذي أوجبه آباؤنا على أمَّهاتنا وجدَّاتنا، ومتى كان البيت سجنًا للمرأة المسلمة؟

أرجو أن يكون الجواب مسموعًا ومقروءًا.

الجواب:

ليست الحماية قيدًا، ولا كانت الحصانة سجنًا، إنَّه مفهوم خاطئٌ، وإنَّه قولٌ مدسوسٌ، حاول دعاته تشكيك شبابنا في قيمنا الإسلاميَّة فجعلوا من قوامة الرَّجل استبدادًا، ومن حمايته ورعايته قيدًا.

كما أنَّ بعض هؤلاء الرُّعاة والقوَّامين أساؤوا المعاملة في الرِّعاية والحماية فجعلوها سلطةً أو استبدادًا، وأفسدوا الحكمة فيها.

وسأحاول بإجابتي السَّائلةَ أن أتعرَّض لوضع المرأة قبل الإسلام وبعده، وأقارن - حسبما يتَّسع المجال - مكانة المرأة في بعض القبائل العربيَّة قبل الإسلام، وفي بعض الشَّرائع والأديان الأخرى، والفرق بينها وبين المكانة الَّتي أحلَّها فيها الإسلام.

نزل القرآن على سيِّدنا محمَّد ﷺ في وقت كانت المرأة فيه أقلَّ شأنًا من الحيوان؛ لأنَّ للحيوان قيمةٌ، ولا قيمة للمرأة.

كانت عارًا على الأب إذا بُشِّرَ بولادتها، كما ذكر القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النّحل: ٥٨-٥٩].

ومعنى هذا: أيمسك هذا الَّذي بُشِّرَ به ليعيش معه أم يدفنه في التُّراب؟ لأنَّ الأنثى قد تُدْفن حيَّةً كما أخبرتنا الآية الكريمة في سورة التَّكوير: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التّكوير: ٨-٩].

وفي قريش كانت المرأة تشدُّ أزرَ الرَّجل، فتعينه على رعي إبله أو غنمه، وتخدمه في كلِّ شؤونه، ولكنَّها كانت لا تملك مالًا، ولا تَرِثُ في تركة ميِّتٍ، بل ربَّما كانت مَوْرُوثة إن كانت زوجةَ أبٍ يرثها أبناء زوجها، فإذا تزوَّجت بعده أخذوا مهرها، والقرآن الكريم نهى عن ذلك فقال للمؤمنين: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النِّسَاء: ١٩].

وقرأنا في التَّاريخ أنَّ المرأة كانت كدُميةٍ تعرض جسدها في الحانات

ومجالس الأُنس لمتعة الرِّجال، فجاء الإسلام ليحفظ للمرأة كرامتها، ويصونها عن الأعين الخاطئة، ويرفع من مكانتها في المجتمع، فهي الأمُّ، وهي الأخت، وهي البنت، فلا تخضع بالقول فيطمع الَّذي في قلبه مرض، وأنزل قرآنًا يُتلى يأمر بصونها ورعايتها، ويأمرها أن تكون محتشمةً في كلامها، مكرَّمةً في مشيتها، مصونةً في لباسها، عزيزةً في ذهابها وإيابها.

لم يفرض الإسلام على المرأة حجابًا أسود، وإنَّما أرادها أن تكون عزيزةً عفيفةً، بعيدةً عن العيون المريضة، والقلوب العليلة، فقال جلَّ شأنه في الآية (٣١) من سورة النُّور: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ... ﴿٣١﴾﴾ [النُّور: ٣١] إلى أن قال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ﴾ [النُّور: ٣١].

والآية واضحة المعنى، تأمر المرأة بغضِّ البصر حتَّى تمنع عنها نظرات الطَّامعين، وتأمرها بالاحتشام في المَلبس وفي المِشية، فإنَّ المحتشمة عزيزة، والعزيز مهابٌ.

المرأة منذ خُلِقت وهي مطمعٌ للرَّجل يسعى وراءها؛ ليوقعها في شباكه، وفي المرأة ضَعْفٌ غريزيٌّ، والإسلام يريد القوَّة لهذا الضَّعف، ولا قوَّة له إلَّا بعزَّة النَّفس، وللعزَّة مكانتها، والرَّجل مهما كان شجاعًا فهو أمام عزَّة المرأة جبانٌ.

ولنقرأ قول الله ﷻ في الآية (٥٩) من سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وفي آية أخرى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى

فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ...﴾ [الأحزَاب: ٣٢].

والحجاب الَّذي فرضه الإسلام على المسلمة ليس حبسًا وراء أسوار البيوت، ولا تحريم خروجٍ لعملٍ، ولا ثوبًا أسود يكفِّن جسم المرأة ويحرمها من استنشاق الهواء.

لا! لأنَّ تاريخ الإسلام أخبرنا أنَّ المرأة خرجت مع النَّبيِّ ﷺ في غزواته تسقي الماء، وتداوي الجرحى، كما صلَّت الجماعة معه ﷺ في مسجده، وأنَّ المرأة تاجرت فباعت وابتاعت، ولم يمنعها الإسلام عن كسبٍ حلالٍ.

الإسلام حوَّلَ المرأة من لا شيءٍ إلى كائنٍ بشريٍّ له قيمته وكرامته.

الإسلام أعطى المرأة حقَّها في الميراث، فهي كأخيها الرَّجل تَرِث من أبيها إن كانت بنتاً، وترث من ولدها إن كانت أمًّا، ومن زوجها إن كانت زوجة، وربَّما كانت عاصبًا كما قال جلَّ شأنه بالآية (٧) من سورة النِّساء: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ... ﴿٧﴾﴾ [النِّسَاء: ٧].

وأباح لها الكسب، وجعل لها حقَّ التَّصرُّف المطلق فيما تملك، لا سلطةَ لأحدٍ عليها فيه، ولا منعَ كما قال جلَّ شأنه في سورة النِّساء الآية (٣٢): ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾ [النِّسَاء: ٣٢].

وجعل لها مكانتها الاجتماعيَّة، فهي شريكة زوجها في حياته، وهي سكنه إذا عاد من كدِّه وكدحه، وأمُّ أولاده، وربَّة بيته، لها رأيها في رعايته وفي تدبيره، كما أنَّ لها استقلالها الشَّخصيَّ والماديَّ والمعنويَّ.

لم يحرِم الإسلام المرأة من الخروج إلى العمل، بل شجَّعها على ذلك

بشرط أن تحترم أنوثتها، وأمومتها، وتختار العمل الَّذي يتناسب مع تكوينها واستعدادها الجسديِّ والنَّفسيِّ على أن تكون واثقةً من نفسها، محترمةً في مِشيتها وفي حديثها.

لكن متى كانت زوجةً، ومتى كانت أمًّا، فأفضل الأعمال لها وأكرمها عند الله حسن التَّبعُّل، ومعنى ذلك: العمل البيتيُّ، لقول النَّبيِّ ﷺ: «**والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها، ومسؤولةٌ عن رعيَّتها**»(١).

أمَّا الحجاب الأسود الَّذي تسأل عنه السَّائلة فلم أقرأ عنه شيئًا، ولا وقفت له على أثرٍ، لا في أيَّام الخلفاء الرَّاشدين ولا في أيَّام الخلفاء من بني أميَّة، ولعلَّه عُرِفَ في شرقنا الإسلامي عندما اختلط العرب بالأعاجم، فقلَّدهم ملوك العرب بإنشاء الحريم في قصورهم، ثمَّ قلَّد أتباع الملوك ملوكهم، وصدَّقوا المثل القائل: «النَّاس على دين ملوكهم».

والحريم: موضِعٌ متَّسِع قُرْبَ قصر الملك، عالي الجدران، يسكنه نساء الملوك وجواريه، ولا يدخله إلَّا النِّساء الموثوقات أو المماليك المخصيُّون.

الحجاب الإسلامي هو ما نصَّت عليه الآيتان في سورتي النُّور والأحزاب؛ حجاب يحفظ للمرأة كرامتها ومكانتها في المجتمع، فلا تُؤْذى ولا تُهان، كما قال ربُّ العالمين في كتابه العزيز: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ...﴾ [الأحزَاب: ٥٩].

أمَّا الَّتي لا تحترم نفسها ولا تقيم وزنًا لكرامتها، المبتذلة الَّتي لا تأنف من عَرْض مفاتنها ومحاسنها لعيون الرِّجال، فقد تحظى بنظرة

(١) رواه البخاري، رقم: (٨٩٣).

إعجابٍ من قلبٍ مريضٍ، وقد يكون وراء هذه النَّظرة ما وراءها من احتقار واشمئزازٍ حتَّى من النَّاظر نفسه، ومن لا يُكْرِم نفسه لا يُكْرَم.

فالإسلام عندما كرَّم المرأة وعد ابنها بالجنَّة إن كانت أمًّا جزاءَ برِّهِ لها، وقال: «الجنَّة تحت أقدام الأمَّهات»[1]، ووعد الزَّوج بالثَّواب الجزيل إذا وفَّى وعده لزوجته بالإمساك بالمعروف.

ونأتي الآن لعقد مقارنةٍ بسيطةٍ بين مكانة المرأة في الإسلام ومكانتها في المجتمعات الأخرى في عصرنا الحاضر الَّذي يطالب به أنصار المرأة حمايتها من الظُّلم.

كانت المرأة الغربيَّة إلى عهدٍ قريبٍ كقطعة أثاثٍ باليةٍ في بيت الرَّجل، لا مكانةَ لها، حتَّى لو كانت أمًّا، فهي محرومة من كلِّ الحقوق كإنسانٍ، وهذه المهانة هي الَّتي أثارت المرأة الغربيَّة لتطالب بحقوقها من الرَّجل.

وعلى أنَّ الصُّراخ الَّذي صرخته المرأة الغربيَّة وأنصارها، وعلى ما نُشِرَ من كلامٍ، وما أُلِّف من كتبٍ تطالب بحقِّها المهضوم فالمرأة الغربيَّة ما تزال مظلومةً.

ففي اليونان - مثلًا - لا تزال المرأة تدفع المهر للرَّجل، ويسمَّى «دوطه»، ويقال: إنَّ هذا النِّظام موجود في بعض ولايات فرنسا، وفي البلاد الإسكندنافيَّة لا تَرِث المرأة زوجها ولا أبويها، بينما الرَّجل يرثها إن اكتسبت مالًا.

وفي بعض البلاد الغربيَّة يمتلك الزَّوج قانونيًّا أموال زوجته متى عقد زواجه منها، وتُمْنع من حقِّ التَّصرُّف فيه، وإن افترقا، وكان الهنود إلى

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥٤٣٩).

عهدٍ قريبٍ يعتقدون أنَّ المرأةَ شؤمٌ، وأنَّها السَّبب في نزول غضب الله، وإنزال الوباء والصَّواعق والقحط.

والمرأة الرُّومانيَّة كانت تُباع وتُشترى، وثمنها الحيوان لا النُّقود، والمذهب الهندوكيُّ يَعُدُّ الرَّجل سيِّدًا للمرأة، وأنَّ عليها أن تموتَ بقتل نفسها، إذا مات زوجها قبلها.

وفي القرن السَّادس عشر الميلاديِّ كان الكتاب المقدَّس ممنوعًا عن المرأة فلا تقرأه ولا تلمسه.

وفي القرن السَّابع الميلاديِّ عُقِد اجتماعٌ في فرنسا حضره أكثر رجال الدِّين المسيحيِّ للنَّظر في شأن المرأة وحقيقتها، وتوصَّلوا أخيرًا إلى أنَّها إن كانت إنسانًا فقد خُلِقت لخدمة الرَّجل؛ أي: إنَّهم كانوا يشكُّون في إنسانيَّتها، فأين كلُّ هذا أيُّها القارئ الكريم من مكانة المرأة في الإسلام؟!

بالله عليك قُل للمقلِّدين الَّذين يرفعون أصواتهم يطالبون بحقوق المرأة وهم يجهلون ما أعطاها الإسلام من حقوقٍ: إنَّ أعظم انتصارٍ حقَّقته المرأة في حركتها من أجل المساواة في بلاد الغرب هو حقُّها في طلب الطَّلاق، والانفصال عن زوجها بالطَّلاق، الَّذي اعتبروه من سلبيَّات الإسلام، وانتقدوا الإسلام فيه.

إنَّهم اليوم أباحوه في كلِّ بلاد الدُّنيا، واعتبروا هذه الإباحة نصرًا ما بعده نصر، وإنجازًا يفوق كلَّ الإنجازات، بينما الإسلام جعل من الطَّلاق آخرَ دواءٍ لإزالة الشِّقاق بين الأُسر الَّذي ربَّما يسبِّبه اختلاف الزَّوجين.

بقيت نقطةٌ أخيرةٌ أحببت إيضاحها للقارئ الكريم: وهي اشمئزاز

بعض السِّامعين من كلمة «حرمة»، الَّتي يطلقها بعض الرِّجال على زوجته فيسمِّيها «حرمتي»، وللحرمة معناها الكبير عند العربيِّ، وجاء الإسلام وأكَّدها فقال: حَرَمُ الرَّجل: أهله، ويقصد بذلك كلَّ أنثى في بيته.

ولنرجع إلى القاموس لنتعرَّف منه معنى كلمة «حرمة»: إنَّها تعني:

١- الذِّمة.

٢- المهابة.

٣- ما يجب القيام به من حقوق.

٤- ما يحرم التَّفريط به من حقوق.

٥- ما لا يحِلُّ انتهاكه.

هذه الكلمة أطلقها العربيُّ على كلِّ أنثى في بيته، ومعروف عن العربيِّ أنَّه كان يسمِّي الأشياء بمعانيها.

أخي المسلم، هذه هي المرأة في الإسلام، إنَّها أمُّك وبنتك، إنَّها أختك وزوجتك.

أختي المسلمة! هذا هو الحجاب الَّذي فرضه عليك الإسلام، إنَّه الصَّون والكرامة والعزَّة والحشمة والعفَّة؛ حتَّى لا يطمع فيك الَّذين في قلوبهم مرضٌ.

أمَّا الَّذين يطالبون بحقوق المرأة الآن، فإنَّهم لم يصلوا إلى شيءٍ من كرامة المرأة، بل كلُّ ما وصلوا إليه أن جعلوا من المرأة وسيلةً للدِّعاية، أو عارضةً لأزياءٍ، أو أنَّهم جعلوا لها تماثيلَ من شمعٍ، فجعلوها بالفترينات للإعلان عن بضاعةٍ أو زينةٍ، وهذا ما نراه أكثر من مرَّةٍ في كلِّ يومٍ.

أقول - يا أهل العدل-: قولوا كلمتكم، أين تقدير الإسلام للمرأة من تقدير غيره ممَّن يطالبون بحقوقها؟!

تعليم الأبناء

السُّؤال:

رزقني الله من زوجي خمسةَ عشر ولدًا وبنتًا، كلُّهم يؤدُّون فرائضَ دينهم، لكنَّهم لم يكمِلُوا تعليمهم، قالت لي جارتي: إنَّ الله سيحاسبنا على التَّقصير في تربية أبنائنا وتعليمهم، وطلبت منِّي أن أحثَّهم على طلب العلم، لكنَّ أولادي كبروا، ويعملون بالحكومة الآن، وزوجي يقول: دعيهم فهم أحرارٌ.

سؤالي:

هل علينا من ذنبٍ؛ لأنَّنا لم نضغط عليهم ليكمِلُوا تعليمهم؟

الجواب:

«**طلب العلم فريضةٌ**»[1]، وعلى كلِّ مسلمٍ أن يتعلَّم؛ لأنَّ طلب العلم لا وقتَ له، فهو مفروض على المسلم من المهد إلى اللَّحد، والإسلام يقول لمتَّبعيه: كن عالمًا أو متعلِّمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرَّابع فتهلِكَ.

على المسلم أن يقرأ، وأن يفهم ما يقرأ، فبقراءته يكون متعلِّمًا، وعليه أن يستمع وأن يفهم ما يستمع، فإن لم يفهم يسأل، وبهذا أيضًا

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٢٤).

يكون متعلِّمًا، وعليه أيضًا أن ينفِقَ ممَّا يتعلَّم، وإنفاقه من علمه يزيده علمًا.

وكان الواجب على أولادك أن يعيشوا حياتهم متعلِّمين، وهذا واجب على كلِّ إنسانٍ حتَّى على من أخذ الشَّهادة العليا، فالشَّهادة وحدها لا تكفي لِأَنْ تجعل من حاملها عالمًا، فكم من حاملٍ شهادةً اكتفى بها فرجع إلى أمِّيَّته.

الشَّهادة وسيلةٌ، وطلب العلم لا ينتهي ما عاش الإنسان، فهو واجبٌ لاسيَّما على المسلم، من مهده إلى لحده، وطلب العلم فريضة على كلِّ مسلمٍ ذكرٍ أو أنثى.

والله ﷻ فضَّل العالم على الجاهل بآياتٍ كثيرةٍ من كتابه العزيز، فلا يستوي الأعمى والبصير، ولا تستوي الظُّلمات والنُّور، ولا يستوي العالم والجاهل.

وعلى الوالدين أن يفتحا لولدهما طريق المعرفة، حتَّى إذا عرَف سلوكه وعرَف كيف يمشي فيه سويًّا تركاه ليمشي في هذا الطَّريق حتَّى نهايته، والتَّوفيق بيد الله.

غسل الزَّوج لزوجته

السُّؤال:

هل يباح للرَّجل أن يغسل زوجته المتوفَّاة؟ وهل يباح لها أن تغسله إذا مات؟ وكيف يغسل الميت؟

الجواب:

يجوز لكلٍّ من الزَّوجين أن يغسِلَ زوجه إذا مات، وقد روي أنَّ عليًّا رضي الله عنه غسل زوجته فاطمة.

وصفة الغسل أن يُجَرَّد الميِّت من ملابسه - ذكرًا كان أو أنثى - بعد أن يوضع في مكانٍ مرتفعٍ، وأن يُستر ما بين السُّرَّة والرُّكبة، وأن يكون الغسل غسلًا، بحيث يُسكَب الماء على الميِّت، والغاسل يلفُّ على يده خِرقةً أو يضعها في كيس، ويمرِّرها على جسم الميِّت كلِّه، وما كان مستورًا من جسمه يمرِّر عليه يده من تحت السِّتر، ويبتدئ بالميامن، ومواضع الوضوء، ويحاول جَهْدَه أن يزيل ما على بدنه من أقذارٍ أو أوساخٍ قبل الابتداء بالغسل.

أمَّا غَسل المرأة لزوجها فقد روى الفقهاء حديثًا عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غَسل النَّبيَّ ﷺ إلَّا نساؤه**»[1]، رواه أبو داود.

الامتناع عن الإنجاب بدعةٌ

السُّؤال:

أنا أمٌّ لطفلٍ وحيدٍ، وقد قرَّرت عدم الإنجاب حتَّى أُنهي دراستي، وزوجي يرغب في الإنجاب، هل عليَّ من ذنبٍ إذا تمسَّكت برأيي؟ وهل من حقِّ زوجي أن يجبرني على الإنجاب خصوصًا بعد أن ثبت له أنَّني لست عاقرًا؟

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣١٤١).

الجواب:

الرَّسول ﷺ عندما أمرنا بالزَّواج أخبرنا أنَّ الزَّواج وسيلةٌ للتَّناسل، والحديث المشهور قوله ﷺ: «**تناكحوا تناسلوا تكثروا، فإنِّي أباهي بكم الأمم يوم القيامة**»(١).

والامتناع عن الإنجاب بدعةٌ جاءنا بها الغرب؛ ليقلَّ عددنا ويكثر عدوَّنا، وليس عندي جواب غير ما ذكرت لك.

الإنجاب طاعةٌ، والامتناع عن الإنجاب معصيةٌ.

ختان البنات

السُّؤال:

ما حكم ختان البنات؟ وهل هو واجبٌ كختان البنين؟

الجواب:

كان من عادة العرب قبل الإسلام تختين البنات، فلمَّا جاء الإسلام خفَّف من هذه العادة، وحدَّ من قوَّتها، وبقيت مُستَعمَلةً بصورةٍ مبسَّطةٍ.

والختان بالنِّسبة لهنَّ غير واجبٍ، ولا مسنونٍ، إلَّا في حالاتٍ شاذَّةٍ، ولا حكم للشَّاذِّ.

الواجب ختان الذَّكر بعد بلوغه، وختانه قبل البلوغ سُنَّةٌ، وهو قطعُ

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٤٤٢).

الجِلدة الَّتي تغطِّي الحَشَفَةَ، وتسمَّى الغرلة، أو القُلْفَة، ويسمَّى الخِتان بالنِّسبة للذَّكر طهور؛ لأنَّه إزالة سببٍ من أسباب الوسخ، فالقُلْفَة أو الغُرْلة تمنع من الاستبراء من البول، وتجمع تحتها الأوساخ، الَّتي قد تُسبِّب روائحَ كريهةً أو حكَّةً.

أمَّا بالنِّسبة للأنثى فليس عندها موجبٌ للختان، لاسيَّما أنَّ الأحاديث الَّتي وردت بختان الأنثى ضعيفةٌ.

باعها أبوها

السُّؤال:

عمري (٣٠) سنة، وأبي فقيرٌ، باعني إلى رجلٍ كبيرٍ في السِّنِّ، وصار لي (٨) سنوات عنده، أكرهه لسوءِ عشرته وكِبَر سنِّه، وعدم قيامه بالواجبات الزَّوجيَّة، طلبتُ منه الطَّلاق مرَّاتٍ عديدةٍ، ولكنَّه لم يستجب لطلبي، علمًا أنَّي في بيته كخادمةٍ لا كزوجةٍ، فهل يباح لي أن أطلب الطَّلاق ولو برفع دعوى ضده؟

الجواب:

الزَّواج بناء أسرةٍ يسكن إليها الزَّوجان، والزَّواج شركة حياةٍ، ومتى اختلف الشَّريكان كانت الحياة صعبةً، وكان السَّكن تعيسًا وشقيًّا.

أمَّا مسألة العمر فهذا شيءٌ ثانويٌّ، المهمُّ في الزَّواج هو الوِفاق والأُلْفة واتِّفاق الطَّبائع والأخلاق، وهذه هي بذور الانسجام وسمادها وسقيها وثمارها.

فأقول للسَّائلة: لا مانعَ من أن ترفعي دعوى ضدَّ هذا الزَّوج الَّذي جعل من عقد الزَّواج عقد تملُّكٍ واستعبادٍ.

نسأل الله أن يفتح بصيرةَ الكثير من النَّاس؛ لتفهم شرع الله ﷻ في الزَّواج.

لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق

السُّؤال:

هل المرأة مملوكةً للرَّجل بشريعة الإسلام؟ هل هي مُلْزمةٌ بطاعته إذا نهاها عن الصَّوم والصَّلاة؟ النِّسوان يقلن لي: ينبغي لك إطاعة زوجك، وإذا صلَّيتي وصمتي وهو غير راضٍ فصلاتك مردودةٌ، وصومك باطلٌ.

الجواب:

خلق الله ﷻ النَّاس أحرارًا، والزَّوجة ليست مِلكًا للرَّجل، ولا هو مِلكٌ لها، وكلمة ملكت يقصدون بها عقد الزَّواج، وهي كلمةٌ لا أصل لها في الإسلام، والزَّواج عقدٌ فقط، والرَّسول ﷺ أخبرنا: «**أنَّ لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق**»[1].

فإذا نهاكِ زوجكِ عن الصَّلاة والصِّيام، فمعناه أنَّه يأمرك بمعصية الله.

إنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المُزّمل: ٢٠]، وزوجك يقول: لا، والله ﷻ يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]، وزوجك يقول: لا، وينهاك عن طاعة ربِّك، ومعنى ذلك: أنَّه يريد أن يكون شريكًا لله في

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (١٤٨٧٥).

أوامره ونواهيه.

لا يا ابنتي، أطيعي الله وأطيعي الرَّسول، وإن أصرَّ على معصيته، وأمرك بالمعصية أيضًا ففارقيه، وهو الخاسر وأنت الرَّابحة؛ لأنَّ رسول الله ﷺ يقول: «**من كان مع الله كان الله معه**»[1]، لاسيَّما أنَّنا نؤمن بأنَّ الله مع المتَّقين، ومع المحسنين.

ونؤمن أيضًا أنَّ من يعمل من الصَّالحات، وهو مؤمن، فلا كفرانَ لسعيه، وأنَّ من يعمل من الصَّالحات من ذكرٍ أو أنثى، وهو مؤمن، فسيحيا الحياة الطَّيِّبة.

فكوني مع الله تسعدي، وسيندم.

هل يصِحُّ أن تنام المعتدَّة في المستشفى؟

السُّؤال:

أختي معتدَّةٌ لوفاة زوجها، ومرضت واضطررنا أن نجلِبَ الطَّبيب لها في البيت للكشف عليها ومعالجتها، وقال الطَّبيب: لا بدَّ من نومها في المستشفى؛ لأنَّ العلاج يقتضي أن يكون مستمرًّا، فهل يصِحُّ لها أن تنام في المستشفى وهي حادَّة.

الجواب:

الحادَّة تجتنب خمسةَ أشياءَ هي محرَّمةٌ عليها:

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٢٦٢٣).

أوَّلها: الطِّيْبُ؛ لقول الرَّسول ﷺ: «**لا تمسُّ طِيبًا، إلَّا عند أدنى طهرها إذا طَهُرَت من قُسْطٍ أو أظفارٍ**»(١)، والأظفار نوعٌ من العطر لا تظهر له ريحٌ إلَّا من قريبٍ، كانت نساء العرب يستعملنه، والقُسْطُ: دواء طيِّب الرِّيح وقد يتَّخذ كعطرٍ.

الثَّاني: اجتناب الزِّينة كأن تختضب أو تحمِّرَ وجهها، أو أصابعها، أو أن تكتحل، أو تلبَس الثِّياب المصبَّغة، أو ذات اللَّون الصَّارخ أو اللَّامع؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ «**نهى المتوفَّى عنها زوجها أن تلبَس المعصفر من الثِّياب أو المُمَشَّق، أو أن تختضب**»(٢)، ويجوز لها أن تغتسل، وأن تقلِّم أظافرها، وأن تمشِّطَ شعرها، ويُبَاح لها كلُّ ما أشبه ذلك من وسائل النَّظافة، على شرط أن لا يكون في ما تتنظَّف به عطرٌ، كالصَّابون المعطَّر، كما يجوز لها أن تداوي عينها بما لا لونَ له من الأدوية، ويجوز لها النَّظر في المرآة، وقراءة الكتب، والنَّظر إلى الصُّور ومشاهدة التِّلفزيون.

الثَّالث: من الممنوعات على الحادَّةِ الحُليُّ، فلا تلبَس منها شيئًا حتَّى الخاتَم، أمَّا السَّاعة فإن وجدت ساعةً للجيب كانت أفضل لها من ساعة المِعْصَم، إذا لم تكن مرصَّعَةً أو تستعمل كحِلْيَةٍ.

والأمر الرَّابع المحرَّم: المبيت في غير المنزل الَّذي مات فيه زوجها أو أتاها فيه نعيه.

أمَّا الأمرُ الخامس: فهو الخِطبة للأزواج لا صراحةً ولا تلميحًا.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٣٤٣)، ومسلم، رقم: (٩٣٨).
(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٨٠٠٣).

ومدَّة الحداد أربعة أشهرٍ وعشرةَ أيَّام بحساب الأهلَّة، بدليل قوله جلَّ جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤].

أمَّا المُكْثُ في البيت فإنَّ الرَّسول ﷺ قال لفريعة: «**اعتدِّي في البيت الَّذي أتاك فيه نعيُ زوجك**»(١).

أمَّا الحامل فتنتهي عدَّتها بوضع حملها، ولو بعد يومٍ أو بعد ساعاتٍ من تأكُّد الوفاة.

وللمعتدَّة الَّتي لا معينَ لها الخروج في حوائجها نهارًا، إذا لم يكن لها من يقضي حاجتها، كصاحبة أيتام ليس لها من يقضي حاجتها أو حاجة أولادها، فتخرج على قَدَرِ الحاجة، أو مريضة تراجع الطَّبيب وليس عندها من يجلب الطَّبيب لها، أمَّا الخروج في اللَّيل فلا.

والجواب على سؤال السَّائلة: إذا كان بالإمكان جلب الطَّبيب، أو جلب ممرِّضَةٍ تعالج المريضة الحادَّة في بيتها، فخيرٌ لها من خروجها من البيت.

أمَّا إذا كانت الحالة اضطراريَّةً كإجراء عمليَّةٍ، أو علاجٍ متواصلٍ، ووجودها في المستشفى أمرٌ ضروريٌّ للعلاج، فالضَّرورات تبيح المحظورات؛ لذلك أقول للسَّائلة مرَّةً أخرى إن كان مَبِيت أختك في المستشفى أمرٌ تقتضيه صحَّتها، ولا تنال الشِّفاء إلَّا به فلا مانع من دخولها المستشفى، وهي في العِدَّة.

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٧٠٨٧).

الخروج من العِدَّة

السُّؤال:

مات زوجي وترك أطفالًا ثمانيةً، وتركةً في العراق، وخوفًا من ضياع التَّركة البسيطة والأطفال الَّذين ليس لهم من يرعاهم ويعولهم سواي، لم أحدَّ على زوجي، وسافرت لاستلام التَّركة، فهل عليَّ كفَّارةٌ؟

الجواب:

الإحداد تربُّصٌ، والتَّربُّص معناه: انتظارٌ، والله جلَّ جلاله قال في فَرْضِيَّة الإحداد: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤].

واللُّغة العربيَّة شرحت معنى تربَّص بأنَّه انتظر أو توقَّف عن الأمر، أو لَبَثَ في المكان، كمن قال: «تربَّص بسلعته ارتفاع الأسعار»؛ معناه: انتظر زيادة السِّعر في السُّوق ليبيع السِّلعة.

والفقهاء تكلَّموا في موضوعِ هذا التَّربُّص ومعناه وحكمه، فالمرأة الَّتي لها من يرعاها ويقوم بشؤونها تبقى في المنزل الَّذي مات فيه زوجها، أو الَّذي كانت تساكنه فيه، حتَّى تنقضي العِدَّة أربعة أشهرٍ هلاليَّةٍ وعشرة أيَّامٍ.

وتمتنع في هذه المدَّة عن الزِّينة بكلِّ صفاتها، سواءٌ كانت لباسًا، أو خضابًا، أو كحلًا، أو أصباغًا، أو حليًّا، أو عطورًا، وتمتنع أيضًا عن سماع خِطبة خاطب، أو حضور أفراح.

وقال الفقهاء: أمَّا مَنْ لم يكن عندها من يقوم بشؤونها وشؤون يتاماها، فيباح لها أن تخرج لقضاء حاجاتها الزَّمنَ الكافي لقضاءِ الحاجة، على أن ترجِعَ إلى بيتها حال انتهاء عملها.

هذه هي العِدَّة، فإن كنتِ خرجت لمصلحة يتاماك، ولم تضيعي الوقت بغير ذلك، فقد فعلت ما يباح لك، وإن قصَّرت فعليك إثمُ تقصيرك، واستغفري الله من التَّقصير، والله تعالى يتولَّى الجميع برحمته.

استعمالات المرأة المعتدَّة

السُّؤال:

امرأة توفِّي زوجها فحدَّت عليه، ونعرف أنَّ مدَّة الإحداد أربعة أشهرٍ وعشرة أيَّامٍ، قيل لهذه المرأة: لا تستعملي الطِّيب ولا الصَّابون ولا الكُحل، ولا تَلْمَحي رجلًا، ولو دون قصدٍ، وأنَّ من تعمل ذلك تُشْهَر يوم القيامة، وقيل لها: إذا انتهت العِدَّة وجب عليها أن تفتح عينها في البحر، ولو نظرت إلى رجل فإنَّه حتمًا سيموت، وختم كتابه المملوء بما يشبه هذه الأقوال قائلًا: أرجو الإفادة.

الجواب:

تكلَّمنا كثيرًا في عدَّة المتوفَّى عنها زوجها، وقلنا: إنَّ عدَّة الطَّلاق وعدَّة الوفاة شيءٌ واحدٌ، ولا فرق بين هذه وهذه إلَّا في المدَّة.

فعدَّة الطَّلاق ثلاثة قروءٍ، وعدَّة الوفاة أربعة أشهرٍ وعشرة أيَّامٍ، أمَّا الحامل فعِدَّتها في الحالين أن تضع حملها، ولو بعد لحظةٍ من وقوع

الطَّلاق أو حصول الوفاة.

وقلنا أيضًا: على المعتدَّة في الحالين من الطَّلاق أو الوفاة أن تمتنع عن الزِّينة وعن الطِّيب وعن التَّعرُّض للخِطبة حتَّى تنتهي عدَّتها.

لهذا، فلا مانع للمعتدَّة أن تغتسل للنَّظافة، بشرط أن تستعمل الصَّابون العاديَّ الخالي من العطور، كما أنَّه لا مانع لها أن تكتحل بالدَّواء، لا بكحل الزِّينة، ولا مانع لها أن تلبَس ما تشاء من الثِّياب ما لم يكن ثوب زينةٍ، وملفتًا للنَّظر وبلونٍ صارخٍ أو لونٍ بهيٍّ، أو مخطَّطًا، بل يكون من لونٍ واحدٍ، كالأبيض أو الأسود، أو الأخضر الغامق.

معنى ذلك: أنَّ لباس المعتدَّة يجب أن يكون ذا لونٍ واحدٍ، لا يلفِتُ النَّظر، وقلنا أيضًا: يجب على المعتدَّة أن لا تتعرَّض للرِّجال، أو لسماع خطَّابةٍ، حتَّى تنتهي عِدَّتها.

ولا مانع للمرأة المعتدَّة من وفاةٍ أن تكلِّم خادمها الَّذي لا بدَّ لها منه في قضاء حاجتها، ولا مانع من أن تسمع صوت الرَّاديو، أو تنظر إلى التِّلفزيون أو في الصُّحف والمجلَّات بشرط أن يكون ذلك في حدود الإباحة والاحتشام، شأنها في ذلك شأن غيرها من النَّاظرين السَّامعين، وإذا كانت المعتدَّة وحيدةً، ولا معينَ لها في قضاء حاجتها، جاز لها أن تفارق البيت في قضاء هذه الحاجات، بشرط أن لا تجاوز مدَّة مغادرتها البيت قضاء الحاجة.

مثال ذلك:

امرأةٌ ذات أيتامٍ، ولا معين لها، تستوفي راتب أولادها من دائرةٍ، فتخرج لتحصيل الرَّاتب للأيتام أو الشُّؤون.

ومثالٌ آخر: امرأةٌ معتدَّةٌ، وليس لها من يقضي حاجاتها وحاجات أولادها في السُّوق، أباح لها الإسلام أن تخرج لقضاء هذه الحاجة بأقصر وقتٍ تستطيع فيه قضاءها.

وليعلم النَّاس أنَّ الإسلام يسرٌ لا عسرَ فيه، وأنَّ الله ﷻ يريد اليسر، وهو القائل جلَّ جلاله:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥].

عِدَّة المطلَّقة

السُّؤال:

تزوَّجت، وبعد شهرين من زواجي حصل خلاف بيننا، وخرجت إلى أهلي وبقيت معلَّقَةً ثلاث سنواتٍ ثمَّ طلَّقني فهل تجب عليَّ العِدَّة؟

الجواب:

تجب عليك العِدَّة، والَّذي قال لك: ليس عليك عدَّة جاهلٌ لا يدري؛ لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨]، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ [الطَّلَاق: ٤]، فالعدَّة أمرٌ إلهيٌّ، يجب تنفيذه، سواءٌ كانت المرأة المطلَّقة في بيت الرَّجل، أم لم تكن في بيته، وسواءٌ طلَّقها بعد غضبٍ أو بعد رضًا، إلَّا امرأةٌ عقد عليها زوجها وطلَّقها قبل الدُّخول فتلك لا عِدَّة عليها، كما قال جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن

تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزَاب: ٤٩]، هذا هو الصَّحيح المتَّفق عليه بين فقهاء المسلمين.

ماذا يَحْرُم على المعتدَّة

السُّؤال:

مات عنها زوجها فوجبت عليها العِدَّة، وقال لها من قال: اجتنبي المِرآة وكلَّ حيوانٍ ذكرٍ، واجتنبي الملح والرَّماد، ولا تشربي بالكأس، وغير ذلك أشياء فيها تضييقٌ، ونحن نعلم أنَّ الإسلام يسرٌ، أرشدْنا جزاك الله خيرًا إلى الحقِّ؟

الجواب:

قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤]، والأشهر هذه قمريَّة وليست شمسيَّة، تبقى المرأة في العِدَّة أربعة أشهر وعشرة أيَّام، والعِدَّة هي امتناعٌ عن الطِّيب وعن الخطيب، فلا تقرَبُ طيبًا مهما كان هذا الطِّيب إلَّا لضرورةٍ، ولا تلبَس من اللِّباس ما يلفِت إليها نظر الرِّجال، ولا تتعرَّض للخُطَّاب، أو تتعرَّض لها الخاطبات بحديث زواجٍ.

وأمَّا كونها لا تنظر إلى مرآةٍ، ولا قمرٍ، ولا ديكٍ، ولا حيوانٍ ذكرٍ، ولا طفلٍ أطول من السِّيف ولا ينظر إليها، ولا تلمس المِلح والرَّماد، ولا تَدَعُ الطَّبيب يكشف عليها، وهي مريضةٌ، فهذه كلُّها خرافاتٌ، وليست من الدِّين، ولم يقل الدِّين عنها شيئًا، وهو بريءٌ منها.

وأزيدكم أنَّ المرأة الَّتي تكون في عدَّة الوفاة وليس عندها من يتوَّلى الإنفاق عليها، أو على أطفالها، لها الحقُّ أن تخرج، وأن تعمل، وأن تكسب بوظيفةٍ أو بيعٍ أو شراءٍ، ولكن بالالتزام بالإحداد، والامتناع عن الطِّيب وعن الخُطَّاب، وعن اللِّباس الَّذي يلفِت إليها الأنظار.

هل على الزَّوجة الثَّالثة عِدَّة؟

السُّؤال:

توفِّي زوجي وأنا زوجته الثَّالثة، وقال لي بعض النَّاس: إنَّه لا عِدَّة عليَّ؛ لأنَّ العِدَّة لا تكون إلَّا على الزَّوجة الأولى، والزَّوجة الثَّانية مخاصمةٌ له خارج بيته لم تحدَّ عليه، فهل ما قيل لنا صحيحٌ؟

الجواب:

يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤]، أربعة أشهرٍ وعشرة أيَّام، ولا فرقَ بين زوجةٍ أولى وزوجةٍ بعدها، واحدةٍ أو عِدَّة زوجاتٍ، الكلُّ يتربَّصن العِدَّةَ المقرَّرة، وهي أربعة أشهرٍ وعشرة أيَّامٍ، لا يقربن فيها طِيبًا ولا حنَّاءَ ولا شيئًا من الزِّينة الَّتي تستعملها النِّساء في عصرنا الحاضر، أو في العصور الغابرة، ممَّا سَمِّي زينةً، ولا يلبَسن ما يلفت إليهنَّ النَّظر من لباسٍ مطرَّزٍ، أو ملوَّنٍ بألوانٍ صارخةٍ ممَّا يُعَدُّ للزِّينة، ولا يجلسنَ إلى الخُطَّاب، أو يستمعنَ إليهم، هذه هي العِدَّة على المرأة المتوفَّى عنها زوجها، وحتَّى المطلَّقة، سواءٌ كانت الأولى أو الثَّانية أو الثَّالثة أو الرَّابعة، واحدةً أو

عِدَّةَ زوجاتٍ، وسواءٌ كانت قريبةً منه أو بعيدةً عنه، ناشزًا عنه أو في طاعته، مصالحةً له أو مخاصمةً، والعِدَّة أمرٌ إلهيٌّ واجب التَّنفيذ، ومن لم تحدُّ على زوجها فهي عاصيةٌ للرَّحمن.

طلاق بورقة

السُّؤال:

عِشت مع زوجي مدَّةً، ثمَّ علمت أنَّه متزوِّجٌ من أخرى، فسألته فقال: نعم، وتركت بيت الزَّوجيَّة إلى بيتٍ آخر، ثمَّ علمت أنَّه تزوَّجَ ثالثةً، وطلبت منه الطَّلاق فوكَّل من يطلِّقني؛ خوفًا من وقوع الطَّلاق على الزَّوجتين، وجاءتني ورقة الطَّلاق منذُ ثلاثةِ سنواتٍ، وخطبني خَاطب فوافقت، وذهبنا للعقد، لكنَّ القاضي لم يعقد؛ لأنَّ ورقة الطَّلاق موقَّعةٌ من قِبَل الوكيل، وليست من قِبَل الزَّوج، ورفض القاضي أن يعقد، فهل للقاضي الحقُّ أن يرفض العقد؟

الجواب:

كان الواجب على الوكيل أن لا يطلِّق إلَّا بشهادة اثنين على التَّوكيل، وبتوقيعٍ من الزَّوج، فقد يُنْكر الزَّوج الطَّلاق، ثمَّ مَنْ الَّذي قال: إنَّ الَّذي عنده زوجتان لا يحقُّ له أن يطلِّق إحداهن؟ هذا افتراءٌ وكذبٌ على الشَّريعة الإسلاميَّة.

الطَّلاق يقع على الزَّوجة المسمَّاة، أمَّا هذا الَّذي ترك زوجته معلَّقَةً فقد بلغ به اللُّؤم نهايته، وخالف أمر الله له في كتابه العزيز: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ

فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ [النساء: ١٢٩-١٣٠].

ونصيحتي لهذا الزَّوج - إن كان يسمعني - أن يُصْلِحَ إن رغِب في الصُّلح، والصُّلح خيرٌ، أو يوقِّع ورقة الطَّلاق، ولا حرجَ عليه في زوجتيه اللَّتين هما في عصمته، ولا يترك المسكينة معلَّقةً؛ لا هي زوجةٌ ولا هي مطلَّقةٌ.

التَّحجير أو ربط الفتاة لابن عمِّها

السُّؤال:

أنا أبٌ لأطفالٍ خمسةٍ، ماتت أمُّهم، وبعد فترةٍ زرت جدَّ الأطفال، وطلبت يد ابنته الثَّانية، وقلتُ له: أنا شابٌّ، ولا بدَّ لي من الزَّواج، وخالة الأولاد خيرٌ من غريبةٍ.

وافق الأب ووافق أولاده، وقبل أن يتمَّ عقد الزَّواج جاءنا إنسانٌ يدَّعي أنَّه عمُّ البنت، وهدَّدني وهدَّد أباها، وقال: أنا صاحب الحقِّ فيها؛ لأنِّي ابن عمِّها.

فهل هذا من الشَّرع؟ وهل صحيحٌ أنَّ ابن العمِّ أحقُّ بابنة عمِّه من غيره؟

الجواب:

ليس في الإسلام شيءٌ من ذلك؛ لأن الإسلام يقول: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوِّجوه**»[١]، وليس لابن العمِّ فضلٌ على غيره، وإنَّما هو الاختيار، والإسلام الكريم أمر باختيار الزَّوجة؛ ليُنْجَب الولد.

وأذكر حديثًا معناه: أنَّ الابتعاد عن القريبة أنجبُ للولد[٢]؛ لأنَّ الطِّب الحديث أثبت أنَّ ابن القريبة ضعيف.

كانت هذه العادة؛ عادة حجر بنت العمِّ، موجودةً عندنا في الكويت، ولاسيَّما بين القبائل القريبة، حتَّى أنَّ ابن العمِّ كان يبيع حقَّه في بنت عمِّه على الرَّاغب فيها بثمنٍ باهظٍ، فكأنَّه مالك رقبةٍ، ولكنَّ القائمين على الأمر في ذلك الزَّمن منعوها في سنة (١٣٥٨هـ) ولم يبقَ لها أثرٌ، ولله الحمد.

والحقَّ أقول: إنَّها عادةٌ ظالمةٌ جائرةٌ، ما أنزل الله بها من سلطانٍ؛ لأنَّها من عادات الجاهليَّة، نسأل الله العفوَ والعافية.

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٧٧٣)، وهو فيه باللفظ نفسه.

(٢) أورده العسقلاني في التلخيص الحبير، رقم: (١٥٨١)، بلفظ: «**لا تنكحوا القرابة القريبة، فإن الولد يخلق ضاويًا**».

هل أطيع الزَّوج إذا أمر بالتَّبرُّج؟

السُّؤال:

هل يباحُ للمرأة أن تخرج متبرِّجَةً بشكلٍ يلفِت النَّظر؛ لأنَّ زوجها أمرَها بذلك، حتَّى يتحدَّث أصدقاؤه بحسنِ اختياره وسلامة ذوقه؟

وهل يجوز لهذه المرأة أن تُخَاطِب الرِّجال وهي في مثل هذا التَّبرُّج؟ وما تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزَاب: ٥٣]؟

الجواب:

إنَّ الله أمر المؤمنات بأن يغضضنَ من أبصارهنَّ ويحفظن فروجهنَّ، وأن يدنينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ، وأن لا يبدينَ زينتهنَّ إلَّا للزَّوج والأبِ والابن ومحارم ذكرها الله العزيز الكريم في الآية (٣١) من سورة النُّور. كما أمر الله ﷻ نبيَّه في الآية (٥٩) من سورة الأحزاب أن يقولَ لأزواجه وبناته ونساءِ المؤمنين أن يدنين عليهنَّ من جلابيبهنَّ.

والمرأة الَّتي تحترم نفسها تُحترَمُ، والمرأة الَّتي لا تبالي بحياتها ولا بعفَّتِها تُهان، وليس بين هاتين المكانتين مكانةٌ وسطى، فإمَّا إهانةٌ ليس دونها إهانةٌ، وإمَّا احترامٌ ليس فوقه احترامٌ.

والله ﷻ أمرَ، وهذا الزَّوج يأمر زوجته بمخالفة أمرِ الله، فلتختر هذه الزَّوجة إحدى الطَّاعتين وإحدى المعصيتين: طاعة الله ومعصية زوجها، أو طاعة زوجها ومعصية الله؛ علمًا أنَّ الرَّسول ﷺ قال لنا: «**لا طاعةَ**

لمخلوقٍ في معصية الخالق»[١].

أمَّا تفسير الآية الَّتي سأل عنها السَّائل: فقد كان العرب فيما مضى إذا أولم أحدهم وليمةً أو نحوها، ودعا القوم إليها يجلسون بعد الأكل يتحدَّثون ويطيلون الجلوس، وكانوا يجلسون مختلطين نساءً ورجالًا، فلمَّا نزلت آية الحجاب أمر الله ﷻ نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يبدأ تنفيذ الأمر في بيته، والله لا يستحيي من الحقِّ، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزَاب: ٥٣]، وذلك كان على الأجانب فقط، أمَّا على الأقارب فإنَّ الآية التَّالية تقول: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ [الأحزَاب: ٥٥]، معنى ذلك: أنَّه لا جناح على المحرم أن يجلِس مع قريبته ويتحدَّث إليها في حدود الحشمة والوقار.

الطَّلاق بسبب العقم

السُّؤال:

تزوَّجني منذ أربع سنين، ولم أنجب، وعيَّرتني النِّساء من أقارب زوجي المتزوِّجات، وكلُّهنَّ أمَّهاتٌ، وقلن لي: إنَّ المرأة إذا لم تحمل ولم تلد تكون عمودًا في جهنَّم أو شبة فيها، «والشَّبة»: كلمةٌ عراقيَّةٌ؛ معناها: قصبٌ يُضمُّ بعضه إلى بعض؛ ليكون عمودًا، يحمل سقفًا من القشِّ والبواري[٢].

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٣٠٧٦).
(٢) البواري: الحصير المنسوج. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٠/ ٢٥٤).

وتقول السَّائلة: وأنا لا أشكُّ في نفسي أنَّني امرأةٌ كاملةٌ طبيعيَّةٌ، عندي استعدادٌ للحمل والولادة، وأنَّ العقم من زوجي، فهل أستطيع الخلاص من العيشة الَّتي أنا فيها إذا رفعت دعوى ضدَّ زوجي؟ فأنا أرغب في الأمومة.

الجواب:

نعم، تستطيعين رفع قضيَّةٍ أمام محكمة الأحوال الشَّخصيَّة إن كنت واثقةً من نفسك، والمحكمة ستحيل الزَّوجين إلى الطَّبيب الشَّرعيِّ.

والحكم الشَّرعيُّ في القضيَّة يكون عند قرار الطَّبيب، فإذا كشف على الرَّجل وحلَّلَ ماءه ووجده خاليًا من الحيوانات المنويَّة، فللمرأة الحقُّ في طلب الطَّلاق إذا رغِبت في النَّسل.

أمَّا ما تقوله النِّساء من أنَّ المرأة إذا لم تنجب تكون عمودًا في جهنَّمَ أو شبة فيها، فهذا لا أصلَ له.

ثمَّ إنَّ بقاء الزَّوجة عند الزَّوج العقيم ليس فيه حلالٌ ولا حرامٌ، وإنَّما هو راجعٌ لرغبة الزَّوجة فقط؛ رغبتها في العيش مع الزَّوج العقيم أو عدمها.

وإذا لم تكن لها رغبةٌ في الإنجاب فلها الحقُّ في البقاء معه، والمسألة أوَّلها وآخرها تعود إلى العاطفة، وإلى القلب.

وختامًا: أرجو لك المستقبل السَّعيد.

صَدَاق

السُّؤال:

لي بنتان تزوَّجتا، لكنِّي لم آخذ من صَدَاقهما شيئًا، ولم أساعدهما بشيءٍ، فهل أنا مدينٌ لهما بشيءٍ؟ وهل عليَّ من ذنبٍ لعدم مساعدتهما في زواجهما؟

الجواب:

لا يباح للوالد أن يأخذ من صَدَاق البنت شيئًا، إلَّا أن تأذن له إذنَ رغبةٍ ورضًا، لا إذنَ حياءٍ وخجلٍ، أو إكراهٍ، وعلى الوالد أن يساعد في مثل هذه الحال مساعدة مروءةٍ وإنسانيَّةٍ إن استطاع ذلك، وإلَّا فلا إكراهَ عليه إن كان ضعيف الحال.

أمَّا ذلك الأب الَّذي يأخذ الصَّدَاق ثمنًا لبنته فلا أدري ماذا أقول عنه، إلَّا أنَّه لئيمٌ.

الحجاب زينة المرأة

السُّؤال:

تحجَّبت عن طيب نفسٍ وشوقٍ إلى الحجاب، لكنِّي بعد مدَّةٍ أحسست أنَّ الحجاب كالقيد، علمًا أنِّي أقرأ كتاب الله وأتفهَّم سورة النُّور، فما

رأيُكم فيما يخالجني من سوء تفكيرٍ حول هذا الموضوع؟

الجواب:

لو كان الحجاب عن طيب خاطرٍ وعن شوقٍ كما تقولين، أو عن اقتناعٍ بالحجاب لَمَا أحسست أنَّه كالقيد، ولكنَّك تحجَّبت تقليدًا أو تجربةً لأجلِ التَّغيير، وهذا هو الَّذي جعلك تحسِّين أنَّ الحجاب قيدٌ، ولو أنَّك قرأت الآيات من سورة النُّور عن إيمانٍ وعن شعورٍ بأنَّ هذا القول أمرٌ من الله لَمَا أحسست بالضِّيق من الحجاب أو بالنُّفور منه.

الحجاب زينة المرأة، وفيه حشمتها، فالمرأة مصونةٌ والصَّون لا يكون بالخُلَاعة، والمال المصون لا يكون عُرْضةً للأيدي والبصائر، بل يكون في حِرزةٍ[1]، والجمال المصون لا تتخطَّفه العيون، وإنَّما يكون مستورًا بالحجاب كما أراد الله له أن يكون، والله الهادي.

ضرب الأطفال واليتامى

السُّؤال:

عندي يتامى أقارب لي، أحيانًا يعبثون فأضربهم، فقيل لي: إنَّ ضربهم حرامٌ، وإنَّ ضربهم يُحْبِط العمل، وأنا امرأةٌ حاجَّةٌ وأصلِّي، فهل ما قيل لي صحيحٌ؟

(١) الحرز: الموضع الحصين. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٥/ ٩٩).

الجواب:

ضرب الأطفال - وخاصَّةً اليتامى - ينقسم إلى قسمين: فإمَّا ظلمٌ أو تأديبٌ، والله ﷻ حرَّمَ الظُّلم، وأمر بالتَّأديب، وأنت على نيَّتك، إن كنت تضربين اليتيم للتَّأديب فليس عليك شيءٌ، وإنَّما لك بذلك ثوابٌ، وضرب التَّأديب ليس فيه قسوةٌ، وإن كنت تضربينهم اعتداءً وظلمًا فأنت ظالمةٌ، والله حرَّم الظُّلم ونهى عنه.

طلاق الغضبان

السُّؤال:

في ليلةٍ من ليالي رمضانَ أوصلني زوجي إلى بيت قريبةٍ لنا، وذهب لزيارة بعض أصدقائه، وحضر متأخِّرًا إليَّ، وتأخَّرت في الخروج إليه، فغضب عليَّ، وقال - وهو في شدَّة الغضب-: عليَّ الطَّلاق إن كنت أحضرتك إلى هذا البيت بعد اليوم.

ومنذ ذلك اليوم، وهو نادمٌ، فهل عليه كفَّارةٌ؟

الجواب:

لا عذرَ في الغضب، والغضب لا يُحِلُّ حرامًا ولا يحرِّمُ حلالًا، لقد قال الرَّجل كلمته، وهو يملك شعورَهُ، ولكنَّها الحماقة عند بعض الرِّجال، يريد أن يكمِّل بها نقصه، ويرفِّه عن نفسه أمام ضعفه الدَّائم.

والأحمق لا ينظر إلى البعيد، ولا يفكِّر في المستقبل، ولا يفكِّر في بيته ولا في أولاده، إن كانوا.

الطَّلاق حلالٌ يبغضُهُ الله، كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الله لا يريد بعباده إلَّا الخير، والطَّلاقُ شرٌّ، والله يريد بعباده الخير، والطَّلاقُ إفسادٌ، والله يريد بعباده الإصلاح، والطَّلاقُ فُرْقةٌ وخصامٌ، والله جلَّ شأنه يريد لعباده الأُلفة، والطَّلاق شتاتٌ وخرابُ بيتٍ، وهدم أسرةٍ، وضياع أولادٍ، ويُتم أطفالٍ، إذا أردَّت - يا رجل - أن تكون قويًّا أمام زوجتك فكن قويًّا بإرادتك لا بكلمة الطَّلاق الَّتي تَذِلُّ بها فيما بعد أمام النَّاس بتشتيت شمل عائلةٍ أراد الله لها أن تجتمع على السَّكن والمودَّة والرَّحمة.

وأخيرًا: أجيب على سؤال السَّائلة: إن كان الرَّجل قال: «عليَّ الطَّلاق منك» تقع منه طلقةٌ متى أوصلك إلى بيت هذا القريب، وإن لم يقل: «عليَّ الطَّلاق منك»، بل قال: «عليَّ الطَّلاق فقط» فلا يقع طلاقٌ، بل عليه إبراءٌ للذِّمة كفَّارةُ يمينٍ.

الطَّلاق بلفظ الثَّلاث

السُّؤال:

كنت أظنُّ نفسي سعيدةً، ولكنَّ السَّعادة كانت خيالًا، أخيرًا وأنا في قمَّةِ المجد تشاجرنا، وإذا به يصرخ في وجهي: أنت طالقٌ، طالقٌ، طالقٌ، واستبدَّ بي الرُّعب، وأخذ يسترضيني، فقلت له: إنَّ الله يشهدُ - وأنا مؤمنةٌ - إنِّي محرَّمَةٌ عليك، فما هو حكمي معه؟

وقال: إنَّ الطَّلاق ما لم يقع في المحكمة، ولا كُتِبَت به وثيقةٌ، فهو طلاقُ لغوٍ، فهل كلامه صحيحٌ؟

الجواب:

كلمات «طالقٌ، طالقٌ، طالقٌ» حيث وقعت مكرَّرَةً في مجلِسٍ واحدٍ، وزمانٍ واحدٍ، تُعدُّ كلُّها طلقةً واحدةً، ولا عِبرةَ للشُّهود، ولا للكتابة، فالكتابة لم تكن في صدر الإسلام، ولا كانت يومئذٍ وثيقةَ زواجٍ، ولا وثيقة طلاقٍ، وقد ابتدعها النَّاس يوم خربت الذِّمم، وقلَّ الصِّدق عند النَّاس، فالزَّواج عقدٌ يقع على سنَّة الله ورسوله، والطَّلاق يقع بحكم الله ورسوله.

والطَّلاق يقع على ثلاثِ مراحلَ؛ لقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩]، وفي آخر الآيتين يقول: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٠].

والطَّلاق وقع مرَّةً واحدةً يستطيع الرَّجل أن يُرَاجع بعده زوجته قولًا وفعلًا إن كانت في العِدَّة، فإن انتهت العِدَّة - وهي ثلاثة قروءٍ - جاز له أن يُرَاجعها إذا وافقت على الرَّجعة بعقدٍ ومهرٍ جديدين.

وقد عِبْنا في أحاديث مضت أولئك الأزواج الَّذين لا يرعون عهدًا، ولا يهتمُّون بأولادٍ، فيتسرَّعون بالطَّلاق، ويهدمون الأسرة، ويضيِّعون الأولاد، وكأنَّ الطَّلاق شيءٌ سهلٌ، وانتقدنا الزَّوجات اللَّواتي لا يصبِرن على ضيم، ولا يرعين حُرْمَةَ بيتٍ ولا مستقبل أولادٍ، وأقول لهؤلاء وأولئك: اتَّقوا الله في بيوتكم، واتَّقوا الله في أولادكم، والله يُصْلِح مَنْ طَلَبَ الإصلاح.

استعمال النَّاس للطَّلاق

السُّؤال:

استخفَّ النَّاس هذه الأيَّام بالطَّلاق، وما هي إلَّا عدوى جاءتنا من غيرنا، وقد يحلِفُ الرَّجل بالطَّلاق من دون أن يشعر جادًّا أو هازلًا أو لاغيًا، وقد يحلِف به على صديقه ليستحثَّه على أمرٍ قد يعجز الصَّديق عن تنفيذه.

فهل يقع الطَّلاقُ بمثل هذا الحَلِف؟

الجواب:

الطَّلاق أمرٌ أباحه الله وكرهه.

أباحه الله ليكون علاجًا يستعمل عند اللُّزوم والضَّرورة، فهو كالدَّواء المرِّ، فمتى استحالت الحياة الزوجيَّة إلى جحيمٍ كان الطَّلاق هو العلاج.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**أبغضُ الحلال إلى الله الطَّلاق**»[1]، رواهُ أبو داودَ والحاكم عن عبد الله بن عمر، قالها صلوات الله وسلامه عليه ليشعرنا بأنَّ الطَّلاق ليس لعبةً أو لهوًا يفعله الإنسان كلَّما أحبَّ أو كلَّما شاء.

شُرِعَ الطَّلاق في حالةٍ واحدةٍ؛ هي حالة اليأس من بقاء الحياة الزوجيَّة

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢١٧٨)، وابن ماجه، رقم: (٢٠١٨)، والحاكم في المستدرك، رقم: (٢٧٩٤)، بلفظ: «**ما أحل الله شيئًا أبغض إليه من الطلاق**».

بين الزَّوجين، بعد سعيٍ ولَأْيٍ[١]، وبعد أن يجتمع حكمٌ من أهله وحكمٌ من أهلها، يسعيان بكلِّ الوسائل للإصلاح بينهما، فإن أبيا لاختلافٍ بينهما في الطبائع، وتباين بالأخلاق، وتنازع في التَّصرُّفات، فحينئذٍ يقع الطَّلاق.

وكلمة الطَّلاق تقع ممَّن نَطَقَ بها جادًّا، وتقع ممَّن نطق بها هازلًا، وتقع جنايتها على الطِّفل، إن كان للمطلَّق من مطلَّقته طفلٌ، فهو الَّذي يبوء بعواقبها، ويتعرَّض لأخطارها، فيحمل من الشَّقاء أثقالًا، ويَلْقَى من النَّكد وبالًا.

يتعرَّض الطِّفل عَقِبَ الطَّلاق إلى مصاعبَ ومخاطرَ، فيُحْرَم من عطف أبويه، ومن حنانهما، وليس ألذُّ على الطِّفل من أن يتمتَّع بعطف أبيه، وحنان أمِّه متفاهمين، ولا ألذُّ إليه من أن يستظِلَّ بظلِّ السَّلام الَّذي يستشعره في بيتهما.

والطَّلاق يحرمه من هذا العطف وهذا الحنان، ومن ظلِّ السَّلام الظَّليل.

ثمَّ ماذا تكون عاقبة هذا الطِّفل؟ الله أعلم، ربَّما كان شقيًّا، وربَّما كان معقَّدًا؛ لأنَّه إذا ذهب إلى بيت أمِّه فلن يجد هناك أباه، وإنَّما يجد من ينهره ويستثقلَّ ظلَّه، وإذا ذهب إلى بيت أبيه فلن يجد فيه أمَّه، بل إنَّه سيجد امرأة أبيه؛ لبوةً ضاريةً تحاول أن تفترسه، وربَّما كان الموت أهون عليها من أن تراه.

فليتَّق الله، وليعقل هذا المتلاعبُ بإحكام اللهِ المتهاونُ بكلمة الطَّلاق

(١) اللأي: الإبطاء. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٣٩/ ٤٢٧).

ما عواقبها في طفله، إن كان له طفل.

وأحبُّ أن أختتم جوابي هذا للسَّائل: بأنَّ الرَّسول ﷺ كره هذه الكلمة، وحدَّثنا بأنَّ الله يكرهها، فقال في حديثٍ رواه الدَّارقطنيُّ عن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معاذ، ما خلق الله شيئًا على وجه الأرض أحبَّ إليه من العَتَاق، ولا خلق الله شيئًا على وجه الأرض أبغضَ من الطَّلاق**»[1].

كان أولى أن تستُري

السُّؤال:

كنت عند بعض أقاربي فعرضوا عليَّ صورة فتاةٍ، وقالوا: إنَّهم سيخطِبونها لابنهم، ولمَّا رأيت الصُّورة عرَفت البنت، فقلتُ لهم: إنَّها غير شريفةٍ، فصرفوا النَّظر عن الخِطبة.

أشعرُ بتأنيب الضَّمير؛ لأنَّني قلتُ هذا، حيثُ إنَّني لم أكن أعرفها جيِّدًا، ولكنِّي كنت قد سمعت بعض الشَّائعات عنها.

هل أنا مخطئةٌ؟ علمًا أنَّ هذه البنت تركت الكويت إلى بلدٍ آخرَ، ولا أعلم عنها شيئًا.

---

(١) رواه الدارقطني، رقم: (٣٩٨٤).

الجواب:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النـُّور: ١٩]، ثـمَّ إنَّك تسرَّعت بخبرٍ لا أساس له إلَّا قول القائل، وقول القائل إن لم يكن له أساسٌ فهو باطلٌ.

اسمعي قول الله ﷻ في سورة النُّور أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النـُّور: ٢٣-٢٥]، فهل رأيت بعينك أو سمعت قرارًا من محكمة بما قلت؟

ثـمَّ إنَّ الله يطلب من عباده السَّتر، فلنفرض أنَّك رأيت، أليس من الأولى أن تستُري؟!

والرَّسول ﷺ يقول: «**ومن ستَر على مؤمنٍ ستَر الله عليه في الدُّنيا والآخرة**»[1].

كان الأولى بك أن تستُري، وأقول للإخوة والأخوات المستمعين والمستمعات إنَّ الله ستَّارٌ، ومن أسمائه الحسنى «السَّتار»[2]، ويحبُّ السَّتر ويجازي عليه الخير.

(١) رواه أحمد، رقم: (١٧٣٩١).

(٢) لم يرو اسم الستار ضمن التسعة والتسعين اسماً، بل ورد أن الله حليم حيي ستير.

صلة الرَّحم

السُّؤال:

أمي أقنعت أختي ومنعتها من زيارتي، علمًا أنَّ أختي تَعُدُّ نفسها من المثقَّفات. أمي قطعت صلة الرَّحم بيننا، فهل هذا جائزٌ في الإسلام؟

الجواب:

الإسلام يأمر بصلة الرَّحم وإيتاء ذوي القربى، فيقول الله جلَّ شأنه في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النّحل: ٩٠]، وينهى عن القطيعة في آياتٍ كثيرةٍ في الكتاب الكريم، وأحاديث كثيرةٍ في السُّنَّة، أذكر منها قوله ﷺ: «**من أحبَّ أن يوسع له رزقه، ويُنْسَأ**[1] **له في أجله، فليَصِل رحمه**»[2].

فإذا كانت والدتك قطعَتكِ فزوريها، وإذا كانت أختك قطعَتكِ فصِليها، والبادئ بالخير أكرمُ، والبادئ بالشَّرِّ أظلمُ، والله الهادي.

(١) النسأ: التأخير، يقال: نسأت الشيء نسأً، وأنسأته إنساءً: إذا أخرته. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (٥/ ٤٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٩٨٦)، ومسلم، رقم: (٢٥٥٧).

العادة الشَّهريَّة وقت الحجِّ

السُّؤال:

ذهبت إلى الحجِّ مرَّتين، وفي المرَّتين تأتيني العادة الشَّهريَّة يوم الوقفة، فأُضطرُّ للمشاهدة من بعيدٍ، حتَّى إنَّني في المرَّة الثَّانية أخذت الحبوب المانعة للعادة، ولكنَّها لم تُفِد معي؛ إذ إنَّ العادة أتت بوقتها، فهل حجَّتي صحيحةٌ؟ وهل سقط عنِّي الفرض؟

الجواب:

إذا كنت واقفةً مع الواقفين في حدود عرفات صحَّت الحجَّة، ولا تلزمُ الطَّهارة للوقوف في عرفات؛ لأنَّ الطَّهارة لا تلزم في كلِّ أعمال الحجِّ، إلَّا للطَّواف فقط، أمَّا الوقوف ورمي الجِمَار والمبيت بمنًى والمزدلفة والسَّعي فهي أمورٌ كلُّها لا تَلزَم لها طهارةٌ.

ولم أفهم ماذا تقصدين بكلمةِ: «وقفت من بعيدٍ»، فإن كان القصد الابتعاد عن النَّاس، والخروج من حدود عرفة، فلا يصحُّ حجُّ مَنْ وقف في غير عرفة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الحجُّ عرفةُ**»[1]، وإن كان القصد جبل الصَّخرات الَّذي يَعُدَّهُ الجُهَّال أنَّه الحجُّ، فهذا أمرٌ غير مشروعٍ، وما دمنا في ذكر جبل الصَّخرات، فلنتكلَّم قليلًا عن الوقوف بعرفة:

المقصود بالوقوف بعرفة: الحضور فيها، وكون الإنسان موجودًا في

(١) رواه الترمذي، رقم: (٨٨٩).

الوقت المقرَّر شرعًا لذلك، سواءٌ كان نائمًا أو صاحيًا، راكبًا أو قاعدًا، مضطجعًا أو جالسًا، واقفًا أو ماشيًا، طاهرًا أو غيرَ طاهرٍ، كالحائض والنُّفساء والجُنُب.

أمَّا جبل الصَّخرات - أو ما يسمُّونه العامَّة جبل الرَّحمة - فقد وقف عنده الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه في وسط عرفة، وقال: «**وقفت ها هنا، وعرفةُ كلُّها موقِفٌ**»(١)، رواه مسلمٌ والنَّسائيُّ وغيرهما.

أمَّا الصُّعود عليه، والاعتقاد بأنَّ الوقوف عنده أمرٌ واجبٌ، أو أنَّه أفضل، أو مشاهدته من بعد العصر إلى الغروب، فهذا أمرٌ خطأٌ.

وإنَّ من أدب الوقوف بعرفة، أن يكون الحاجُّ مُسْتَقبِلَ القِبلةِ في دعائه، وأن يدعو بما شاء من أمر الدِّين والدُّنيا، مع خَشيَة الله وحضور قلبه، ورفع يديه عند الدَّعاء، وأن لا يدعو بمعصيةٍ، ولا على أحدٍ من المسلمين، إلَّا أن يكون ظالمًا، والأفضل أن يدعو له بالهداية.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**خير الدُّعاء دعاء يوم عرفة، وخيرُ ما قلت أنا والنَّبيُّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده، لا شريكَ له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ**»(٢)، رواه أحمدُ والتِّرمذيُّ، وهذه الكلمة ليست دعاء، ولكنَّها ثناءٌ على الله جلَّ شأنه.

والله جلَّ شأنه يقول: «**إذا شغل عبدي ثناؤه عليَّ عن مسألتي أعطيته**

(١) رواه مسلم، رقم: (١٢١٨)، والنسائي، رقم: (٣٩٩٤).
(٢) رواه أحمد، رقم: (٦٩٦١)، والترمذي، رقم: (٣٥٨٥)، وقال: هذا حديث غريب.

أفضلَ ما أعطي السَّائلين»[١].

فعليه أجيب السَّائلة: إذا كان وقوفك في حدود عرفة فحجُّك صحيحٌ، وعلى الله القَبُول.

مدَّة النِّفاس

السُّؤال:

من عادتي أن يكون نِفاسي أقلَّ من عشرين يومًا، فقد وَلَدتُ مرَّتين، طَهَرتُ في الولادة الأولى بعد خمسةَ عشرَ يومًا، وفي الثَّانية بعد ثلاثةَ عشرَ يومًا، وكان عليَّ دينٌ من رمضان، فصمت بعد اليوم الخامس عشر من ولادتي، وقالت لي كثيراتٌ من النِّساء: إنَّه لا يحِلُّ لك أن تصومي قبل تمام الأربعين، وسألت إمام المِحَّلة فتلعثم بالإجابة، ولم أستفد منه ما يُذهِب قلقي، أرجو أن أستمع منكم الجواب المفيد.

الجواب:

اختلف الفقهاء في مِقدَار زمن النِّفاس، قال بعضهم: إنَّه أربعون يومًا، وقال بعضهم: إنَّه ستُّون يومًا، كما أنَّهم اختلفوا في النَّقاء منه؛ هل هو طهارةٌ أم أنَّه نِفاس؟ فقال بعضهم: إن هذا النَّقاء - ولو كان يومًا واحدًا - طهرٌ، يجب على المرأة أن تفعل فيه ما يجب على الطَّاهرات،

(١) رواه البزار في المسند، رقم: (١٣٧)، والترمذي، رقم: (٢٩٢٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وروايته بلفظ: «**من شغله القرآن عن ذكر ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين...**».

تصلِّي وتصوم.

وقال بعضهم: إنَّ النَّقاء إذا كان بعدَ خمسةَ عشرَ يومًا فصاعدًا فهو طهرٌ، وما تراه المرأة بعدها من دمٍ فهو حيضٌ، وليس نِفاسًا، فلو فعلت في هذه الأيَّام ما تفعله الطَّاهراتٍ من صلاةٍ وصيامٍ كان صحيحًا، وإلَّا وجب عليها أن تعيد الصِّيام فقط.

لهذا أقول للسَّائلة: إنَّ ما فعلتيه من صيامٍ وصلاةٍ في أيَّام النَّقاء صحيحٌ، ما دمت مطمئنَّةً أنَّك نقيَّةٌ، وأسأل الله التَّوفيق للجميع.

لكنِّي أَعجَبُ من قومٍ يقولون ما لا يعلمون، ويفترون على الله وعلى رسوله كذبًا.

إهمالٌ أو تقصيرٌ

السُّؤال:

حدث عندي حادثان: الحادث الأوَّل: لي بنتٌ عمرها سنةٌ، تركتها في البيت وحدها، وكان في البيت سراجُ غازٍ، وكانت تحبو فذهبت إلى السِّراج وقلبته على نفسها فاحترقت، ولمَّا رجعتُ وجدتها ميْتةً.

والحادث الثَّاني: ولدٌ كان في شهره الأوَّل فسقيته الدَّواء فمات، فهل عليَّ ذنب؟

الجواب:

أنا لا أعلم الذَّنب؛ لأنَّ العلم بالذَّنب لله، ولكنَّي علمت الآن أنَّك

امرأةٌ مهملة لإقرارك في الحادثة الأولى أنَّك تركت طفلةً لا تعِقل أمام نفطٍ ونارٍ، وفي الثَّاني سقيت طفلًا دواءً من دون إرشاد طبيبٍ، ومن دون علمه فشرِقَ فمات؛ لأنَّك صنعت من نفسك طبيبةً من دون حقٍّ، أو أنَّك استرشدت بمن ادَّعت الطِّبَّ، والشَّريعة تطالبك بذنب قتل النَّفس، فأنت مقصِّرة، هذا ما أستطيع قوله لك، والله يتولَّاك.

أجبت على هذا السُّؤال، وأريد أن أنصح الأمَّهات الشَّابَّات أن يتقينَ الله في أولادهنَّ، فلا يهملنَهم مع من لا يخاف الله ولا يتَّقيه؛ لأنِّي أعرف كثيرًا من الخادمات يهملنَ الأولاد، ويسهرون مع بعضهنَّ من دون انتباه إلى صيحة الطِّفل أو يقظته.

فالطِّفل يبول ويتضايق، أو يستفرِغ ويتضايق، أو يلبَس الثَّوب من دون النَّظر إلى شيءٍ يحصل له منه حساسيَّةٌ فيستيقظ، والحوادث في المحكمة كثيرةٌ، أرجو أن ينتبه لها الآباء والأمَّهات، فلا يهملنَ الطِّفل مع خادمةٍ لا تمتُّ له بصلةٍ إلَّا صلة الرَّاتب، فالخادمة تَعُدُّ الأيَّام لتقبض، ولا يهمُّها شيءٌ سوى القبض.

اتَّقين الله في الأطفال يا أمَّهاتنا الشَّابَّات.

الوفاء كما أخذت

السُّؤال:

استدنت من زوجتي سنة (٦٢) قلادتَها الذَّهبيَّة الَّتي كان أبوها قد أعطاها إيَّاها، والآن زوجتي تطالبني بهذه القلادة أو وزنها ذهبًا، ووزنُها

سبعُ جنيهاتٍ، أو قيمتها بسعر اليوم، وأنا لا أستطيع أن أدفَع ذلك، فهل لها الحقُّ بمطالبتي بسعر الذَّهب اليوم؟

الجواب:

أنت أخذت ذهبًا، ويجب عليك أن تفي دينك ذهبًا كما أخذت، ومطالبة زوجتك بالجنيه معناه إسقاط أجر المصاغ عنكَ، ولها الحقُّ أن تطالبك أيضًا بأجر المصاغ؛ لأنَّك أخذت منها ذهبًا مُصَاغًا، وواجب عليك أن تردَّ عليها ذهبًا مُصَاغًا.

زوجتك على حقٍّ، أعطها سبع جنيهات أو قيمتها في الوقت الحاضر إذا رضيت بذلك، ومن نوى الوفاء أعانه الله، والَّذي قال لك: «يجب عليك أن ترضيها» صادقٌ.

حيض المُدَرِّسة وتعليم الدِّين

السُّؤال:

مُدَرِّسَة دينٍ تضطرُّها الوظيفة حال حيضها إلى لمس المصحف أو قراءة الآية أو الإشارة إليها بالمصحف، هل يباح لها ذلك؟ أو تمتنع عن إعطاء الدُّروس؟

الجواب:

الحيض من الأمور الطَّبيعيَّة، فِطْرة فطر الله عليها بناتَ آدم، والحيض دليل على صحَّة المرأة، وقد حرَّم الفقهاء على الحائض الصَّلاة، ولمس المصحف، والطَّواف بالكعبة، وقراءة القرآن، والمُكْثَ في المسجد.

وفي موضوع السُّؤال خلافٌ بين المذاهب هو: هل يجوز للحائض أن تقرأ؟ وأجمع العلماء في جميع المذاهب على كلمة لا.

لكنَّ المالكيَّة أجازوا للمعلِّمة والمتعلِّمة فقط القراءةَ ولمسَ المصحف في حالة التَّعليم للضَّرورة.

أمَّا الحنفيَّة فأجازوا تلاوة الآيات للمعلِّمة تلقينًا للمتعلِّمة بلا لمسٍ للمصحف.

وما دام الأمر كذلك، فنقول للسَّائل؛ جوابًا على سؤاله: يباح للمرأة الحائض إذا كانت معلِّمةً أو متعلِّمةً أن تلمس المصحف وتقرأ الآية في حالة الضَّرورة والتَّلبُّس بوظيفة تعليم القرآن وتعلُّمه، أمَّا في غير تلك الحالة فلا.

والأولى لها، والأولى بها - تنزيهًا وخروجًا من الخلاف - أن تلبَس قفَّازين بكفَّيها؛ احتياطًا وامتثالًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقِعَة: ٧٧-٧٩].

الحيض والنِّفاس

السُّؤال:

ما معنى قول أمِّ المؤمنين عائشة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنها: «**وأيُّكم يملك إِرْبَه[1] كما كان النَّبيُّ ﷺ يملك إِرْبَه!**».

(١) الإرب: الحاجة. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٢/ ١٦).

الجواب:

الحديث يفسِّرُ آخره أوَّله، فالمباشرة الَّتي كانت تقصدها عائشة هي المُدَاعبة والمُلَاطفة فقط؛ لأنَّه ﷺ كان يملك إِرْبه، فلم ينزل إلى المستوى الَّذي ينزل إليه الَّذين لا يملكون إِرْبهم، ولا يكبحون جماحهم، ولو أنَّه أراد شيئًا غير المداعبة والملاطفة لَمَا قالت عائشة كلمتها: «. . .**أيُّكم كان يملك إِرْبه**. . .»[١]، ولَمَا كان أمرها أن تتَّزر.

وأؤيِّد قولي هذا بحديث رواه مالك عن يزيدَ بن أسلمَ رضي الله عنه، أنَّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ: ما يحِلُّ لي من امرأتي وهي حائضٌ، فأجابه: «**لتشدَّ عليها إزارها ثمَّ شَأْنَكَ بأعلاها**»[٢].

وفي كتب الفقه أباح الإسلام مداعبةَ المرأة وملاعبتها، وهي حائضٌ، والقصد من ذِكْر هذا الحديث هو أنَّ الشَّرائع قبل الإسلام كانت تأمر بمجانبة المرأة واعتزالها مدَّةَ الحيض، فلا يأكلون معها ولا يأكلون من إناءٍ أكلت فيه، ولا يشربون من إناءٍ شربت فيه، ولا تنام على فراشٍ يستعمل إلَّا لمثلها. . . إلى آخر ما هنالك من نبذ المرأة الحائض وإبعادها؛ لأنَّها نَجِسَةٌ، فالإسلام كرَّمها كما كرَّمَ سائر بني آدم، وجعل مَحْيَض اسم مكانٍ، كمَكْتَب «محلُّ الكتابة»، ومَرْقَد «محل الرُّقاد»، أو اسم زمانٍ كذلك، وأرجو أن يكون السَّائل وغيره قد فهموا المعنى، ورفعوا مَقَام النُّبوَّة أن ينزِل إلى مستوى من لا يملكون إِرْبهم، أو إلى مفهوم من لا يحسنون لغتهم ولا يفهمون معنى كلماتها.

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٠٢)، ومسلم، رقم: (٢٩٣).
(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٨٩٥).

الدِّين عقيدةٌ

السُّؤال:

أنا أرمنيَّةٌ كاثوليكيَّةٌ، وزوجي مثلي أرمنيٌّ مسيحيٌّ كاثوليكيٌّ، هجرت زوجي منذ سنتين، وعلمت أنَّه أسلم وتزوَّج مسيحيَّةً غيري حتَّى لا يطلِّقني.

إنِّي أريد أن أُسلِم لأتزوَّج مسلمًا، فهل يباح لي ذلك دون طلاقٍ من الزَّوج الأوَّل؟

الجواب:

الدِّين ليس ثوبًا ينزِعُه الإنسان متى أراد ليلبَس غيره، والدِّين ليس ريشةَ صبَّاغٍ ينتقل بها من لونٍ إلى لونٍ، حسب ما يقتضيه الحال، إنَّ الدِّين - أيُّها الإخوة - عقيدةٌ في القلب، تصدِّقُها الجوارح والمعاملة.

وجوابي لماري: هجرت زوجَك ومكرت به، فكافأك بإسلامٍ يكيدُك به، يبيح له أن يتزوَّجَ غيرك، وتبقين في عصمته إلى الموت.

إسلامك لا يفيدك؛ لأنَّك باقيةٌ في عصمته، حتَّى لو كان صادقًا في إسلامه أو ماكرًا فيه.

نعم، لو أنَّك أسلمت قبله لأمكنَ فسخ نكاحك منه، ولكنَّه لو أسلم قبل انقضاء عدَّتك، بعد الإسلام أو قبل دخولك في عصمة شخصٍ غيره، استعادك لعصمته.

إنَّ إسلامك لا يفيد، وإن كنت متضرِّرةً فارفعي دعوى فسخ نكاح لدى محكمة الأحوال الشَّخصيَّة.

زواجٌ بإكراهٍ

السُّؤال:

زوَّجها أبوها كَرْهًا كعادة البدو، لم ترَ زوجها ولم تعرفه إلَّا ليلة الدُّخلة، وهدَّدها أبوها ليلةَ الدُّخلة أن يصيبها بمكروهٍ إن لم تلتزم الهدوء معه، وتُظهِر الرِّضا له.

صبرت وتألَّمت، وصارحته بكُرهها له، وطلبَت منه الطَّلاق فأبى، علمًا أنَّه أكبر من أبيها، هي الآن حُبْلى، فهل يستجاب لها إن طلبت الطَّلاق من المحكمة؟

الجواب:

كان الأولى بهذا الرَّجل الَّذي صارحته زوجته بكُرْهها له أن يستجيب لها، ويستريح منها بطلقةٍ قبل أن تكون الثَّمرة.

وجوابي لسؤال رشدان:

لا مانعَ لهذه الزَّوجة أن تطلب الطَّلاق، ولا مانعَ أن ترفع دعوى للمحكمة، ولكن للمحكمة رأيَها، فهل تقتنع المحكمة بدعوى المدَّعية أو تقتنع بقول الرَّجل المُدَّعَى عليه، لا أدري؟!

المحكمة تسمع منها ومنه ثمَّ تَزِن القولين بميزان العدالة، ثمَّ تحكم، فقد تُرْفض دعواها وتبقى معلَّقةً، لا هي زوجةٌ ولا هي مطلَّقةٌ.

الزَّواج قسمةٌ ونصيبٌ

السُّؤال:

تزوَّج ابني وأنا غير راضيةٍ عن زواجه، وزوجته وزوجةُ والدها لا يحبَّانِنَا، وقد رفضنَ بناتي أن يكنَّ زوجاتٍ لأبنائه.

زوجي وافق على هذا الزَّواج، ولم يبالِ باعتراضاتي، فهل يعتبر هذا الابن عاقًّا؟ وهل يجوز له أن يتزوَّج دون رضاي؟

الجواب:

عجيبٌ أمركِ يا أمَّ العريس؛ لأنَّ والد العروس رفض بناتكِ زوجاتٍ لأبنائه تريدين حرمان ولدَك من بنته؟ وما دخل هذه بهذه؟

ألا تشكرين الله على ما أنعم؟ لعلَّ هناك شرًّا دفعه الله عن بناتك، والرَّسول ﷺ قال: «**لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع**»[1].

دعي ابنك سعيدًا في زواجه، وادعي له بالتَّوفيق وحُسنِ المستقبل، وتحبَّبي إلى زوجته، وتجنَّبي معها الشِّقَاق وكَدَر ولدك، ودعي العاطفة ولا تظلِمي فتُظلَم بناتك، وبيت الظَّالم خراب، ولبناتك نصيبهنَّ

(١) لم أقف عليه، ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية.

المكتوب، والزَّواج كلُّه - كما يقول المثل - قسمةٌ ونصيبٌ.

هل أترك زوجي طاعةً لأمِّي؟

السُّؤال:

أمِّي تُلحُّ عليَّ أن أترك زوجي، وأنا أحبُّ زوجي، وهو يحبُّني، وأمِّي تقول: إذا لم تطيعيني فمصيرك إلى النَّار، والجنَّة تحت أقدام الأمَّهات، فهل أترك زوجي طاعةً لها، وأنا - والله - أحبُّ زوجي؟ أرشدني يا عمُّ.

الجواب:

أطيعي ربَّك، وعمِّري بيتك، أمُّك هذه ظالمةٌ وعاصيةٌ، إنَّ الله أمر المسلمين بالوفاق والأُلفة، وأمُّك تأمر بالفرقة، والله يأمر بالإصلاح بين الزَّوجين، وأمُّك تأمرك بالتَّفريق بينكما، والله يأمر بتوحيد المجتمع وبناء الأسرة، وأمُّك تأمرك بهدمها، والرَّسول ﷺ قال لنا: «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق**»[1]، فلا تطيعي أمَّك؛ لأنَّها تأمرك بمعصية الله.

ومَنْ أولى بالطَّاعة: أمُّك أو ربُّك؟

لا يا بنتي، إذا كنت مسلمةً فعليك بطاعة ربِّك، فإنَّه هو الَّذي يملِك أمر دخول الجنَّة، وليست أمُّك.

أطيعي أمَّك في طاعة الله وفي حدود المباح، ولا تطيعيها في معصية الله.

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (١٤٨٧٥).

لا تُكْرِهوا بناتكم على الزَّواج

السُّؤال:

أبي يُكرهُني على الزَّواج من إنسانٍ لا أريده زوجًا لي، ولم يستشرني في هذا الموضوع، ولا استشار أمِّي وإخوتي المتزوِّجين الَّذين هم أكبرُ منِّي والَّذين يسكنون معنا، هل أُحطِّم نفسي وأرضى بالعيش مع إنسانٍ أكرهه. . .إلى آخر ما جاء في رسالة البنت «حنان»؟

الجواب:

أقول للآباء: يا ناسُ، اتَّقوا الله، خافوا الله، زمنُ الإكراه ولَّى، نحن الآن نعيش في زمن معرفةٍ وعلمٍ، والإسلام لا يُكْرِه البنت على الزَّواج ممَّن لا ترضاه زوجًا لها.

وأذكر أنِّي كلَّمتكم من هذا الجهاز ومن الإذاعة، وقلت: إنَّ زمن الجهل ولَّى، والآن نعيش في زمن معرفةٍ وانفتاح العقل.

وبالزَّواج تبدأ مرحلةٌ جديدةٌ من مراحل الحياة، يجب أن تكون على أساسٍ من الرِّضا والقَبُول، فمتى بدأت هذه المرحلة بالكره فلن تكون سعيدةً في المستقبل.

أيُّها الأب، ابتعد عن الَّتي هي أسوأ، وتمسَّك بالَّتي هي أحسن، واعلم - إن كنت مسلمًا - أنَّ الزَّواج رِبَاطٌ مقدَّسٌ مبنيٌّ على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله، حبٌّ ووفاءٌ أساسُه إصلاحٌ، وقوامه سكنٌ، وكتاب الله وسنَّة رسوله لا يأمران بالإكراه، والإكراه لا يأتي بالسَّعادة الَّتي يريدها الله

جلَّ شأنه ثمرةً للزَّواج.

إنَّ الله يريد من الزَّواج بناء أسرةٍ تهنأُ بحياةٍ سعيدةٍ رغدةٍ هانئةٍ بعيدةٍ عن المتاعب والمَكَاره.

والإسلام يريد أن يكون بيت الزَّوجيَّة جنَّةً عامرةً بالحبِّ، يجِد فيها الرَّجل سكنَه وراحتَه، وتجِد فيها المرأة ثمرتَها وكرامَتها وهناءها، والإكراه لا يُثمر هذه الثَّمرة.

لهذا أقول: يا أب، لا تُكْرِه بنتك على زواجٍ ممَّن لا تريده، فإنَّ الإسلام لم يجعل بنتك عبدةً مملوكةً تبيعها لمن تشاء أو تَهَبَها لمن تشاء.

البنت إنسانةٌ لها كرامتها، فكن كريمًا معها، واحفظ لها كرامتها، وأسألُ الله للجميع الهداية إلى سواء السَّبيل.

لا تُصدِّق

السُّؤال:

تزوَّجت منذ سنةٍ، ورأت أختي منامًا فسَّرته لها إحدى المفسِّرات، وقالت: إنَّ عيشتي مع هذه المرأة قصيرةٌ، علمًا أنَّ عندي من المرأة طفلٌ، ولم أرَ منها أيَّ سوءٍ أو خطأٍ، فما رأيك؟ وقصَّ السَّائل عليَّ رُؤيَا أختِه.

الجواب:

أمَّا أنا فقد لا أصدِّق برؤية العين، حتَّى أصدِّق برؤيا المنام.

وأنا لا أنكر الرُّؤيا الصَّالحة، ولكن متى؟ ومن أين؟ وكيف؟ ومَنِ الرَّائي؟

ونحن في زمن نرى فيه الشَّرَّ أكثر من الخير، والسَّيِّئ أكثر من الحَسَنِ، والرَّذيلة طغت على الفضيلة.

قد تَصدُق الرُّؤيا، ولكن مَنْ يفسِّرها؟ ولتفسير الرُّؤيا علمٌ، وقد يصادف أن يرى شخصان رؤيا واحدةً يكون تفسيرها لأحدهما غيره للآخر.

على كل حال أظنُّ - وبعضُ الظَّنِّ إثمٌ - أنَّ أختك تكره زوجتك، واختلقت هذه الرُّؤيا، واختلقت تفسيرها عن الشَّوَّافة، لتباعد بينك وبين زوجتك.

وقد تكون أختك صادقة في رؤياها، لكن لُبس السَّواد وتنظيف البيت لا يدلُّ على فراقٍ؛ لأنَّ النَّظافة من الإيمان، ولأنَّ السَّواد سؤددٌ وسيادةٌ وبركةٌ.

لهذا أقول لك: تمسَّك بزوجتك، وحافظ على أمِّ ولدك وتمسَّك بطفلك، ولِيعشِ الطِّفل يتمتَّع برعايتك وحنان أمِّه.

والله يهدي الجميع، ويكفينا شرَّ الشَّوَّافين والشَّوَّافات.

خبَّبَ امرأة على زوجها ثمَّ تزوَّجها

السُّؤال:

لي ابنة عمٍّ كانت تعيش مع أسرتها في بلدةٍ بعيدةٍ عنَّا، ولم أرَها منذ كانت في الثَّانيةَ عشرةَ من عمرها، وكنتُ أحبُّها، ومنعني من خِطبتها ضيق ذات يدي.

وبعد أن يسَّرَ الله لي أموري عدت إلى بلدي لأجدها قد تزوَّجت، وكانت حُبْلى في شهرها السَّابع، وغير سعيدةٍ مع زوجها، فاتَّفقت معها على أن تطلب الطَّلاق منه لنتزوَّج فلم تتردَّد، وكذلك وافق أهلها على ذلك، وفعلًا تمَّ الطَّلاق، وبعد أن انتهت عدَّتها بالولادة تزوَّجتها، بعد أن سلَّمنا المولودة إلى والدها.

أنا الآن أعيش معها في سعادةٍ تامَّةٍ، لكنِّي أخاف عقاب الله؛ لأنِّي دفعتها لطلب الطَّلاق من زوجها لأتزوَّجها، وأنا رجلٌ مسلمٌ عاقلٌ، أعرف أحكام ديني، ولا أملك شيئًا من الدُّنيا أعزَّ من إيماني، وهو أفضل شيءٍ بالنِّسبة لي، فهل عليَّ من ذنبٍ؟

هذا مع العلم أنَّنا كنَّا ننوي الزَّواج من صغرنا، لولا ظروفي الماليَّة الصَّعبة الَّتي منعتني من ذلك.

الجواب:

والله يا سائل، لا أدري ماذا أقول في جوابي لك، إلَّا أنِّي قرأت

حديثاً معناه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ملعونٌ من خبَّبَ**[١] **امرأةً على زوجها**»[٢]، وأنت خبَّبت هذه المرأة على زوجها أبي بنتها، وهي حُبْلى؛ لتتزوَّجها، وتقول في رسالتك: إنَّك متديِّنٌ وعالمٌ بأمور دينك، ولا تملِكُ شيئًا غير الإيمان، فأين عملك هذا من الإيمان ومن التَّديُّن، هدمت أسرةً وأفسدت زوجةً، وباعدت بين طفلةٍ وحنان أمِّها، فأيُّ ديانةٍ هذه؟ وأيُّ إيمانٍ هذا؟ وأيُّ علمٍ بأمور الدِّين؟ فإن فعلت هذا، وأنت عالمٌ حقيقةَ أمور دينك، فأنت ممَّن أضلَّهم الله على علمٍ.

استغفر لذلك الزَّوج المسكين وتُب إلى ربِّك، وحاول الجمع بين الأمِّ وبنتها حتَّى يُسعد الله حياتك، والله الهادي.

أرشدني

السُّؤال:

تقدَّم لأبي شابٌّ مسلمٌ غيرُ عربيٍّ يطلب يدي، فرفضه بقوله: الزَّواج حياة عمرٍ، وهذا الولد لا يصلح.

سألت والدي: لماذا؟ فقال: لا أُنكِر عليه شيئًا، ولكن عندي هدفٌ معيَّنٌ عرفت منه أنَّ هذا الرَّجل لا يصلح لنا، وأنا أريد لك الخير يا بنتي.

---

(١) خبب: خدع وأفسد. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (٢/ ٤).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٢١٧٥)، بلفظ: «**ليس منا من خبب امرأةً على زوجها...**».

لا أريد أن يغضب والدي منِّي، لكن أريد أن أقنعه بطريقةٍ أكسب بها حياتي مع هذا الرَّجل، فأرشدني جزاك الله خيرًا.

الجواب:

يا ابنتي، أرشدك الله! والدك رجلٌ عاقلٌ، ويتكلَّم عن تجربةٍ، وأنت ما زلت صغيرةً تتكلَّمين عن عاطفةٍ، والمجرِّب أفضل، والدك أعرفُ منك؛ لأنَّه يقول لك: لم يرفضه لشيءٍ في خُلُقِه أو في سمعته أو في شبابه أو في دينه، لكنَّه يرفضه من أجل هدفٍ معيَّنٍ هو أعرف به.

أطيعي والدك، أشرف لك، وأحفظ لمستقبلك، وأكرم لك عند الله، وإذا كان والدك كما ذكرت فإنَّه رجلٌ مجرِّبٌ يتكلَّم عن حكمةٍ.

والله يرعاك.

الرِّجال قوَّامون على النِّساء

السُّؤال:

ما رأيكم في قول الله ﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، هل معنى ذلك التَّفضيل؟ حصل بيني وبين طبيبٍ جدالٌ في معنى هذه الكلمة، هل القوامة مُطْلَقة أم مَحْددةٌ؟ هل القوامة معناها التَّفضيل؟ هل القوامة سيادةٌ للرَّجل وعبوديَّةٌ للمرأة؟ هل القوامة سلاحٌ يهدِّد به الرَّجل زوجته دائمًا؟ . . .إلخ ما جاء في رسالة السَّائلة

الجواب:

التَّفضيل لمن اتَّقى، كما ذكره الله ﷻ في كتابه العزيز الَّذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقال جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، فالأتقى هو الأفضل، سواءٌ كان ذكرًا أو أنثى.

والقوامة الَّتي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّسَاء: ٣٤] ليست قوامةَ سلطةٍ ولا إهانةٍ ولا استعبادٍ، إنَّها قوامة رعايةٍ وإنفاقٍ ومسؤوليَّةٍ.

دين الإسلام - كما قالت السَّائلة - دين رحمةٍ ومودَّةٍ، دينٌ كرَّم الإنسان بجنسين، دينٌ قال نبيُّهُ للنَّاس: «**يا أيُّها النَّاس كلُّكم لآدمَ، وآدمُ من ترابٍ**»(١)، «**لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ إلَّا بالتَّقوى**»(٢).

قوامة الرَّجل قوامةٌ محددةٌ، إنَّها قوامة القوَّة في البدن، يستطيع الرَّجل بها أن يقوم بالعمل الشَّاقِّ؛ لينفق على المرأة، ويستطيع أيضًا بقوة بدنه أن يدافعَ عن حِمَاه، بينما المرأة خلقها الله لِتكون أمًّا مربيَّةً للجيل، راعيةً له حتَّى يشِبَّ، ومتى شبَّ بدأت برعاية غيره، فهي ودودٌ ولودٌ.

خلق الله الإنسان من ذكرٍ وأنثى، الذَّكر قويٌّ في بدنه، قويٌّ في إرادته، يستسهل الصَّعب ويذلِّل العصيب، والمرأة رقيقةٌ، ترعى وتحِنُّ وتعطف، والله عالمٌ بأحوال الجنسين، جعل المرأة سكنًا للزَّوج، وأمًّا للطِّفل، وجعل بينهما المودَّة والرَّحمة، فلا سلطة لأحدٍ على أحدٍ.

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٥٥)، وقال: هذا حديث حسن، بلفظ: «**لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا...**»، وأحمد، رقم: (٨٧٣٦)، بلفظ: «**إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عبية الجاهلية...**».

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩).

أمَّا الزَّواج بثانيةٍ أو ثالثةٍ أو رابعةٍ بلا سببٍ فذلك إسرافٌ وتبذيرٌ، والله ﷻ عندما أحلَّ الزَّواج من أربعٍ اشترط العدل، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النِّسَاء: ٣]، وقال نبيُّ الإسلام عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام: «**من كانت له امرأتان فلم يعدِل بينهما جاء يوم القيامة، وشِقُّه مائل**»(١)، معنى ذلك أنَّه يأتي يوم القيامة يمشي كالمفلوج، أمَّا ذلك الحديث الَّذي شاع بين النَّاس «**لو أمرت أحدًا أن يسجدَ لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»(٢)، أو ما جاء في معنى ذلك كما روى الإمام أحمد في «مسنده»، ومعناه: أنَّ الرَّجل واجب عليه أن يتعب ليستريح أهله، فلا يشقون في وجوده بينهم، وهذا ما كان عليه عباد الله الصالحون.

وليعلم الجميع أنَّ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، فالطَّاعة لله وحده، والزَّوج إذا أمر زوجته في حدود طاعة الله وجب عليها طاعته، أمَّا إذا كانت أوامره خارجةً عن حدود الله فإنَّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

امرأةٌ تاجرةٌ

السُّؤال:

إنِّي امرأةٌ تاجرةٌ، هكذا تزوَّجني زوجي، وأنا مضطرَّةٌ للسَّفر ومقابلة

(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٤١)، بلفظ: «**إذا كان عند رجل امرأتان، فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة، وشقه ساقط**».

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١١٥٩)، وقال: حديث حسن غريب.

العملاء، وعملي يحتِّم عليَّ أن أفعل هذا، لكنَّ زوجي يعارض سفري، ويعارض مواصلتي العملَ التِّجاريَّ، فكيف أتصرَّف في أموالي الخاصَّة الموروثة والمكتسبة؟

الجواب:

إذا كان الرَّجل قد تزوَّجك تاجرةً فعليه أن يرضى، ويوافق على قيامك بأعمال التِّجارة، أمَّا إذا تزوَّجك ربَّةَ بيتٍ ثمَّ جاءتك الثَّروة من ميراثٍ - وتريدين أن تعملي تاجرةً - فله الحقُّ أن يمنعك؛ لأنَّه يريدك كما تزوَّجك ربَّةَ بيتٍ.

هذا جوابي، وليس عندي جوابٌ غيره، لكن لا بدَّ أن أستعين برأي الإخوة والأخوات المشاهدين والمشاهدات؛ لأنَّ هذا السُّؤال اجتماعيٌّ أكثر من كونه فقهيًّا، علمًا أنَّ الإسلام دينٌ لا يعجز عن حلِّ أيِّ مشكلةٍ من المشاكل، ما لم تكن فيها مخالفةٌ للدِّين، فإنَّه يأمر بملازمة الحدود.

حُسْن الظَّنِّ

السُّؤال:

زوجي رجلٌ طيِّبٌ، لا يكذب، ولا ينافق، ولا يملك من دنياه إلَّا اسمَه وسمعتَه، يصلِّي دائمًا، ولا يترك فرضًا من الصَّلوات، ولا يغتاب إنسانًا، ولا يجلِس في مجالس السُّوء، ويظنُّ الخير بكلِّ إنسانٍ، وهذا الظَّنُّ أوقعه في مِصْيَدةٍ كبيرةٍ، لا نعرف كيف نخرج منها، ولا أستطيع أن أشرح لك أكثر من ذلك؛ لأنِّي أخاف الفضيحة، فبالله عليك، هل يجوز

للإنسان في مثل هذا الزمان أن يُحسن الظَّنَّ بكلِّ أحدٍ وبكلِّ مَنْ يتملَّق له ويتقرَّب منه ويثني عليه؟

الجواب:

سمعت مثلًا قديمًا جدًّا، قاله رجل كنَّا نَعُدُّه من كبار العقلاء فينا، لفظ هذا المثل: «سوء الظَّنِّ فطنةٌ».

لكنَّ الله ﷻ قال - وقوله حقٌّ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجرَات: ١٢].

وقد رأيت الكثيرين فعلوا الخير فلم يخسروا، فعلوا الخير لله، لا لدنيا يصيبونها، أو ربحٍ يكسبونه، فجزاهم الله على خيرهم خيرًا، وكفاهم الشَّرَّ، وإن أصابتهم خسارةٌ أو ضررٌ، فإنَّما هو خَسَارٌ مؤقَّتٌ، وضررٌ غير بليغٍ، وكان الرِّبح الَّذي ربحوه سمعةً طيِّبةً، ومكانةً في المجتمع، وكسبًا في المال.

والطَّيِّب لا يخسر، وقد أثنيتِ على زوجك بالصِّدق والأمانة والصَّراحة والعِفَّة في العِرْضِ واللِّسان، وهذه صفاتٌ قلَّ أن يملكها إنسانٌ في مثل هذا الزَّمن.

علمًا أنَّ الزَّمن هو الزَّمن على الأرض في ليله ونهاره، والإنسان هو الإنسان في كلِّ زمنٍ، وإن اختلفت الأماكن، فقد يكون الإنسان اليوم في شمال الأرض طيِّبًا، وفي جنوبها فاسدًا، وقد ينعكس الوضع، وقد يكون المجتمع في بلدٍ من البلاد صالحًا، بينما هو في الأخرى فاسدًا، لكنَّ الله دائمًا مع من أحسنَ الظَّنَّ به، وأحسن خُلُقه مع النَّاس.

والرَّسول ﷺ بشَّرنا أنَّ الخُلُق الحسن هو الرَّابح صاحبه في الدُّنيا والآخرة[١].

لكن على المؤمن أن يكون كما وصفه الرَّسول ﷺ فطنًا حذرًا، فقد أخبرنا ﷺ: «**إنَّ المؤمن لا يُلْدَغُ من جُحْرٍ مرتين**»[٢] كما روى ذلك البخاريُّ ومسلمٌ والإمام أحمد.

ومعنى هذا أنَّه كثير الحذر، ومتى أصيب بشرٌ انتبه لغيره.

إرغام البنت على الزَّواج

السُّؤال:

فتاةٌ في السَّادسةَ عشر من عمرها ما تزال تلميذةً، خطبها رجلٌ عمره (٣٨) سنةً، متزوِّجٌ وله أولادٌ، عمر أحدهم أكبرُ من هذه البنت، وأبو البنت راغبٌ في تزويج بنته منه؛ لأنَّه غنيٌّ، والبنت ترفض الزَّواج منه، وتسأل: هل يُجْبِرُ الأب ابنته على هذا الزَّواج الَّذي لا ترضاه؟ وهل لها رأيٌ فيمن تختاره زوجًا لها أو كما تقول هي: شريكَ حياتها؟ وإذا رفضت الزَّواج فهل يُسْمَعُ قولها؟

الجواب:

للأب أن يجِبَر، ولكن في حدود مصلحة البنت، وبقاء الحياة

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٧٥٥٣)، بلفظ: «**من أعطي حظه من الرفق، أعطي حظه من الخير، وليس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن**».

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦١٣٣)، ومسلم، رقم: (٢٩٩٨)، وأحمد، رقم: (٥٩٦٤).

الزَّوجيَّة، وإذا رفضت البنت هذه المصلحة ورأى الأب أن رفْضَها يخالف المصلحة فله أن يجبِرها على المصلحة المؤكَّدة، على شرط سلامةِ الحياة الزَّوجيَّة من النَّكد، وللبنت رأيٌ؛ لأنَّها هي الَّتي ستكون زوجةً، وليس الأبُ، وهي الَّتي ستعاشر الزَّوج ليلًا ونهارًا، في نومها ويقظتها، في سرِّها وعلانيَّتها، في كلِّ شأنٍ من شؤونها.

وبنتُ اليوم غيرُ بنتِ الأمس، وعقليَّتها غيرُ عقليَّة تلك، فهي اليوم تستطيع أن تكيِّف نفسها، وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ - كما تروي لنا كتب السُّنن - أنَّ امرأةً جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له ما معناه: «**إنَّ أبي زوَّجني من زوجٍ لا أرغب فيه، فأجابها الرَّسول ﷺ بما معناه: أنَّ رأيها لها، ولها حقٌّ في أن ترفض هذا الزَّواج، ولكنَّها قالت بعد: إنِّي رضيت - يا رسول الله - بمن رضيه لي أبي، ولكنِّي أحببت أن يعلم النَّاس أنَّ للنِّساء رأيهنَّ، وأنَّه لا يحِقُّ للآباء أن يُكْرِهُوا بناتهم على من لا يرغبنَ بهم**»[1]، رواه ابن ماجه عن عبد الله بن بريدة، وروى نحوه أحمدُ عن ابن عبَّاسٍ.

وإنِّي أحبُّ أن أُسِرَّ في أُذُنِ كلِّ أبٍ يحبُّ ابنته، ويريد لها هناءة العيش، أن لا يُكْرِهُها على من لا ترغب به زوجًا لها، فالزَّواج عيشةٌ، والزَّواج حياةٌ، والزَّواج شركة عمرٍ، والزَّواج تكوين مجتمعٍ، وهو تكوين أسرةٍ في مجتمعٍ، إنَّه لَبِنَةٌ لبناء هذا المجتمع الَّذي يتكوَّن منه الوطن، فإذا كانت اللَّبِنة قويَّةً كان البناء قويًّا، أمَّا إذا كانت هشَّةً تفتَّتت، ويُخْشَى بعد ذلك على البناء أن يسقط.

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٧٤)، وأحمد، رقم: (٢٥٠٤٣)، بلفظ: «**إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته...**».

والزَّواج إذا لم يوافقه التَّآلف بين الزَّوجين، يكون نكدًا، ويكون عُشُّ الزَّوجيَّة جحيمًا، ويكون الخِصام بين الزَّوجين قائمًا، وذرِّيَّةً يثمرها هذا الزَّواج تكون معقَّدةً.

أمَّا الذُّرِّيَّة الَّتي ينجبها زوجان عاشا في وفاقٍ وانسجامٍ ومودَّةٍ ورحمةٍ، فهي الذُّرِّيَّة الصَّالحة الَّتي أرادها الله، وكتب الزَّواج من أجلها.

برُّ الوالدين

السُّؤال:

كانت الوالدة - رحمها الله - على وشك أن تستلم مبلغًا لا بأس به من وقف ذُرِيٍّ حلَّت وقفيَّتُه، فاستلمنا هذا المبلغ بعد وفاتها، وقُسِمَ بيننا - نحن أبناءها وبناتها - حسب الميراث الشَّرعيِّ، ونريد أن نقدِّم لها من هذا المبلغ حجَّة بِرًّا منَّا لها، فهل يُباح لنا ذلك؟ لاسيَّما أنَّنا نعرف شخصًا مذكورًا بالخير والصَّلاح قد حجَّ مرَّتين.

ثمَّ أرجو إفادتنا؛ هل يباح لنا هذا العمل؟ وهل تكون الحجَّة صحيحةً؟ وكم ندفع لهذا الَّذي سيقوم بالنِّيابة؟

الجواب:

أوَّلًا: أقول لك ولإخوتك: باركَ الله فيكم وبارك لكم، والعمل الَّذي نويتم فعله هو برٌّ منكم وإحسانٌ لوالدتكم، فقد ثبت أنَّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ أبوي شيءٌ أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصَّلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ**

عهدهما من بعدهما، وصلة الرَّحم الَّتي لا توصل إلَّا بهما، وإكرام صديقهما»[1]، قال الرَّجل السَّائل: ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه! قال ﷺ: «**فاعمل به**».

ومعنى الصَّلاة عليهما: الدُّعاء لهما بالرَّحمة والرِّضا والقَبُول، والمكانة العالية في الجنَّة، ومعنى إنفاذ عهدهما: العمل بوصاياهما.

ولمَّا كانت الوالدة - رحمة الله عليها - أحبَّت أن تحجَّ فنفِّذ هذه المحبَّة، وكلٌّ من ساعدك من إخوتك على تنفيذها كان له من ثواب البرِّ مثل ما كان لك.

وما ذكرت عن النَّائب أرجو أن يكون ما وصفته به صحيحًا، ويُشْتَرط في النَّائب أن يكون قد حجَّ عن نفسه، ولمَّا كان الأمر كذلك فحجُّه - إن شاء الله - صحيحٌ.

أمَّا سؤالكم عن المِقْدَار الَّذي يُعْطى للنَّائب، فيجب أن يكون هذا المِقْدار كافٍ لأجرته ذهابًا وإيابًا، ولنفقته وسكنه، والنَّاس في هذا يختلفون، وأنا لا أعرف الرَّجل حتَّى أقدِّر ما يكفيه.

رؤية المخطوبة

السُّؤال:

سمعت من رجال الدِّين بأنَّه يجوز للخطيب أن يرى خطيبته، وكنت

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٦٦٤)، وأحمد، رقم: (١٦٠٥٩).

قبلُ سمعت أنَّ هذا الشَّيء حرامٌ، ولا يصحُّ إلَّا بعد عقد القران، فمن نصدِّق؟

الجواب:

إنَّ الشَّرع الإسلاميَّ أباح للرَّجل أن يرى مخطوبته قبل العقد، أمَّا بعد العقد فلا تسمَّى مخطوبةً، وإنَّما تكون زوجةً تباح لهما الخَلْوة، واقرأ هذه الأحاديث؛ لِتعرف أنَّ الشَّرع الإسلاميَّ يريد بالنَّاس خيرًا، ومن ذلك حديثٌ رواه أبو داود عن جابر بن عبدِ اللهِ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**»[(١)]؛ أي: ينظر إلى ما يُرغِّبُهُ في الزَّواج منها.

وحديثٌ رواه أحمد وغيره، عن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأةً، فقال ﷺ: «**هل نظرت إليها**»، قلت: لا، قال: «**فانظر إليها فإنَّه أحرى أن يؤدَمَ بينكم**»[(٢)].

وفي حديث رواه مسلمٌ أيضًا أنَّ رجلًا أراد أن يتزوَّج امرأةً من الأنصار، فقال له رسول الله ﷺ: «**فانظر إليها، فإنَّ في أعين الأنصار شيئًا**»[(٣)].

هذه الأحاديث تدلُّنا على حِلِّ نظر الخطيب إلى خطيبته، أمَّا إذا عقد قرانه عليها، فإنَّها لا تكون خطيبته، وإنَّما تكون زوجةً، والزَّوجة حِلٌّ

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢٠٨٢)، وأحمد، رقم: (١٤٥٨٦).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٧)، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه، رقم: (١٨٦٥)، وأحمد، رقم: (١٨١٥٤).
(٣) رواه مسلم، رقم: (١٤٢٤).

للزَّوج، وهو حِلٌّ لها.

امرأةٌ تقوم مَقَام العاقد

السُّؤال:

هل يصحُّ أن تقوم بعقد الزَّواج امرأةٌ بين زوجٍ ووليِّ زوجةٍ؟

الجواب:

الزَّواج: إيجابٌ وقَبُول في مجلِسٍ واحدٍ بألفاظٍ يفهمها كلٌّ من المتعاقدين، سواءٌ كانت باللُّغة العربيَّة أو بغيرها من اللُّغات الَّتي يفهمها المتعاقدان.

ولا بدَّ فيه من حضور الزَّوج ووليِّ الزَّوجة، وحضور شاهدين رجلين، فإذا قال وليُّ الزَّوجة: زوَّجتُكَ موليَتي كبنتي أو أختي، وقال الزَّوج: قبلتُ، وكان الكلام على مَسْمَعٍ من الشَّاهدين، فقد تمَّ النِّكاح على شرط أن يكون الزَّوجان خاليَينِ من الموانع الشَّرعيَّة، أمَّا أن يتولَّى تلقين صيغةِ النِّكاح امرأةٌ، فليس هناك مانعٌ، وإذا لم يكن للمرأة وليٌّ كأبٍ أو أخٍ أو عمٍّ، زوَّجها القاضي كوليٍّ، أو من يأذن له القاضي.

والموانع الشَّرعيَّة أن تكون المرأةُ في عِدَّة الطَّلاق أو الوفاة، أو أن يكون بين الزَّوجين ما يحرِّمُ أحدهما على الآخر، كحُرْمَةِ رَضاعٍ أو حرمة نسبٍ، أو تكون المرأة مُحْصَنَةً؛ أي: في عصمة رجلٍ.

أمَّا أن يتولَّى تلقين صيغة النِّكاح امرأةٌ، فليس هناك مانعٌ؛ لأنَّ هذه

المرأة تلقِّنُ المتعاقدين صفة العقد أو صيغته، وتكتب وثيقة الزَّواج.

لا تقصير في ذلك

السُّؤال:

مرِضَتْ أمِّي فطلبت من زوجي الإذن لزيارتها، فمنعني، ثمَّ قال: إذا ذهبت إليها فأنت طالقٌ، وماتت أُمِّي ولم أرها، ولم يخبرني بوفاتها إلَّا بعد دفنها، وضميري يوبِّخني على تقصيري تجاهَها؛ لأنِّي لم أحضُر وفاتَها ولا تجهيزَها.

إنِّي صلَّيت لها وتصدَّقت عنها، ونذرت أن أَحُجَّ لها بنفسي، لكن لم أستطع، فدفعت لها حجَّةً مع رجلٍ صالحٍ، فهل عليَّ بذلك إثمٌ؟ ومع هذا أشعر أنِّي مقصِّرةٌ.

الجواب:

كان الواجب على زوجك أن يقدِّر موقفك تجاه أمِّك، كما يريد أن يقدِّر موقف أولاده تجاهه إذا كَبِر وكَبِروا، إنَّك قد أطعت أمره، ووفَّيت حقَّه، وحافظت على سعادة أطفالك، وتمسَّكت بمستقبلهم، فإن كان هناك ذنبٌ فعليه وحده لا عليك.

إن صدقتِ فيما قلت لي فإنَّك لم تقصِّري مع أمِّك، وأسأل الله أن يتقبَّلَ منك ما قدَّمت لها.

أمَّا الحجَّة التي بعثتيها فهي حجَّةٌ صحيحةٌ، أمَّا كونها منك وبفعلك

فإنَّه لا يصحُّ لمن لم يحجَّ عن نفسه أن يحجَّ عن غيره، فمتى وفَّقك الله إلى قضاء فرضك، فلا بأس عليك أن تحجِّي عن أمِّك.

وأمَّا قولك: إنك ستؤدِّين الحجَّة عنها بنفسك، وأنَّك لم تستطيعي ذلك، فعليك كفَّارة يمينٍ؛ إطعام عشْرة مساكين.

وأسأل الله لك التَّوفيق، وأنصح الرِّجال - الرِّجال الأزواج - أن لا يشدِّدوا على زوجاتهم تجاه أهليهم وأقاربهم ما داموا صالحين، فليس الانتقام بالقطيعة، ولكن الانتقام في أن تعطي من حَرَمَك، وتعفو عمَّن ظلمك، كما قال رسول الله ﷺ الَّذي بعث ليتمِّمَ مكارم الأخلاق[١].

ولنسمع هذه الحكاية لنعتبر، ولنعلم أنَّ الإسلام أخلاقٌ كريمةٌ، ولأخلاقه معانٍ عاليةٌ، قال رجلٌ للنَّبيِّ ﷺ: يا رسول الله، إنَّ لي قرابة، أصلهم ويقطعوني، وأُحسِن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عليهم ويجهلون عليَّ، فقال ﷺ: «**إن كنت كما قلت، فكأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ - وهو الرَّماد الحارُّ - ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك**»[٢].

فيا أزواج، عفا الله عنكم، اعفوا واصفحوا، أَلَا تحبُّون أن يغفر الله لكم.

أنا لا أظنُّ أنَّ مسلمًا يؤمن بالله ورسوله يكره عفو الله ومغفرته.

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٥٢٣٩)، بلفظ: «**مكارم الأخلاق عند الله ثلاثة: تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك**».

(٢) رواه مسلم، رقم: (٢٥٥٨).

مفهوم الزَّواج

السُّؤال:

كنت أحبُّ زوجي أوَّل ما تزوَّجته، ولكن بعد سنواتٍ تبيَّنَ لي أنَّه عقيمٌ، وأنَّه يريد الزَّوجة عبدةً لا زوجةً، يسهر بعد أن كان يبكِّر في السَّروة، يعاشر الأشرار بعد أن كان خيِّرًا من الأخيار.

في السَّنة الأخيرة من حياتنا الزَّوجيَّة بدأت الشُّكوك والغَيْرَة تتسرَّب إلى قلبه، حتَّى إنَّه مدَّ خطًّا سرِّيًّا للتِّلفون فيما بين التِّلفون في البيت وغرفةٍ خاصَّةٍ له؛ لكي يتجسَّس على مكالماتي التِّلفونيَّة مع مَنْ يتَّصل بي.

أرجوكم التَّفضُّل بتفصيل معنى الزَّوجيَّة، ومعنى قول الله ﷻ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النِّساء: ١٩].

الجواب:

الزَّواج سنَّةُ الحياة، والإسلام جعل الزَّواج دينًا، وقال ﷺ: «**من تزوَّجَ فقد حفظ شطرَ دينه، فليتَّقِّ الله في النِّصف الآخر**»(١).

والزَّواج نعمةٌ، والله جلَّ شأنه عندما ذكر هذه النِّعمة قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١].

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٤٢٠)، بلفظ: «**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي**».

والإسلام قدَّر العِشرة الزَّوجيَّة حقَّ قدرها، فجعلها ممتدَّةً من الدُّنيا متَّصلةً بالآخرة، وجعل عماد هذه العشرة حسنَ الخُلُق، ذلك أنَّ واحدةً من زوجاتِ النَّبيِّ سألت الرَّسول ﷺ قائلةً له: إنَّ المرأة - يا رسول الله - قد يموت زوجها فتتزوَّج الآخر، فلمن تكون في الآخرة؟

قال عليه السلام ما معناه: «**تكون لمن كان أحسن خلقًا معها**»(١)، ثمَّ قال: «**سبق حُسنُ الخُلُق**»(٢).

وقد ورد في الحديث قول النَّبيِّ ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقًا وخياركم خياركم لنسائهم**»(٣).

وبذرة الأسرة تبدأ من ذكرٍ وأنثى، زوجٍ وزوجةٍ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحُجرَات: ١٣]، فمتى اتَّفقا كانت الزَّوجة لزوجها سكنًا، وكان لها إلفًا، وكان البيت الَّذي يضمُّها جنَّةً.

فإذا أثمر الزَّواج كان الأولاد في البيت حُوْرٌ وريحانٌ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**ريح الولد من رِيح الجنَّة**»(٤)، أو «**الولد ريحان الجنة**»(٥) أو «**ريحان البيت**»(٦)، فإذا عاش الزَّوجان حبيبين كانا نموذجًا لأولادهما، يحبُّان بعضهما، ويتفانى الكلُّ في مصلحة الكلِّ، ويتفادى

(١) لم أقف عليه.
(٢) لم أقف عليه.
(٣) رواه الترمذي، رقم: (١١٦٢)، وقال: حديث أبي هريرة هذا حديث حسن صحيح.
(٤) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٤٠٢).
(٥) لم أقف عليه بهذا اللفظ.
(٦) لم اقف عليه بهذا اللفظ.

الكلُّ شرَّ الكلِّ.

أمَّا إذا كان الأمر العكسَ، وكانت الخصومة قائمةً بين الأب والأمِّ كان الأولاد معقَّدين، قد تَغِيْب السَّعادة عن وجوههم، ويبتعدون عن البيت؛ لأنَّهم يكرهونه.

وأقول لسعديَّة وأمثالها وزوجها وأمثال زوجها ممَّن يشمخون على نسائهم ويَعُدُّون المرأة قطعةَ أثاثٍ في البيت نصيحةً لهم وللجميع:

خافوا الله يا ناس، فالرَّسول ﷺ قال لنا: «**استوصوا بالنِّساء خيرًا**»[(١)]، وقد جاءت هذه الكلمة في كثيرٍ من أحاديثه عليه السلام، وقالها في حجَّة الوداع في ملأٍ كثيرٍ من النَّاس في عرفة، وقال ﷺ: «**خيركم خيركم للنِّساء، وأنا خيرُكُم لأهلي**»[(٢)].

وأخيرًا أقول للأزواج القُساة: استمعوا معي قول الله ﷻ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٣١].

والمعنى واضح؛ معناه: حسِّن أخلاقك مع أهلك ليحبُّوك ويتمنَّوا لك طول الحياة، ولا تكن ممَّن ساء خُلُقُه، فإنَّ العاقبة أن يكرهه أقرب النَّاس إليه، ويملُّوا حياته ويتمنَّوا موته، وشتَّان بين الاثنين.

(١) رواه البخاري، رقم: (٥١٨٦)، ومسلم، رقم: (١٤٦٨).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٨٩٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، رقم: (١٩٧٧).

قطيعة الرَّحم

السُّؤال:

قطيعة الرَّحِم انتشَرت في هذه الأيَّام لاختلافِ المشاربِ والأهواءِ، فبعضُ النَّاس تمسَّكوا بعاداتهم وأخلاقهم وتعاليم دينهم، وبعضهم انجرف مع تيَّار المدنيَّة، تجد الأخوين مختلفَين، والأب مع أبنائه مختلفًا، وهذه ظاهرة كثُرت، ومن البليَّة أن يعدَّ المقلِّدون هذا الانحراف تقدُّمًا أو مدنيَّةً أو سمِّها ما شئت! وأولئك يعدُّونها ضلالًا وفتنة وانحرافًا، أو كفرًا.

سؤالي: هل يجب في مثل هذه الحالة صلة الرَّحم بين هؤلاء وهؤلاء؟

الجواب:

في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ... ﴿١﴾﴾ [المُمتَحنَة: ١].

وفيه قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجَادلة: ٢٢].

فمعصيةُ الله محاربة له.

لكن أعرفُ كثرةً من هؤلاء العصاةِ يعلم أنَّه عاصٍ، ويستغفرُ الله، وإذا نصحته دعا لك بالخير وقال لك: ادعُ الله لي أن يعينني على نفسي، ومثل هؤلاء أرجو لهم الخيرَ؛ لأنَّه يخجل من المعاصي، وقد يخجل من نفسه، أمَّا البعض الآخرُ فإنَّك إذا نصحته قابل نصيحتك بالسُّوء، واشمأزَّ منك،

وتصامم عن سماعك، وربَّما شتمك؛ لأنَّه جاهرَ بالمعصية ولم يستحِ، وسمعنا من مأثور القول:

«إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت».

وسمعنا أيضًا: «من لا يستحي من النَّاس لا يستحي من الله».

فهو لم يستحِ منِّي ومنك، ولم يتستَّر عن عيني وعينك ونحن من خلق الله، وهو يعلم أنَّ الله مطَّلع على السَّرائر، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور، وكان الأولى أن يستحي منه، لكنَّ فساد طبعه؛ وربَّما فساد إيمانه وعقيدته باعدت بينه وبين السَّتر.

فمثلُ هذا حادَّ الله ورسوله بعمله وعصى، ومحادَّة الله محاربة له، ومن حاربَ الله وجب على المؤمن أن يقاطعه، لكن على المؤمن المتَّقي أن يدعوَ الله لأهله وأقربائه بالهداية أسوةً بسيِّدنا إبراهيم عليه السلام حين قال لأبيه: ﴿...سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مَريَم: ٤٧-٤٨].

حجُّ الخرساء

السُّؤال:

أمِّي خرساء «بكماء» لا تسمعُ ولا تتكلَّم، تريدُ الحجَّ، فهل يسقط عنها الفرض؟

إنَّها تُصلِّي وتصوم ولكن بدون قراءة، فهل صلاتها صحيحة؟

الجواب:

«**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات**»[١]، والإخلاص في النِّيَّة أساس العمل، بل هو الشَّرط الَّذي يُبنَى عليه العمل، وأمُّك عاقلةٌ، تؤدِّي عملها بنيَّةٍ صادقةٍ وعقلٍ وإخلاصٍ، والخَرَسُ الَّذي بُلِيَتْ به لا اختيار لها فيه، لهذا كان سكوتها أو عجزها عن الكلام بلا اختيار منها، شأنها في ذلك شأن من عجز عن القيام أو عجز عن الرُّكوع والسُّجود، فصلاتها صحيحة، وإذا حجَّت وأدَّت المناسك كاملة صحَّ حجُّها، وسقط عنها الفرض.

حجُّ الحُبْلَى

السُّؤال:

ما حكم حجِّ الحوامل والحُيَّض؟

الجواب:

لا مانع من حجِّ الحُبلى إذا عرفت أنَّ لا تكليف عليها، وأنَّ أيَّام الحجِّ ليست موعدًا لولادتها، وأقصد بأيَّام الحجِّ: أيَّام السَّفر.

أمَّا تلك الَّتي حسبت حسابها - والمرأةُ العاقلةُ تعرفُ موعدَ ولادتها، أو مضايقتها لها - فإنَّها لا تستطيع إلى الحجِّ سبيلًا.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١)، ومسلم، رقم: (١٩٠٧).

ورَبَّةُ البيتِ أولى بها أن تقومَ برعاية بيتها وأولادها إن لم تكن هناكَ من تنوب عنها، كأمٍّ أو أخت أو بنت كبيرة ترعى رعيَّتها كرعايتها لهم، وتحنو حنوَّها عليهم، ولْتَصبر حتَّى يقضيَ اللهُ لها بالزَّمن الَّذي تستطيع أداء واجبها فيه، لأنَّ المرأة غير الرَّجل، فهي الرَّاعية، وليس مثلها راعية للبيت.

أمَّا سؤال السَّائل عن الحائض الَّتي حضرها الحيض، أو ضايقها الحيض في أيَّام الحجِّ، فالحيض لا يمنع أداء مناسك الحجِّ أبدًا إلَّا الطَّواف.

وللجُنُبِ والمحدِثِ أن يؤدِّيَا المناسكَ كلَّها، والطَّهارة ليست شرطًا في أداء هذه المناسك، كالوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والسَّعي بين الصَّفا والمروة، والحلق، والنَّحر.

والطَّهارة واجبة في موضع واحدٍ فقط، هو الطَّواف بالبيت.

قال الرَّسول ﷺ: «**الطَّوافُ صلاة، إلَّا أن الله تعالى أحلَّ فيه الكلام فمن تكلَّم فلا يتكلَّم إلَّا بخير**»[1]؛ لهذا كانَ الحيض مانعًا للطَّواف؛ لأنَّ الحيضَ حَدَثٌ.

والطَّواف ثلاثة طوافات: طواف ندخل به مكَّة بالعمرة، وهو طواف القدوم. والعمرة: عبارة عن إحرام، ثمَّ طواف، ثمَّ سعي، ثمَّ تقصير أو حلق، فإن كانت المرأة حائضًا أخَّرتْ طوافها حتَّى تطهر، ثمَّ تَطُوف.

وطواف آخر: هو طواف الحجِّ، أو طواف الإفاضة، والحجُّ عبارة

(١) رواه أحمد، رقم: (١٥٤٢٣)، بلفظ: «**إنما الطواف صلاة، فإذا طفتم فأقلوا الكلام**».

عن إحرام، ووقوفٍ بعرفةَ، ورمي جمارٍ، وطوافٍ، وتقصيرٍ أو حلقٍ، وعلى الرُّفْقَة أن ينتظروا أُختهم حتَّى تنقضيَ أيَّامُها.

أمَّا الطَّواف الثَّالث اسمه: طوافُ الوداعِ، وهذا واجب أيضًا على من أراد السَّفرَ من مكَّة، وهذا الطَّواف يَسقُطُ عن الحائض؛ لأنَّ ابن عبَّاس رضي الله عنه رخَّص للحائض إذا أفاضت - يعني إذا طافت طوافَ الحجِّ - أن تسافرَ دون طواف وداع.

لباس المرأة في الحجِّ

السُّؤال:

ما هو لباس الإحرام بالنِّسبة إلى المرأة؟ وهل يجب غسلها قبل لبسها إذا كانت جديدة؟ وأيُّ شيءٍ يحرم بعد الإحرام؟

الجواب:

للمرأة أن تلبس لإحرامها ما تشاء من اللِّباس، على أن يكون لباسًا يَسْتُرُ جميعَ جسمها، وأن يكون حلالًا، ومن ثمنٍ حلالٍ.

ويُمنَع الرَّجلُ من لبس المَخِيْطِ والمحيط، والإحرامُ هو نيَّة النُّسك، أو نيَّة الدُّخول في الحجِّ أو العمرة، ولا حاجة إلى غَسل الملابس إن كانت طاهرةً ونظيفةً، سواءٌ أكانت جديدة لم تُلبس أو قديمة.

ويُحرَّمُ على المُحْرِمِ والمُحْرِمَةِ: الرَّفثُ، والفسوقُ، والمخاصمةُ، واستعمالُ الطِّيْب، وتعمُّد شمِّه، وتغطيةُ الوجهِ للرَّجل، وللمرأة دون

حاجة، وتقليمُ الأظافر، وأخذُ شيءٍ من الشَّعر، وتمشيطه إذا لم تأمن سقوطَ شيءٍ منه، ولبسُ القفَّازَين.

اقتصادُ زوجة

السُّؤال:

زوجي مُبَذِّر[1] لا يعرف للدِّينار قيمةً، تبذيره في حدود غير محرَّمة وأنا أمُّ أولاد، وامرأة متديِّنة، ويؤذيني ما يفعله زوجي، أحيانًا أجدُ في جيبه نقودًا فآخذها لأودعها في البنك باسم الأولاد أو باسمي، علمًا أنَّه لا يسأل، فهل هذا حرام؟ لأنِّي لا أستيطع أن أقتصد من راتبه إلَّا بهذه الطَّريقة، والله يعلم أنَّ تصرُّفي هذا لمصلحة الأسرة لا لمصلحتي الشَّخصيَّة، ولا للتَّبذير.

الجواب:

إذا كان الوضع كما قلتِ، والرَّجل لا يعرف قيمةَ الدِّينار، ولا يبالي بالَّذي يُؤخَذ منه، وإذا كانت نيَّتك الاقتصاد للمستقبل المظلم، فلا أرى فيما تفعلينه أيَّ سوء، فاتَّكلي على الله، واقتصدي من قرشك الأبيض للمستقبل الأسود.

(١) يُبذِّر مالَهُ تَبذيرًا، أي: يُفسدُه ويُنفقه في السَّرَف. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٠/١٤٦).

غلاء المَهْر

السُّؤال:

تقدَّمَ قريبٌ لي يخطب ابنتي لأنَّه يحبُّها، وكنت أكرهه، فطلبت منه مهرًا كبيرًا معجَّلًا - ثمانين ألف ريال - فقال:

لأستسهلنَّ الصَّعبَ أو أدرك المُنى فما انقادت الآمال إلَّا لصابرِ

واسْتَمْهَلَنِي شهرًا، ثمَّ دفع المهرَ حبًّا في البنت، وبعد الزَّواج أصبحت حياتهما هنيئة، وهما في سعادة وسرور ويسر. أحببتُ هذا الإنسان لكريم أخلاقه ونشاطه، وسررت بمصاهرته، ضميري الآن يوبِّخني لأنِّي أخذت منه أكثر من الحقِّ، أرجوك أرشدني، هل أردُّ عليه فلوسه؟ هل أقسمها على الفقراء، هل أبني بها مسجدًا أو مدرسةً؟

مع العلم أنَّه قال لي عندما دفع المهر: سامحكَ اللهُ يا عمُّ لقد كلَّفتني شططًا[1].

الجواب:

المهرُ للبنت، وليس لك فيه حتَّى الهللة[2]، فأعطه كلَّه للبنت الَّتي لها وحدَها حقُّ التَّصرُّف فيه، وهي مخيَّرة وحرَّة فيما تفعل به، فإن طابت

(١) شطَّ: إذا جاوز القدر المحدود وتباعد عن الحق. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٩/ ٤١٥).

(٢) الهللة: جزء من مئة جزء من الريال السعودي.

نفسُها عن شيءٍ منه لزوجها فلْيَأكله هنيئًا مريئًا؛ لقول الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النِّسَاء: ٤].

واعلم أنَّ المهر ليس ثمنًا لبنتك، فبنتك حرَّة لا يحلُّ لك بيعُها، ولا يحلُّ لأحد شراؤها.

إنَّ المَهْرَ حقٌّ للبنت فرضه الله لها على من يتزوَّجها، فإن تَنَازَلَتْ عن شيءٍ منه لك أيُّها الأب فلك أن تتصرَّف فيما تنازلت لك عنه، أمَّا أن تغتصب وتقول: «**ربَّيتُ وأنفقتُ**» فهذا كلامٌ لا محلَّ له من الدِّين، إنَّ الله فرضَ عليك وعلى غيرك من الآباء أن يُربُّوا أولادهم - ذكورهم وإناثهم - ماداموا ضعفاء، حتَّى إذا كبروا واستطاع الرِّجال الكسب، ووفِّقتِ النِّساءُ إلى أزواج صالحين، سقطَ عنك التَّكليف، إلَّا أن تكون ضعيفًا عاجزًا عن الكسب، فحينئذٍ يجب على القادر من أولادك أن يرعاك، كما قضى بذلك ربُّ السَّماء بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسرَاء: ٢٣].

أكرِّر القول: إنَّ المهر للبنت، فأعطِهَا الباقي منه بعد الَّذي أنفقته منه عليها، وخير لك أن تتبرَّع لها بما أنفَقْتَه، أمَّا المَهْرُ والصَّداق فلها، وليس لغيرها، ولو كان أبًا أو أخًا، وكلمة: «**أنتَ ومَالُك لأبيك**»[1] ليس لها محلٌّ هنا ولا معنى.

بَرِّئ ذمَّتك يا أخي، وادفع المال لبنتك، فهي أولى به من غيرها، وكلُّ درهم أخَذْتَهُ منه بغير حقٍّ فهو عليك حرامٌ ما لم ترضَ ابنتك عنه

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٢٩١)، وأحمد، رقم: (٦٩٠٢).

رضاءً لا حياءَ فيه ولا إكراه.

زوجتي عاقر

السُّؤال:

زوجتي عاقر بإجماع الأطبَّاء، وأنا أحبُّها، ووالديَّ يلحَّان عليَّ في الزَّواج من أخرى أملًا في رؤية ذرِّيَّتي، فهل أُنفِّذ نصيحتهما؟ وما ذنب تلكَ المسكينةِ الَّتي قضى الله عليها أن تكون عاقرًا؟ أرجوك أفدني، أفادك الله!

الجواب:

الله ﷻ حين أمرنا بالزَّواج أراد لنا به الذُّريَّة، والرَّسول ﷺ أمرنا أن نتزوَّج الودود الولودَ لنتكاثر(١).

وكان الواجب على مثل هذه الزَّوجة - وقد عَلِمَتْ بِدَائِها - أن تطلب منك أن تتزوَّج حتَّى تُنجبَ، وتكون بهذا قد أحسنت إلى نفسها، وأحسنت إليك، وقرَّبت نفسها منك كما فَعَلَتْ غيرُها من الصَّالحات، أمَّا استحواذها عليك فأنانية منها، ولا خير فيمن كانت صفتها الأنانية.

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢٠٥٠)، بلفظ: «**تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم**»، وأحمد، رقم: (١٢٦١٣)، بلفظ: «**تزوجوا الودود الولود، إني مكاثر الأنبياء يوم القيامة**».

الحجُّ دون مَحْرَم

السُّؤال:

هل تستطيع المرأة الحجَّ دون مَحْرَمٍ إذا كانت مع نساء صديقات أو غير صديقات، وفي قافلة مأمونة تأمن فيها على نفسها، وفي سيَّارة أكثر ركَّابها نساء ذوات محارم؟

هل تسقط عنها حجَّة الفرض؟ أو هل تصحُّ منها هذه الحجَّة نفلًا؟

الجواب:

قلنا في أجوبة قبل هذا: إنَّ الحجَّ فرضٌ على من استطاع إليه سبيلًا، والمرأةُ إذا لم يكن لها مَحْرَمٌ تُعدُّ غير مستطيعة؛ لأنَّ الاستطاعة عند المرأة لا تتحقَّق إلَّا بهذه الأسباب:

١- أَمْنُ الطَّريق، ٢- صحَّة البدن، ٣- الزَّاد، ٤- الرَّاحلة أو مصروفها. وبهذه الشُّروط تشتركُ المرأة والرَّجل، وللمرأة شرط خامسٌ وهو المَحْرَم، إلَّا أنَّ المالكيَّة قالوا: إذا وجدت المرأةُ رفيقاتٍ مأموناتٍ تَأْمَن معهنَّ على نفسها، وفي قافلة مأمونة، وحجَّت، سقط عنها الفرض، ولكن إذا لم تحجَّ فهي غير مطالبة؛ لأنَّ المرأة إن كانت مُوْسِرَةً وليس لها مَحْرَم فهي ممَّن لم يجعل الله له إليه سبيلًا، اتَّفقت المذاهبُ الإسلاميَّة جميعها على هذا.

وقال بعض الفقهاء: من المسيءِ أن تحجَّ المرأة بغير مَحْرَم، ولكنَّها لو حجَّت صحَّ حجُّها، وسقط عنها الفرض.

روى البخاريُّ عن عُدَيِّ بن حاتم قال: بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفَاقَةَ[١]، ثمَّ أتاه آخر، فشكا إليه قطع السَّبيل، فقال: «**يا عدي هل رأيت الحيرة؟**» قال: قلتُ: لم أرَها، وقد أنبئت عنها، قال: «**فإن طالت بك حياة لترين الظَّعينة - الهودج فيه امرأة - ترتحل من الحيرة حتَّى تطوف بالكعبة لا تخاف إلَّا الله**»[٢].

استدلَّ بهذا الحديث من أجاز سفر المرأة من غير مَحْرَم ولا زوج إذا ساد الأمن، وأَمِنَ المسافر أو المسافرة على النَّفس من الاعتداء والهَلَكَة، وعلى المال من التَّلف والضَّياع.

أرغب في الحجِّ ولا أملك إلَّا راتبي

السُّؤال:

أنا امرأة في الخامسة والخمسين من عمري، مُعِيلةٌ وعائلتي خمسة أنفس؛ أنا وأمِّي وأولادي الثَّلاثة أوَّلهم بنت موظَّفة، وابنان يتعلَّمان.

أرغب في الحجِّ قبل أن يدركني الأجل، لكنِّي لا أملك إلَّا راتبي وراتب ابنتي، ومجموعهما نحو مئة دينار، ندفع منهم أجرة السَّكن. أرشدني - أرشدك الله - هل عليَّ حجٌّ أم لا؟ إنَّني أشتاق إلى الذَّهاب إلى الحجِّ.

---

(١) الفاقة: الفقر والحاجة. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٢٦/ ٣٢١).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٥٩٥).

الجواب:

نصيحتي للسَّيدة السَّائلة أن تجتهد في تربية الولدين، وإكرام الوالدة، والإنفاق على الولدين حتَّى يكملا تعليمهما.

ولْتعلم السَّيدة السَّائلة أنَّ الحجَّ فرض على من استطاع إليه سبيلًا، وهي غير مستطيعة، لأنهَّا امرأة لا مَحْرَم لها، ثمَّ هي امرأة مكلَّفة بعائلة؛ امرأة عجوز، وصغار لا مُعيل لهم غيرها.

أقول لكِ: إنَّ حجَّك في رعاية أمِّك ورعاية ابنيكِ، والحجُّ يحتاج إلى مصروف، ومعنى هذا أنَّك ستُقَتِّرين[1] في الإنفاق على من تَعُولين، وربَّما احتجتِ إلى الاستدانة، والاستدانةُ يكرهها الله، لأنَّك ستذلِّين في طلبها، والله يريد بنا العزَّة، وإذا أصبحتِ مَدِيْنَة، فستحاولين التَّقتير على أمِّك وولديك لوفاء هذا الدَّين.

وأخيرًا أقول للأخت السَّائلة: إنَّ الله جلَّ جلاله يريد بعباده اليُسر ولا يريد بعباده العُسر، وأرجو أن يكون في هذا ما يفيدك ويفيد غيرك من السَّائلات.

(١) القُترة: ضيق العيش. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٣/ ٣٦٧).

لا بدَّ من رضا الزَّوج

السُّؤال:

هل يباح للزَّوجة أن تحجَّ نفلها دون رضا زوجها؟

الجواب:

رضا الزَّوج أمر واجب، وفي الحديث الشَّريف قوله ﷺ: «**أيُّما امرأةٍ ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنَّة**»(١). رواه التِّرمذيُّ عن أمِّ سَلَمَةَ.

والحجَّ في المرَّة الثَّانية نفل، والواجب أقوى من النَّفل، لاسيَّما أنَّ النَّبي ﷺ أخبرنا أنَّ «**جهاد المرأة حُسن التَّبعُّل**»(٢).

وأد الأولاد وموانع الحمل

السُّؤال:

علمنا من كتاب الله - جلَّ شأنه - أنَّ العرب في الجاهليَّة كانوا يقتلون أولادهم خوفَ العار، أو خوفَ الفقرِ، وعابَ الله عليهم ذلك في

(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٦١)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه، رقم: (١٨٥٤).

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤١٧٢)، بلفظ: «**إنما الصنيعة إلى ذي دين أو حسب، وجهاد الضعفاء الحج، وجهاد المرأة حسن التبعل...**».

آيتين من كتابه العزيز، في سورة الأنعام قوله تعالى آية (١٥١):

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفي سورة التَّكوير الآيتان (٨، ٩): ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨-٩].

ولا شكَّ في أنَّ الله ﷻ حرَّم هذا العمل وتوعَّد فاعله، لكنَّنا نرى في هذا الوقت كثيرًا من معاصرينا في جميع البلاد المسلمة ولا أستثني بلدًا يستعملون الحبوبَ المانعة للحمل، ويستعملونها لنفس الغرض خوف الفقر، أليس هذا قتلاً للأولاد؟

الجواب:

لا، ليس هذا قتلًا للأولاد، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يمنع أحدًا من العزل عن زوجته، وقال بعض الصحابة: «**كنَّا نعزل ورسول الله ﷺ حيٌّ، ويعلم هذا الشَّيء**» وقد استأذنه بعض الصَّحابة بالعزل، فأخبره «**أنَّ النَّفس الَّتي يريدُ الله إحياءَها ستحيا، وهي كائنةٌ عزلت أم لم تعزل**»(١).

المهمُّ في ذلك أنَّ الحبوب المانعة للحمل إن أريد بها أمرٌ شريفٌ فلا مانع من استعمالها، وليس هناك نصٌّ ظاهرٌ في تحريمها، فهي تعود في الإباحة وعدمها إلى القصد، ولكنِّي لا أنصح باستعمالها؛ لما في استعمالها من أثر سيِّئ على صحَّة كثير من النِّساء.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٢١٠)، ومسلم، رقم: (١٤٣٨)، بلفظ: «**أو إنكم لتفعلون - قالها ثلاثًا - ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة**».

وأقول: إن دوام استعمال الموانع سوء ظنٍّ بالله.

إنَّ القصد من الزَّواج هو النَّسل أوَّلًا، والعفَّة ثانيًا، ثمَّ المتعة، ومن داوم استعمال الموانع أخشى عليه العقوبة بعد فوات الأوان.

بيت العزِّ

السُّؤال:

مات والدي، وترك حلالًا من إبل وغنم، وورثه أولادُه وزوجته الَّتي هي أمُّنا.. فطلبنا - نحن الأولاد - من أمِّي أن نبيع الحلال ونخرج له ثلثًا، والباقي يقسم على الورثة، كلُّ واحد يأخذ نصيبه الشَّرعيَّ، لكنَّ الوالدة رفضت، وقالت: أنا امرأة بدويَّة لا أستطيع العيش في الحضر، ولا الصَّبر على ضيق الدُّور وظلمة الغرف، أنا امرأة تعوَّدت الحياة مع الأغنام، فلا تفعلها يا ولدي، وإن أردت بيع الإبل فلا مانع عندي.

فما رأيكم؟ هل نترك والدنا بلا ثُلث؟ هل نطيع الوالدة أم نتركها وحدها في البرِّ؟ علمًا أنَّ أولادنا في المدارس ولا بدَّ من سكن الحضر؟

الجواب:

كتاب السَّائل ذكَّرني أبياتًا قالتها ميسون البجدليَّة، الَّتي تزوَّجها معاوية بن أبي سفيان، وأسكنها قصرًا من قصور دمشق، تحفُّه الأشجار والأطيار، وفي يوم من الأيَّام تذكَّرت الصَّحراء وبيت الشَّعْر فقالت:

لبيت تخفق الأرياح فيه ... أحبُّ إليَّ من قصر منيف

وكـلـب يـنـبـح الـطُّـرَّاق دونـي أحــبُّ إلــيَّ مــن قــطٍّ ألــيــف

وخـبـز يـابـس فـي شـقِّ بـيـتـي أحــبُّ إلـيَّ مـن أكـل الـرَّغـيـف

. . .إلى آخر الأبيات

وأمُّ السَّائل اعتادت العيش في الفلاة، وعشقت الرِّياح، ورؤية الأغنام تغدو وتروح في الصَّباح والمساء، والمدينة تضيق بها ذرعًا؛ لأنَّ جدران البيت وسقف الغرفة تكتم أنفاسها، فلا تستقرُّ ولا يمتدُّ لها بصر، وأبوك لم يوصِ بثلث، فلمَ هذا التَّكليف والتَّرِكة قليلة!؟ فإذا أردتم بِرَّه بعد وفاته فتصدَّقوا عنه، وادعوا له، والله يتقبَّل منكم.

ولهذا أقول لكم: أحسنوا إلى والدتكم، وارعوها فيما تريد، ولا تُكْرِهُوهَا على ما تكره.

هذا هو الجواب للسَّائل، والَّذي أعرف أنَّه لم تبقَ بادية اليوم في السُّعودية فأين هذه البادية الَّتي تعيش فيها أمُّ السَّائل؟!

الصِّيام وتأثيره على الجنين

السُّؤال:

أنا في شهري الثَّالث، أراجع طبيبة أجنبيَّة لا أستطيع الاعتماد عليها في مسائل ديني.

أرجو الإجابة على هذين السُّؤالين:

١- هل للصِّيام تأثير على نموِّ الجنين؟

٢- ما هي الكفَّارة الَّتي أستطيع تقديمها مقابل إفطاري لو فطرت؟

الجواب:

كنَّا منذ نحو عشر سنواتٍ أو قبلها لا نعرف شيئًا ممَّا يعرفه أهل عصرنا الحاضر، كانت المرأة تصوم وهي حامل حتَّى في شهورها الأخيرة، لا تعرف إلَّا أنَّها صامت امتثالًا لأمر الله الَّذي كتب الصِّيام على الَّذين آمنوا، وقد يأتيها المخاض وهي صائمة فلا تفطرُ حتَّى تضع الجنين، ومع صيامها وثقل حملها لا تتكاسل ولا تتوانى عن خدمة بيتها ورعاية أطفالها، ولم تكن يومئذٍ وسائل راحة ولا أسباب رفاهيَّة متوفرة، وكانت هذه حالها، ترى أنَّها أدَّت فرضًا من فرائض الله وركنًا من أركان دينها.

هكذا كانت أمَّهاتنا، وهكذا كانت زوجاتنا اللَّواتي وَلَدْنَ وزراءَنا، وأعضاءَ مجلس أمَّتنا، ووكلاء وزاراتنا، وكبار موظفينا، لأنَّهن كُنَّ على الفطرة، ولا يعرفن شيئًا غير الفطرة الَّتي فُطِرن عليها؛ يقمن الصَّلاة لأنَّها عماد الدِّين، ويؤدِّين الزَّكاة لأنَّها طُهْرَة للمال والنَّفس، ويَصُمْنَ رمضان لأنَّه تربية إلهيَّة، ورياضة بدنيَّة، وكلُّها واجبات ربانيَّة، أوجبها الله على عباده، ومن لم يؤدِّ هذه الواجبات كان عاصيًا ربِّه، مهملًا واجباته، مقصِّرًا في دينه، عاقًّا لشريعة ربِّه.

أمَّا اليوم؛ فقد تبلبلت أفكار النَّاس حتَّى جنحت بهم عن طريق الحقيقة، فشطُّوا عن طريق الفِطرة، فاستخفُّوا بالدِّين وأوامره، وقالوا بها ما قالوا، مستدلِّين بأقوال أعداء هذا الدِّين الَّذين قالوا أقوالهم نِكايةً بالدِّين وتضليلًا لأهله.

أمَّا جوابي للسَّائلة على سؤاليها فأقول:

حسب تجاربي الحياتيَّة، وأنا أبٌ لثلاثة عشَر من بنين وبنات، لم أعرف أنَّ للصِّيام تأثيرًا على نمو الطِّفل في أمِّه، لاسيَّما إذا نوت المرأة بصيامها طاعة ربِّها، وتأدية واجب إلهيٍّ عليها.

إنَّني لست طبيبًا، ولكن أقول هذا مُجَرِّبًا.

أمَّا الكفَّارة فهي لا تصحُّ إلَّا من مريض أَزْمَنَ[1] مرضُه، ولا يُرجَى بُرْؤه، أو من شيخ فانٍ قد ودَّع شبابه، أمَّا الشَّابُّ، أو المريض الَّذي يأمل الشِّفاء - ولو طال به المرض - فليس عليه كفَّارة، ولو تأخَّر صيامُه إلى رمضان آخر فعليه القضاء والكفَّارة، والكفَّارة هي إطعام مسكين بحسب حال المُطْعِم.

تأثير الصَّوم على الحامل

السُّؤال:

هل للصِّيام تأثير سيِّئ على تكوين الجنين؟ وما رأي الطبِّ في صيام الحامل؟

الجواب:

وجَّهنا هذا السُّؤال إلى الطَّبيب المُسْلِم محمود كامل البوز، فأجاب مشكورًا بما يلي:

---

(١) أزمن الشيء: أتى عليه الزمان وطال، فهو مزمن. انظر تاج العروس، للزبيدي، (٣٥/ ١٥٣).

ليس للصِّيام أثر على تكوين الجنين، فالصِّيام جوع وعطش في النَّهار، وطعام وشراب في اللَّيل،

والجنين لا يأكل في بطن أمِّه وجبات منتظمة في أوقات معيَّنة، ولكن يتغذَّى على الدَّم،

وتركيب الدَّم يكاد يكون ثابتًا في الصِّيام والإفطار، إلَّا بنسبة ضئيلة في السُّكَّر والدُّهنيَّات، لا تَقِلُّ في الصِّيام دون حدٍّ معيَّن، وهو الحدُّ الكافي لتغذية وتموين أجهزة الأمِّ وجنينها، والحامل يمكنها الصَّوم إذا استطاعت أن تأكل في الفطور وفي السُّحور وجبة متكاملة. انتهى كلام الطَّبيب.

ولهذا فإنِّي أنصح الحامل بالصَّوم امتثالًا لأمر الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣] ولقوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٨٤].

الضَرَّة مُرَّة

السُّؤال:

أنا رجل متزوِّج، وأب، أحببت فتاةً جميلةً على درجة عاليةٍ من الأدب، فيها كلُّ الصِّفات الَّتي يَنْشُدُها الرَّجل في المرأة، أحبَبْتُها لغرضِ الزَّواج منها على سنَّة الله ورسوله، فهل تُعدُّ محادثتي لها وخروجي معها خيانة زوجيَّة؟ فاتحت زوجتي في الموضوع فقالت: لا أتحمَّل الشَّراكة، فإذا تزوَّجتَ فسرِّحني... إلى آخر ما جاء في رسالته.

الجواب:

سؤالك ينقض بعضه بعضًا، قلتَ عن الفتاة: إنَّ فيها كلُّ الصِّفات الَّتي يَنْشُدُها الرَّجل في المرأة، ثمَّ تقول: إنَّكما تتحادثان، وتخرجان سويًّا، ثمَّ تسألني هل هذه خيانة! إذن ما هي الخيانة!؟

وتقول أيضًا: إنَّها نصحتك بالابتعاد عنها حتَّى لا تكون سببًا في هدم أسرة تَعُدُّها سعيدةً، ثمَّ تأتي إليك لتخرج معها!

يا أخي! اتَّق الله في أسرتك، فما كلُّ بيضاء شحمة، إنَّك أبٌ لأطفال، وأطفالك سعداء كما تقول مع والديهما: أنت وزوجتك، ابتعد عن الشَّرِّ يبتعد الشَّرُّ عنك، ولا تجعل بناتك تحت رعايةِ زوجة أبٍ، فالَّتي تخرج مع شخصٍ غريبٍ لا دينَ لها ولا ستر، ولو كنت متديِّنًا - كما تقول - لما خرجتَ مع امرأة أجنبيَّة عنك، لا تربطك بها قرابة ولا عقد شرعيٌّ، والدِّين ينهاكَ أن تهدم أسرتك، وأن تشتِّت شمل أطفالك، وزوجتك على حقٍّ إذا قالت لك: سرِّحني بإحسان حفاظًا على سمعتك وسمعتي.

ولماذا الحفاظ على السُّمعة؟ أَفي الأمر خطر؟ لا بدَّ من أنَّ هناك سمعة سيِّئة تخاف زوجتك منها.

وفي رسالتك طلبت منِّي النَّصيحة، ونصيحتي لك وأنا أب أقول لك: احتفظ بطفلتيك، ولا تشتِّت شملك، والله الهادي.

الحَسَبُ والنَّسب في الزَّواج

السُّؤال:

تزوَّجت منذ خمس سنوات، وعشنا ثلاثتها الأولى في شهرِ عسل، وقبل عامين جاءَ من يخطُب أختي؛ شابٌّ جامعيٌّ يسعى إلى الحصول على شهادة الماجستير، وقد رضيَ به أبي لعلمه وصلاحه ومكانته في المجتمع، ورَضيَ منهُ دينَه وسمعَتَه، لكنَّ زوجي الحَسِيْبَ النَّسيب رفض، وهدَّد بطلاقي لأنَّ الخاطب «بيسري» لا أصل له، لكنَّ أختي تزوَّجت وهي سعيدة بزواجها، ولم يستطع زوجي عمل شيء سوى إرغامي على هجر والديَّ وإخوتي، وتهديدي بالطَّلاق إن حاولت الاتِّصال بهم أو الكلام مع أختي الَّتي سمَّاها: العارَ والخزيَ، إنَّه نقل سكننا من المنطقة الَّتي كنَّا فيها إلى أبعد منطقة في الكويت جنوبًا، بينما أبي وأمِّي وإخوتي يسكنون الجهراء الَّتي كنَّا نسكنها من قبل، إنَّه يقسم بالله إنِّي لو لم أكن أمَّ طفلتين لطلَّقني، علمًا أنَّه متعلِّم وموظَّف مسؤول في دائرة تربويَّة، فهل الكفاءة بالأصل؟ هل يُباح له أن يقطعني عن زيارة أهلي؟ وهل يباح له أن يمنع أمِّي وأبي من زيارتي؟

الجواب:

جاء الإسلام والنَّاس شعوب وقبائل يَفْضُلُ بعضُهم بعضًا، ويعلو بعضُهم على بعض، فكان فيهم السَّيِّد والرَّقيق والمولى، وكان فيهم الأشراف والعامَّة، فقال الإسلام كلمته العظيمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحُجرَات: ١٣].

وجعلَ الكفاءة بالدِّين والتَّقوى والإيمانِ والأمانةِ، ومعنى الأمانة: أداء الواجبات - كلَّ الواجبات - نحو الله ونحو النَّفس ونحو الأهل ونحو الجار والمجتمع، ورسول الله ﷺ، النَّبيُّ الَّذي جاءنا من ربِّنا بالإسلام وكتاب الإسلام قال لنا: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبيرٌ**»[(١)] وفي خطبةِ الوداعِ في عرفات خطب الرَّسول ﷺ خطبته الجامعة المشهورة، وممَّا قال فيها صلوات الله وسلامه عليه:

«**أيُّها النَّاس كلُّكم لآدم وآدم من تراب**»[(٢)]، «**لا فضل لعربيٍّ على عجمي، ولا أبيضَ على أسود إلَّا بالتَّقوى، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم**»[(٣)] وقال ﷺ: «**النَّاس سواسية كأسنان المِشط**»[(٤)].

ثمَّ جهل النَّاس دينَهم، وجهلوا معانيه، والجهل داءٌ وبيل، والجاهل أعمى وأصمُّ وأبكمُ، والجاهلون كما وصفهم الرَّحمن: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٧٩].

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٥)، وابن ماجه، رقم: (١٩٦٧).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٥٥)، وقال: هذا حديث حسن، بلفظ: «**لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا...**»، وأحمد، رقم: (٨٧٣٦)، بلفظ: «**إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عبية الجاهلية...**».

(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩).

(٤) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٤٨٢٢)، بلفظ: «**الناس سواء كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعبادة...**».

نَعم إنَّهم جَهِلوا فعادوا إلى جاهليَّتهم وعصبيَّتهم القَبَلِيَّة، وعادوا لاستعباد المرأة وقهرها، وإرغامها على الزَّواج ممَّن لا ترضاه حتَّى حجز ابن العمِّ بنت عمِّه، وأرغموا بنت العشر سنين على الزَّواج من ابن السَّبعين؛ لأنَّه ابن عمِّها «الذَّبَّاح الصَّلَّاخ» كما يصفونه، وقَتلَ ابنُ العمِّ من تتزوَّج من الغريب على كتاب الله وسنَّة رسوله، وعدُّوها زانية، وعُدَّ قَتْلُه هذا تطهيرًا، وخرس رجال الدِّين وعَمُوا وصَمُّوا؛ لأنَّ رجال السُّلطة قالوا: لا تعترضوا، والعَالِمُ أمام الجاهلِ المُتَسَلِّط ضعيف، وقال لسان حالهم:

ما كنت أوثر أن يمتدَّ بي زمني حتَّى أرى دولة الأوغاد والسَّفل

أمَّا اليوم، فلا معنى لأن نجهل ديننا وأن نتغافل عن محاسنه ما دمنا قد فهمنا الدُّنيا علينا أن نحيي هذه المكرُمة؛ مكرُمة أنَّ النَّاس سواسية، وأن نفخر بالكفاءة الَّتي أرادها الرَّسول ﷺ لأمَّته عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣] وأن نعمل بوصيَّته المقدَّسة: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه فزوجوه فزوجوه**»(١).

وعلينا أن نعلم أنَّ المبدأ واحد، هو النُّطفة المَذِرَة، وأنَّ النِّهاية واحدة، وهي الجيفة القَذِرَة، وأنَّ الجوهر هو الحياة الَّتي بين المبدأ والنِّهاية.

فلنتمسَّك بالجوهر، ولْنحلَّ العُقُلَ، ولْنعْمَل بالحكمةِ القائلةِ:

إنَّ الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٥)، وابن ماجه، رقم: (١٩٦٧).

الغلاء في المهور

السُّؤال:

جئت أخطب ابنة عمِّي، وطلب منِّي (٣٥) ألف ليرة سوريَّة مهرًا لبنته مع تأديتي تكاليف الزَّواج جميعها، فقلت له: ليس معي سوى (٢٠) ألفًا، فكان جوابه: فلان دفع لي (٤٠) ألفًا.

سؤالي: هل البنت سلعةٌ بيد أبيها يبيعها لمن يدفع أكثر؟ أم عليه أن يبحث عن سعادتها لتعيش مع من ترى في حياتها معه السَّعادة، حين يشربان جميعًا كأس الحبِّ المتبادل؟

الجواب:

مازلنا نعيش في جاهلية مظلمة، وما زال الأب يرى أنَّه مالك للبنت، يتصرَّف فيها تصرُّف المُلَّاك في أملاكهم، مازلنا - مع الأسف - نعيش في ظُلُمَات الغلط، نرى أنَّ الغنى هو أساس المحبَّة وزهوة الحياة وجالب السَّعادة، ولكنَّ الحقيقة غير ذلك.

الأساس هو الانسجام الَّذي يثمر ثمرته الحقيقيَّة؛ ثمرة الحبِّ بين الزَّوجين.

وأذكر فيما أذكر خبرًا عن رسول الله ﷺ أنَّ رجلًا جاء رسول الله ﷺ يسأله عن يتيمة في رعايته خطبها اثنان؛ أحدهما غنيٌّ، والثَّاني فقير، وهي ترغب في الزَّواج من الفقير، ونحن نرغب في الغنيِّ لأنَّه أنفع لها،

فقال ﷺ ما معناه: «**زوِّجوها من تحبُّ**»[١]، ذلك أنَّ الحبَّ سيكون فيما بينهما كالإدام.

دم الاستحاضة

السُّؤال:

امرأة كان معها نزيف يشبه الدَّم، وليس دمَ حيضٍ، فهل تقضي أيَّام الصَّوم الَّتي كان الدَّم ينزل فيها وهي صائمة؟

الجواب:

صوم المرأة صحيح، وليس عليها قضاء؛ لأنَّ هذا الدَّم دم استحاضة، وليس دم حيض، فصومها تامٌّ وليس عليها إعادة الصَّوم، أمَّا الصَّلاة فتصلِّي الفرائض، وتتوضَّأ لكلِّ فرضٍ، وإذا شقَّ عليها الوضوء لكلِّ فرض بسبب البرد أو غيره، جمعت بين الظَّهر والعصر في وقت أحدهما، وجمعت بين المغرب والعشاء في وقت أحدهما. والله أعلم.

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥٥٩٧)، بلفظ: «**لم ير للمتحابين مثل النكاح**».

صوم الحائض

السُّؤال:

اغتسلتُ وصمتُ، وفي ثاني يوم وجدت بقعًا صفراء، ولكنِّي واصلت صيامي، فلم أفطر ولم أغتسل، فهل صيامي صحيح؟

الجواب:

قال الفقهاء: النَّقاء زمن الحيض طُهر. ولكلِّ أنثى عادة؛ سمِّيت عادة لأنَّ لها أيَّامًا معدودة، فلبعضهنَّ ثلاثة أيَّام، ولبعضهنَّ أكثر، والعادة يجب أن تأخذ بها المرأة وتعدَّها قانونًا يجب تطبيقه، ولا يصحُّ أن يتغيَّر هذا القانون إلَّا بعد أن تقارب المرأة سنَّ اليأس، فإذا حصل للمرأة في أيَّام عادتها نقاء صلَّت وصامت، وصلاتها صحيحة، وصيامها صحيح، ولا يجب عليها أن تتمسَّك بكلمة: إنِّي غير طاهرة، فمتى رأت النَّقاء وجب عليها أداء الأركان، فإذا رأت بعد النَّقاء دمًا عَدَّت هذا الدَّم حيضًا لا يجرح اليوم الَّذي سبقه، لأنَّ النَّقاء زمن العادة طُهر، والعمل فيه - كما قلنا - صحيح، فإذا انتهى زمن العادة - عادة الزَّمن - الَّذي عرفته المرأة زمنًا لعادتها، ثمَّ رأت بعد ذلك صفرة أو كدورة، فلا عبرة لهذه الكُدورة أو الصُّفرة، وصيامها صحيح وصلاتها صحيحة.

هل الغياب عن الزَّوجة ذَنْبٌ؟

السُّؤال:

تزوَّجت منذ ثلاث سنوات، وغبت عن زوجتي بعد سنة، ولي الآن في المهجر سنتان، قال لي بعض الأصدقاء: إنَّني مذنب بالنِّسبة إلى زوجتي. فهل أنا مذنب حقًّا؟

الجواب:

إنَّ الله سائل كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه، فما هو ذنب زوجتك؟

إن كنت تستطيع السَّفر إليها فسافر، وأمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه سنَّ سُنَّة عمل بها الصَّالحون من أمَّة محمَّد، وهو أنَّ من تعوَّد الغَيْبَة عن أهله لا يغيب أكثر من أربعة أشهر، أمَّا من لم يتعوَّد ويسافر في العمر مرَّة أو مرَّتين فلا عليه أن يغيب أكثر من ذلك. فاتَّقوا الله يا ناس في زوجاتكم.

أمَّا الضَّرورات فلها أحكام، والمضطرُّ ليس كغيره، وعندنا في الكويت مثلٌ يقول: (العاقل خصيم نفسه).

العمل مع الرِّجال

السُّؤال:

أنا فتاة محجَّبة - والحمد لله ربِّ العالمين - وفَّقني الله للقيام بواجبات ديني، أعمل موظَّفة في دائرة حكوميَّة، ومعي رجال موظَّفون في نفس الدَّائرة، وبما أنِّي منطوية على نفسي لا أتكلَّم معهم إلَّا بحدود العمل، وصفوني بأنَّني معقَّدة، والدتي حرَّمت على نفسها أن تأخذ شيئًا من كسبي لأنَّني أعمل مع الرِّجال، فهل ذلك صحيح؟ وهل الإسلام يمنع المرأة من أن تعمل مع الرِّجال في حدود الحشمة والوقار واحترام النَّفس، وتنفيذ أمر الله عليها، علمًا أنِّي متزوِّجة؟

الجواب:

المرأة المتزوِّجة مكفولة، ونفقتها على زوجها لأنَّها أمينة بيته، وأمُّ أولاده، والله ﷻ أوجب عليها أن ترعى زوجَها وأولادها كما أوجب عليه نفقتها، والرَّسول ﷺ أخبرنا أنَّ «**جهاد المرأة حسن التَّبعُّل**»[١]، و«**أنَّ المرأة راعيةٌ في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها**»[٢]، هذا هو الواقع، وهذا هو دين الإسلام، جعل الرَّجل قوَّامًا على بيته، مسؤولًا عمَّن هم تحت رعايته، في طعامهم وشرابهم وكسائهم ودوائهم وكلِّ ما يحتاجونه

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤١٧٢)، بلفظ: «**إنما الصنيعة إلى ذي دين أو حسب، وجهاد الضعفاء الحج، وجهاد المرأة حسن التبعل...**».
(٢) رواه البخاري، رقم: (٨٩٣).

من نفقة، هذا جواب على كلمة السَّائلة: «**علمًا أنِّي متزوِّجة**».

أمَّا الجواب على سؤالها الأوَّل؛ وهو أنَّ أمَّها حرَّمت على نفسها أن تأخذ شيئًا من كسبها مادامت تعمل مع الرِّجال، فتحريم الأمِّ دليل على جهلها؛ لأنَّ الحرام ما حرَّمه الله ورسوله، ولم يَرِدْ في الشَّريعة تحريمُ عملِ عاملٍ، إلَّا أن يكون هذا العمل بطبيعته محرَّمًا كساقٍ في خمَّارة، أو حارس في محلٍّ مُحَرَّم، أو كسبٍ من غشٍّ أو تدليسٍ[1] أو قمارٍ أو نحوِ ذلك من الأعمال الَّتي حرَّمها الله، ومن رتع فيما حرَّم الله أو أعان عليه فكسبه من ذلك حرام، وما دمتِ تعملين في دائرة حكوميَّة، وقد قمت بالواجب الَّذي أُسْنِدَ إليكِ بأمانة وإخلاص، وأدَّيت الحقَّ المطلوب منك فكسبك حلال، أمَّا من نعت حجابك بالعقدة، وسترك بالانطواء، فقد أخطأ؛ لأنَّه جاهل في دينه أو خارج منه أو مقلِّد، والجاهل لا عبرة له، وتارك دينه لا مبدأ له، والمقلِّد كما يقولون أعمى، ونصيحتي لكلِّ امرأة تَدِيْنُ بالإسلام أن تتمسَّك بدينها، وتحافظ على أوامره، وتلتزم نصائحه، وأرجو أن تقرئي الآيتين الكريمتين: الأولى آية (٣١) من سورة النُّور، والثَّانية آية (٥٩) من سورة الأحزاب، وأن تعملي بهما. والله الموفِّق.

زكاة المهر المؤجَّل

السُّؤال:

مهر المرأة المؤجَّل في ذمَّة زوجها هل عليه زكاة أم لا؟

(١) التَّدليسُ في البيع: كِتْمَانُ عيب السِّلعة عن المشتري. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٦/ ٨٤).

الجواب:

المهر المؤجَّل دَيْنٌ لم يُستحقَّ، وهو بنفس الوقت دَيْنٌ لا أصل له، ولم يُقبض نقدًا، وضعه واضعه حفظًا لمستقبل المرأة وضمانًا لراحتها، فهو دَينٌ لم يكن قد دُفِعَ له أساسًا، وإنَّما هو إقرار دون قبض، لهذا فقد اختلف الفقهاء فيه، والأولى عندي أن لا زكاة عليه حتَّى تأخذه المرأة ويدخل في حوزتها.

الزَّكاة لزوجة الأب والإخوة منها

السُّؤال:

في كلِّ سنة - والحمد لله - أخرج زكاة مالي، ومنذ سنتين قلَّت ذات يد والدي، وله زوجة غير أمِّي، ولي إخوة منها هم إخوتي لأبي، وأنا أعلم أنَّ الزكاة منِّي لأبي لا تصحُّ، فهل أُعطيها لزوجة أبي تنفق منها على إخوتي؟ وفي الوقت نفسه يكون في ذلك مساعدة لوالدي؟ وهل يجوز لي نقلها إليهم في بلدهم خارج الكويت؟

الجواب:

الزَّكاة ركن من أركان الإسلام، فهي الرُّكن الثَّالث بعد الشَّهادتين والصَّلاة، وهي حقٌّ واجب افترضه الله على من ملك نصابًا فأكثر، فَحَالَ عليه الحَوْلُ بالشُّهور القمريَّة، ومصارِفُها كما قال الله جلَّ شأنه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠] أصناف ثمانية، ونصَّت السُّنَّة أنَّها لا تصحُّ

للأصول؛ وهم: الآباء والأبناء وأولادهم وإن سفلوا، ولا تصحُّ من الزَّوج لزوجته؛ لأنَّ نفقتها عليه واجبة، أمَّا الإخوة والأخوات وأرملة الأب ففي إعطائهم من الزَّكاة أجر الصَّدقة وأجر صلة الرَّحم، ومثلهم الأعمام والعمَّات وأولاد العمِّ وذوي الرَّحِم من جهة النِّساء أو من جهة الرِّجال وإن بعدوا، ولكنَّ الخلاف أتى في زوجة أبيك وإخوتك القاصرين، ونفقتهم على أبيك الحيِّ الَّذي نفقته الآن واجبة عليك، لهذا فقد اضطررت إلى الاستعانة بأصحاب الفضيلة الزُّملاء أعضاء لجنة الفتوى بوزارة الأوقاف فأجابت اللَّجنة بالآتي:

ذهب الفقهاء كلُّهم إلى أنَّه يجوز دفع الزَّكاة لغير الأصول والفروع من بقيَّة الأقارب كالإخوة والأخوات إذا كانوا فقراء، وهم أولى بالإعطاء من غيرهم، ففي ذلك صدقة وصلة رَحِمٍ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**الصَّدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرَّحم ثنتان: صدقةٌ وصِلَةٌ**»[1]، رواه أحمد في مسنده ورواه غيره عن سلمان بن عامر.

وفي الفتوى الظَّهيريَّة قال المؤلِّف - رحمه الله-: ولو دفع زكاته إلى من نفقته واجبة عليه من الأقارب جاز، إذا لم يحتسبها من النَّفقة، ومن باب أولى دفعُها إلى من لم تجب نفقته عليه من الأقارب، وقال المالكيَّة مثل ذلك، وذهب الشَّافعي إلى أنَّه: يجوز دفع الزَّكاة للقريب الفقير الَّذي لا تجب نفقته عليه.

وتأسيسًا على ما تقدَّم، فإنَّ صرف الزَّكاة لإخوتك المذكورين جائز

(١) رواه الترمذي، رقم: (٦٥٨)، وقال: حديث سلمان بن عامر حديث حسن، وأحمد، رقم: (١٦٢٢٦).

شرعًا تُعطى لوالدتهم، لترعاه وتنفق عليهم، ولا تُحسَبُ من النَّفقة، كما أنَّه لا مانع من نقلها إلى البلد الَّذي يسكنون فيه.

باعت الأمُّ ابنتها بالمال

السُّؤال:

يقول: أحببت فتاة حتَّى العبادة، وهي في الوقت نفسه تحبُّني، ولكنَّ أمَّها زوَّجتها قهرًا من رجل بحجَّة المهر الغالي، العجوز باعت بنتها بالمال الكثير، فهل نلتقي سويًّا في الآخرة؟

الجواب:

أوَّلاً: أرجو من السَّائل إن كان مسلمًا أن يستغفر الله من كلمته: أحبُّ الفتاة حتَّى العبادة، فالعبادة لا تكون إلَّا لله، ومن عَبَدَ غيرَ الله فقد أشرك، والله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، والعبادة لا يشبهها شيء من الحبِّ أبدًا. فحبُّ الله فوق كلِّ حبٍّ، وحبُّ رسوله فوق كلِّ حبٍّ، والرَّسول ﷺ قال لنا: «**لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحبُّ إليه من ولده ووالده والنَّاس أجمعين**»[(١)].

فإذا كان هذا بالنِّسبة إلى الرَّسول ﷺ، فكيف بالنِّسبة إلى الله ربِّ الرَّسول؟!

لهذا أقول لصاحبنا السَّائل: اترك هذه الكلمة، وأقول لجميع

(١) رواه البخاري، رقم: (١٥)، ومسلم، رقم: (٤٤).

المستمعين والمستمعات: اتركوا هذه الكلمة المائعة المؤدِّية إلى الكفر والشِّرك، واستَغْفِرِ الله ﷻ، فالله ﷻ خلق البشر لعبادته وحده لا لعبادة غيره، والحبُّ الَّذي يؤدِّي إلى العبوديَّة لا خير فيه، ثمَّ إنَّك تقول إنَّ أمَّ البنت زوَّجتها بمهر غالٍ، إذًا فهي يتيمة، فلو كان أبوها حيًّا لزوَّجها أبوها، واليتيمة لا إجبار عليها ولا إكراه، إذًا فقد سألها المأذون أو الشُّهود: هل أنت راغبة بزواجك؟ فقالت: نعم، وانتهى الأمر.

من كتابك نفهم أنَّ البنت يتيمة، وأنَّ الأمَّ زوَّجتها وليس بيد الأمِّ عَنَتٌ[1] ولا قَهَر، وإنَّما زوَّجتها برضاها، وأرجو من السَّائل أن يعلم أنَّ البنات كثيرات، ولعلَّ فيما قُدِّر له خير، وفي الأثر: «**لو اطَّلعتم على الغيب لاخترتم الواقع**»[2]، وأرجو أن يكون فيما حصل لك خير.

أمَّا اللِّقاء في الآخرة فعلمه عند الله، ولعلَّكم لا تلتقون، ولعلَّ طريقكما يكون مختلفًا، فمن هو منكما من أصحاب اليمين؟ هذا اللِّقاء غَيْبِيٌّ، والغيب لا يعلمه أحد حتَّى الأنبياء، والله ﷻ أمر نبيَّه أن يُخبر النَّاس أنَّه لا يعلم الغيب فقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النَّمل: ٦٥].

(١) عَنَّتَهُ تَعْنِيتًا: المُرادُ: شَدَّد عليه، وألزمه بما يصعب عليه أداؤه. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٥/ ١٤).

(٢) لم أقف عليه، ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية.

لقد فعلت الصَّواب وهنَّ الشَّاذَّات

السُّؤال:

أبلغ من العمر (٢٣) عامًا، وأعمل مدرِّسة في إحدى المدارس، تزوَّجت منذ أربع سنوات، وبعد أسبوع من الزَّواج تحجَّبت بعد أن كنت أرتدي الملابس القصيرة والضَّيِّقة الَّتي تُبرز مفاتن جسدي، مشكلتي أنَّني أصبحت شاذَّة بين زميلاتي، وبعضهنَّ يَسْخَرْن منِّي، بل وصل الأمر بهنَّ إلى حدِّ مقاطعتهنَّ لي، إنَّني لبست هذه الملابس عن اقتناع، فقد عرفت طريق ربِّي، ووجدت في هذا الطَّريق جمالًا وحلاوة برضا خالقي ﷻ عنِّي، ولكنَّ سخرية زميلاتي منِّي تؤلمني، وأنا أريد إرضاءهنَّ فماذا أفعل؟

الجواب:

أقول للسَّائلة: إنَّ رسالتك ليست أوَّل رسالة تَرِدُ إليَّ بهذا المعنى، جاءتني رسائل أخرى أجبت على معظمها بالبريد، ولخطورة الموضوع قرَّرت أن أثيره على هذه الشَّاشة لتسمعني كلُّ مشاهدة.

تقول السَّائلة: مشكلتي أنَّني أصبحت شاذَّة بين زميلاتي، وأقول لها: إنَّهنَّ هُنَّ الشَّاذَّات، وأنتِ على حقٍّ، ومتى كان الحقُّ شاذًّا!؟ إنَّك عرفتِ طريق الله كما تقولين، واحترمتِ جسدكِ فلم تجعليه عُرضَة للرَّائح والغادي يشاهده مجَّانًا بلا ثمن، لقد فعلتِ الصَّواب، فعلتِ ما تأمرك به تعاليم الإسلام الحنيف، إنَّ الإسلام أمر نساءه المؤمنات بغضِّ البصر

وإسبال السِّتر، والإسلام حين عدَّ جسد المرأة أو الفتاة عورة وأمرها بالحجاب، أمرها بذلك احترامًا لهذا الجسد من أن يصبح عرضة لنظرات النَّاس، والمرأة الَّتي تحترم نفسها يحترمها النَّاس، فلم نرَ مثلًا من يضايق أو يعاكس امرأةً متحجِّبة، بل إنَّ مجرَّد رؤيتها توحي في النَّفس الاحترامَ والرَّاحةَ والطَّمأنينةَ والثِّقةَ، أمَّا أولئك اللَّواتي يعرضن أجسادهنَّ في الشَّوارع والطُّرقات فما أكثر الطَّامعين فيهنَّ، وما أكثر ما يُلاقينَ من مضايقات، لأنَّهنَّ لا يحترمن أنفسهنَّ، فلا يحقُّ لهنَّ أن يطلبن الاحترام من أحد، أمَّا عن سخرية زميلاتك فلا تأبهي لهنَّ، ولا تُعِيْرِيْهِنَّ التفاتًا، والرَّسول صلوات الله وسلامه عليه قال ما معناه: «**يأتي على النَّاس زمان الصَّابر منهم على دينه كالقابض على الجمر**»[1].

إنِّي أُصدِّقكِ أنَّ للتَّمسُّك بتعاليم الإسلام حلاوةً لا تعدلها حلاوة، وراحة لا تدانيها راحة حين يحسُّ الإنسان بأنَّه أرضى ربَّه وأدَّى ما عليه، ولقد جرَّبتِ أنتِ هذه الحلاوة، وهذه الطَّمأنينة، وليجرِّب المكذِّب من المشاهدين والمشاهدات فسيحسُّ بهذه الحلاوة، وإنَّ رضاء ربِّك بطاعتكِ له أولى من رضاء زميلاتك.

وأخيرًا أقول لبناتي وأخواتي: عندنا كلمة دارجة على ألسنتنا في كويتنا الحبيبة، إنَّها مَثَل، والمَثَلُ حكمةٌ، وهذا المثل يقول: «الممنوعُ مطلوبٌ، والرَّخيصُ مخيسٌ» ولعلَّ في هذا المَثَل درسًا لمن فهم القول، وذكرى لمن كان له قلب.

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٢٦٠)، وقال: هذا حديث غريب، وأحمد، رقم: (٩٠٧٣).

الجهر بالقراءة للمرأة

السُّؤال:

إذا قُمتُ أصلِّي أجهر بالقراءة والتَّكبير والتَّسبيح، وقيل لي: يكره للمرأة أن تجهر، فهل الجهر في الصَّلاة مكروه للمرأة؟

الجواب:

نعم، يُكره للمرأة أن تجهر في كلِّ أقوال الصَّلاة، إلَّا بقدر ما تسمعُ نفسها، أمَّا أن يسمعها الغير فلا.

لباس المرأة في الصَّلاة وبعدها

السُّؤال:

إذا حلَّ وقت الصَّلاة قام بعضهنَّ لها، فَلَبِسْنَ السَّاتر، وهو «تَنُّورة» تغطِّي ما ينكشف من أرجلهنَّ، ثمَّ يضعن على رؤوسهنَّ قطعة ساترة، فإذا أدَّينَ الصَّلاة عُدْنَ إلى حالهنَّ، فهل لهؤلاء وأمثالهنَّ صلاة؟

الجواب:

نعم، لهنَّ صلاة، والصَّلاة لا يقوم مقامها شيء من العبادة، وأداء الصَّلاة دليل اليقين، والمحافظة عليها دليل الإيمان، نعم، لهنَّ صلاة إذا أدَّينها بشروطها وأركانها، أمَّا كشف الحجاب فإنَّه معصية، وإن كانت

كبيرة ولكنَّها ليست كترك الصَّلاة؛ لأنَّ ترك الصَّلاة أكبر المعاصي، وربَّما كان ترك الصَّلاة كفرًا، أنا لا أحبِّذ القصير والكاشف والشَّفاف، ولكنَّ البلوى عمَّت، والسَّيل جارف وأخَّاذ وكاسح، وليس ببعيد على الله أن يأتي يوم يظهر الخطأ ويفيق النَّاس من التَّقليد، وأرجو لهؤلاء وأمثالهنَّ أن يَعُدْن إلى الصَّواب، والصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

خال الوالدَين خال الولد

السُّؤال:

أنا فتاة محجَّبة، وقد سمعتُ أنَّ المحجَّبة لا يحقُّ لها الظُّهور سافرة أمام أيِّ إنسان سوى الوالدين والإخوان والأخوال والعُمومة، وقد ظهرتُ سافرةَ الرَّأس أمام خال والدتي، وسلَّمت عليه في عيد الفطر، فهل أنا مخطئة في ذلك؟

الجواب:

حين فرض الله الحجاب على المرأة فَرَضَه صونًا لكرامتها وحماية لأنوثتها، فهو ليس قيدًا ولا إهانة ولا سجنًا، وإن قال عنه أعداء الإسلام وأعداء أوامره ما قالوا، والله وحده هو الَّذي فرض الحجاب على نساء المؤمنين، وعلى هؤلاء المؤمنات أن يطعن أمر ربِّهنَّ، فلا يُبدين زينتهنَّ إلَّا ما ظهر منها، ولْيضربن بخُمُرهنَّ على جيوبهنَّ، أمَّا عن ظهورك سافرةً أمام خال والدتك أو عمِّها، أو خال أبيك أو عمِّه فذلك جائز، لأنَّ خال والديكِ هو خال لكِ، وعمُّ والديكِ هو عمٌّ لكِ، فلا عليكِ، وأسأل الله

أن يهديك ويثبِّت إيمانكِ.

أمِّي تسيء إليَّ

السُّؤال:

أنا طالبة مدرسة، مشكلتي أنَّ والدتي جاهلة وبذيئة اللِّسان، وكلَّما «حصل زعل منها ضدي» تقول لي: يا قبيحة! الحقيقة أنَّني لست قبيحة، ولكنَّني لست جميلة، كلامها هذا يدفعني إلى أن أنظر إلى وجهي في المرآة دائمًا، وأوهم نفسي أنِّي قبيحة، كلامُها عقَّدني وسوَّد الدُّنيا في وجهي، فإذا كنتُ قبيحةً فما ذنبي أنا؟ إنَّ الله خلقني هكذا...

أرجوك سيِّدي! هل لي ذنب في كوني خلقت قبيحة؟ وهل هناك ذنب لمن هم أقبح منِّي؟

الجواب:

أذكر أنِّي كتبتُ منذ زمن قريب موضوعًا قلتُ فيه: كلُّ طفل عاش عهد طفولته هادئًا هانئًا بين أبويه شبَّ مسرورًا آمنًا في حياته، ومن عاش طفولته في مشكلات شبَّ خائفًا فاشلًا قلقًا، لا فرق في ذلك بين أنثى وذكر؛ لأنَّه ليس في البشر كالطَّفل حسَّاسًا يشعرُ ويكبتُ، ومتى تكون النَّتيجة؟

تكون عندما يكبر الطِّفل، فإمَّا أن يكون شابًّا سلسًا لطيفًا بشوشًا، وإمَّا معقَّدًا قلقًا يعيش حياته كلَّها في المشكلات، وربَّما تخيَّلها من حيث يعلم أو لا يعلم، أقول ذلك عن الأغلبيَّة، ولا أحكم على الأطفال جميعهم، فالشَّاذُّ كثير، والولد هبة من الله ونعمة، ابنًا كان أو بنتًا، فعلينا

أن نشكر الواهب، وكيف نشكره إن لم نرعَ نعمته!؟ والرِّعاية لا تكون بالضَّرب والإهانة والقمع والشَّتم، إنَّ الرِّعاية تكون بزرع الفضيلة والمحبَّة في قلب الابن أو البنت، فلا يصفِ الوالد أو الوالدة ولدهما بالغباء أو الضَّعف أو القبح، ولا يقولا له: فلانٌ أحسن منك، أو فلانة أجمل منكِ، فقد يؤثِّر هذا الوصف في الطِّفل، وقد يؤثِّر في عقله الباطن، وتبقى العلَّة فيه كامنة، فيشعر بالنَّقص أمام غيره وقد يذلُّ ويستوحش، وشتَّان بين طفلين؛ طفل عاش بالحبِّ يسمع من أبويه كلمات الحبِّ بلا تدليل ولا إعجاب ولا غرور، وطفل عاش في ذلَّة بين أمِّه وأبيه، صدِّقني أيُّها المستمع الكريم إنَّ هذا شقيٌّ وذاك سعيد، إنَّ هذا ينام قلقًا، وذاك ينام هادئًا، فإلى الآباء والأمَّهات أوجِّه كلمتي المختصرة هذه، وأقول للجميع ناصحًا: اختاروا لأولادكم طريق السَّلامة، فإنَّ الله ﷻ قال في كتابه العزيز: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ [الشّورىٰ: ٤٩-٥٠].

فالأولاد ذكورهم وإناثهم نعمة، والشَّاعر المسلم يقول:

إذا كنت في نعمة فارعها فإنَّ الخطايا تزيل النِّعم

وأيُّ خطيئة أكبر من إذلال طفل بريء رفع الله عنه قلم الحساب!؟

وأيُّ زوال نعمة أشدُّ من خسارة الوالدين ولدهما عند الكبر إذا عاش معقَّدًا ذليلًا مُهانًا مُستوحِشًا!؟

لا أظنَّ أنَّ هناك نقمة أشدَّ من هذه النّقمة، أسأل الله أن يسلك بنا سبيل الرَّشاد فهو الهادي إليه.

أذان المرأة

السُّؤال:

هل يجوز للمرأة أن تُؤذِّن أم لا؟ ولماذا لا نسمع مؤذِّنات؟

الجواب:

كان هذا السُّؤال من جملة الأسئلة الَّتي عُرِضَت على لجنة الفتوى في وزارة الأوقاف، وكان الجواب: إنَّ الأذان فرض كفاية على الرِّجال دون النِّساء، وهو من الشَّعائر الإسلاميَّة، أو كما يقال: من سنن الهدى الَّتي يتميَّز بها البلد المسلم من غيره، وسنن الهدى كثيرة، منها المساجد والأذان، ومنها إظهار شعيرة رمضان في البلد المسلم، كصلاة التَّراويح، وإغلاق المطاعم والمقاهي في النَّهار، إلى غير ذلك من الأمور الَّتي يتميز بها البلد المسلم من غيره لمن دخله، وقد ورد في الحديث «**ليس على النِّساء أذانٌ ولا إقامةٌ**»[1]؛ لأنَّ الأذان يُشرع له رفع الصَّوت، ولا يجوز للمرأة رفع الصَّوت، وإن كان قد روي عن أمِّ ورقة من الصَّحابيَّات أنَّ النَّبيَّ ﷺ أذِنَ لها أن يُؤَذِّنَ لها ويقام، وتؤمَّ نساء أهل دارها إلَّا أنَّ أهل الحديث قالوا في هذا الحديث: إنَّه ضعيف.

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٠٩٨١).

زوجي يطالبني بخلع الحجاب

السُّؤال:

تحجَّبتُ وجُنَّ جنون زوجي حين رآني متحجِّبة، فلم يقبلني، ونَشَبَ الخلاف بيننا حتَّى اضطررت إلى ترك بيت الزَّوجيَّة وذهبت إلى بيت أبي منذ خمسة شهور، وفَشِلَتْ كلُّ محاولات الإصلاح، فهو يخيِّرني بين الحجاب وبينه، وأنا أخاف على بيتي وأولادي، فماذا أفعل؟

الجواب:

الحجاب أمر الله، وقد ورد الحجاب في سورتين من كتاب الله تعالى؛ في سورة النُّور في الآية (٣١) بقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ﴾ [النُّور: ٣١].

والآية الثَّانية في سورة الأحزاب في الآية (٥٩): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

بهاتين الآيتين أمر الله ﷻ في كتابه العزيز بالحجاب صراحةً، وفي آيات أخرى كثيرة تلميح إلى أنَّ المرأة المؤمنة المسلمة يجب أن تكون على قدر كبير من الاحتشام وعدم التَّبذُّل، وألَّا تكون محطَّ أنظار النَّاس، والرَّسول ﷺ يخبرنا أنَّ «**لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق**»[(١)]؛ حتَّى الوالدين، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ

(١) رواه أحمد، رقم: (١٠٩٥).

عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] فكيف بغير الوالدين!

وجوابي للأخت السَّائلة: أنتِ بين أمرين اختاري أحدهما: طاعة الله ومخالفة أمر زوجك، أو طاعة زوجك ومخالفة أمر ربِّك.

هذا جوابي للأخت السَّائلة أمِّ حيدر، ولْتعلم أنَّ من اتَّقى الله وَقَاه، ومَن كان مع الله كان الله معه.

ولعلَّ زوجك يذلُّ لأمر الله ويأتي صاغرًا حين يعرف الحقَّ، ومن يتَّق الله يجعل له من أمره يسرًا.

الجمع بسبب المرض

السُّؤال:

امرأة مصابة بمرض، هذا المرض هو رطوبة دائمة تنزل منها، فهل يباح لها الجمع بين الصَّلوات؟

الجواب:

المرأة الَّتي ذكرت أمرها من أصحاب العذر، أو الحدث الدَّائم، هكذا قال الفقهاء، فهي كالرَّجل المصاب بسلس البول، أو المريض بالقرحة الَّتي تنزف دمًا أو قيحًا، فهؤلاء إذا شقَّ عليهم الوضوء لكلِّ صلاة جاز لهم الجمع بين الظَّهر والعصر بوضوء واحد ووقت واحد، إمَّا جمع تقديم وإمَّا جمع تأخير، وجاز لهم أيضًا الجمع بين المغرب والعشاء

بوضوء واحد ووقت واحد تقديمًا في وقت المغرب، أو تأخيرًا في وقت العشاء.

السُّؤال:

أمِّي مريضة منذ سنتين، ومرضها في رجلها، وهي تجمع بين الظُّهرين وبين العشاءين، وتصلِّي جالسة فهل يصحُّ ذلك منها؟

الجواب:

إن كانت تستطيع القيام ولا يشقُّ عليها فلا يصحُّ لها أن تصلِّي جالسة، وإن استطاعته وكلَّفها فيباح لها الجلوس، أمَّا الجمع بين الظُّهرين: الظُّهر والعصر، وبين العشاءين: المغرب والعشاء، فيباح لها إن شقَّت عليها الطَّهارة وكلَّفها الوضوء في مثل أيَّام البرد، أو كلَّفها الذَّهاب إلى الحمَّام إن كانت دائمة الحدث ولا تستطيع أن تمسك الوضوء، فيباح لها أن تجمع.

أمَّا في غير هذه الأحوال فلا يصحُّ لها المواظبة على الجمع بين الصَّلوات.

عدم القدرة على القيام

السُّؤال:

أمُّ أطفال تشكو آلامًا كثيرة، ويحصل لها أحيانًا إغماء، وقد يعتريها

الإغماء وهي تصلِّي، فتنسى ما قرأت، وتنسى كم صلَّت، فهل تصحُّ صلاتها جالسة؟ وهل تقبل؟

الجواب:

القيام ركن من أركان الصَّلاة ولا يصحُّ لإنسان يستطيع الوقوف أن يصلِّي وهو جالس؛ لأنَّ الله ﷻ قال في كتابه: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨] أمَّا المريض الَّذي يشقُّ عليه الوقوف ولا يطيقه، فتصح صلاته جالسًا، وكذا من لم يستطع الجلوس يصلِّي مضطجعًا على أحد جنبيه، أمَّا أنتِ فصلِّي قائمة، ومتى أحسستِ بالدَّوران في رأسكِ فاجلسي، ومتى أحسستِ به وقد خفَّ قومي، وأرجو الله لكِ الشِّفاء، أمَّا القَبُول وعدم القَبُول فعلمه عند الله، وليس عندي، ولا يعلمه أحدٌ غيره؛ لأنَّ الأعمال بالنِّيَّات، ولكلِّ امرئٍ ما نوى، نسأل الله أن يتقبَّلنا ويجعلنا من صالحي عباده.

السُّؤال:

امرأة كبيرة في السِّنِّ مُقْعَدَة لا تستطيع القيام لأداء الصَّلاة، فهل صلاتها وهي جالسة كصلاتها وهي قائمة؟

الجواب:

القيام في الصَّلاة ركن على القادر، فإذا عجَز المصلِّي عن القيام صلَّى جالسًا، وصلاته صحيحة، كذلك الطَّهارة واجبة، وهي شرط من شروط صحَّة الصَّلاة، فإذا عجَز عن إكمال الطَّهارة لسبب من الأسباب تيمَّم للطَّهارة وصلاته صحيحة، سواءٌ أكانت الطَّهارة من الحدث كالوضوء والغسل، أو من الخبث، وهو ما يطرأ من نجاسات على البدن إذا تضرَّر

من استعمال الماء.

السُّؤال:

مريضة ويشقُّ عليها القيام أثناء الصَّلاة، أيسقط عنها القيام؟

الجواب:

إذا شقَّ القيام على المصلِّي جاز له أن يصلِّي جالسًا، وإذا كلَّفه الجلوس جاز له أن يصلِّي مضطجعًا على جنبه الأيمن مستقبلًا القبلة بوجهه وصدره، وإذا شقَّ عليه الجلوس جاز له أن يصلِّي مستلقيًا على ظهره، ورجلاه إلى القبلة، ويصلِّي بِطَرْفِهِ أو يشير إلى الرُّكوع والسُّجود بسبابته اليمنى، وإذا شقَّ عليه الرُّكوع والسُّجود وهو جالس أومأ برأسه، ولا تسقط الصَّلاة بحال من الأحوال إلَّا إذا فقد ذاكرته

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النِّسَاء: ١٠٣] فلا تسقط حتَّى في حالة الحرب، وقد علَّمنا الباري جلَّ شأنه كيف نصلِّي ونحن في ساحة الحرب أمام عدوِّنا.

أمَّا الجواب على سؤال السَّائلة:

فالقيام في الصَّلاة ركن من أركانها لا تصحُّ إلَّا به؛ لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨] فالقيام ركن ولا يسقط إلَّا عن العاجز عن أداء هذا الرُّكن.

فالمرأة إذا عجزت عن القيام صلَّت وهي تجلس متربِّعة على الأرض مباشرة مستقبلة القبلة، والرَّجل إذا عجَز عن القيام صلَّى جالسًا على رجله اليسرى كجلسته للتَّشهُّد.

السُّؤال:

أعاني من ضعف وضيق نفس، أشعر بهما بعض الأحيان وأنا أصلِّي، فهل يباح لي أن أجلس لأتمِّم صلاتي؟ وهل أصلِّي النَّوافل جالسة؟

الجواب:

القيام في الصَّلاة ركن من أركانها، لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨] فالقيام ركن كالفاتحة وكتكبيرة الإحرام والركوع والسجود، لكنَّ الله جلَّ شأنه جعل هذا الدِّين يسرًا لا عسر فيه، فإذا عجز الإنسان عن القيام جاز له الجلوس، وإذا عجز عن الجلوسِ جازَ له أن يصلِّي وهو مضطجع، ولكن لا تصحُّ صلاة المصلِّي جالسًا إذا استطاع القيام إلَّا في النَّفل فقط، أمَّا الفرض فإن صلَّاه جالسًا وهو قادر على القيام فصلاته باطلة، لأنَّه ترك رُكنًا من الأركان الَّتي لا تصحُّ الصَّلاة إلَّا بها.

لهذا كان عليكِ أن تصلِّي الفرض وأنتِ قائمة، ولا يصحُّ لكِ الجلوس في صلاة الفرض إلَّا إذا عجَزتِ عن القيام.

زوجها يمنعها من الصَّلاة

السُّؤال:

زوجي يمنعني من الصَّلاة والصِّيام وأنا أريد طاعة ربِّي فماذا أعمل؟

الجواب:

قال الله في كتابه العزيز ذمًّا وتهديدًا ووعيدًا لمن كان مثل زوجك: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۝١٩﴾ [العلق: ٩-١٩] فلا تطيعيه، وصلِّي صلاتك، وصومي شهرك، واتَّقي الله واسألي الله له الهداية، وإذا أصرَّ على المنع وأصرَّ على أن تتركي الصَّلاة فاتركيه لله وحده، وسيعوِّضك الله خيرًا منه وفاءً لوعد النَّبيِّ ﷺ لأمَّته: «**من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه**»(١).

أذنبتما، فما ذنب الثَّالث؟

السُّؤال:

أحببته وأحبَّني، والتقينا وكان الشَّيطان ثالثنا، وأثمر اللِّقاء، ثمَّ خطبني فتزوَّجنا، وبعد شهرين وَلدت، وخفت من الفضيحة، وقالت أمي: ماذا يقول النَّاس عنكما؟ ورَفَضَتْ أن يكون الطِّفل معنا، وأدخلنا الطِّفل دار الحضانة، زوجي يدرس في أمريكا يغيب ويعود، وعمر الطِّفل الآن ستَّة شهور، وما زال في دار الحضانة، لكنَّه مسجَّل في مستشفى الولادة باسمنا، مشكلتي مشكلة... نحن زوجان، ولنا طفل، ولكن لا أنا أمٌّ،

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٢٤٢٨).

ولا زوجي أب، فماذا نفعل؟ أرجو أن أسمع الرَّدَّ فإذاعتكم تُسمع عندنا وأنا وزوجي نتتبَّعها؟

الجواب:

ما ذنب الطِّفل الَّذي لا علم له بما فعلتماه؟

جواب مختصر: ما دام الأب يدرس في أمريكا ليكمل تعليمه، وما دام الطِّفل مسجَّلًا في «ميلاديَّتِه» باسم أبيه، ومادمتما متأكِّدَيْن أنَّه ولدكما، فأرجو أن يكون لكما ضمير ووجدان في احتضان هذا الطِّفل، حتى لا يعيش يتيمًا مشرَّدًا، ويكون بعد ذلك جرثومة خبيثة في المجتمع الَّذي تعيشان فيه.

فليصحبك زوجك في سفرة من السَّفرات إلى أمريكا، وخذا معكما الطِّفل ولتكن السَّفرة طويلة، وارجعا به وكأنَّه ولد في أمريكا.

وإصرار أمِّك على رفض هذا الطِّفل دليل على قسوة قلبها، وأنَّها محرومة من الرَّحمة، ومن لا يَرْحَم لا يُرْحَم، أمَّا الرَّاحمون فيرحمهم الرَّحمن، والرَّاحمون في الأرض يرحمهم من في السَّماء، وليس للقضيَّة حلٌّ غير هذا.

الطَّاعة والمعصية

السُّؤال:

زوجتي تؤدِّي فرائض دينها، لكنَّها سافرة[١] وتلبس القصير، طَلَبْتُ منها أن تستر نفسها فلم تمتثل لي.

فتعرَّفت على فتاة أخرى محجَّبة ومسلمة، وعرضت عليها الزَّواج، لكنَّها رفضت بحجَّة أنَّني متزوِّج، وعندي زوجة، وزواجها منِّي يؤلم زوجتي ويشتِّت شمل أسرتي، فما قولكم في زوجتي العاصية؟ وهل زواجي من امرأة أخرى حرام؟

الجواب:

زوجتك مسلمة لكنَّها عاصية، وأرجو أن تنهاها صلاتها في المستقبل عن هذه المعصية، لأنَّ عاقبة من حافظ على صلاته إلى خير، اِنْصَحْهَا بالَّتي هي أحسن، وعلِّمها الكلمة الطيِّبة، ولا تكن عليها شديدًا وقاسيًا، وتحبَّب إليها بالنَّصيحة، وأمرك لها بشدَّة مخالف للدِّين، والله تعالى عندما بعث نبيَّه يدعو إلى الإسلام قال له: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: ١٢٥].

وقال له: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذّاريَات: ٥٥] والذِّكرى والتَّذكير لا تكون بشدَّة، وإنَّما تكون بالقول اللَّيِّن الحسن اللَّطيف،

(١) السفر: كشف الغطاء، يقال: سفرت المرأة: إذا كشفت عن وجهها. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٢/ ١٤).

وبالصَّوت الهادئ المحبوب، والفتاة الَّتي تعرّفت عليها فتاة أرجو أن تكون صالحة لأنَّها لا تريد أن تفرِّق بين أب وبناته وأمِّهم، إنَّها مسلمة تريد جمع الأسرة الَّتي أمر الله ببنائها، اتَّق الله، وحافظ على بناتك من التَّشرُّد، وانصح زوجتك بالمعروف، فإنَّها ستطيع ما لم يكن الأمر بشدَّة.

صبغ الشَّعر والأظافر

السُّؤال:

أفتونا في صبغ الشَّعر والأظافر

الجواب:

صبغ الشَّعر مباح لمن تتجمَّل، كالزَّوجة لزوجها، لا لمن تغشُّ فهو حرام عليها.

أمَّا صبغ الأظافر فإنَّه يمنع وصول الماء إلى الأظافر وقت الاغتسال والوضوء، وبهذه الحالة يكون حرامًا؛ لأنَّ الوضوء والغسل لا يتمَّان ولا تحصل بهما طهارة كاملة، وأقول هذا للصَّبغ الَّذي يستعمل الآن، أمَّا الصَّبغ الَّذي لا يعمل قشرةً تمنع وصول الماء كصبغ الحنَّاء، فمثل هذا لا يحرم؛ لأنَّه يعطي لونًا دون أن يترك قشرة مانعة لوصول الماء.

هل تنقض ملامسة المرأة الوضوء

السُّؤال:

هل ملامسة المرأةِ الرَّجلَ إذا كان مَحْرَمًا لها ينقض وضوءها؟

الجواب:

لمس المحارم لا ينقض الوضوءَ عند أئمَّة المذاهب الثَّلاثة؛ أحمد، وأبي حنيفة، ومالك، وفي قول عند الشَّافعية، والَّذي عليه الفتوى أنَّ لمس المحارم لا ينتقض به الوضوء.

والمحارم هنَّ اللَّواتي جمعتهنَّ الآية الكريمة (٢٣) من سورة النِّساء: الأمَّهات، والبنات، والأخوات، والعمَّات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، والأمَّهات من الرَّضاعة، والأخوات من الرَّضاعة، وأمَّهات الزَّوجات، وبنات الزَّوجات، وزوجات الأبناء، وهنَّ المحرَّمات على التَّأبيد اللَّواتي لا يحلُّ للرَّجل أن يتزوَّج إحداهنَّ في حال من الأحوال، هؤلاء إن لامَسَتْ إحداهُنَّ الرَّجل لا ينتقض وضوءه ولا وضوءها، أمَّا غير هؤلاء النِّسوة فينتقض وضوء المتوضِّئ منهما بملامستهنَّ المقصودة، أو المتعمَّدَة، أمَّا الملامسة عفوًا أو بغير تعمُّد فليس فيها انتقاض للوضوء.

السُّؤال:

إذا لامس رجل امرأة فمن الَّذي ينتقض وضوءه؟ اللَّامس أم الملموس أم كلاهما معًا؟

الجواب:

عند الشَّافعية ينتقض وضوء اللَّامس والملموس إذا لم يكن حائل بينهما حين اللَّمس، أما عند غيرهما: فعند الأحناف لا ينتقض وضوء أحد باللَّمس، أمَّا الحنابلة والمالكية فاللَّمس النَّاقض هو المقصود للتَّلذُّذ وينتقض وضوء اللَّامس فقط، ولا ينتقض وضوء الملموس، وإن لم يكن مقصودًا فلا يبطل به الوضوء.

هل العُقْرُ عيب في الزَّواج

السُّؤال:

تزوَّجت منذ ثمانية أشهر لم تحض خلالها زوجتي، فعرضتها على طبيب فقال: إنَّها عاقر، وأريد أن أطلِّقها رغبة في الذُّريَّة، ولها عندي مؤخَّر صَدَاق قدره ألف دينار، فهل يحقُّ لها أخذ المتأخِّر أم لا؟

الجواب:

الزَّواج شريعة أمر الله بها عباده المؤمنين للإحصان والإنجاب، والعقر عيب، وسؤالي: هل تزوَّجتها فتاة؟ أم تزوَّجتها طفلة؟ فإن كانت فتاةً فإنَّها تعرف نفسها، هل كانت تحيض أم لا، وتعلم إن كانت غشَّتك أم لا، الأمر راجع للمحكمة، فإن أبى أهلُها التَّنازل عن مؤخَّر الصَّداق فارفع ضدَّهم قضيَّة، والقاضي سينظر فيها، وعدم الحيض دليل على العقم، فقد لا تلد من تحيض، أمَّا من لا تحيض فلا تلد أبدًا.

ابعد عن الشَّرِّ تسلم

السُّؤال:

أنا امرأة محجَّبة أؤدِّي فرائض ديني، زوجي له بعض الأقارب هنا، ونحن نزورهم تنفيذًا لتعاليم الإسلام بصلة الرَّحم، لكنَّ المشكلة أنَّ أقارب زوجي متحضِّرون أكثر من اللَّازم ويلبسون ملابس فاضحة، زوجي لا يريد زيارتهم لكنِّي أعارضه حتَّى لا تنقطع صلة الرَّحم، فما رأيكم؟

الجواب:

زوجك على حقٍّ، ويجب أن توافقيه حفظًا لكريم أخلاقه، وحفظًا لسلامة عينه أن تقع على زلَّة أو في زلَّة، فقد ينقاد لها، والشَّيطان ضالٌّ مضلٌّ يجري من ابن آدم مجرى الدَّم في عرقه، وزوجك رجل صالح، وليس هناك عدوى أشدُّ فتكًا من الإثم، إنَّ عدوى الإثم شديدة ومفعولها فاتك شائن.

فاتَّقي الله في زوجك ووافقيه على ما يقول، وصلة الرَّحِم طاعة، والطَّاعة لا تأتي عن طريق معصية، لأنَّها إن جاءت عن طريق المعصية كانت معصية. وافقي زوجك ولعلَّ الله أن يهدي الجميع.

الَّذين يرمون البريئات بالسُّوء

السُّؤال:

وَشَى بفتاة بريئة عند أهلها، بمجالستها للرجال، ومعاشرتها لأحدهم، فاضطرَّ أهلها إلى إخراجها من المدرسة، وحرمانها من التَّعليم الَّذي كانت تأمله، وعندما استيقظ ضميره ندم على ما فعل في حقِّ الفتاة، وبات معذَّبَ الضمير، منغَّصًا في حياته، ويسأل عن كيفيَّة التَّوبة من كذبه وافترائه على الفتاة البريئة، ومسؤوليَّته فيما حدث لها، لأنَّه يخشى عقوبة الله له.

الجواب:

نريد أن نذكِّر السَّائل بما قال الله تعالى في أمثاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النُّور: ٢٣-٢٥]. والله ﷻ قال في نفس السُّورة قبل هذه الآيات الثَّلاث: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النُّور: ١٩].

والإنسان، يجب أن يكون منزَّهًا عن كلِّ ما يشينه، وأن يدعو الله بحماية نفسه، وحماية ولده، من كلِّ ما يعيب، والمؤمن لا يكون مؤمنًا حقًّا حتَّى يأمن النَّاسُ من شرِّه، وحتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، فهل

هذا السَّائل الحائر يحبُّ لنفسه ولبناته ما قذف به هذه البريئة المسكينة الَّتي انهارت صحَّتُها وقواها، حتَّى اضطرَّ أهلها إلى إدخالها المستشفى؟ إنَّه الآن يشهد بنفسه أنَّها بريئة من كلِّ ما ألصقه بها من باطل ورماها به من زور وبهتان.

ولو فرضنا أنَّ الشَّيطان أغوى هذه الفتاة، وسلكت سبيل الغواية أمَا كان الأجدر بالسَّائل الحائر أن يكتم أمرها عن النَّاس حتَّى لا يفضحها!؟ لأنَّ «**من سَتَر على مؤمنٍ ستر الله عليه في الدُّنيا والآخرة**»(١)، كما يقول بذلك حديث الرَّسول ﷺ، والقذف كبيرة من الكبائر، وموبقة من الموبقات، تهدم حسنات الإنسان، فضلًا عن كونها تُقلق راحة المجتمع، وهذه السَّيِّئة لا يكفِّرها إلَّا أن يطلب المرء العفو ممَّن قذفها، والله تعالى يقبل التَّوبة من عباده، فيقول في كتابه العزيز: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، ويقول تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

والمعروف أنَّ للتَّوبة شروطًا هي: النَّدم، وترك المعاصي، والعزم على عدم العودة إليها، وهذه الشُّروط الثَّلاثة تتعلَّق بحقِّ الله تعالى على العبد، أمَّا حقُّ العبد على العبد، فيُزاد على هذه الشُّروط الثَّلاثة شرط رابع هو: عفو صاحب الحقِّ عن حقِّه، وليعلم السَّائل أنَّ لهذه الجريمة حدٌّ شرعيٌّ هو: ثمانون جلدة، وذلك لقول الله في محكم التَّنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ [النُّور: ٤].

---

(١) رواه أحمد، رقم: (١٧٣٩١)، بلفظ: «**من ستر على مؤمن في الدنيا ستره الله يوم القيامة**».

وكلمتي المخلصة لهذا الأخ السَّائل أن يسعى ليتَّصل بوليِّ أمر الفتاة المظلومة، فيكذِّب بنفسه ما سبق أن أذاعه عنها، ويكشف له عن حقيقة أمرها ليظهر براءتها وطهرها وعفافها.

لبن الأمِّ

السُّؤال:

هل يباح للمرأة أن تَحْرِم ولدها من رضاع ثديها بحجَّة أنَّها تخاف من تشويه صدرها، أو من الضَّعف؟

الجواب:

إنَّ الله ﷻ خلق اللَّبن في صدرِ الأمِّ للطِّفل الَّذي تلده، وهذا اللَّبن ليس كلبنِ البقرةِ أو نحوها من الأنعام، إنه لبن للطِّفل خاصَّة، وحرمان الطِّفل من هذا اللَّبن اعتداء ومنع حقٍّ عن صاحبه، ومانع الحقِّ ظالم، والله ﷻ قال لنا عندما عدَّد نعمه علينا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. والفِصال معناه: الرَّضاعة. أمَّا ما شاع في الزَّمن الأخير من امتناع الأمِّ عن إرضاع طفلها فهو تقليد أعمى، ونسأل الله أن يكفينا شرَّ عواقب التَّقليد الَّذي جعلنا نتجاهل أنفسنا ونعرف غيرنا، ونحتقر ماضينا لنحترم غيرنا، وننسى ديننا وتعاليم ديننا لنَذْكُرَ بالاحترام والتَّقديس التَّعاليم الأجنبيَّة عنَّا، اللَّهمَّ ردَّنا إلى ما تحبُّ وترضى.

رأي الدِّين في تعليم البنت

السُّؤال:

ما حكم تعليم الفتاة في الشريعة الإسلامية؟

الجواب:

إنَّ الله بعث محمَّدًا ﷺ معلِّمًا للنَّاس فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجُمُعَة: ٢] كما أمره بدعوتهم للخروج من الظُّلمات: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] فهو معلِّم يخرج النَّاس من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة، وأمر الله نساء نبيِّه أن يتعلَّمنَ العلم من المصطفى ﷺ ويعلِّمْنَه نساء الأمَّة، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزَاب: ٣٤] ومعنى هذا أنَّ بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ مدارس يتلقَّى فيها نساء الأمَّة العلم من زوجات النَّبيِّ، والدِّين الإسلاميُّ لم يفرِّق بالتَّكليف ولا بالعمل بين ذكر وأنثى، فالكلُّ مكلَّف، والكلُّ مسؤول، والكلُّ مطالب بالمعرفة والتَّحصيل والتَّعلُّم، لا فرق بين إنسان وإنسانة، ومحمَّد ﷺ لم يبعث للرِّجال خاصَّة، وإنَّما بُعِثَ للرِّجال والنِّساء على السَّواء، وهو القائل ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»[1]، رواه البخاريُّ ومسلم

(١) رواه البخاري، رقم: (٧١)، ومسلم، رقم: (١٠٣٧)، والترمذي، رقم: =

وأبو داود والتِّرمذيُّ.

كما يقول الرَّسول: «**طلبُ العلمِ فريضة على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ**»(١).

حبوب منع الحمل

السُّؤال:

يستعمل بعض النَّاس في الوقت الحاضر الحبوب المانعة للحمل، بقصد التَّقليل من الإنجاب، بدعوى أنَّ ظروف المعيشة المرهقة لا تسمح بكثرة الإنتاج البشريِّ الَّذي يتزايد كلَّ عام، أليسَ هذا الاتِّجاه من النَّاس يتعارض مع حديث رسول الله ﷺ، حيث يقول: «**تناكحوا تكاثروا، فإنِّي أباهي بكم الأمم يوم القيامة**»(٢)؟

الجواب:

هذا الحديث الَّذي ذكره الأخ السَّائل مرسل، والحديث الوارد صحيحًا عن النَّبي ﷺ هو «**تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم**»(٣) رواه أبو داود والنَّسائيُّ عن معقل بن يسار.

وأحبُّ أن أقول للأخِ السَّائل: إنَّ الكثرة لا تكون بالعدد، وإنَّما

= (٢٦٤٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ولم أقف عليه عند أبي داود.

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٢٤).

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٠٢١).

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٢٠٥٠)، والنسائي، رقم: (٥٣٢٣).

الكثرة بالرِّجال، الرِّجال أصحاب العقول المفكِّرة، أمَّا الكثرة العدديَّة فقد تكون وبالًا على الأمَّة، وخيبة أمل لها، ولْنضرب للسَّائل مثلًا أدركنا زمانه: كانت هولندا لا تتجاوز خمسة ملايين عدًّا، استعمرت بلادًا عدد سكَّانها (٨٥) مليون نَسَمَة، فهل أفادتهم الكثرة وطردوا المستعمر الَّذي استعبدهم عشرات السِّنين!؟

وبريطانيا كان عدد سكَّانها أقلّ من (٤٠) مليون نسمة، استعمرت جزءًا كبيرًا من العالم، وألمع جوهرة كانت في تاج ملكها هي جوهرة شبه القارَّة الهنديَّة، الَّتي كان عدد سكَّانها في أثناء الحرب العظمى (٢٨٠) مليون نَسَمَة، استعمرتها بريطانيا (٣٠٠) سنة، وكانت تسوق جنودها من أبناء المستعمرات إلى الميادين كالأغنام إلى المجازر أفواجًا، لا تبالي بالأعداد الهائلة الَّتي قتلتها منهم، فهل أفادتهم الكثرة؟!

أكرِّر القول للأخ السَّائل: إنَّ عبرة الكثرة ليست بالعدد، وإنَّما هي بالظُّهور، بالعقل النَّافع، بالتَّوعية الممتازة من الرِّجال والنِّساء، بمجتمع يعمل أفراده كلُّهم ليحقِّقوا الخير والرَّفاهية والعزَّة والكرامة لبلادهم.

ولأذكر للأخ السَّائل هذا الحديث النَّبويَّ للدَّلالة على أنَّ الكثرة العدديَّة لا قيمة لها في مجال القيم والاعتبارات، يقول الرَّسول ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم في كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» قيل: يا رسول الله: فمن قلة يومئذٍ؟. قال: «**لا، بل أنتم كثير لكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت**»[1] رواه أحمد والبيهقيُّ

(١) رواه أبو داود، رقم: (٤٢٩٧)، وأحمد، رقم: (٢٢٣٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٩٨٨٧).

وأبو داود عن ثوبان.

أمَّا حبوب منع الحمل، فإنَّ التَّركيب الكيماويَّ لها لا يحتوي على مخدر، ولا مفتِّر، ولا مُسكر، فإذا استعملت هذه الحبوب لقصد حسن، فهي مباحة كسائر المباحات والضَّرورات الَّتي يراد من ورائها تحقيق مصلحة، كمراعاة ظروف ضعف الأمِّ بسبب كثرة الحمل السَّريع أو بسبب اعتلال صحَّتها، أو كمراعاة ظروف خاصَّة بعائلة مضطرَّة إلى تنظيم حياتها وكيانها حسب إمكانيَّاتها الماديَّة، كي تحيا حياة أفضل، أمَّا إذا استعملت هذه الحبوب لقصد سيِّئ، فإنَّها عندئذٍ تكون حرامًا، فإباحتها وحرمتها تتوقَّف على نيَّة من يستعملها، والأعمال بالنِّيَّات.

مدَّة الجنين في بطن أمِّه

السُّؤال:

قرأتُ في بعضِ كتب الفقه أقوالًا للأئمَّة الأربعة في جواز بقاء الجنين في بطن أمِّه أكثر من تسعة أشهر، واختلفوا في المدَّة هذه، فقال بعضهم: إنَّها سنتان، وقال بعضهم: إنَّها أكثر... إلى سبعة أعوام، فكيف يصحُّ ذلك من الأئمَّة والعلم الآن يخالفهم؟

الجواب:

إنَّ الأئمَّة الأربعة - رحمهم الله - لم يستندوا في أقوالهم هذه إلى أدلَّة منصوص عليها، وإنَّما كانت أقوالهم مبنيَّة على اجتهاد ورأي فقط، ولقد أنكر الطِّبُّ في عصوره الأخيرة بقاء الطِّفل في بطن أمِّه أكثر من

المدَّة الَّتي قدَّرها الله لتكوينه، كما أنَّ الإمام داود الظَّاهري، والإمام جعفر الصَّادق، وأئمَّة أهل البيت قالوا هذا القول من قبل، فأنكروا أن يزيد زمن الحمل على الأجل المقدَّر، وهو تسعة أشهر، وما يقال خلافاً لذلك يجب ألَّا يكون محلَّ تصديق واعتبار.

أمَّا رأينا في الموضوع؛ فإنَّنا نؤيِّد القول الأخير ثمَّ نقول: إنَّ الله ﷻ قدَّر قَدَرًا، وسنَّ سُننًا، ولن تجد لسنَّة الله تبديلًا، ولن تجد لسنَّة الله تحويلًا.

مرتَّب الزَّوجة لها

السُّؤال:

زوجي يعاملني بقسوة ويسيء إليَّ، وهو يستولي على مرتَّبي كلِّه، ويأخذه له دون أن يترك لي منه شيئًا، وهو بخيل جدًّا.. فهل يحقُّ له شرعًا الاستيلاء على مرتَّبي؟

وهل يجوز له أن يُجبرَني على ترك عملي إذا رفضت إعطاءه مرتَّبي له؟

علماً أنَّني تزوَّجته وأنا أعمل، ولم يعترض وقتها.

الجواب:

الإسلام جعل الرَّجل قوَّامًا، وألزمه الإنفاق على زوجته؛ حتَّى لو كانت غنيَّة، والإسلام لم يجعل الرَّجل قوَّامًا مستبدًّا دكتاتورًا ظالمًا، يأخذ ما ليس له، ويغتصب ما لا حقَّ له فيه، الإسلام احترم الملكيَّة،

واحترم الكَسْب وقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النِّسَاء: ٣٢]

أمَّا إجباره إيَّاكِ على ترك العمل؛ فإن كان عملك يخلُّ بنظام البيت والأولاد، وفي تركه إصلاح لهذا الخلل، فإنَّك خلقتِ ربَّة بيت ومسؤولة عمَّا كلَّفك الله به وَخَلَقَكِ له، وواجب عليكِ ترك العمل لإصلاح الخلل، وإن لم يكن في عملك ما يخلُّ في وظيفتك الطَّبيعيَّة، وأنَّه تزوَّجكِ صاحبةَ وظيفةٍ فالأمر لكما واتَّفقا.

زواج بين من يَجهل ومن يَحمل الشَّهادة

السُّؤال:

ما حكم الإسلام فيمن يتزوَّج فتاة جامعيَّة وهو لا يحمل إلَّا شهادة متوسِّطة؟

إنَّ الزَّوج في هذه الحالة لا بدَّ له من أن يتنازل عن الكثير من كرامته، ثمَّ يستطرد صاحب السُّؤال الظَّريف: إنَّ كِلا الزَّوجين راضٍ عن هذا الزَّواج، فما رأي الدِّين؟

الجواب:

ذكَّرني سؤال السَّائل بالمثل الكويتيِّ الدَّارج «**يُدْخِل عصَّه في شيء ما يخصُّه**».

فإذا كانا راضيين فما دخلك أنت بالموضوع!؟ فكما أنَّ الزَّوج الجامعيَّ يتزوَّج ممَّن هي أقلُّ منه معرفة ويسعد بزواجه منها؛ لأنَّها أعلم منه بشؤون البيت وإدارته، وأكثر خبرة بتربية الأطفال ورعايتهم، كذلك

تتزوَّج الجامعيَّة ممَّن يحمل شهادةً أقلَّ من شهادتها معرفيًّا، لكنَّه في الدِّراية والخبرة أعلم منها بكثير، فهو خبير بالشُّؤون الَّتي قد يحتاجانها في حياتهما المشتركة، وقد رأيتُ الكثيرين جدًّا تزوَّجوا أُمِّيَّاتٍ لا يقرَأنَ ولا يكتبنَ وسعدوا بزواجهم منهنَّ، ورأيتُ بعض الجامعيَّات تزوَّجن ممَّن درسوا في مدارس مَحْوِ الأمِّيَّة، أو من خرِّيجي الابتدائيَّة وأسعدنَ من تزوَّجنهم.

تقصير واتِّهام

السُّؤال:

تزوَّجت وعمري أربعة عشر عامًا، وعندما أنجبت ابنتي تدهورت حالتي ممَّا اضطرَّني لدخول المشفى مرَّتين، وفي الثَّالثة ماتت ابنتي، زوجي يتَّهمني بأنَّني السَّبب في موتها ويقول: لولا دخولك المشفى ما ماتت البنت.

فهل أنا مخطئة؟ وهل أتحمَّل وزرًا بدخول المشفى وتركي لبنتي؟

الجواب:

الجواب على قدر السُّؤال، ولا أدري ما هي الحقيقة! فقد يخطئ السَّائل فلا يحسن السُّؤال، أو ينحرف بسؤاله ليكون الجواب إلى جانبه، وليس على المسؤول أن يحقِّق في سؤال السَّائل، فالتَّحقيق للقاضي وحده عندما يحضرُ أمامَه الخصمان ليُصدرَ الحكمَ لأحدهما، عندها عليه أن يحقِّق ويطلب الدَّليل ليرى الحقَّ مع مَنْ، ويحكم لواحد من الخصمين، أو على واحد منهما.

تقول السَّائلة: تزوَّجت وأنا بنت (١٤)، وعندما وَلَدْتُ تدهورت صحَّتي حتَّى وصلت إلى حالة اضطررت معها إلى دخول المشفى مرَّتين، وماتت ابنتي عند دخولي في المرَّة الثَّالثة، واتَّهمني زوجي بالتَّقصير، ولم تخبرني السَّائلة أين كانت البنت في المرَّة الثَّالثة، هل كانت عند أحد الأقارب؟ أو عند المربِّية؟ أو كانت عند أجانب؟ أو كانت تعيش في البيت بلا رعاية ولا راعٍ؟ فكيف أقول إنَّك لم تقصِّري وأنا لا أعرف عن حالة البنت شيئًا!؟

أبو البنت يتَّهمك، فإذًا لا بدَّ لهذا الاتِّهام من سبب، والمقصِّر مذنب.

لباس المرأة أمام غير محارمها

السُّؤال:

ما مقدار ما يباح أن يظهر من المرأة شرعًا أمام غير محارمها، كأحمائها أقارب زوجها، والغرباء عنها؟

الجواب:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ [النُّور: ٣١].

نفهم من هذه الآية أنَّ المرأة إذا جلست مع غير محارمها كأحمائها والغرباء فعليها ألَّا تبدي زينتها إلَّا ما ظهر منها وهو: الوجه والكفَّين، وأن تضرب بخمارها على جيبها، أي أن تلبس الخمار وهو: ما يغطِّي الرَّأس، سواءٌ أكان طرحة أو إيشارب[1]، والجيب هو: فتحة الصَّدر، وهذا صريح في وجوب لبس الخمار السَّاتر لرأس المرأة وصدرها.

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزَاب: ٥٩].

وفي هذه الآية يحوط الله تعالى المرأة المؤمنة بهالة من الصَّون والكرامة، فيأمر نبيَّه ﷺ أن يُلزِم نساءَ المؤمنين أن يُدنِيْنَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ أمام الغرباء، وأمام غير محارمهنَّ من الأقارب.

والجلباب: هو الثَّوب الواسع؛ أي: يتستَّرن بثيابهنَّ الواسعة حتَّى يُعْرَفْنَ بالحصانة والتَّقوى والعفاف، فلا يؤذيهنَّ أحد بنظراتٍ وقحة جريئة، أو بأقوال مهينة بذيئة.

ولقد أجمع الفقهاء - فقهاء الشَّريعة الإسلاميَّة - على أنَّ المرأة كلَّها عورة، وقال بعضهم: إلَّا الوجه والكفَّين، وهو ما يباح كشفه في الصَّلاة، وفي الإحرام للحجِّ أو العمرة، أو للتَّعامل في الحياة، ونحن نميل إلى القول الأخير، والله تعالى أعلم.

(١) إيشارب: غطاء للرَّأس والعنق خاصٌّ بالنِّساء. انظر: معجم اللغة العربية المعاصر، لأحمد مختار عمر، (١/ ١٤٤).

تجميل جسم المرأة المشوَّه

السُّؤال:

أصيبت زوجته في حادث حريق، فتشوَّه صدرُها ورقبتُها وذراعاها، وقد نصحه أصدقاؤه أن يذهب بها إلى طبيب مختصٍّ في تجميل الأعضاء المشوَّهة، فهل هذا التَّجميل حرام في الإسلام؟

الجواب:

تجميل العضو المشوَّه ليس حرامًا ولا ممنوعًا في الإسلام إذا كان المقصود منه تخفيف حدَّة الدَّمامة[١] في العضو المحروق، فهذا العملُ هو من قبيل الضَّرورات الَّتي رخَّص الإسلام من أجلها إتيان المحظورات طبقًا للقاعدة الفقهيَّة الَّتي وضعها فقهاء الأمَّة، والَّتي نصُّها: «الضَّرورات تبيح المحظورات».

إنَّما الَّذي حظره الإسلام ومنعه هو: أن يضع الرَّجل أو المرأة على أيِّ عضو من أعضاء الجسم عضوًا أو شيئًا آخر من شأنه أن يغيِّر من الصُّورة الطَّبيعيَّة الَّتي خلق الله الإنسان عليها، كأن تضع المرأة باروكة[٢] على شعرها القصير لتصله بها ليبدو طويلًا، فقد لعن الرَّسول ﷺ هذه

(١) الدميم: القبيح. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٣٢/ ١٧٤).
(٢) باروكة: شعر إنسان أو شعر اصطناعيٌّ يُرتدى على الرأس للزِّينة كجزء من اللِّباس أو لإخفاء الصَّلع. انظر: معجم اللغة العربية المعاصر، لأحمد مختار عمر، (١/ ١٥٤).

المرأة بقوله: «**لعن الله الواصلة والمستوصلة**»[١].

وكأن تضع المرأة أيضًا الأصباغ على أظفارها ووجهها، وغير ذلك من وسائل تجميل الجسم الَّتي تستعملها المرأة في هذه الأيَّام ليبدو منظرها جميلًا فتلفت الأنظار إليها، وكأن تستعمل أيضًا الوشم والوشر، والوشم: هو الدَّقُّ، وهو وخز الجلد بالإبرة، ووضع الصِّبغ عليه، بحيث يبقى هذا الصّبغ تحت الجلد ولا يزول.

أمَّا الوشر: فهو حكُّ الأسنان بمبرد حتَّى تنفلج وتتساوى، وهذا العمل يعقب مرضًا في الأسنان ورائحته عفنة، ويغير لون الأسنان.

وكأن يضع الرَّجل شيئًا خارجًا يبدو أمام النَّاس على غير طبيعته.

كلُّ هذه الوسائل الَّتي يستعملها النَّاس ويُقصد بها الزِّينة، وإخراج كيان الإنسان على غير طبيعته، هي الَّتي يحرِّمها الإسلام، ويمنع المسلمين من استعمالها.

والمسألة ترجع إلى النِّيَّة، فـ«**الأعمال بالنِّيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى**»[٢].

فإذا كان السَّائل لديه الإمكانيَّات الماديَّة، فليتوكل على الله، ولْيُجْرِ لزوجته عمليَّة التَّجميل.

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٩٣٣)، ومسلم، رقم: (٢١٢٢).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١)، ومسلم، رقم: (١٩٠٧).

صراع على السُّفور

السُّؤال:

خلافي مع زوجتي بسبب السُّفور، فهي تريد أن تجاري المجتمع فتلبس القصير والضَّيِّق، وتمشي سافرة، وأنا أريدها أن تلتزم أمر الشَّرع، فتلبس إلى ما تحت الرُّكبة، وتستر السَّاقين، وتلبس الخمار حتَّى لا تنهشها الذِّئاب في الطَّريق كما تنهش غيرها من السَّافرات، ولمَّا طالبتها بإلحاح بالتزام أدب الإسلام في الزِّيِّ، طلبت منِّي الطَّلاق، ولي منها أولاد، وأخشى أن تهدم الأسرة بسبب هذه المشكلة، فأرجو أن تكتبوا لنا كلمة عن رأي الشَّرع في المشكلة، فلعلَّ زوجتي تقتنع وخاصَّة أنَّها تصوم وتصلِّي وتعطف على المحتاجين.

الجواب:

اعتنى الإسلام عنايةً كبيرةً بالمكانة الَّتي يجب أن توضع فيها المرأة، فوضعها في مكانة لم تحظَ المرأة بمثلها في أيِّ شرعٍ سماويٍّ سابق، أو في أيِّ مجتمعٍ تواضع عليه النَّاس واتَّخذوا له القوانين والأحكام، حتَّى المجتمعات الغربيَّة الَّتي عرفت المدنيَّة والحضارة لم تحظَ المرأة بالاهتمام الَّذي أولاها إيَّاه الإسلام ضمن تشريعاته، فنصَّ على المحافظة على كرامتها، وأعطاها حقوقها كاملة غير منقوصة، وأحاطها بسياج متين من العفاف والفضيلة، ومنعها من التبذُّل والسُّفور والخروج من محيط الحياء، حتَّى لا تسير نحو الهبوط والتَّسفُّل والانحطاط، ولقد عرفنا نساء مَشَيْنَ زمنًا في طريق السُّفور الغربيِّ وتعلَّقن بالتَّقليد الأعمى، ثمَّ عُدْنَ إلى

تعاليم الإسلام وأحكامه ونظمه، واحترمْنَها وعملنَ بها، ثمَّ عَرَفن أنَّه ما أنقذهنَّ من سقطة السُّفور والتَّبرُّج والامتهان والتَّبذُّل سوى تعاليم الإسلام وأحكامه الإلهيَّة الَّتي يحاول خصوم الإسلام من الغربيين والسَّائرين على دروبهم من أبناء الأمَّة الإسلاميَّة أن يضعوها لهنَّ في صورة الأغلال الَّتي تطوِّق الأعناق، وتخنق الحُرِّيَّات، وتحدُّ من نشاطها، وتقلِّل من حيويَّتها، والأمُّ في المجتمع هي عماده وأساسه ومرشده، وهي اللَّبِنَة الأولى في بناء المجتمع، وهي بالمشاركة مع الرَّجل تبني المجتمع القويَّ المحافظ على شخصيَّته وسماته وصفاته وكرامته.

فإذا كان الإسلام قد وضع المرأة في هذا المكان الحسَّاس؛ وهو بناءُ الأمَّة وإعدادُ أبنائِها على أساس سليم، ووضعها في مكان القيادة المنزليَّة، توجِّهُ وتُرْشِدُ إلى الخير والمعروف والفضائل حتَّى يخرج أعضاء الأسرة من البيت أعضاء نافعين خيِّرين عاملين، فهل يليق بمن وضعها الإسلام في هذا المكان السَّامي الحسَّاس، وأعطاها هذا المركز الخطير، أن تمشي سَافِرةً كاسيةً عاريةً؟ تلقِّنُ لمن في البيت الانحلال، وتعطي لهم درسًا في تفكُّكِ الشّخصيَّة، وتعلُّمهم الابتذال وتدهور الأخلاق!؟ هل يليق بها أن تكون قدوة - لا قدوة حسنة - يراها الأولاد في المنزل فيقلِّدونَها، ويسيرون على طريقها، فيفعلون كما تفعل، فتكون لهم بئس القدوة... وبئس المربِّية... وبئس الأمُّ!؟

فلْتَسْمَعِ الأمُّ ما أنزل خالقُها في شأنها من الأمر بغضِّ البصر، وحفظ الفرج، وعدم إظهار مفاتن الجسد، وتغطية الرَّأس والصَّدر بالخمار، وذلك ليحوطها بسياج العفَّة والطُّهر فيقول تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ

بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النُّور: ٣١].

ولتسمع المرأة ما أنزل الله في شأنها من الأمر بارتداء الثَّوب الواسع السَّاتر للجسد ليعرفن بالحصانة والتَّقوى، فيقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزَاب: ٥٩].

ولتسمع المرأة ما أنزل الله في شأنها من الأمر بعدم التَّمثُّل بنساء الجاهليَّة الأولى اللَّواتي تزيَّنَّ وتهتَّكنَ[1] وفرَّطنَ في جنب الحياء، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزَاب: ٣٣].

ومن فجر الإسلام نأتي بهذا الخبر، وفيه يحدِّد نبيُّ الإسلام ما يجب أن تظهر به المرأة من لباس الفضيلة والطُّهر.

فعن أمِّ سلمة أنَّ أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها دخلت على النَّبيِّ ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: «**يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفَّيه**»[2].

---

(١) تهتَّك: مِنَ المَجاز: مُتَهَتِّكٌ ومُسْتَهْتِكٌ: لا يبالي أن يهتك ستره عن عورته. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٢٧/ ٣٩٥).

(٢) رواه أبو دواد، رقم: (٤١٠٤).

وهذه الزَّوجة الَّتي نحن بصدد خلافها تطيع ربَّها فتصلِّي وتصوم وتنفق على المحتاجين، وهذا عمل عظيم إذا صدر من مسلمة تأتمر بأوامر الله، وتنتهي عن نواهيه، لكن ما فائدة صلاة هذه الزَّوجة إذا كانت صلاتها لا تنهاها عن المنكر الَّذي تتمسَّك به؟ ما قيمةُ صلاتها إذا لم تبعث فيها الخشية من الله، فتلبس اللِّباس الطَّويل السَّاتر للمفاتن؟ ما الثَّمرة الَّتي تجنيها هذه الزَّوجة من صلاتها إذا كانت لا تريد أن تلتزم بالزِّيِّ الإسلاميِّ المحتشم الَّذي يحفظ عليها أنوثتها وعرضها؟

إنَّ هذه الزَّوجة إذا استمرَّت على سفورها وتبرُّجها - وهو موضوع خلافها مع زوجها - فإنَّ صلاتها لن تفيدها بشيء من الثَّواب من الله فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وهي لا تريد أن تترك المنكر، كما أنَّ الرَّسول ﷺ يقول في الحديث: «**من لم تنهَهُ صلاتُهُ فلا صلاة له**»(١).

فعلى هذه الزَّوجة أن تتَّقي ربَّها الَّذي تعبده بالصَّلاة والصِّيام وبرِّ المحتاجين، فتطيع زوجها الَّذي يريد لها الخير والعفاف والفضيلة، وتبقى على زوجها وعلى كيان أسرتها.

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٠٠٨٣)، بلفظ: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدًا**».

بدعة غريبة

السُّؤال:

إحدى جاراتنا تَلِدُ كلَّ سنة طفلًا ويُتَوفَّى بعد الولادة مباشرة، وقد حدث هذا معها في عشرة أطفال. نصحها بعضُ النَّاس أن تأكل قطعة من لحم طفلها الَّذي تنجبه حتَّى لا يموت، فهل هذا صحيح؟

الجواب:

لم أسمع حتَّى في الحيوانات من تأكل من لحم طفلها، وهل بلغت الوحشيَّة في الإنسان هذا الحدَّ! ولا أدري ممَّن أتعجَّب!

قيل إنَّه كان في إفريقيا قبائل متوحِّشة تتلذَّذ بأكل لحم الإنسان، لكن لم أسمع أنَّهم كانوا يأكلون من لحوم أطفالهم.

على كلِّ حال نجيب السَّائل على سؤاله ونقول:

على الوالدين - الزَّوجين - أن يُراجعا الطَّبيب، لأنَّ الدَّم كما علمنا فصائل، وهذان الزَّوجان ممَّن اختلفت فصائل دمهما، وقد يستطيع الطَّبيب أن يصلح بين الدَّمين بأخذ حقنة من دم المرأة للرَّجل، وحقنة من دم الرَّجل للمرأة، وأذكر أنَّ الدُّكتور سامي بشارة فعل ذلك مع زوجين مات لهما سبعة، ثمَّ بعد هذه العمليَّة عاش لهما من أصبحوا الآن رجالًا ونساءً، ولا يزال الأبوان حيَّين يتمتَّعان برؤية أولادهما الخمسة بأحسن صحَّة، وهذه الحادثة حصلت في أوائل الخمسينات.

النِّساء شقائق الرِّجال

السُّؤال:

جاء في القرآن تفضيل الرِّجال على النِّساء في آياتٍ كثيرة، لهذا أودُّ أن أسأل: هل يباح الأكل من ذبيحة المرأة إن لم يكن في البيت رجل وكانت مضطرَّة لذلك؟

الجواب:

القرآن الكريم لم يفضِّل رجلًا على امرأة، ولا فضَّل امرأة على رجل، وإنَّما فضَّل من اتَّقى على غيره، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]. والرَّسول ﷺ نبيُّ الإسلام قال: «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»(١)، «**لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى**»(٢).

أمَّا قول السَّائل في سؤاله: جاء في القرآن تفضيل الرِّجال على النِّساء، فلم أجد في كتاب الله تفضيل ذكرٍ على أنثى، ولا أنثى على ذكر إلَّا في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٤] وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨].

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٥٥)، وقال: هذا حديث حسن، بلفظ: «**لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا...**»، وأحمد، رقم: (٨٧٣٦)، بلفظ: «**إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عبية الجاهلية...**».

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩).

أمَّا في غير هاتين الآيتين فلم يرد للرِّجال تفضيل على المرأة ولا تكريمٌ، وعليَّ أن أشرح للسَّائل والمستمع والمشاهد معنى القَوَامَة: إنَّه من حكم الله العالية أن جعل في الرِّجال قوَّة وشجاعة؛ ليدافعوا عن الوطن، ويحموا الذِّمار[1]، ويقدروا على الكسب الشَّاقِّ بالجهاد، ويرعوا النِّساء وينفقوا عليهنَّ من أموالهم، والله ﷻ أيضًا خلق الرَّجل من الوجهة العامَّة كبير العقل، قويَّ الإدراك، معتدل العاطفة، سليم البُنية؛ ولهذا جعل كمال الشَّهادة في رَجُلَيْن، فإن لم يكونا رَجُلَيْن فرجلٌ وامرأتان؛ لأنَّ المرأة عاطفيَّة، والعاطفيُّ يَنْسَى، ولمَّا كلَّف الله الرَّجل الإنفاقَ على المرأة ورعايتها، جعل حظَّ الرَّجل من الميراث مِثْلَي حظِّ المرأة، أمَّا في ماعدا ذلك فالرَّجل والمرأة متساويان في كلِّ الحقوق والواجبات ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨] وهذا من مفاخر الدِّين الإسلاميِّ الَّذي كرَّم المرأة وجعل لها شأنًا يُذْكر في كتابه العزيز، فما من آية يُذكر فيها الرَّجل إلَّا وذُكرت المرأة بجانبه.

ويكفي المرأة شرفًا في الإسلام قول نبيِّ الإسلام ﷺ: «**والنِّساء شقائق الرِّجال**»[2]، أمَّا آية: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨]، فإنَّها درجة القوامة والولاية والنَّفقة، ورئاسة البيت والقيام عليه وعلى من فيه بالإنفاق بالمعروف والإحسان، ويجب على الرِّجال أن يراعوا هذه القوامة، وأن يحتفظوا بهذه الدَّرجة فلا يُهمِلوا ولا يُضيعوا.

---

(١) ذِمَارُ الرَّجُلِ: هو كلُّ مَا يَلْزَمه حِفظُه وحِيَاطَتُه وحِمَايَتُه، وإن ضَيَّعه لَزِمَه اللَّوْمُ. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١١/ ٣٨٨).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١١٣)، وأبو داود، رقم: (٢٣٦)، والدارمي، رقم: (٧٩١)، وأحمد، رقم: (٢٦١٩٥).

قانونٌ عامٌّ وضعه الإسلام لإصلاح الأسرة وشدِّها: للنِّساء حقوق وعليهنَّ واجبات، وللرِّجال حقوق وعليهم واجبات، ولكنَّ واجبات المرأة تقتضيها طبيعتها، وكذلك حقوقها توجبها طبيعتها، وليس من العقل أن نقول: إنَّ المرأة تساوي الرجل، ولا هو يساويها، إذ لكلٍّ خلقته وطبيعته، الرَّجل خشن والمرأة ناعمة، الرَّجل قويٌّ في بدنه وفي عمله، والمرأة لم تخلق للخشونة ولا المشقَّة وحمل السِّلاح والدِّفاع، ولكن خلقت لرعاية الطِّفل وحمايته وإطعامه والسَّهر على راحته، ولإنجاب الرِّجال، ولصناعة الأجيال، والرَّجل لم يُخْلَق لذلك؛ فلم يُخْلَقْ ليَحْبل ويَلِد ويُرضع ويُربِّي ويسهر ويحضن.

ورحم الله الشَّاعر الَّذي يقول:

الأمُّ مـــدرســـة إذا أعـــددتـــهـــا أعـددت شـعـبًـا طـيِّـب الأعـراق

المرأة سيِّدة البيت، وسكن الرَّجل، وصدق من قال: «وراء كلِّ رجل عِظيم امرأة».

أمَّا سؤال السَّائل عن ذبيحة المرأة؛ فإنَّه لا مانع يمنعنا أن نأكل من ذبيحتها إذا أدَّت شروط الذَّبح كاملة كالرَّجل، فهي مسلمةٌ، ولا فرق بين أن يكون الذَّابح رجلًا أو امرأة ما دام من أهل الذَّكاة.

زوجة تسرق من زوجها

السُّؤال:

رسالة من حائرة، تصف فيها مشاعرها المريرة مِنْ أَلْصَقِ النَّاس بها،

وهي أمُّها... إنَّ أمَّها تسرق من مال أبيها في الوقت الَّذي يعمل فيه أبوها ليلًا ونهارًا من أجلها ومن أجل أولادها منه، وهي في حيرة، فإن هي سكتت عن أمِّها وهي تسرق، فإنَّها تخاف من عذاب الله، لإثم السُّكوت، وإن هي فاتحت أمَّها، فربَّما تغضب منها، وهي لا تريد إغضابها لأنَّ الله أوصانا بالوالدين إحسانًا.

الجواب:

إذا كان والد السَّائلة مقصِّرًا في حقِّ أولاده، وبخيلًا على زوجته، بحيث يترك الأولاد والزَّوجة نهبًا للجوع، أو ينفق عليهم نفقة ناقصة تجعلهم يشعرون بالعَوَز والاحتياج، ويضطرُّهم إلى النَّظر إلى ما في أيدي النَّاس الَّذين هم في درجتهم، ولهذا تضطرُّ الأمُّ إلى أن تأخذ من الأب ما تنفقه في حاجاتها الضَّروريَّة وعلى قدر الحاجة الماسَّة، فإنَّ هذا أمر قد يرضاه الله، وربَّما لا يرضاه، والعبرة في هذا بالنِّيَّة والقصد، وإذا كانت الأمُّ تأخذ المال من الأب لتنفق على أشياءَ تُعدُّ من الكماليَّات، أو أشياءَ يمكن الاستغناء عنها، فإنَّ هذا يُعدُّ سرقةً وجنايةً؛ وهو شيء محرَّم يعاقِبُ عليه القانون والدِّين، وأرجو أن تعلم هذه الأمُّ أنَّ الإسلام جعل المرأة راعية في بيتها ومسؤولة عن رعيتها، والرَّسول ﷺ يقول في حديث شريف في مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما «... **والمرأة راعية على بيت بعلها - أي: زوجها - وهي مسؤولة عنهم...**»[1]، واللهَ نسألُ الهدايةَ لهذه الأمِّ على ما تفعله.

أمَّا السَّائلة، فأقول لها: نصيحتي ألَّا تهدم البيت الَّذي نشأت فيه؛ فهذا أبوها وهذه أمُّها، ويجب أن تعمل على إبقاء الحياة الودِّيَّة العاديَّة

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٥٥٤)، وأبو داود، رقم: (٢٩٢٨).

الَّتي تسود البيت، وفي وُسعها أن تجتهد فتعالج هذا الأمر الَّذي يحيِّرها بالحكمة والتَّعقُّل، حتَّى تكفَّ أمُّها عن عملها.

رحمة بالأولاد

السُّؤال:

تزوَّجتُ قبل عشر سنين من رجلٍ لا يعرف أهلي عنه إلَّا الطِّيبة والحسنى، فلمَّا صرتُ له زوجة ظَلَمَ وقَسَا، فكان يعاملني كخادمة لا كزوجة، حتَّى صِرتُ أمًّا لثلاثة أطفال، ثمَّ بعد ذلك أخذ يشتمني ويهينني أمام الضُّيوف، ويصفني بأقبح الأوصاف وأدناها حتَّى نفد صبري، وإذا به في يوم أنا فيه غافلة، يأتيني بزوجة له «ضَرَّة» ويأمرني أن أخدمها، وأنفِّذ طلباتها، فإذا تأخَّرت عن تنفيذها ضربني وشتمني أمامها؛ وكأنَّه بهذا الضَّرب يريد قتلي! نعم يريد موتي، فهربت إلى أهلي وطلبت الطَّلاق، فحكمت المحكمة لي به على أن أسقطَ له حضانة الأولاد، وعَدَّتْ هذا الطَّلاقَ خلعًا.

أولادي الآن عند أبيهم، ومضى على طلاقي سنة كاملة، إنَّني الآن في الثَّلاثين من عمري؛ وقد تقدَّم لخطبتي الكثيرون فرفضت، وأخيرًا جاءني من رضي عنه أبي وأمِّي، وألزماني قَبُولَ الزَّواج به، وعلم زوجي الأوَّل بذلك فجاء يطلبني كأمٍّ لأولادٍ أصبحوا مشردين، أكبرهم في الثَّامنة من عمره، لا كزوجةٍ له، فماذا أفعل؟ أنا حائرة معذَّبة، لا أدري ما مصيري عند هذا أو ذاك، هل أقبل العودة إلى عذابي القديم وجحيمي

السَّالف؟ إلى والد أولادي؟ أم أدخل في حياة جديدة لا أعرف عنها شيئًا؟

الجواب:

لا أدري ماذا أقول! لأنِّي لا أعرف مطلِّقك ولا خاطبك، ولا أستطيع أن أُفَاضِل بينهما لجهلي بهما، ولكنَّ نظرة واحدة وتفكيرًا قصيرًا في الأطفال الثَّلاثة الَّذين سيعيشون كاليتامى بين أبوين حيَّين،

إمَّا عند رجل غريب، وإمَّا عند أب عنده امرأة غريبة؛ كلاهما لا يستطيع رؤيتهم لأنَّهم أولاد غريمه، إذا تزوَّجتِ وكان زوجك رفيقًا بكِ ستنسين الدُّنيا ومن فيها - حتَّى أولادك - وتعيشين له كما فعل غيرك، وهنَّ كثيرات من النِّساء، وهو سيعيش أيضًا وينسى كما فعل غيرُه وهم كثيرٌ من الرِّجال، سيقع البلاء كلُّه على الأطفال الذين سيعيشون مشرَّدين ومعقَّدين ومعذَّبين ومكروهين، وربَّما مجرمين!

إذا رجعتِ إلى الزَّوج الأوَّل لأجل الأولاد؛ فإنَّ ثقتي بالله أنَّه سيكون معكِ، لأنَّك تركتِ شيئًا لله ولمستقبل أبرياء تحفظينهم من التَّشرُّد، وتضفين عليهم من حنانك ما يجعلهم ينسون كثيرًا من هموم الحياة في الكنف الَّذي تحفظينهم فيه، وأجرك على الله، وسيعوِّضك الله، وسيحفظ لكِ المستقبل برحمته وكرمه، ولا تنسَي أنَّ من كان مع الله كان الله معه، واسمعي معي أنتِ والمستمعون هذا الحديث الشَّريف عن الصَّادق المصطفى ﷺ، فقد قال:

«**أنا وامرأة سفعاء الخدين في الجنة كهاتين**»[1] وأشار بإصبعيه السَّبَّابة

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٤٠٠٦).

والوسطى، ثمَّ أخبر عن هذه المرأة أنَّها امرأة ذات منصب وجمال وشباب قعدت على أطفال لها حتَّى شحب لونُها من رعايتها لهم حتَّى رَشدوا. هذا ما أقول وأسأل الله أن يدلَّك على الخير.

حراسة البنت في ليلة زفافها

السُّؤال:

اعتقد بعض السَّابقين منَّا أنَّ هناك حراسة على البنت في اللَّيلة الأولى من زواجها، فما هي قصة هذه الحراسة؟

الجواب:

إنَّ هذه القصَّة خرافة جاهليَّة، أو وثنيَّة، لم يُنزلِ اللهُ بها بيانًا ولا سلطانًا، ولا أخبر عنها رسول الله، ولا قال عنها الخلفاء الرَّاشدون ولا الأئمَّة، وإنَّما هي من وساوس الشَّيطان، ابتدعها متَّبعوه، وآمنوا بها، إنَّها عادات وتقاليد موروثة وتعلَّق بها النَّاس جيلًا بعد جيل، والإسلام منها بريء، والله تعالى أمر نبيَّه أن يستعيذ من همزات الشَّياطين، فقال له في كتابه العزيز: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧]، أمَّا رسول الله ﷺ فقد حذَّرنا من هذه العادات الَّتي هي من البدع فقال: «**إيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**»[(١)].

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٧٦)، بلفظ: «**...وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة...**»، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو دواد، رقم: (٤٦٠٧)، بلفظ: «**...وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**».

إنَّ قصَّة حراسة البنت ليلة زفافها هي من رواسب الجاهليَّة وبقايا العصورِ المظلمةِ، وينبغي علينا بصفتنا مسلمين مؤمنين بالله ورسوله أن ننبذ[١] هذه العادات والخرافات، حيث إنَّ الرَّسول ﷺ أمرنا أن ننبذها تطهيرًا لنا من مساوئها ومفاسدها.

قراءة الفنجان

السُّؤال:

تعمد بعض النِّساء إلى قراءة الفنجان واستبصار الطَّالع[٢] بعد شرب القهوة، فما قولكم في صدق أحداثه أحيانًا، وهل تصديق قارئ الفنجان يؤثِّر في إيمان المسلم؟

الجواب:

يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النَّمل: ٦٥] معنى ذلك: أنَّه لا يعلم الغيب بَشَرٌ، ولا ملائكة، ولا جنٌّ، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يُعلن للنَّاس أنَّه لا يعلم الغيب وأن يقول لهم: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعرَاف: ١٨٨]، فمن ادَّعى معرفة الغيب فقد كذب على الله وعلى النَّاس، لأنَّ هذا

(١) نَبَذَ الشَّيء: رماه وأبعده. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٩/ ٤٧٩).
(٢) كشَف الطّالعَ: تنبَّأ عن مستقبل شخص بعد استطلاع نجم مُعيَّن. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر، (٣/ ١٩٣٦).

المدَّعي يدَّعي أوهامًا وخرافات، والإسلام حارب الأوهام، والخرافات في كلِّ وِكر من أوكَارِها حتَّى بيَّن للنَّاس حقيقتها، ولمَّا بُعث النَّبيُّ ﷺ كان في العرب دجَّالون وكُهَّان يدَّعون معرفة الغيب، ويوهمون النَّاس أنَّهم يتَّصلون بالجنِّ، وأنَّهم يأخذون معلوماتهم منهم، فأعلن الرَّسول ﷺ الحرب الشَّديدة على هؤلاء الدَّجَّالين وقال في الحديث: «**من أتى عرَّافًا فسأله عن شيء فصدَّقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**»[1]، رواه مسلم.

والله ﷻ قال في سورة الجنِّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الجنّ: ٢٦].

وفي الحديث عن الرَّسول ﷺ: «**العافية والطيرة والطرق، من الجبت**»[2] رواه أبو داود.

والعافية: هي زجر الطَّير.

والطِّيَرة: التَّشاؤم.

والطَّرق: ضربُ الحصا أو الخطُّ.

والجِبْتُ: الشّرك.

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٢٣٠).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٣٩٠٧).

المحبَّة

السُّؤال:

قسمتي رمتني عند زوج له أولاد أشقياء آذوني، أنا لا أكره زوجي، لكنِّي أكره أولاده لشرِّهم، فهل يباح لي طلب الطَّلاق منه؟ علمًا أنَّه لا أولاد لي منه حتَّى الآن، وأنا المانعةُ ذلك كرهًا للبيت الَّذي يعيش فيه أولادُه...

الرِّسالة طويلة وفي كلامها شتمٌ ومسبَّة للأولاد المساكين.

الجواب:

أنتِ كاذبة في ادِّعائكِ الحبَّ، فلو كنتِ حقيقة تحبِّين زوجكِ لأحببتِ من يحبُّ، إنَّك حاولتِ أن تُكرِّهي زوجكِ أولادَه، لكنَّه عاقل، وهو كما تقولين يحاول التَّوفيق بينكِ وبينهم، فإذا كنتِ تريدين السَّعادة لكِ وله فأحبِّيه؛ لأنَّ سعادة زوجك مرتبطة بسعادة أولاده، فإذا أحسنتِ كنتِ لهم أُمًّا، وإلَّا فاعلمي أنَّ الجزاء من جنس العمل، والله بالمرصاد، والمرأة الَّتي تحبُّ زوجها تحبُّ من يحبُّ، وليس هناك حبٌّ أقوى من حبِّ أبٍ لأولاده، فإذا ظلمتِ أيَّتها الزَّوجة أولادَ زوجكِ سبَّبتِ له العذاب حتَّى لو أحبَّك، لأنَّ هذا الحبَّ مشكوك فيه، ولن يطول عمرُه.

مدَّة حمل مريم بعيسى

السُّؤال:

قصَّ القرآن علينا قصَّة مريم العذراء بنت عمران، وأنَّ الله جلَّ جلالُه نفخ فيها من روحه، فحملت بعيسى عليه السلام، فهل كان حملُها تسعة أشهر أم كان أقلَّ؟ نرجو الدَّليل من القرآن.

الجواب:

لم يذكر الباري ﷻ في كتابه الكريم شيئًا من ذلك، وإنَّما ذكر في سورة مريم ما معناه أنَّها انتبذت مكانًا شرقيًّا، وأنَّ الله أرسل إليها الرُّوح، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ [مريم: ١٨]، وقد ذَكَرَتْ اسمَ الرَّحمن لأنَّ التَّقيَ الوَرِعَ ينتفضُ وجدانه ويقشعرُّ جلده عند ذكر الله، ثمَّ عندما عَلِمَتْ أنَّها سَتَلِد غلامًا باغتها ذلك الخبر وقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ [مريم: ٢٠]؟ فقال لها المَلَك: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٩]، ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ [مريم: ٢١] للبشريَّة كلِّها، ثمَّ تستمرُّ القصَّة بهذه الآية الكريمة: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ وهو الطَّلْق، ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣]، لأنَّها كانت تخاف من أن يقول النَّاس فيها ما يقولون، ولكنَّ الله ﷻ أنطق هذا الوليد؛ ليزيل الوَحْشَة عنها، ويبرِّئ ساحتها، ويطيِّب قلبها، فكان هذا النُّطق بادئ ذي بدء دليلًا على علوِّ شأن هذا المولود وعظيم أمره، ودليلًا على براءة مريم العذراء ممَّا ألصقه بها قومها، على أنَّ الله تعالى لم يذكر لنا في كتابه

العزيز كيفَ حَمَلَت، ولا كم حَمَلَتْ، وهل كان حملًا عاديًّا كما تحمل النِّساء أم لا، لكن في موضع آخر من الكتاب الكريم يقول جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ٥٩] صلَّى الله عليه وعلى نبيِّنا محمَّد وسلَّم.

لا تُنْزِلوا نساءكم الغرف

ولا تعلِّموهنَّ الكتابة

السُّؤال:

توقفني حديث قرأته يقول: روى إسماعيل بن أبي زياد، عن أبي عبد الله، عن أبيه، عن آبائه عليهم السَّلام، قال رسول الله ﷺ: «**لا تنزلوا نساءكم الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، ولا تعلموهن سورة يوسف، وعلموهن الغزل وسورة النور**»(١).

وقد ورد هذا الحديث في: «مجموع تفسير القرآن» بالمجلَّد الثَّالث، وإنِّي لأرى التباسًا في هذا الحديث وأسأل عنه، فهو يتعارض مع الحديث القائل: «**طلب العلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ**»(٢)، كما أنَّ المرأة المسلمة ينبغي لها أن تتعلَّم، فأرجو الإفادة عن صحَّة الحديث الأوَّل.

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٩٩١).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٢٤).

الجواب:

الحديث الَّذي سأل عنه السَّائل مكتوب في التَّفسير المذكور «مجمع البيان في تفسير القرآن» في الجزء الثَّالث عشر، في أوَّل تفسير سورة يوسف، ولا يعدو أن يكون هذا القول خبرًا من الأخبار، والحديث الشَّريف أقوى وأبلغ، ولعلَّ في الآيات الكريمة الَّتي سأذكرها لك ما هو أبلغ وأبلغ، لأنَّ القرآن الكريم، لا يمكن أن يصل إليه شكٌّ، أو يتطرَّق إليه نقد، فالله ﷻ يقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] «بداية سورة إبراهيم»، فالرَّسول معلِّم، جاء ليخرج النَّاس من ظلمات الجهل، إلى نور العلم والمعرفة

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُلك: ٢٢].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طٰه: ١١٤].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨].

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرّعد: ١٩].

والرَّسول ﷺ بُعِث مُعلِّمًا لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجُمُعَة: ٢].

وأمر نساء نبيِّه أن يتلقَّين العلم من المصطفى ﷺ ويعلِّمنه النِّساء بقوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٤]. ومعنى هذا: أنَّ بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ مدارس تتلقَّى النِّساء فيها العلمَ من أزواج النَّبيِّ عليه السلام، وقد فسَّر علماء المسلمين كلمة الحكمة بأنَّها «السُّنَّة العلميَّة المفسِّرة لكتاب الله»، وما أنزل الله الذِّكر على محمَّد ﷺ إلَّا ليبيِّنه للنَّاس، والدِّين الإسلاميُّ، لم يفرِّق بالتَّكليف والعمل بين ذكر وأنثى، فالكلُّ مُكلَّف، والكلُّ مسؤول أمام الله وأمام الدِّين والمجتمع والأسرة، لا فرق بين إنسان وآخر ذكرًا كان أو أنثى، فالرَّسول ﷺ، لم يُبعَث للرِّجال خاصَّة، وإنَّما بُعِثَ للرِّجال والنِّساء على السَّواء. والآن، أذكر للسَّائل الفاضل بعض الأحاديث الَّتي حثَّت هذه الأمَّة على الاستزادة من العلم والمعرفة، فمن ذلك قوله ﷺ في حديث رواه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والتِّرمذيُّ، ولفظ الحديث: «**من يُرد الله به خيراً يفقِّهه في الدِّين، وإنَّما أنا قاسمٌ، والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرُّهم من خالفهم، حتَّى يأتي أمر الله**»(١).

والحديث الثَّاني رواه الطَّبرانيُّ وابن عديٍّ، ويقول فيه ﷺ: «**إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علمًا يقرِّبني إلى الله فلا بُورِك لي في طلوع شمس ذلك اليوم**»(٢).

والحديث الثَّالث رواه أبو داود والتِّرمذيُّ عن أبي الدَّرداء ومنه: «**وفَضْل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء**

(١) رواه البخاري، رقم: (٧١)، ومسلم، رقم: (١٠٣٧)، والترمذي، رقم: (٢٦٤٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ولم أقف عليه عند أبي داود.
(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٧٩).

ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما وَرَّثُوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[١].

أمَّا الحديث الَّذي ذكره السَّائل فقد روي بألفاظ مختلفة، أذكر منها هذه الرِّوايات:

١- «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[٢]، رُوي هذا اللَّفظ عن أنس بن مالك، وعن الإمام عليٍّ، وعن الحسين بن عليٍّ، وعن ابن عبَّاسٍ، وعن عبد الله بن عُمر، وعن عبد الله بن مسعود، وعن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنهم جميعًا.

٢- «**طلب العلم فريضة على كل مسلم، والله يحب إغاثة اللهفان**»[٣] روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

٣- «**طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يُستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر**»[٤]، روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

٤- «**طلب العلم فريضة على كلِّ مسلمٍ، وواضع العلم عند غير أهله، كمقلد الخنازير**»[٥]. روي أيضًا عن أنس رضي الله عنه.

والمسلم هنا يشمل: الذَّكر والأنثى، مثل قوله ﷺ: «**طلب الحلال واجبٌ على كلِّ مسلمٍ**»[٦]، فنحن نفهم من ذلك بالبديهة أنَّ الحرامَ حرامٌ

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٨٢)، وأبو داود، رقم: (٣٦٤١).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٢٤).
(٣) أورده أبو العباس البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة، رقم: (٢٦٠/ ١).
(٤) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٨٦٥٣).
(٥) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٢٤).
(٦) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٩٢٠٤).

على الذَّكر والأنثى.

ومثل قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨]، فالخطاب موجَّه للرِّجال والنِّساء، مع أنَّ الأمر جاء بصيغة المذكَّر، وكقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحَجّ: ٣٠] جاء أيضًا بصيغة المذكَّر، والأوثان والزُّور[1] محرَّمة على الذَّكر والأنثى.

وأرجو أن يكون السَّائل قد وعى ما قُلتُ، وقول الله أبلغ وأوضح، ونسأل الله الهداية إلى اتِّباع أمر الله، واجتناب ما نهانا عنه، والله وليُّ التَّوفيق.

هل الإسلام يفرِّق بين الذَّكر والأنثى؟

السُّؤال:

نحن ستُّ بنات ولنا أخ واحد، وأمُّنا تدلِّل هذا الولد وتغالي في حبِّه، وذات يوم قالت هذه الوالدة: إنَّ سائلًا سأل الرَّسول ﷺ عن أسعد النِّساء وأتعسهنَّ فقال: أسعدهنَّ من تبكَّرت بذكر وعاش، وأتعسهنَّ من تبكَّرت بأنثى وعاشت، وأنا لا أصدِّق هذا الكلام أن يكون من قول الرَّسول ﷺ لأنِّي أعلم أنَّ الإسلام لم يفرِّق بين ذكر وأنثى، وأنَّ الكلَّ هبة من الله الَّذي يهب لمن يشاء إناثًا، ويهب لمن يشاء الذُّكور، أرجو الجواب على هذا الموضوع.

---

(١) الزُّور: الكذب. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١١/ ٤٦١).

الجواب:

ليس هذا القول من كلام النُّبوَّة، ولا أصدِّق أن ثَمَّة حديثًا في معناه، لأنَّ كتاب الله جلَّ جلاله جعل الذُّكور والإناث من الذُّريَّة هبة منه لعباده، وعاب على أولئك الَّذين إذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسودًّا وهو كظيم، والكلام هذا يخالف ما جاء في كتاب الله، والحديث لا يخالف كلام الله، لأنَّ الرَّسول ﷺ هو المبلِّغ عن ربِّه، ولا بدَّ من أن يتَّفق كلام الله مع حديث رسوله، وخير نساء هذه الأمةَّ خديجة بنت خويلد، أوَّل نفس آمنت بالنَّبيِّ محمَّد ﷺ، لم تلد بِكرها ذَكَرًا، وإنَّما ولدت في زواجها السَّابق لزواجها من الرَّسول: هندًا وهالة، ثمَّ ولدت من الرَّسول: القاسم، فمات صغيرًا، وعاش لها البنات: زينب، ورُقيَّة، وأمُّ كُلثُوم، وفاطمة، بنات رسول الله ﷺ.

ومن عادات الجاهليَّة المتأصِّلة فينا: تفضيل الذُّكور على الإناث، أو تفضيل أمِّ البنين على أمِّ البنات، والله ﷻ لا يحبُّ ذلك فينا، والرَّسول ﷺ أمرنا كثيرًا بإكرام البنات، فقال لنا: «**لا تكرهوا البنات فإنهن الغاليات المؤنسات**»[(١)].

ولو كان البنون أكرم عند الله من البنات لما خصَّ بهنَّ نبيَّه محمدًا ﷺ، فقد كان ﷺ أب بنات، وجعل ذرِّيَّته في أولاد فاطمة الزَّهراء وهي بنت.

وممَّا روي عنه ﷺ قوله: «**ساووا بين أولادكم في العَطية، فلو كنت مُفضِّلاً أحداً لفضلت النساء**»[(٢)]، والبنت ستكون امرأة، ثمَّ ستكون أمًّا،

(١) رواه أحمد، رقم: (١٧٣٧٣).

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥٣٤٦).

والأمُّ إذا أطاعت الله في أولادها، كانت الجنَّة تحت أقدامها، ثمَّ إنَّ النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ أمرنا أن نرفق بالنِّساء، وأن نعطف عليهنَّ، سواء كُنَّ كبارًا أم صغارًا، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ في خطبة الوداع: «**استوصوا بالنساء خيراً**»[١]، وهذا الحديث رواه البخاريُّ ومسلم من حديث طويل، ومنها قوله ﷺ: «**خيركم خيركم للنساء**»[٢] رواه الحاكم عن ابن عبَّاس، وفي رواية أخرى: «**خيركم خيركم لنسائه ولبناته**»[٣] رواه البيهقيُّ.

وحديث آخر شكر به النَّبيُّ ﷺ ذلك الأب الَّذي يرعى ابنته فلم يُهِنْهَا، ولم يُؤْثر أخاها عليها، فيقول: «**من كانت له أنثى، فلم يكدها ولم يُهنها، ولم يؤثر ولده الذكور عليها، أدخله الله الجنة**»[٤] رواه أبو داود والحاكم.

هذا ما أحببتُ ذكره في جوابي للسَّائلة الفاضلة، ولي كلمة أحبُّ أن أقولها لأولئك الَّذين يكرهون نساءهم إذا ولدن البنات ولم يلدن الذكور: إنَّ المرأة لا ذنب لها في نظرة المجتمع لها، فالمولود من زرع الرَّجل، والمرأة كما قال الله جلَّ جلاله: حرث، فلا يمكن أن تنبت حَبَّة البُرِّ[٥] شعيرًا، ولا حبَّة الشَّعير بُرًّا، وأذكر في هذا الحديث قول عربيَّة هجرها زوجها لأنَّها لم تَلد ذَكَرًا، فقالت وهو يسمع إنشادها:

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥١٨٦)، ومسلم، رقم: (١٤٦٨).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك، رقم: (٧٣٢٧).
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٨٣٤٦).
(٤) رواه أبو داود، رقم: (٥١٤٦)، والحاكم في المستدرك، رقم: (٧٣٤٨).
(٥) البُرُّ: القمح. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١٠/ ١٥٦).

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا ويطرق البيت الذي يلينا

يغضب أن لا نلد البنينا وإنما نُعطَى الذي أعطينا

وختامًا أقول كلمتي الأخيرة لكلِّ رجلٍ وامرأة: إنَّ الله لم يُفضِّل ذكرًا على أنثى، ولا فَضَّل أنثى على ذكر، ونبيُّ الإسلام قال في الحديث: «**إنَّما النساء شقائق الرِّجال**»(١)، وصدق رسول الله ﷺ.

شهادة الرَّجل والمرأة في المعاملات التِّجاريَّة

السُّؤال:

قرأت في سورة البقرة في الآية (٢٨٢) قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فلماذا كان الشُّهود رجلين أو امرأتين مع رجل؟ وهل معنى ذلك أنَّ عقل الرَّجل أكمل وأوسع من عقل المرأة؟

الجواب:

المعاملات التِّجاريَّة ومزاولة الأعمال تكون عادة مع الرِّجال، والأسواق تعمر بهم، وإن كان هنا وهناك نساء فهنَّ قليلات، والمجتمع المسلم كرَّم المرأة، فجعلها مكفولة، لا حاجة لها أن تعمل لتعيش، ففي عملها وطلبها العيشَ جَوْرٌ على أنوثتها وأمومتها، إنَّ واجبها أعظم وأكبر، إنَّ واجبها رعاية أثمن رصيد في الأمَّة العادلة المنطلقة إلى المستقبل، واجبها رعاية الطُّفولة النَّاشئة الممثِّلة للجيل النَّاشئ، الَّذي سينشأ منه

(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٣)، وأبو داود، رقم: (٢٣٦).

رجال الغد للأمَّة الَّتي تتطلَّع إليهم.

إنَّ المرأة لا تعمل إلَّا في المجتمع النَّكد المنحرف القلق، الَّذي نعيش فيه اليوم، إنَّ المرأة خُلقت ربَّة بيت، ومربيَّة أولاد، ومنشئة أجيال، المرأة محترمة؛ ولهذا أعطاها الله هذه الكرامة، كرامة تربية البنين والبنات، ثمَّ إنَّه يَعرض للمرأة من الأحوال الجسديَّة ما لا يَعرض للرِّجال، والمرأة تحمل وتتوَّحم وتَلِد، ولها عادة شهريَّة، وكلُّ هذه الحالات تهزُّها هزَّات بدنيَّة صحيَّة، تنسيها في بعض الأحيان ما كانت تعلم، والمرأة بطبيعتها عاطفيَّة، وعاطفتها قد تؤثِّر عليها، وقد تدفعها إلى النِّسيان، فلهذا كان على الموثِّق إذا لم يجد رجلين للشَّهادة، أن يُشهِد رجلًا وامرأتين؛ لتذكِّر إحداهما الأخرى، أمَّا الرَّجل فهو في الغالب متفرِّغ لعمله، لا يشغله من الأحوال الجسديَّة ما يشغل المرأة، ولا تهزُّه حالة قيام بشؤون صغار، أو شؤون بيت، فهو متفرِّغ لعمله الخارجيِّ، وقَلَّ أن يلهيه عمل غير هذا العمل.

العقم عيب

السُّؤال:

أبلغ من العمر (٣٠) سنة، حتَّى الآن تزوَّجت مرَّتين، لم أرزق بطفل، ومتى علمتِ المرأة أنِّي لا أنجب طلبت منِّي الطَّلاق، وقد طلَّقتُ الاثنتين؛ لأنَّ الأطبَّاء قرَّروا عدم صلاحيَّتي للأبوَّة، فماذا أعمل؟

الجواب:

قال الله تعالى في كتابه العزيز في آخر سورة الشُّورى في الآيتين (٤٩، ٥٠): ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشّورىٰ: ٤٩-٥٠].

فأنت يا أخي السَّائل أوس، هذا نصيبك، وهذه قسمتك، فهل تريد أن تقاوم القدر؟ أظنُّك لا تقدر، لكنِّي علمتُ أخيرًا أنَّ الحيوان المنويَّ موجودٌ في كلِّ رجل، لكنَّه في بعضهم يكون قويًّا، وفي بعضهم يكون ضعيفًا، فراجع الطَّبيب لعلَّه يستطيع أن يلقِّح الزَّوجة منك تلقيحًا صناعيًّا، فلعلَّ في ذلك فائدة وإحياء للأمل.

الزَّواج فطرة، فلا تطمسوا فطرة الله

وصلتني رسائل كثيرة من: الكويت، وفيلكا، والبصرة، والزُّبير، والبحرين، وبلاد كثيرة غيرها... لاسيَّما بعد أن أذعنا الحلقة الأولى (١٦/ ١٠/ ٨٠) الَّتي اشتملت على موضوع الزَّواج، والَّتي كانت جوابًا على سؤال: هل يباح للوالدين إكراه ابنهما أو ابنتهما على الزَّواج ممَّن لا يحبُّ؟ والَّتي قلنا فيها: إنَّ الزَّواج مبدأ حياة، ويجب أن تُبنَى هذه الحياة على أساس متين، حتَّى تكون حياة سعيدة، وإنَّ كلَّ بناء لا يقوم على أساس فهو بناء منهار. هذه الرَّسائل تشتمل كلُّها على أسئلة معناها واحد:

هل يباح للوالدين أن يمنعا ابنهما أو بنتهما من الزَّواج لمصلحتهما الشَّخصية، كخدمة خاصَّة أو كسبٍ أو استغلال مرتَّب أو ما شابه ذلك؟ وفهمت من الرَّسائل كلِّها أنَّ البنت هي الضَّحيَّة غالبًا في هذا الموضوع، وأنَّ القسوة أكثر ما تكون عليها من الأمِّ، وقد قرأت في الرِّسالة الّتي جاءتني من الزُّبير وهي مكوَّنة من (٨) صحائف، تقول صاحبتها:

لي إخوة وأخوات أصغر منِّي تزوَّجوا وتزوَّجن، وأنا الآن في الـ (٢٥) من عمري، وقد تقدَّم لي خطاب كثيرون، رفضت أمِّي تزويجي لتستخدمني في تربية إخوتي الباقين، ولتستغلَّ راتب وظيفتي.

السُّؤال:

هل يباح للوالدين أن يَحْرِما ولدهما - ابنًا أو بنتًا - من الزَّواج لمصلحتهما الشَّخصيَّة؟

الجواب:

قلنا في أجوبة سابقة: إنَّ الزَّواج بداية حياة، والحياة شيء مقدَّس، ولا يباح لأحد أن يحرم أحدًا من حياته، فإذا كان القتل حرامًا، فالحرمان من نعيم الحياة حرام أيضًا، والزَّواج من أفضل نعم الحياة وأقدسها، فكيف يَحْرِم الوالد أو الوالدة ابنهما أو ابنتهما من خير نعم الحياة الدنيا!؟ لا أظنُّ أنَّ ذلك كائن بين النَّاس، لأنَّ الإنسان فُطر على حبِّ الولد، لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى، وبدويٍّ وحضريٍّ، وعالمٍ وجاهلٍ، كلُّ إنسانٍ يريد لأولاده الخير والنَّعيم ورغد العيش، وليس أحد أرحم من الوالدين إلَّا الله وحده، هكذا علَّمنا الإسلام، والرَّاحمون يرحمهم الرَّحمن، وإذا قسا الوالد على ولده كان على غير ولده أقسى،

وكان كمن وصفهم الله ﷻ في كتابه العزيز بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البَقَرَة: ٧٤].

لهذا باسم الله، واسم رسوله، واسم الإسلام أنادي هؤلاء الآباء وأولئك الأمَّهات قائلًا لهم: اتَّقوا الله في أبنائكم وبناتكم، ورسول الله ﷺ يقول لكم: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوِّجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»(١).

والإسلام يقول لكم: «**من تزوج حفظ شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني**»(٢).

فيا آباء ويا أمهات! احفظوا دين أولادكم، والزَّواج فطرة قبل أن يكون شريعة، فهل تريدون أن تطمسوا فطرة الله؟ وأعينوا أبناءكم وبناتكم على العفَّة، واحفظوهم من الزَّلَّة، وحصِّنوهم بتقوى الله، فالزَّواج تقوى، والزَّواج إحصان، وهو بعد ذلك كلِّه إحسان، وإنَّ الله مع الَّذين اتَّقوا والَّذين هم محسنون.

حليمة السَّعديَّة

السُّؤال:

حليمة السَّعديَّة الَّتي أرضعت الرَّسول ﷺ هل ماتت مسلمة أم لا؟

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٤٢٠)، بلفظ: «**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي**».

الجواب:

هي حليمة بنت أبي ذؤيب السَّعديّة الَّتي يقول في ذكرها الشَّاعر عبد العزيز الزَّمرقي[١] المكِّي:

أرضعته حليمة بلباها فغدا الحلمَ وَصْفُها والحياءَ

وعلا جدها وأُسْعِدَ سعد إذ سقت بنته النبي الغذاء

فتعجب لجدها ولها كي ف حكى الوصف منهما الأسماء

جاءت إلى النَّبيِّ ﷺ بعد رجوعه من حُنَيْن مسلمة، فقام إليها وقبَّلها، وبسط لها رداءه، فجلست عليه[٢].

ويقال: إنَّ ذلك كان بالجِعْرَانَة، قال الرَّاوي: «أقبلت امرأة بدويَّة، فلمَّا دنت من النَّبيِّ ﷺ بسط لها رداءه فجلست عليه، فقلت: مَنْ هذه؟ قالوا: هذه أمُّه الَّتي أرضعته حليمة السَّعديَّة»[٣]. روى هذا الحديث أبو داود عن أبي الطُّفيل.

من هذا نفهم أنَّها أسلمت، وفي البقيع مقبرة المدينة قبرٌ يُنسَب إلى حليمة السَّعديَّة يزوره النَّاس، وفي كتب السِّيَر والتَّواريخ أخبار عن حليمة تدلُّ على كرم خلق وطيبة نفس.

وممَّا قيل في حليمة من شعر:

---

(١) لعلها الزمزمي. تراجع.

(٢) يذكر الرواة أن الرسول ﷺ بعد حنين استقبل أخته من الرضاع الشيماء وأحسن وفادتها وأسلمت.

(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣٥٥١٧).

ونالت به الزلفى حليمة ظئره وشرفها إرضاعه وفطامه

وقيل أيضًا:

وكم بركات شاهدتها حليمة تواترن نقلاً عن ثقات أعادل

ففي نفسها قد شاهدتها وشارف لها وأتان ثم ضان حوائل

أخوات الرَّسول من الرَّضاع

السُّؤال:

هل للرَّسول ﷺ إخوة أو أخوات من الرَّضاع؟ ومن هم؟

الجواب:

نعم، كان له إخوة وأخوات من الرَّضاع، عرفنا منهم: عثمان بن مظعون أوَّل مهاجر مات في المدينة، وقد وضع الرَّسول ﷺ حجرًا على قبره بعد دفنه وقال: «أتعرَّف به قبر أخي»[1]، وابن عمَّته برَّة بنت عبد المطلب، واسمه: أبو سلمة عبد الله بن عبد الله المخزوميِّ، وأولاد حليمة السَّعديَّة كانوا إخوة له من الرَّضاعة ذكورهم وإناثهم، وممَّن أرضعه ﷺ أمُّ أيمن الحبشيَّة، وثُويبة أَمَة عمِّه أبي لهب، ولا بدَّ أن يكون لهما يومئذٍ أولاد يكونون إخوته من الرِّضاعة، هذا ما نعلمه. والله أعلم.

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣٢٠٦)، بلفظ: «**أتعلم بها قبر أخي...**».

الشِّفاء قابلة الرَّسول

السُّؤال:

أعرف أنَّ أمَّ الرَّسول ﷺ آمنة، وأنَّ مرضعته حليمة، ولكنِّي سمعتُ أنَّ القابلة الَّتي حضرت ولادته كان اسمها الشِّفاء، ولهذا سمَّيتُ ابنتي الشِّفاء، فما رأيكم بهذا الاسم؟ وهل كانت القابلة الَّتي حضرة ولادة النَّبيِّ ﷺ بهذا الاسم؟

الجواب:

نعم، اسم الشِّفاء معروف عند العرب، والشِّفاء الَّتي حضرت ولادة النَّبيِّ ﷺ يُقال لها: أمُّ عبد الرَّحمن، وكان في الصَّحابيَّات اسم الشِّفاء؛ منهنَّ: الشِّفاء بنت عبد الله بن عبد شمس، والشِّفاء أخت عبد الرَّحمن بن عوف، والشِّفاء الزُّهريَّة، والشِّفاء بنت عبد الرَّحمن الأنصاريَّة، وكثيراتٌ غيرهنَّ.

ومصدر الاسم من الفعل: شفي، يشفُّ، شفوفًا أو شفيفًا؛ أي: رقَّ وكَشَفَ ما تحته، فشفاء تعني: المبالغة في الرِّقَّة.

زوجاتُ الرَّسول وأسماؤهنَّ

السُّؤال:

ما هي أسماء زوجات الرَّسول ﷺ وأولاد كلٍّ منهنَّ؟

الجواب:

تزوَّج النَّبيُّ ﷺ (١١) زوجةً، مات عنده منهنَّ اثنتان، ومات هو عن تسعٍ، وكانت العاشرة مارية القُبْطِيَّة الَّتي تزوَّجها بمِلْكِ اليَمين، والزَّوجات هنَّ:

١- خديجة بنت خُوَيْلِد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصيٍّ القُرشيَّة، وماتت عنده في السَّنة العاشرة للبعثة، وهي أمُّ جميع أولاده إلَّا إبراهيم.

٢- سَودَة بنتُ زَمْعَة بن قيس بن عبد شمس.

٣- عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق.

٤- حَفْصَة بنت عمر بن الخطَّاب.

٥- زينب بنت خزيمة الهلاليَّة، وماتت في عهد النَّبيِّ ﷺ، وكانت تعرف بأمِّ المساكين لرحمتها بالضُّعفاء، وعاشت في عصمة النَّبيِّ ثمانية أشهرٍ فقط.

٦- أمُّ سَلَمَة، واسمها: هند بنت أبي أميَّة بن المُغِيْرة من بني مخزوم.

٧- زينب بنت جحش الأسديَّة بنت عمَّة النَّبيِّ ﷺ.

٨- جُوَيْرِيَّة بنت الحارث من بني مُصْطَلِق.

٩- صَفِيَّة بنت حُيَيٍّ من بني النَّضير.

١٠- أمُّ حَبِيْبَة بنت أبي سفيان الأمويَّة.

١١- ميمونة بنت الحارث: وكان اسمها برَّة بنت الحارث الهلاليَّة، وسمَّاها الرَّسول ميمونة.

١٢- مَاريَة القبطيَّة.

وكلُّ أولاده كانوا من خديجة كما قلنا، وهم:

القاسم وعبد الله وماتا صغيرين، وزينب ورُقيّة وأمُّ كلثوم اللَّواتي متن قبله، وفاطمة الَّتي ماتت بعده بستَّة أشهر، والَّتي انحصرت ذرِّيَّة النَّبيِّ ﷺ في ابنيها الحسن والحسين رضي الله عنهما، وَوُلِدَ له إبراهيم من مَاريَة القُبطيَّة، ومات صغيرًا قبل بلوغه السَّنة. ﷺ وعلى كافَّة آل بيته وأزواجه وذرِّيَّته وصحبه.

ويسأل السَّائل عن نسب النَّبيِّ إلى إبراهيم عليه السلام:

فإنَّنا لا نعرف ذلك، وإنَّما نعرف النَّسب الَّذي وافق عليه النَّبيُّ ﷺ من أبيه عبد الله إلى عدنان، وما فوق عدنان لا نعرفه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُثبته، ولم يوافق عليه، وقال عنه: «**كذب النسابون**[1]».

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (١٨٤٥٥).

زواج الإمام عليٍّ من فاطمة

السُّؤال:

متى تزوَّج عليُّ بن أبي طالب فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟ وكم كان عمرها يوم تزوَّجها؟ وماذا كان المهر؟

الجواب:

فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها، كانت صغرى بناته، وقيل: إنَّ أصغرهنَّ أمُّ كلثوم، ولكنَّ المشهور أنَّ الصُّغرى هي فاطمة، ولدت قبل البعثة بقليل، وكان سِنُّها يوم تزوَّجها عليٌّ كرَّم الله وجهه خمس عشرة سنة ونصف السَّنة، وكان عليٌّ رضي الله عنه قد تجاوز الحادية والعشرين، قيل: كان ذلك بعد رجوعه ﷺ من غزوة بدر، وكان صَدَاقُها درعًا من حديد، كان الرَّسول ﷺ قد أعطاها لعليٍّ رضي الله عنه فأَصْدَقَها إيَّاها، واسم هذه الدِّرع: «الحُطَميَّة» نسبة إلى حُطَم بن محارب، أو أنَّها سمِّيت بهذا الاسم لأنَّها كانت تحطِّم السُّيوف.

وفي فاطمة انحصرت ذرِّيَّة الرَّسول ﷺ، وقد انحصرت في الحسن والحسين، معنى ذلك أنَّ نسل النَّبيِّ ﷺ انقطع إلَّا من فاطمة.

زينب بنت عليٍّ بن أبي طالب؛

أخت الحسين رضي الله عنهم

السُّؤال:

في القاهرة مسجد السَّيِّدة زينب، قيل: إنَّها زينب بنت عليٍّ رضي الله عنها، وفي المدينة المنوَّرة زُرنا قبرًا قيل: إنَّه لزينب بنت عليٍّ، وفي الشَّام في دمشق قبر لزينب، فأيُّ القبور قبرها؟ ومتى ولدت زينب بنت عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنها وعن أبويها؟ ومن كان زوجها؟ وهل أدركت حياة جدِّها النَّبي ﷺ؟

الجواب:

زينب بنت عليٍّ بن أبي طالب بن عبد المطَّلِب بن هاشم، وأمُّها: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولدت في حياة جدِّها ﷺ، كما أثبت ذلك ابن الأثير، قيل: إنَّها وُلدت في السَّنة الخامسة من الهجرة، زوَّجها أبوها من ابن أخيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، الكريم المشهور بأنَّه من كرام عصره، وَلَدتْ له أولاده الخمسة: محمَّدا، وعليًّا، والعبَّاس، وعون، وأمَّ كلثوم، وفي وقعة كربلاء كانت مع شقيقها الحسين رضي الله تعالى عنهم جميعًا، وكانت عاقلة، قوية الجنان، جريئة، وكلامها في مجلسِ يزيد مشهور يدلُّ على علمٍ وعقلٍ وفصاحةِ لسانٍ وبلاغةِ قولٍ وشجاعةٍ أدبيَّة، وتُوفِّيَت زينب - رضي الله عنها وعن أهل بيت النُّبوَّة أجمعين - في رجب سنة (٦٢هـ) كما أخبرني ذلك الأخُ الشَّيخ عبد العزيز بن محمَّد أبو عبَّاس، وبعد سؤالي له عثرت على كتب منها كتاب: «أعلام النِّساء»

لمؤلِّفه: رياض كحَّالة، وعلى كتاب «الأعلام» للزِّركلي، وفيهما أنَّها تُوفِّيت رضي الله عنها سنة (٦٥) للهجرة، أمَّا القبور المنسوبة إليها فثلاثة: قبر في المدينة بالبقيع، وقبر في مصر في القاهرة، وقبر في دمشق بالشام كما قُلتَ، وأخبار زينب رضي الله عنها بعد مقتل أخيها أصبحت غامضة؛ فقيل: إنَّها تفرَّغت لرعايةِ ابن أخيها عليِّ بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه، واختارت المدينة المنوَّرة سكنًا لها معه حتَّى ماتت، ودُفِنَتْ قرب أمِّها وخالاتها بنات نبيِّ الله ﷺ، وقيل: إنَّها تُوفِّيت في مصر، وفي القاهرة مسجدٌ كبيرٌ ينسب إليها، وقيل: إنَّها تُوفيِّت في الشَّام. والله أعلم بالحقيقة.

فاطمة الزَّهراء وورقة بن نوفل

السُّؤال:

متى تُوفِّيت السَّيِّدة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ؟ وكيف عرف ورقة بن نوفل أنَّ محمَّدًا ﷺ سيصبح نبيَّ هذه الأمَّة، وأنَّ الَّذي أتاه جبريل؟

الجواب:

أوَّلًا: تُوفِّيت فاطمة رضي الله عنها بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ بستَّة أشهر، وكان النَّبيُّ ﷺ قد أخبرها بأنَّها أوَّل أهله لحوقًا به، وقد تحقَّق ذلك، فكانت أوَّل من توفِّي بعد رسول الله ﷺ من كافَّة أهله بعد وفاته.

أمَّا الجواب على السُّؤال الثَّاني: فإنَّ وَرَقَة بن نَوْفَل كان قد تَنَصَّر قبل البعثة، وقرأ الكتب الَّتي بشَّرت بالنَّبيِّ ﷺ، وعرف منها قرب بعثته

صلوات الله وسلامه عليه، وكانت هذه الكتب تصف النَّبيَّ ﷺ، ومنها عرفَ الوحيَ، وعرفَ نبوَّةَ النَّبيِّ وبعثته، ولا غرابة أن يعرف ورقةُ هذا الأمر، فقد كان الأحبار والرُّهبان يعرفون النَّبيَّ ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ولكنَّهم كانوا يكتمون الحقَّ وهم يعلمون، كما جاء في سورة الأنعام في الآية رقم (١٩-٢١) بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٩-٢١].

فاطمة الزَّهراء

السُّؤال:

حدِّثنا من قال: إنَّ فاطمة الزَّهراء عليها وعلى أبيها أفضل الصَّلاة والسَّلام كانت تلقي على بعض الصَّحابة دروسًا في الدِّين فهل هذا صحيح؟ وكيف كانت مقابلتها مع الصَّحابة؟

الجواب:

لم يُذكر عن فاطمة رضي الله عنها وأرضاها أنَّها قابلت أحدًا من الصَّحابة إلَّا زوجها عليَّ بن أبي طالب، وشوهدت يوم وفاةِ أبيها المصطفى ﷺ واقفة على قبره، وماتت بعد وفاة أبيها بستَّة أشهر، ولم يذكر لها مواقف غير ما

ذَكَرتُ، ولعلَّ بعض النَّاس قد عرفوا أكثر ممَّا عَرفْتُ فلْيُرشِدونني إلى ما جهلت، ومادمنا في ذكر فاطمة بنت إمام المتَّقين وسيِّد المرسلين فلنذكر شيئًا من سيرتها، فقد كان مولدها قبل البعثة بأكثر من سنة، وتزوَّجها عليُّ بن أبي طالب في أوائل السَّنة الثَّانية للهجرة، وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلَّا من فاطمة، وكان ﷺ يحبُّ فاطمة كثيرًا، ومن قوله فيها: «**فاطمة بضعة منِّي، يؤذيني ما آذاها، ويريبني ما رابها**[1]».

وكان لفاطمة رضي الله عنها من الذُّرِّية: الحسن والحسين وزينب وأمُّ كلثوم، أولاد عليٍّ، عاشوا بعدها، وكان لها المحسن الَّذي مات طفلًا، ولم تلد غير هؤلاء الخمسة من زوجها عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعًا، وكانت فاطمة رضي الله عنها أشبه النَّاس كلامًا وحديثًا برسول الله ﷺ، وتُوفِّيت في اليوم الثَّالث من شهر رمضان؛ أي بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ بستَّة أشهر إلَّا عشرة أيام. لأنَّه كما قلنا: ولدت قبل البعثة بأكثر من سنة، وعاشت نحوًا من (٢٥) سنة رضي الله عنها.

زوجات الإمام عليٍّ بعد فاطمة الزَّهراء

السُّؤال:

هل تزوَّج عليُّ بن أبي طالب بعد وفاة زوجته فاطمة رضي الله عنها؟ وهل وُلِدَ له من غيرها؟ وأين دفن؟

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٧١٤) بلفظ: «**فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي**»، والمتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (١٠١١).

الجواب:

تزوَّج ﷺ بعد وفاة فاطمة - بنت رسول الله ﷺ-:

١- أمَّ البنين من بني عامر بن كلاب، فولدت له: العبَّاس وجعفر وعبد الله وعثمان.

٢- ثمَّ تزوَّج ليلى بنت مسعود من تميم، فولدت له: عبيد الله وأبا بكر.

٣- وتزوَّج أسماء من خثعم، فولدت له: يحيى ومحمَّد الأصغر.

٤- وتزوَّج الصَّهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر، فولدت له: عمر ورُقيَّة.

٥- وتزوَّج أمامة بنت أبي العاص، وأمُّها زينب بنت الرَّسول ﷺ، فولدت له: محمَّدًا الأوسط.

٦- وتزوَّج خولة بنت جعفر، فولدت له: محمَّدًا الشَّهير بابن الحنفيَّة.

٧- وتزوَّج أمَّ سعيد بنت عروة بن مسعود، فولدت له: أمَّ رملة الكبرى.

٨- وتزوَّج محياة بنت امرئ القيس، ولم تلد له إلَّا بنتًا ماتت بعد الوضع، وكان له بنات كثيرات، اختلف في عددهنَّ، هل هنَّ (١٣) أو (١٤) من أمَّهات أولادٍ، وانحصر نسل الإمام عليٍّ ﷺ في أولاده الخمسة: الحسن والحسين من فاطمة بنت الرَّسول ﷺ، والعبَّاس الَّذي أمُّه أمُّ البنين، ومحمَّد الَّذي أمُّه خولة بنت جعفر الحنفيَّة، وعمرَ الَّذي أمُّه الصَّهباء بنت ربيعة، أمَّا أولاده من فاطمة بنت رسول الله فهم: الحسن

والحسين وزينب الكبرى وأمُّ كلثوم، وذكر التَّاريخ أنَّ فاطمة ﵂ ولدت ذَكَرًا مات بعد الولادة، واسمه المحسن.

وأمَّا مقتل عليِّ بن أبي طالب ﵁ فقد قتل في الكوفة، قتله عبد الرَّحمن بن ملجم المرادي. وقد تقدَّم ليصلِّي صلاة الصُّبح إمامًا للجماعة، وكانت الضَّربة في يوم الأحد (١٧) رمضان سنة (٤٠) للهجرة، وتوفِّي ليلة (٢١) من رمضان عن عمر (٦٣) سنة، ودفن في مقبرة الكوفة، وتسمَّى النَّجف، لأنَّها أرض مرتفعة. ﵁ وأرضاه، وهدانا إلى الاقتداء بسنَّته وسنَّة أصحابه.

أمَّهات أولاد: سادة

السُّؤال:

ما لفت نظري أنَّ أمَّهات أربعة من الأئمَّة من أبناء الإمام عليِّ بن أبي طالب أمَّهات أولاد، زين العابدين بن الحسين ﵄، وموسى بن جعفر الصَّادق، وابنه عليُّ بن موسى، وابنه محمّدُ بن عليٍّ رضي الله عنهم أجمعين، معنى ذلك أنَّ أمَّهاتهم لسنَ عربيَّات..

ويقول السَّائل: أوَّل مرَّة أقرأ مثل ما جاء أعلاه، فأرجو التَّفضُّل بإعلامي عن صحَّة هذه الرِّواية؟ ومن هم هؤلاء الأئمَّة الأربعة؟ ومن هنَّ أمَّهاتهم؟

الجواب:

إنَّ ما قرأته صحيح، وإليك تفصيل ذلك نقلًا عن كتاب «الأئمَّة الاثنا

عشر» تأليف: شمس الدِّين محمَّد بن طولون، المتوفَّى سنة (٩٥٣هـ) وكتاب «كشف الغمَّة في معرفة الأئمَّة» تأليف: أبي الحسن عليِّ بن عيسى الأربليِّ. أنقل عنهما هذه الرِّوايات بتصرُّف:

الأوَّل: هو الإمام أبو الحسن عليُّ زين العابدين بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب ﷺ،

أمُّه أمُّ سَلَمَة بنت يزدجرد أحد ملوك الفرس، واسمها: غزالة، وكان اسمها قبل إسلامها «شاة زنان»؛ أي: ستُّ النِّساء، وإنَّها واحدة من ثلاث بناتٍ ليزدجرد، أخذ إحداهنَّ الإمام عليٌّ ﷺ، ودفعها لولده الحسين، والثَّانية كانت لعبد الله بن عمر، والثَّالثة لمحمَّد بن أبي بكر الصِّدِّيق.

أمَّا الثَّاني: فهو أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصَّادق بن محمَّد الباقي بن عليٍّ زين العابدين رضي الله عنهم أجمعين، وأمُّه حميدة، قيل عنها: إنَّها بربريَّةٌ من شمال إفريقيا.

أمَّا الثَّالث: فهو أبو الحسن عليُّ الرِّضا بن موسى الكاظم ﷺ، واختُلِفَ في اسم أمِّه، قيل: هي أروى، وقيل: هي الخيزران وتلقَّب بالشَّقراء، وهي من شمال إفريقيا أيضًا.

أمَّا الرَّابع: فهو أبو جعفر محمَّد الجواد بن عليٍّ الرِّضا بن موسى الكاظم ﷺ، وأمُّه سُكَينة المرسيّة، وهي من شمال إفريقيا.

وجوابي للأخ السَّائل: ما قرأته صحيح، ولا يعيب الشَّريف كون أمِّه أمَّ ولد بالنسبة إلى الأب، وهؤلاء الأئمَّة هم نجوم الهدى كما قال فيهم الشَّاعر:

هم القوم فاقوا العالمين مآثرا محاسنها تجلى وآياتها تروى

موالاتهم حسنى وحبُّهم هدى وطاعتهم قربى وودهم تقوى

رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

أمُّ خلاد

السُّؤال:

من هي أمُّ خَلَاد الَّتي ذكرت في غزوة أحد؟

الجواب:

أمُّ خَلَاد امرأة من الأنصار، كانت زوجًا لعمرو بن الجموح، وأُمًّا لابنه خَلَاد بن عمرو، وكلُّهم من بني سلمة من الأنصار، وكان عمرو بن الجموح، وأخوه أيمن، وابنه خَلَاد، وأخو زوجته أبو جابر بن عبد الله ممَّن حضروا مع رسول الله ﷺ غزوة أحد فاستشهدوا، فلمَّا نُعِيَ لأمِّ خَلَاد زوجها عمرو، وأخوها أبو جابر، وابنها خَلاد، قالت: ما فعل رسول الله؟ قيل لها: هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه، فلمَّا نظرت إليه قالت: كلُّ مصيبة بعدك جلل، وكلمة «جلل» تطلق على معنيين متضادَّين، تطلق على الهيِّن اليسير، وعلى العظيم الكثير.

أمُّ النَّبيِّ موسى عليه السلام

السُّؤال:

ما اسم أمِّ النَّبيِّ موسى عليه السلام.

الجواب:

لا أدري ما يريد السَّائل من اسم أمِّ النَّبيِّ موسى، القرآن لم يذكر لنا اسمها. ولا ذكرته السُّنَّة في أقوال النَّبيِّ ﷺ، وقالت الكتب الإسرائيليَّة وصدَّقهم بعض الصُّوفيَّة ومؤلفو الكتب الخرافيَّة بأنَّ اسمها «يوخابذ» ولا أعلم هل هذا صحيح أم لا!

ونصيحتي للسَّائل ولغيره أن يسألوا الأسئلة النَّافعة الَّتي تفيد النَّاس في دينهم وفي مجتمعهم.

ذات النِّطاقَيْن

السُّؤال:

لماذا سمِّيَت أسماء بنت أبي بكر بذات النِّطاقين؟ وما هما النِّطاقان؟

الجواب:

سمِّيت أسماءُ بنت أبي بكر بذاتِ النِّطاقين؛ لأنَّها قَطعت حزامها الَّذي كانت تربطه على وسطها، واتَّخذت من نصفه مَزَادة وَضعتْ فيها

الطَّعامَ الَّذي أعدَّته للمهاجِرَيْن وأخذاه معهما، ثمَّ تحزَّمت بالنَّصف الآخر.

وكان العرب يسمُّون الحزامَ: «النِّطاق» فيقولون: «تَنَطَّقَ» أي: شدَّ وَسَطَه، وتَنَطَّقَتِ المرأة: شدَّت وَسَطَها بِنِطَاقها.

وقالوا: «نَطَقَ اللهُ الأرضَ بالجبال» أي: أحَاطها بها.

والرَّسول ﷺ عندما رأى أسماء تبرَّعت بنصفِ نِطَاقها لوضع زاد المسافرين سمَّاها: «ذات النِّطاقين».

الأزواج المطهَّرة

السُّؤال:

قرأت في كتاب الله هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥].

يقول السَّائل: قرأتُها فوقفت عندها أتأمَّل معناها، هل هذه الثَّمرات الَّتي يرزقونها في الجنَّة كانوا قد رُزِقُوهَا في الدُّنيا؟ ومَنْ هُنَّ الأزواج المطهَّرات؟ هل هنَّ زوجاتهم في الدُّنيا أم غيرهنَّ؟ نرجو الإفادة.

الجواب:

البِشَارَة: إِخْبَار بما يَسُرُّ، والله ﷻ أعدَّ لعباده الصَّالحين من الخير

والنِّعمِ ما لا يخطر على بالهم، وأَمَر نبيَّه أن يُبَشِّرَهُم بجنَّات كثيرةٍ فيها ألوان من النَّعيم يستوقف النَّظر، تلك ثمار متشابهة، إذا رزقوا منها خُيِّل إليهم أنَّهم أكلوا مثلها في الدُّنيا، لكنَّها تكون متشابهةً في الشَّكل، مختلفةً في الطُّعوم، متنوِّعة في المَزِيَّة، هي من صنع الباري جلَّ جلالُه، أعدَّها للأبرار المتَّقين في دار الخلودِ في النَّشأة الآخِرَة، وإضافة إلى ذلك أعدَّ لهم أزواجاً مطهَّرةً، مُبَالغٌ في تطهيرهنَّ وتزكيتهنَّ، ليس فيهنَّ ما يُعاب من خَلْق وخُلُق، طهَّرهنَّ الله، ولا مانع أن يَكُنَّ من المؤمنات الصَّالحات من نساء الدُّنيا، أو من الحُوْرِ العِيْن اللَّواتي أعَدَّهن اللهُ لعباده المؤمنين، والجنَّة ونعيمُها من الأمور الغَيْبِيَّة الَّتي يجب علينا أن نؤمن بما أخبرَ به الله تعالى عنها، لا نزيدُ ولا ننقصُ منه، ولا نبحثُ في كيفيَّته، وإنَّما نعرفُ ونُؤمنُ إجمالًا أنَّ أطوارَ الحياةِ الآخرة أعلى وأكمل من أطوار الحياة الدُّنيا. والله أعلم.

تحديد النَّسل

السُّؤال:

هل تحديد النَّسل حلال أم حرام؟ وخاصةً بالنِّسبة إلى ظروف الحياة الغالية، والأجر البسيط - الشَّهريِّ أو اليوميِّ - الَّذي لا يكفي لمصاريف الأسرة.

أرجو أن يكون الرَّدُّ واضحًا بالنَّظر في ديننا الحنيف - دينِ الإسلام - ما رأي علماء المسلمين في هذه المشكلة؟

الجواب:

الله جلَّ جلالُه وَعَد في كتابه العزيز بضمان الرِّزق لكلِّ دابة تمشي على الأرض، والإنسان دابَّة تمشي على الأرض، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هـود: ٦]، ومَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بالله كان اللهُ عند حُسْنِ ظَنِّهِ، ومن سعى متوكِّلًا على اللهِ وَفَّقَهُ اللهُ؛ لأنَّ الله ﷻ قد أوجب على نفسه أن يَخلُقَ الخَلْقَ ويرزقَهُم، ووعدَ - وهو لا يُخلِفُ الميعاد - أن يرزق هذا الحشدَ الهائلَ من المخلوقات، سواءٌ كان هذا المخلوق دابًّا على الأرض، أو سابحًا في البحر، أو طائرًا في الجوِّ، وكلُّهم في محيط الأرض، وأودعَ في هذه الأرض القُدرة على تلبيةِ حاجاتِ هذه المخلوقاتِ جميعها، وأَودعَ هذهِ المخلوقات القُدرة على السَّعيِ للحصول على رزقها من هذا الخيرِ المُوْدَعِ في هذه الأرض، إنَّها صورةٌ لائقةٌ بحكمة الله وقدرته، ولكنَّها في الإنسان غيرَها في الحيوان... الإنسانُ خليفَةُ الله في أرضه، آتاه اللهُ العقلَ، وأودعه القدرةَ على التَّفكير، فالعقلُ يفكِّر، والجسمُ يعملُ؛ فيزرعُ ويَحصُد، ويَصنَعُ ويُنْتِجُ، ويَسعى لتحصيلِ رِزْقِه، ورِزْقُه لا يَخلُقُه خلقًا، إنَّما يُستَخرج ممَّا هو مدَّخرٌ في محيط هذه الأرض، في بَرِّها، وبحرها، وجوِّها، ففي الأرضِ زراعةٌ وبَذْرٌ وإنتاجٌ وحَصَاد، وفي الأرض معادنُ تُستَخرج بالحفر، وفي البحرِ كما في البَرِّ عناصر ومعادن وطاقات، وفي الكونِ قوىً وقدرات أودعها الله إيَّاه، يعملُ الإنسانُ، ويسخِّرُ هذا الكونَ ليأكلَ مِن مُدَّخراته وخيْراتِه ونِعَمِهِ الَّتي أودعها الله فيه للأحياءِ كلِّهم، لاسيَّما الإنسان، فيقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البَقَرَة: ٢٩].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [المُلك: ١٥].

والرِّزق لا يأتي إلَّا بالسَّعي، والسَّماء لا تمطرُ ذهبًا ولا فِضَّةً، والسَّبب لا بدَّ منه، ولكلِّ مخلوقٍ رزقه، وهذا الرِّزق مذخور في الكون، مقدَّر من الله في سنَّته الَّتي ترتِّب النِّتَاجَ على الجُهْدِ، والتَّحصيلَ على السَّعي، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٣].

وقد قلنا: إنَّ السَّماء لا تُمطِرُ ذهبًا ولا فِضَّةً، ولكنَّ السَّماء والأرض مملوءتان بالأرزاق الكافية للمخلوقات جميعها حين تطلُبُها هذه المخلوقات حَسَبَ سُنَّة الله الَّتي لا تُحابي أحدًا، ولا تَتَخَلَّف عن أحدٍ، ولا تَحِيْدُ عن طالبِ رزقٍ، وإنَّما لا بدَّ من العمل لكسب الرِّزق، حتَّى الطَّير يطير لطلب رزقه، وحتَّى الوحش يسعى لكسب رزقه، وقد أخبرنا المصطفى ﷺ عن الطَّير «**تغدو خماصًا وتعود بطانًا**[1]».

بقي علينا أن نجيب على سؤال السَّائل:

مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بالله كان اللهُ عند حُسْنِ ظنِّه، وهذا ما قلناه في أوَّل الجواب، فلا تُسِئِ الظَّنَّ باللهِ، واسْأَلْهُ يُجِبْكَ، واسْتَعِنْ به يُعِنْكَ، فأيُّ ظروفٍ تجعلُك تُسِيْءُ الظَّنَّ بالقضاءِ والقدرِ؟

لقد مرَّت على الماضين أزمان طويلةٌ لم يعرفوا فيها كلمةَ تحديدِ النَّسل، ولم يسمعوا بها، وعاشوا وأنجبوا وكَبُرَ الأولادُ ولم يجوعوا، حتَّى إذا دخل الاستعمار علينا، وفَتَكَ بنا، جاءَ بكلمةِ تحديدِ النَّسل، كلمةٌ لذيذةٌ فيها حاءٌ وسينٌ ونونٌ، والحاءُ والسِّينُ لها صدىً في الأُذُن،

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٠٥).

والنُّونُ لها رنَّة في الصَّوت، وما معنى هاتين الكلمتين: «تحديد النَّسل»؟

معناه: القتل بلا إزهاق نفس، ولكنَّه قتلٌ بتقليلِ عددٍ.

يقول السَّائل في رسالته: أسألُ هذا السُّؤال، ولا أقصدُ منه الدُّولَ ذات الدَّخل الكبير.

وأقول له: إنَّ الدَّخل الكبير اليوم في البلادِ العربيَّةِ كلِّها، لا في دولِ النِّفطِ فقط، ولكنَّ العدوَّ يُرِيْدُ إهلاكنا بتقليل عددنا.

واستعمالُ الحبوبِ المانعةِ للإنجاب ليس حرامًا في ذاته، ولكن ما حكم استعمالها؟ ولمن يباح استعمالها؟

الجواب:

قالَ كثيرٌ من العلماءِ: استعمال هذه الحبوبِ المانعةِ للحمل يُبَاحُ للمُرضِعِ في سَنَتَي الرَّضاع، ويُبَاحُ للمريضة الَّتي تخشى تزايدَ المرض مع الحملِ، ويُبَاحُ للضَّعيفةِ الَّتي قرَّر الأطِبَّاء أنَّ حملَها يَزِيدُها ضَعفًا، ويُبَاحُ للمريضةِ مرضًا مُزْمنًا[1].

أمَّا أن تستعملَ المرأةُ الحبوبَ خوفًا من لُقْمَةٍ، أو خوفًا من إيجارِ مسكن! فأظنُّ أنَّ هذا سوء ظنٍّ باللهِ، وَمَنْ سَاءَ ظنُّه باللهِ فقد كَفَرَ.

وأختم إجابتي هذه بأنَّها ليست لعليٍّ أحمد فقط، ولكنَّها لعشراتِ الرَّسائل الَّتي جاءتني تتضمَّن السُّؤال عن هذا الموضوع، ولا حاجة بي ولا بكم إلى ذكرِ الأسماءِ.

---

(١) أزمن الشيء: أتى عليه الزَّمان وطال، فهو مزمن. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٣٥/ ١٥٣).

وأرجو مِنَ المشاهدينَ والمشاهداتِ، والمستمعينَ والمستمعاتِ أن يَعُدُّوا جوابي هذا للجميع. والله وليُّ التَّوفيق.

رعاية الصِّغار

السُّؤال:

سمعت في الإذاعة سؤالًا من الفتاة الَّتي تقول: إنَّ أمَّها قاسية عليها، وتقول لها: إنَّها قبيحة، وإنَّني ألوم هذه الفتاة الَّتي تقول: إنَّها تتعذَّب لقبحها، لأنَّ في كلامها هذا اعتراضًا على خالقها، الَّذي أراد لها ذلك، وخلقها على هذه الصُّورة فما رأيكم؟

الجواب:

أقول لبنتنا المُعترضة: إنَّ تلك الفتاة شكرت الله تعالى على السَّرَّاء والضَّراء، ولكنَّها كانت تعترض على أمِّها الَّتي آلمتها بهذا الوصف حتَّى عقَّدتها، وترجو من الأمَّهات - كلِّ الأمَّهات - ومن كلِّ النِّسوة المسؤولات عن تربية الصِّغار ألَّا يُعَقِّدُوا الصِّغار بالوصف الشَّائن.

فلا تَقُلِ الأمُّ لبنتها: يا قبيحة، أو يا قذرة، ولا يَقُلِ الوالد لولده: يا بليد، أو يا أبله، ولا يَقُلِ المُدرِّس لتلميذه كلمةً تُضْحِكُ التَّلاميذ منه، بل إنَّه على المسؤول عنه أن يرفع من مكانته في نفسه.

وقد شَرَحْتُ رسالةَ الفتاةِ شرحًا وافيًا للسَّامعين في الإذاعة يومئذٍ، وها أنا وقد وصلتني رسالتك أعود فأقول: يا أيُّها المسؤولون اتَّقوا اللهَ في رعاية من أنتم مسؤولون عنهم، فإنَّ صغار اليومِ كبارَ المستقبل، وإنَّ

أطفالَ اليومِ بناةُ الغدِ، فيا أيُّها المسؤولون عن تربية الأطفال؛ ربُّوا بَنِيْكُم، وعلِّموهم، وهذِّبوا فِتْيَانكُم.

صوت المرأة

السُّؤال:

قيل إنَّ صوت المرأة عورة، وأظنُّ أنَّ الواقع خلاف ذلك، بدليل أنَّ القرآنَ أمرَ نساءَ النَّبيِّ ألَّا يخضعن بالقول مع الغرباء، ولم يَنْهَهُنَّ عن الكلامِ معهم، كما أنَّ كثيرًا من النِّساء كُنَّ يَسألنَ النَّبيَّ عن أمور الدِّين.

ثمَّ تسألُ عن الاختلاط في الجامعات والمدارس، وهل هو مباح أم محرَّم؟ وتقول: نحن نعرف أنَّ العيبَ في الاختلاط هو عدم تقيُّد البناتِ باللِّباسِ الشَّرعيِّ، وقد عرفنا أنَّ نساء السَّلفِ الصَّالحِ كُنَّ يَدْخُلْنَ الأسواقَ، ويتاجرنَ جَنْبًا إلى جَنْبٍ مع الرِّجالِ، فما حكم الإسلام في الاختلاط؟

الجواب:

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقال أيضًا عن نساء النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وصوت المرأةِ ليس عورةً إلَّا إذا كان في أغانٍ خليعةٍ ومثيرةٍ ومائعةٍ.

وعندما هاجرَ النَّبيُّ ﷺ إلى المدينةِ استقبله ولائدُ الأنصار وهُنَّ يغنِّينَ أغنيتَهُنَّ المشهورة: «طَلَعَ البدرُ علينا من ثَنِيَّات الوداع»، وفي السُّنن الشَّريفة أنَّه ﷺ أمرَ بعضَ الولائدَ أن يُغَنِّيْنَ في عُرسِ إحدى فتياتِ الأنصارِ: «أتيناكم أتيناكم.. فحيانا وحياكم[١]»، وأنَّه ﷺ كانَ يجلسُ في مسجده الشَّريف ويستقبل أسئلةَ الرِّجالِ والنِّساء، وأنَّه جلسَ يومًا يحذِّرُ الرِّجال والنِّساء أن يتحدَّثوا عمَّا يجري بين الرَّجل والمرأة في خلوَتِهِمَا[٢]، فقالت إحدى النِّساء: بلى يا رسول الله، إنَّهم يفعلون، وإنَّهنَّ يفعلن.

ولو كانَ صوتُ المرأةِ عورةً لما كان هذا ولا ذاك، علمًا أنَّنا قرأنا أنَّ بعضَ النِّساء كُنَّ يَحضرنَ الحروبَ والغزواتِ ويسقينَ الماءَ ويُسعِفْنَ الجرحى، ولو كان ذلك حرامًا لما فَعلَتْه نساءُ الصَّدرِ الأوَّل للإسلام، لكنَّ هذه المرأة الَّتي كانت تحضر الاجتماعاتِ النَّبويَّة العلميَّة، والاجتماعاتِ الأخرى، كانت تحضرُ وهي محتشمة في لباسِها وكلامِها وجوابِها وسؤالِه،لم تخلعْ حجابَها، ولا فَعَلتْ في نفسِها ما يَلْفِتُ الأنظار إليها ويجعلها وسيلةً لإغراء أحدٍ.

والإسلام نهى عن الخَلْوَةِ بين أنثى وذكر مُنْفَرِدَيْنِ في مكانٍ واحد، فقال ما معناه: «ما خلا رجل بامرأة إلَّا كان الشيطان ثالثهما»[٣].

والإسلامُ أمرَ أن يفرَّق بين المراهقين في المضاجع، فقال ﷺ: «**مروا**

---

(١) رواه أحمد، رقم: (١٦٧١٢).

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٤٣٧)، بلفظ: «**إنَّ من أشرِّ النَّاس عند الله منزلةً يوم القيامة، الرَّجُل يُفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**».

(٣) رواه أحمد، رقم: (١١٤).

أولادكم بالصَّلاة إذا بلغوا سبعًا، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرًا، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»[١].

أرجو أن يكون في جوابي هذا ما يفيد.

الجنُّ والأسياد

السُّؤال:

تزوَّجتُ منذ خمسِ سنوات، ورُزِقتُ طفلًا ماتَ بعد أيَّام من ولادته، ثمَّ توقَّفت زوجتي عن الإنجاب، وفَزِعَت إلى الأطبَّاء فلم يجدوا علَّةً تمنعُها من الولادة، ثمَّ عَرضْتُ نفسي عليهم فقالوا: إنَّك رجلٌ طبيعيٌّ. ولكنَّ الغريقَ يتعلَّق بالقشَّة! قال لي بعضُ الأصدقاء: لو عَرَضْتَها على الأسيادِ، فقالوا: إنَّ عندها عارضًا من الجنِّ هو الَّذي أوقفها عن الحمل، وكانَتْ تَشْعُرُ بضيقٍ، وقد تَغِيْبُ في إغماءةٍ خفيفةٍ أحيانًا، فقالوا: إنَّها صَرْعَةٌ[٢]، وعالجوها ولكنَّ العلاج لم يُفِدْ، ثمَّ صارَتْ تَحْلُمُ بكلابٍ تُطَارِدُها وتهاجمُها، وفي يوم من الأيَّام رأتْ في الحُلُم والدتي ومعها ذبيحةٌ تقول: هذه لزوجة محمَّد، ولمَّا قَصَّت عليَّ الحُلُمَ أَحضَرتُ الذَّبيحَة وذَبَحْتُها، فامتنعَتْ عنها تلكَ الأحلامُ السَّيِّئة، وشُفيَتْ من بعض ما كانت تُعانيه من إغماء.

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٤٩٥)، وأحمد، رقم: (٦٦٨٩).

(٢) الصَّرع: الطرح على الأرض، والصَّرْعة: حالة المطروح. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٢١/ ٣٢٩).

أسألك:

١- عن عملِ هؤلاء الَّذين يُسمُّون أنفسَهُم أسيادًا، وهل نُسلِّمُ أنفسنا لهم؟

٢- عن الأحلامِ المزعجة؟

٣- عن الذَّبيحةِ الَّتي ذبحتُها؟

الجواب:

قبل أن أُجِيْبَ على رسالةِ السَّائل أحبُّ أن يعلم القارئ أنَّ رسالةً جاءتني من أحد القُرَّاء الكرامِ يردُّ فيها عليَّ بعدَ أنْ سَمِعَ في حلقةٍ من حلقاتِ الإذاعةِ إنكاري دخولَ الجنِّ في الإنسان، ويذكرُ أدلَّةً آخرها أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّه أن يستعيذَ بالمعوَّذتَيْن رُقيةً من الجنِّ، والمعوَّذتان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١-٢] ومِنْ خَلْقِهِ: الجنُّ والإنسُ، والسِّباعُ والكلابُ والحشراتُ، والأمراضُ، والأخلاقُ السَّيِّئة، ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: ٣] والغَاسِقُ: اللَّيل المظلمُ، والأشرارُ مِنْ كلِّ المخلوقات لا تخرجُ ولا تتسلَّط إلَّا باللَّيل، حتَّى أشرارُ البشر، والنَّفَّاثاتُ في العُقَد هم: النَّمَّامُونَ، والفتَّانون، والدَّسَّاسون، والفاسقون، والمفرِّقون بين الزَّوجين، والأخ وأخيه، والأب وولده، والشَّريْكَيْنِ، وكلُّهم نفَّاثون في العُقَد، والحاسدُ لا يرى محسودَه إلَّا بعينٍ حاقِدةٍ وقلبٍ يتمنَّى له الشَّرَّ.

وسورة النَّاس نعوذ بالله فيها ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٤-٦] وفي النَّاس وَسْوَاسٌ يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسانِ حلاوةً، يُعجِبُكَ قولُه في الحياةِ الدُّنيا، ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قلبِه أنَّه المخلصُ المحبُّ المُدافِع،

يَفْديكَ بالنَّفسِ والمالِ والولدِ، وهو ألدُّ الخِصَامِ، والشَّيطانُ وَسْوَاسٌ، وَسْوَسَتُهُ تجري في ابن آدم مجرى الدَّمِ في عروقه، أمَّا أنَّه يدخل في الإنسان، أو يتلبَّس به، أو أنَّ إنسانًا يتزوَّج جنًّا، أو أنَّ جنًّا يتزوَّج إنسانًا، أو أنَّ إنسانًا رأى بعينه الباصرة جنِّيًّا فلا أؤمن بذلك أبدًا؛ لأنِّي مسلمٌ أؤمنُ بأنَّ القرآن كتاب الله العزيز لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وليسَ من المعقولِ، ولا من الحقِّ أن أصدِّقَ قول فلانٍ وفلانٍ وأُعْرِضَ عن آياتِ اللهِ في كتابه.، فالقرآنُ قال ما معناه عن خلق العالَمَيْنِ: خُلِقَ الإنسانُ من طِيْنٍ، وخُلِقَ الجانُّ من نارٍ، ولا يجتمعُ طينٌ ونارٌ، وأقول للأستاذ القارئ المحترم: إنَّ الطِّيْنَ في الإنسان استحالَ لحمًا ودَمًا، واللَّحمُ والدَّمُ أسرعُ احتراقًا بالنَّار من الطِّيْن.

أمَّا قولُ هذا وذاك: إنَّ فلانًا دخله جِنِّيٌ، أو تلبَّسَهُ جِنِّيٌ، أو تزوَّجَ جِنِّيَّةً، أو تزوَّجتْ جِنِّيًّا... فَلا.

وأمَّا قولُ هذا وذاك: إنَّه رأى جنِّيًّا، أو استخدَمَ جنِّيًّا، فأقول له: كَذَبْتَ على اللهِ أصدقِ القائلينَ، الَّذي يقول عن الجنِّ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، كما كَذَب من يدَّعي أنَّه سخَّر الجنَّ واستخدمهم، لأنَّه لا سلطان لنا عليهم، وإنَّما كانت هذه السُّلْطَةُ معجزةً لنبيٍّ واحدٍ هو: سيِّدنا سليمان فقط دونَ غيرِه، ومحمَّدٌ ﷺ خيرُ النَّاس، وأتقى النَّاس، وأحبُّ النَّاس إلى الله لم يرَ[1] الجنَّ، وإنَّما أوحيَ إليه أنَّهم استمعوه، وأُخبِرَ بذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ... ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وأَمِرَ اللهُ رسولَه عليه السلام أن

(١) رؤية الجن ممكنة شرعاً وعقلاً، ثبت ذلك بالأدلة الصحيحة الصريحة سواء من رؤية رسول الله لهم أو من رؤية بعض الصحابة لهم. (المعلق).

يخبرَ أُمَّتَه بذلك فقال له: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجنّ: ١].

ويقول الأخ القارئ: إنَّه سمعَ عمَّن صُرِعَ أو دَخَلَهُ جِنِّيٌ، ثمَّ جِيْء له بشيخٍ أو وَلِيٍّ ليخرجَ الجِنِّيَّ أو يحرِقَه، وأقولُ له: كيفَ يُخرجُهُ؟ وكيفَ يَحرقُه وهو نارٌ تَحرِق؟ ولقد سمعتُ كثيرًا من هذا وذاك في بلاد كثيرة، وكنتُ أُصدِّق، ولكنَّ العقلَ كذَّب، ولا دليلَ أفضلُ من العقلِ؛ لأنَّ الطِّبَّ أكَّد أنَّ هذا الصَّرَعَ، أو هذا الخَلل، هو مرضٌ جَاءَ من تَوتُّرِ أعصابٍ أو إرهاقٍ أو ارتفاعِ ضغطٍ أو هبوطِ ضغطٍ، والأدواءُ كثيرةٌ، ولكلِّ داءٍ دواءٌ إلَّا الهَرَمُ والموتُ والحماقةُ.

بقي عليَّ أن أردَّ على الأخِ السَّائل فأقول له جوابًا على أسئلته:

١- إنَّ من سمُّوا أنفسَهُم: الأسياد، ما كانوا طول حياتهم أسيادًا، وإنَّما هُم دجَّالون، والدَّجَّال معناه الكذَّاب، وكلُّهم متلبِّسون بالحرامِ ومجرمون، يذبحونَ ذبائحَهم على اسمِ غيرِ اسمِ اللهِ، ويلطِّخونَ مرضاهُم بالدَّم أو بالنَّجَسِ، ويأكلونَ أموالَ النَّاسِ بالباطلِ، ولهم مع زبائنهم فضائحُ يَنْدَى لها الجبينُ.

٢- الأحلامُ مرضٌ عصبيٌّ، ولعلَّ زوجتَكَ تألَّمت كثيرًا من عدم الحمل، وتراكَ - وأنتَ تحبُّها - متألِّمًا أيضًا، ورُبَّما كانَت تَخَافُ عليكَ أن تتزوَّج، فكانت هذه الوَساوِسُ تزعِجُها، فتَظهرُ عليها آثارُها في اللَّيل، والكتمانُ عندَ بعضِ النَّاس داءٌ لا تظهرُ أعراضُه إلَّا عندَ النَّوم.

٣- أمَّا الذَّبيحةُ فإنَّها صَدَقة، وفي الصَّدقة دواءٌ كما أخبرنا الصَّادقُ الأمينُ ﷺ حين قال لنا: «**داووا مرضاكم بالصَّدقة**»[1].

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (١٥٧٥٩).

وأنا أؤمن أنَّ في الصَّدقةِ شفاءً، وهي في كفِّ المحتاجِ إليها أنفعُ، والصَّدقةُ رحمةٌ، والرَّاحمونَ يرحمُهُم الرَّحمن، وأومنُ أيضًا بالدِّعاء، وعلِّم زوجَتَك هذا الدُّعاء فلْتُعالِج به نفسها بقراءته صباحَ ومساءَ كلِّ يوم: «اللَّهمَّ ربَّ النَّاس أذهب البأس، اشفِ أنت الشَّافي، ولا شفاء إلَّا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا ولا ألمًا»[١].

واعلم أنَّ الأولاد هبةُ الله، واللهُ وحده هو الَّذي يهبُ لمن يشاءُ إناثًا، ويهبُ لمن يشاءُ ذكورًا، أو يزوِّجُهم ذُكْرَانًا وإناثًا ويجعلُ من يشاءُ عقيمًا، ومادُمتُمَا سَليمَيْنِ مُؤْمِنَيْنِ، فاسألا اللهَ مِن فَضلِه، فهوَ القائلُ جلَّ شأنُه: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

أطيعي الله في لباسك

السُّؤال:

رأيت إحدى زميلاتي تلبس ثوبًا فضفاضًا كالعباءةِ، غطَّى جسمَها كلَّه ولم يَظْهَر منه سوى كفَّيها، فسألتها عنه فقالت: إنَّه الثَّوب المريحُ الَّذي أرتاحُ له؛ لأنَّه لا يقيِّدُ حركتي، والحقُّ أنَّني جرَّبتُه فوجدتُه كما قالت لأنَّه واسع كالعباءة، لكنِّي أخشى إذا لبستُه أن أكونَ موضعَ انتقادِ زميلاتي الطَّالبات.

والرَّسول ﷺ قال: «**رحم الله امرأ جبَّ الغيبة عن نفسه**»[٢] فما رأيكم؟

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٦٧٥)، ومسلم، رقم: (٢١٩١).
(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٣٦٧).

الجواب:

أجيبُ أوَّلًا على الحديث؛ معناه: أن يتجنَّب الإنسانُ فعلَ ما يخالفُ عادةَ المجتمعِ أو الدِّين فيُنتَقَدُ بذلك، كمن تضعُ السَّاعة في يمناها، أو تضعُ الحُليَّ على رأسها.

أمَّا مسألةُ اللِّباس؛ فالنَّاس كلُّهم يعلمون أنَّ الدِّين أمرَ المرأةَ بلبس الجِلْبَاب، والجِلْبَابُ هو الثَّوب الواسع ذو الأكمام الطَّويلةِ الَّذي لا يصفُ جسمَ المرأة، ولا يَشِفُّ ما تحته، فإذا لبسته من تريدُ طاعةَ اللهِ فلن ينتقدها أحدٌ، لأنَّ مَنْ يَنْتَقِدْهَا سيُنْتَقَدُ.

وأنت يا بنتي: أطيعي ربَّك القائلَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩] وأسأل اللهَ الهدايةَ لكِ ولجميعِ مَن يطلبها.

السُّخْرَة

السُّؤال:

أسمعُ من كثير مِن النِّسوة أنَّها عندما تتزوَّج بنتُها تذهب إلى ما يُسمَّى مُطَوِّع؛ ليعملَ لها ما يُسمَّى بـ«السُّخرة» فالمرجوُّ إجابتي، هل هذا العمل حرامٌ أم حلال؟ وهل هو حقيقة كما يظنُّه بعض النَّاس في تسخير الزَّوجِ وطاعته لزوجته؟

الجواب:

الرَّسول ﷺ أخبرنا أنَّ «**من اعتمد على شيءٍ وُكِلَ إليه**»(١)، وهذهِ الأشياءُ الَّتي يعملُها النَّاس دونَ اللهِ يُوكَلُونَ إليها، وكلُّ شيءٍ غيرُ اللهِ ضعيفٌ، هؤلاءِ الَّذين تأتي لهم النِّساء، ويطلبنَ منهم عمل السُّخرة كلُّهم فَسَقَةٌ دَجَاجِلَة وكَذَبَةٌ، أو ما يسمُّونهم: الكُهَّان.

وفي الحديث «**من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمَّد**»(٢).

لهذا أنصحُ وأؤكِّدُ في النُّصح على أنَّ الاعتماد على هؤلاءِ الدَّجاجلةِ يزيدُ الطِّين بِلَّةً.

والمرأةُ هي المرأةُ رقَّةً ولُطفًا ورعايةً، تستطيع بما فُطِرَت عليه أن تَخْلُق الأُلْفَة، كما تستطيع أن تَخلُقَ الشِّقَاق، والرَّجلُ مفطورٌ على سماعِ الكلمةِ الطَّيِّبةِ والذِّلَّة لها.

فَرِقِّي يا بنتي له تملكي قلبَه، وإنْ قاومتِ قوَّته وإرادتَه فلن تكسبي سوى الخسارة والنُّفور، والسُّخرةُ لا تعملُ شيئًا، لأنَّ من اعتمد على اللهِ كفاهُ اللهُ، ومن اعتمدَ على الشَّيطانِ خابَ.

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٠٧٢)، وأحمد، رقم: (١٨٧٨١)، بلفظ: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**».

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٣٩٠٤)، وأحمد، رقم: (٩٥٣٦).

احتشامُ المرأة في لباسها

السُّؤال:

الدِّين الإسلاميُّ يأمرُ المرأةَ أن تكونَ محتشِمةً في لباسها، تُدني عليها من جِلبَابِها، والجِلبَابُ معناه: الثَّوبُ الواسعُ الفضفاض، وأنْ تضربَ بِخمَارِها على صَدرها، وقد رأينا في برنامج: «أختي المؤمنة» خلافَ ما يأمرنا به الإسلام، الفستانُ فستانٌ وليسَ بجلبابٍ، مُزَيَّن بوردة ذاتِ لونٍ مخالف، وغطاءُ الرَّأس مطرَّزٌ بتطريزٍ يَلفتُ النَّظرَ، فهل هذا من ديننا الحنيف؟ أرجو تنويرنا وتوجيهنا.

الجواب:

قالت لي إحدى بناتي عن ذلك البرنامج، ووصفَت لي ما شاهدته من نصحِ مقدِّمَتِه، وقالت: إنَّ وضعَ الخمارِ وضعٌ يَلفِتُ النَّظرَ، وما هو بخمار، وإنَّما كانَ شبهَ قُبَّعة أو عمامة مقنَّعة، وإنَّ الثَّوب كان ضيِّقًا يصفُ جسمَ المرأة؛ صدرَها وخصرَها وظهرَها، لا يُخفِي من مفاتنها شيئًا لأنَّه لاصق ببدنها، قالت لي بنتي ذلك، والإسلامُ أخبرنا أنَّ جسمَ المرأةِ كلَّه عورةٌ، وأحبُّ أن يعرف المشاهدون معنى العورة في لغتنا العربية: العورةُ جاءت من كلمة عَار، وهو العَيْبُ، ومنها كلمةُ أعور: معناها: مَعِيْبِ إحدى العينين، وبيتُ فلانٍ فيه عارٌ، والشَّاعرُ عَيَّرَ فلانًا؛ أي: عَابَهُ، إذًا: فجسمُ المرأةِ كلُّه عارٌ أو عورة، رقبتُها وصدرُها وساقُها، يجب أن يُغطَّى سَترًا لهذا العار، أو احترامًا له أن يُكشَفَ أمامَ الأعينِ حتَّى لا يُبتَذَل، والإسلامُ غيورٌ على العورات أن تُبتَذل، حريصٌ عليها أن تُكشف، لهذا

أمر الله إماءَه المؤمناتِ أن يَغْضُضْنَ من أبصارِهِنَّ، ويَحْفَظنَ فُرُوْجَهُنَّ، ولا يُبْدِيْنَ زينَتَهُنَّ إلَّا ما ظهر منها، وأن يضربنَ بِخُمُرِهِنَّ على جيوبِهِنَّ، ولا يُبْدِيْنَ زينَتَهُنَّ إلَّا لذوي محارمِهِنَّ، وأن يُدْنِيْنَ عليهنَّ من جَلابيبِهِنَّ، والجِلبابُ: ثوبٌ طويلٌ واسعٌ ليس بشفَّاف يشفُّ عمَّا يَستُر، ولا بضيِّق يصفُ أو يُظهِرُ أوصافَ ما يُغطِّي، فيصوِّرُ جسمَ المرأةِ وكأنَّها عاريةٌ، شفًّا أو وصفًا، وهذا هو اللِّباسُ الشَّرعيُّ للمرأة، وكذلك الألوان، ألوانُ الثَّوبِ الصَّارخة الَّتي تذهبُ بحرمةِ لابسةِ الثَّوبِ أو بحشمتها.

أيُّها الإخوةُ والأخوات: الإسلام سمَّى زوجة الرَّجل وبنته وأمَّه وأختَه، وكلَّ أنثى في بيته: حَرَمَ الرَّجل، وسمَّى الزَّوجة حُرْمَة. والحُرْمُة: كلمةٌ اشتُقَّت من الحَرَم، والحَرَمُ نعرفه بأنَّه المكان المُحترم، ومن هذه الكلمةِ سُمِّي المسجدُ الحرامُ حرمًا، وسُمِّي المسجدُ النَّبويُّ حرمًا، وقلنا: حرمُ المسجدِ، والحَرَمُ يجب أن يكون مُحترمًا، فلا يدنَّس ولا يُهان.

والمرأةُ المُسلمةُ حَرَمٌ، وهيَ حُرْمَةٌ، وكلُّها حُرْمَة، هكذا أرادَ لها دينُها أن تكون، أرادها أن تكون مَصُونةً من كلِّ إهانةٍ، ومطهَّرةً من كلِّ دنيْئَةٍ، ومحفوظةً من كلِّ عيبٍ، مُحْتَرَمَةً كاسمها: «حُرْمَة».

نصيب النِّساء من التَّجلِّي

السُّؤال:

قرأتُ في كتابٍ أنَّ هناك يومًا معيَّنًا في الجنَّة يتفضَّلُ اللهُ فيهِ على أهلِ

الجنَّة فيتجلَّى لهم، فهل للنِّساء نصيبٌ من هذا التَّجلِّي؟ أم هو خاصٌّ بالرِّجال؟

الجواب:

الإسلامُ لم يخصِّصِ الرِّجال بشيءٍ دونَ النِّساء، بلِ الكلُّ مكلَّفٌ، والكلُّ في الحديث سواءٌ، والإسلامُ إذا خاطبَ البشر قال: «يا أيُّها النَّاس» والنَّاس هم: رجالٌ ونساءٌ، وإذا خاطب المؤمنين قال: «يا أيُّها الَّذين آمنوا» والَّذين آمنوا: رجالٌ ونساءٌ، أمَّا إذا خاطبَ النِّساء وحدَهُنَّ خاطبَهُنَّ بـ«اللَّائي أو اللَّاتي» فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ [الطّلَاق: ٤]، ولا يحيضُ إلَّا النِّساء.

وفي آية أخرى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، ولا تَنْشُزُ إلَّا الزَّوجة، والزَّوجة من النِّساء.

وكذلك قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ [النُّور: ٦٠]، وهؤلاء أيضًا من النِّساء.

فاطمئنِّي أيَّتها الأختُ بالًا، إنَّ الصَّالح من رجالِ المؤمنين ونسائهم سيظفرونَ بهذهِ النِّعمةِ في جنَّة الخُلدِ إن شاء الله تعالى.

أمَّا كون الرُّؤيةِ يومَ الجمعةِ فليسَ في الجنَّة أسماء للأيَّام؛ لأنَّ الزَّمن في الجنَّة لا يقاسُ بيومٍ ولا سنة، والزَّمن بعدَ الحسابِ خلودٌ في الجنَّة أو خلودٌ في النَّار إلَّا ما شاء الله.

العِدَّة وعقدةُ النِّكاح

السُّؤال:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥] ما معنى هذه الجملة من الآية الكريمة؟ (٢٣٥) سورة البقرة.

الجواب:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤-٢٣٥].

وتفسيره: أنَّ من مات زوجُها تَعْتَدُّ وهو معنى «تتربَّص» وقت العِدَّة (٤) أشهرٍ و(١٠) أيَّام، فإذا انتهت العِدَّةُ فلا مانعَ من أن تَسمَعَ كلامَ الخُطَّابِ بالمعروف لا بالتَّبذُّلِ.

وكذلك الرِّجالُ لا يتعرَّضون لمن كانت في العِدَّة بخطبةٍ أو تعريضٍ، ولكن لا مانع من التَّلميحِ في أنَّ فلانةً كانت نِعْمَ الزَّوجة، أو أنَّ المرحومَ فلانٌ كانَ سعيدًا في بيته مع زوجته فُلانة، أو أن يُخفِي في نفسه أنَّه متى انتهت عِدَّتُها فسيتزوَّجُها، ولكن لا تعزموا عُقدَةَ النِّكاحِ حتَّى يبلغَ أجلَه،

وعُقدة النِّكاح هو ما نسمِّيهِ الآن: المِلكَة أو كَتْبُ الكِتَاب.

فلا يجوزُ عقدُ نكاحٍ على امرأةٍ في العِدَّةِ، سواءٌ أكانت العِدَّة لوفاةٍ أو طلاقٍ، وهو عقدٌ باطلٌ، والنِّكاحُ فاسدٌ حتَّى يبلغَ الكتابُ أجلَه، يعني حتَّى تنتهي العِدَّة؛ ثلاثةَ قروءٍ للمُطَلَّقة، وأربعةَ أشهرٍ وعشرةَ أيَّام للمُتَوفَّى عنها زوجُها.

ثمَّ يأتي التَّحذير من تعدِّي الحدودِ وارتكابِ المعصيةِ، والتَّحذير من أنَّ الله يعلمُ ما خفيَ، فلْيَحذَرِ الإنسان من غضبِ اللهِ العَالِمِ بما خفيَ كَعِلْمِهِ بما ظهرَ، فسبحانَهُ لا تخفى عليه خافيةٌ، يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخْفِي الصُّدور.

معنى القَوَامَة

السُّؤال:

قرأت قول الله تعالى في سورة النِّساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٩].

وإنَّ أختي تزوَّجت رجلًا قاسيًا ظالمًا، يضربها لأقلَّ غلطةٍ حتَّى كَرِهَتْهُ، وطَلَبَتْ منهُ الطَّلاقَ، أبي يقول: إنَّ طلبَها الطَّلاقَ حرامٌ، وأنا أقول: لا؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٣٠] فما قولك؟ وهل يحلُّ للزَّوج أن يضربَ زوجَتَه؟

الجواب:

الزَّواجُ شَرِكَةُ حياةٍ، أحدُ الشَّريكين فيها: الزَّوجة، والزَّوجة ستكون غدًا أمًّا ومربِّية لأولادِ الزَّوجِ، فإن كانت الزَّوجةُ ذليلةً ذلُّوا، وإن كانت عزيزةً عزُّوا، والذَّليلةُ لا تستطيعُ أن تربِّيَ ابنها على العزِّ والكرامة؛ لأنَّها ذليلة.

والإسلامُ نهانا عن إهانة الزَّوجة، بل أمَرَنا أن ننصحها أوَّلًا، ثمَّ نهجُرُها في المبيتِ ثانيًا، والنَّصيحةُ توجيهٌ بتكريمٍ، والهجرانُ في المبيتِ لا يعلمُ أمرَه إلَّا الله.

والله ﷻ حثَّنا على إكرامِ الزَّوجةِ، ففي البدايةِ بُنِيَ عَقْدُ الزَّواجِ على ما في كتابِ اللهِ وسنَّة رسوله؛ إمساكٌ بمعروفٍ، أو تسريحٌ بإحسانٍ، وليس في المعروفِ إهانةٌ، أو ضربٌ أو إذلالٌ.

وفي زمنِ قيامِ الزَّوجيَّةِ أمرَنا أن نُعاشرهنَّ بالمعروفِ، والمعروفُ كما نعرفُه: إحسانٌ بلا إذلالٍ، وتفاهمٌ بلا غَطْرَسةٍ، ولا ضرب، ولا غِلْظَة، ولا قَسْوة.

وآسَفُ أن أقولَ: إنِّي سمعتُ مرَّةً مِنْ مُحَامٍ وَقَفَ أمَامَ القَضاءِ يقولُ للقاضي: إنَّ اللهَ جعلَ الرَّجلَ قوَّامًا على امرأته، فهو عليها مُتَسَلِّط. هكذا قال!

ولقد خجلتُ أن يقولها مُحَامٍ يحملُ شهادةَ كُلِّيَةِ الحُقوق أو الشَّريعة، وإنِّي أقول له ولغيره: اقرؤوا الآيةَ الكريمةَ كاملةً: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟﴾ [النساء: ٣٤] فأنتَ قوَّامٌ حقيقةً، لكن بالمعروفِ والإحسانِ؛ أنتَ قوَّامٌ نفقةً ورعايةً وحفظًا

ونصيحةً، لا قوَّامٌ دكتاتوريَّةً وتسلُّطًا وإهانةً وإذلالًا وإساءةً.

زوجتُك شريكةُ حياتك، وللشَّرِيْكِ من شريكه الاحترام والتَّفاهم، وفي الزَّواجِ سَكَنٌ، والسَّكَنُ لا يكون فيه تعذيبٌ، الزَّوجُ يَسْكُنُ إلى زوجته، ومعنى يَسْكُن: يرتاح؛ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٢١] السَّكَنُ معناهُ: الرَّاحةُ بعد التَّعبِ، فكيفَ ترتاحُ أيُّها الرَّجلُ المُتَسَلِّطُ مع من تَضْرِبُهَا وتُذِلُّها؟ كيف ترتاحُ إلى ذليلةٍ تسلَّطْتَ عليها، وأهنتها بالضَّرب أو بغير الضَّرب، أو حتَّى بالكلمة النَّابية!؟

السَّكنُ لا يكونُ إلَّا عندَ تلك الَّتي أكرَمتَهَا، لتُقبِلَ عليكَ بالوجهِ الباسمِ، تمسحُ عنكَ باليدِ الرَّحيمةِ عَرَقَ الجَبِيْنِ، وتُهَيِّئ لكَ بالنَّفسِ الطَّيِّبة طعامكَ وشرابكَ، تحنُو عليكَ إذا اضْطَجَعْتَ، وتُمَرِّضُك إذا مَرِضْتَ، وتضحكُ لابتسامتكَ، وتتألَّمُ لآلامِكَ، وتَستَأنِسُ بأحاديثك، تُهوِّنُ عليكَ التَّعبَ، وتُخَفِّفُ عنك الأذى، وتقول لك: «لا تعبت» إذا رجعتَ إليها من عملك، وتقول لك: «خَطَّاكَ الشَّرُّ» إذا أخبرتها بمكروهٍ عَرَضَ لك، وتَشكُرُكَ إذا أعطَيْتَ، وتَعذُرُكَ إذا أَعْسَرْتَ، ولا تُضَايِقُك فيما تَكْرَهُ.

هذه هي الزَّوجةُ الَّتي يَسْكُنُ إليها الزَّوجُ، وهيَ الَّتي وَفَى لها الزَّوجُ بما عَاقَدَ عليه وليَّ أمرها حين قال له: «قَبِلْتُ منكَ زواجَ مُوَلِّيَتَكَ فلانة على ما في كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسوله؛ إمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسانٍ».

حَرْثٌ لكم

السُّؤال:

أقرأ في القرآن قول الله تعالى في الآية (٢٢٣) من سورة البقرة: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣] ما معنى قوله: «حرثٌ لكم» وقوله: «أنَّى شئتم»؟ وهل الانحرافُ في معاشرةِ الزَّوجة يُحَرِّمها على الزَّوج؟

الجواب:

قلتُ مرَّاتٍ عديدةً للمُشاهدين والمستمعين: على السَّائلِ عندما يَسألُ عن آيةٍ من كتاب الله أن يقرأَ ما قبلَ الآيةِ وما بعدها، لعلَّ بينَ الآيةِ الَّتي يسألُ عنها، وبين ما قبلها أو ما بعدها صِلَة.

والآية هذه متعلِّقة بالآية الَّتي قبلها، حيثُ يقولُ اللهُ ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢] ثمَّ يقولُ جلَّ شأنُه بعد ذلك: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣].

وقد كانت بعضُ الشَّرائعِ السَّماويَّة قبل الإسلامِ تُوجِبُ اعتزالَ الحائضِ في الأكلِ والشُّربِ والنَّومِ وحتَّى اللَّمس، وكان بعضها لا يُبَالي بِمُعَاشَرَتِهَا، فلمَّا سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عن ذلك أفادَ جوابُه لأمَّته: أنَّ الإسلامَ وسطٌ، وأنَّ المرأةَ بَشَرٌ، وأنَّ الحيضَ أذىً في مَكَانٍ مَعْلُومٍ، وقال

للسَّائل: «**لك ما فوق الإزار**[١]» ولا تقربوا النِّساء حتى يَطْهرن، وزوجة الرَّجلِ حِلٌّ لهُ أبدًا إلَّا مَكَانَ المَحِيضِ وقتَ الحيضِ. لقول الله ﷻ: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِۖ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢].

فحدَّد القُربَ بعدَ الطُّهرِ، فإذا تَطَهَّرنَ فَأْتُوهُنَّ من حيثُ أمرَكُمُ الله، واللهُ ﷻ أمرَنا ألَّا نقربَ إلَّا مكانَ الاستيلادِ، الَّذي هو مكان الثَّمرةِ، والثَّمرةُ لا تأتي إلَّا مِنْ حَرْثٍ، ومَكانُ الحَرْثِ معروفٌ.

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣] والمحيضُ لا يأتي إلَّا من مكانِ الحَرْثِ، إذًا سببُ المنعِ هو أذىً يأتي من الحَرْثِ، الَّذي هو مكان الاستيلاد، الَّذي بسببه شُرِعَ الزَّواج، فمتى زالَ الأذى - الَّذي هو الحيض - جازَ لنا أن نَقْرَبَ نساءَنا من حيثُ أمَرَنا اللهُ.

ثمَّ يسألُ السَّائل عن قول اللهِ ﷻ: «أنَّى شئتم» ويقصد بذلك معنى «أنَّى»، ولها معانٍ كثيرةً منها: كيف، ومتى، فزوجتك لكَ حلالٌ وأنتَ لها حلالٌ، فمتى أردتَهَا فهي لك؛ لا فرقَ في ذلك بين ليلٍ ونهارٍ، ولكن لا تتعدَّ موضِعَ الحَرْثِ، واعمَل كيفَ شئتَ مادُمتَ قد امتثلتَ أمرَ ربِّك: ﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢].

أمَّا الانحرافُ في معاشرةِ الزَّوجةِ، واستبدالُ موضعِ الحرثِ والاستيلاد بغيره؛ فإنَّهُ حرامٌ، والرَّسول ﷺ لعنَ من انحرفَ في معاشرةِ زوجته، بأحاديث وردت في مُسْنَدِ الإمامِ أحمد[٢]، وفي صحيح الإمام مُسلم[٣] وغيرها، أثبَتَتْ حُرْمَةَ هذا الفِعْلِ، وأنَّ فاعله مَلعُونٌ، وإن وافَقَتْ

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢١٢).
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٠٢٠٦)، بلفظ: «**مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا**».
(٣) رواه مسلم، رقم: (١٤٣٥)، بلفظ: «**أَنَّ يَهُودَ كانت تقول: إذا أُتِيَتِ المرأة من** =

هيَ شَارَكَتْ بوقوعِ اللَّعنةِ عليها، لكن تبقى الزَّوجيَّة قائمةً بين الزَّوجينِ، وعليهما أن يتوبا.

نَظَرُ الخاطبِ إلى المَخطُوبَة

السُّؤال:

سمعنا حديثًا معناه: «**مَنْ خطب منكم امرأةً فإن استطاع أن ينظرَ منها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**[1]».

أرجو التَّفضُّلَ بشرحِ معنى هذا الحديث، وما درجة صحَّته؟

الجواب:

الزَّواج شَرِكَةُ حياةٍ بين زوجٍ وزوجةٍ، كلاهُما إنسانٌ عاقلٌ، واختيارُ الزَّوجةِ الَّتي هي شريكةُ الحياة أمرٌ واجبٌ، وقَبُولُها وعَدَمُه يجب أن يُستَجابَ له؛ لأنَّ الزَّواجَ ليس مُتعةً فقط، وإنَّما هو حياةُ مستقبلٍ، وكلا الزَّوجين يريدُ من الزَّواجِ راحةَ العيشِ والمتعةَ، واختيارُ الزَّوجةِ يُرِيْحُ، والنَّاسُ يختلفون في اختيارهم لهذه الشَّريكة أو لهذا الشَّريك باختلاف مَقَاصِدِهم، فبعضُهم يرى سعادَتَه بالمال، وبعضُهُم يراه بالجمال، وبعضُهُم يريدُ الجاهَ، ويرى كلَّ سعادتَه فيه، وعندنا مَثَلٌ في الكويت يقول: «لولا اختلاف الأنظار لبارت السِّلع».

= **دبرها في قبلها، ثمَّ حَمَلَتْ، كَانَ وَلَدُهَا أَحْوَلَ، قَالَ: فَأُنْزِلَتْ:** ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣].

(١) رواه أحمد، رقم: (١٤٥٨٦).

أمَّا الإسلامُ فيأمرنا أن نختار الإيمانَ باللهِ الَّذي يَعصِم، والحياءَ والخفرَ[١] في المرأة، والخُلُقَ الحسنَ في الرَّجل.

ونقرأ حديثًا رواه البُخاريُّ ومُسلم عن رسول الله ﷺ، «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها**» ثم يقولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: «**فاظفر بذات الدِّين تَرِبَتْ يَدَاك**[٢]».

وحديثًا آخرَ رواه التِّرمذيُّ: «**إذا جاءكم من ترضون دينَه وخُلُقَه فزوِّجوه إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**[٣]».

والمرأة بطبيعتها ناعمةٌ، وهي أسرعُ تقبُّلًا للخُلُقِ الفاضل.

لهذا كانَ من واجبِ الرَّجلِ أن يختارَ لبيتهِ، وكانَ من واجبِ وليِّ الأمرِ أنْ يختارَ لمُوَلِّيتِه.

وطريقُ الحياةِ طويلٌ، وهناك مَثَلٌ دَارِجٌ يقول: «الرَّفيقُ قبلَ الطَّريق» إذن، فلنَخْتَرِ الرَّفيقَ مادُمنا نعيشُ هذا الطَّريقَ الَّذي لا ندري عنه أَهُوَ طويلٌ أم لا؟ والأعمارُ بِيَدِ الله.

والحديثُ الَّذي يسألُ عنه السَّائلُ في مسندِ الإمامِ الشَّافعيِّ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**[٤]».

وحديث آخر أيضًا رواهُ الإمامُ أحمدُ بن حنبل في مُسنَده عن أبي حُمَيْدٍ

---

(١) الخفر: شدَّة الحياء. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (١١/ ٢٠٤).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٠٩٠)، ومسلم، رقم: (١٤٦٦).
(٣) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٥).
(٤) لم أقف عليه في مسند الشافعي، ورواه أبو داود، رقم: (٢٠٨٢).

السَّاعِدِيِّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها إذا كان إنما ينظر إليها لخطبته**[1]».

ومعنى كلمة «ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها»: هو نظرُ الوجهِ لا غيره؛ لأنَّ الوجه هو مرآة الإنسانِ، ومن الوجهِ يستطيعُ الذَّكيُّ أن يعرفَ معانيَ صاحبِ ذلك الوجهِ.

وهناك أحاديث كثيرة تأمرُ برؤيةِ الخاطبِ خطيبَتَه، وإذا رآها رأته، وإذا رَأَيَا بعضَهما انحصرَ تفكيرُ كلِّ واحدٍ منهما في صاحِبِه.

والرُّؤية الَّتي أمر بها الشَّارعُ رؤيةٌ عفَّةٍ لا إهمال فيها ولا خلط، إنَّها رؤيةٌ تنحصر في حدود الدِّين والخُلُق، لا في حدود التَّقليدِ الأجنبيِّ الَّذي جعلَ من بعضِ النَّاس مُهمِلين، لا يَحُسُّونَ بالخطرِ الَّذي تتربَّصه الغفلات، وقد لا يؤدِّي إلى تأسيسِ أسرةٍ مُستقرَّة.

وكثيرًا ما نرى نتائجَ الإهمالِ الَّذي يكونُ قبلَ الزَواج تُثمِر فيما يسمُّونه: شهرَ العَسَل، فالعاطفةُ سرعانَ ما تَتَهاوى، والأيمانُ المعقودةُ تنحلُّ عُرَاها، والعواطفُ الحارَّةُ تَبْرُدُ، ومُثُلُ المحبَّةِ تُصْبِحُ أوهامًا، ويرجع الزَّوجانِ من شهرِ العَسَلِ مُفْلِسِيْنَ من رصيدِ الحُبِّ والعاطفة، والنَّتيجةُ إلى المحكمةِ أو إلى الهُجرانِ؛ لأنَّ النَّظرة الأولى طالت، وأصبحتِ النَّظرة جَلْسَةً، وأصبحتِ الجَلْسَةُ اختلاطًا، ثمَّ خَلوةً، ثمَّ تَجاذُبًا بعد ذلك ما فَتَر به الحبُّ وبردَتِ العاطفةُ، كلُّ هذا كان قبلَ الزَّواجِ، وكلُّه كانَ من سُوءِ تأويلٍ للحديثِ المذكورِ، والحديثُ يقول: نظرة لا أكثر، لينحصرَ تفكيرُ الخطيبين ببعضهما؛ وليتعلَّقَ القَلبُ بالقلبِ،

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٣٦٠٢).

ولِيَدَّخِرَا المتعَ لليلةِ قطافِهَا كبهجةٍ مُدَّخَرَة لعِيْشَةٍ مُقبِلَةٍ وشَرِكَةٍ هي الحياةُ؛ كلُّ الحياةِ.

وتبقى العواطف قويَّةً لا تنحلُّ عُرَاها، ويبقى الحبُّ حارًّا لا يبرد، وهذا ما عاشه الأوَّلونَ الَّذين ما قلَّدوا، بل كانوا فوقَ مُستَوى التَّقليدِ.

زوجةُ الأبِ كالأمِّ

السُّؤال:

ما معنى قوله تعالى: حرِّم عليكم ما نكح آباؤكم إلَّا ما قد سلف؟ وما سبب نزول هذه الآية؟ وهل زوجة الخالِ والعمِّ تَحرُمُ على ابن الأختِ وابنِ الأخِ بعدَ وفاةِ الخالِ أو العمِّ أو طلاقها منهما؟

الجواب:

لفظ الآية الكريمة بالحرف: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٢٢].

والمراد من الآيةِ نهيُ الرَّجل أن يتزوَّج زوجةَ أبيه، وكان هذا الفعلُ في الجاهليَّة موجودًا، فكانوا يتزوَّجونَ نساءَ آبائهم بعدَ موتِ الأبِ، أو كانَ الابنُ يخلُفُ أباه على امرأةِ أبيهِ في بعضِ القبائلِ، فنزلَ فيهم قولُ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾ [النِّسَاء: ١٩].

وقد ذكر المفسِّرونَ أسماءَ بعضِ الرِّجال من العرب في الجاهليَّة كانوا وُلِدُوا من زوجاتِ الآباء.

قال اللهُ ﷻ: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النِّسَاء: ٢٢] أي: ما مضى.

وسلفُ الرَّجلِ: من تقدَّمَهُ من آبائه وذوي قرابته، وهذا استثناءٌ منقطع، وقد انتهى أمرُه، فقد وقع في جاهليَّةٍ وكُفْرٍ، والإسلامُ جاءَ فغطَّى ما كانَ قبلَه من أخطاءِ الجاهليَّة، ولا تكليفَ مع كفرٍ.

ومعنى «الفاحشة»: القبيح غاية القبح، و«المَقْتُ»: البغيض غاية البغض، و«سَاءَ سبيلًا»: أي: طريقٌ لا يَصلُ بمن سَلَكه إلَّا إلى الشَّرِّ، ولا تقاسُ على زوجةِ الأبِ زوجةُ الخالِ والعمِّ؛ فإنَّها تحلُّ - بعدَ وفاةِ زوجها «الخال أو العمُّ» أو طلاقه لها - لابنِ الأخِ أو لابنِ الأختِ.

خصوصيَّات

السُّؤال:

نحن النِّساءُ شقائقُ الرِّجال، غير أنَّنا نخالفُ إخواننا الرِّجال بأحوال تخصُّنا في خِلْقَتِنَا، ولي أسئلة دينيَّة عن هذه الأحوال، أحببتُ أن أوجِّهها لتسمعها النِّساء وتسمعَ أجوبتها؛ علمًا أنَّه لا حياءَ في الدِّين:

١- هلْ يُبَاح للمرأة أن تقرأ من حفظها آياتٍ من القرآن وهي حائض؟

٢- هل يُباح للمرأةِ وهي حائضٌ أن تقرأ كتابًا دينيًّا؟ علمًا أنَّ الكتابَ الدِّينيَّ يشتملُ على آياتٍ من القرآن وأحاديث من كلامِ النَّبيِّ ﷺ؟

٣- ما حكمُ ملابسِ الحائضِ الخارجيَّة إذا ثَبَتَتْ طهارتُها؟

٤- اغتَسَلَتْ من عادَتِها بعد أن تأكَّدت طهارتُها، ثمَّ صلَّت بعضَ صلواتِها، ثمَّ رأَتِ الدَّمَ، فما حُكْمُ صلواتها تلك؟ وما حُكْمُ المُصَلَّى «السَّجَّادة» أو ثوبِ الصَّلاة؟

الجواب:

١- لا يجوز للحائضِ ولا للجُنُبِ أن يَقْرَأ آيةً كاملةً من كتاب الله؛ لأنَّ اللهَ حرَّم عليهما خمسةَ أشياءَ: الصَّلاةَ، ولمسَ المصحَف، وقراءةَ آيةٍ من كتابِ الله، والمُكْثَ في المسجدِ، والطَّوافَ بالكعبة. أمَّا إن قَرأَتْ بينَها وبينَ نفسها سرًّا وبلا تلفُّظٍ، فلا بأسَ عليها.

٢- لا مانعَ للمرأةِ الحائضِ أن تقرأَ كتابًا دينيًّا أو تحمله بيدها، ولو اشتملَ هذا الكتابُ على آياتٍ من كتابِ اللهِ، أو على شيءٍ من أقوالِ الرَّسولِ ﷺ، فيجوزُ لها لمسُهُ، وتجوزُ لها قراءَتُه، ولكنَّها تقرأُ الآيةَ بينها وبين نفسها، وبلا تلفُّظٍ، ولا بأسَ بقراءةِ جزءٍ من الآية.

٣- ملابسُ الحائضِ الخارجيَّة والدَّاخليَّة طاهرة حتَّى تتأكَّد من نجاستها؛ لأنَّ القاعدة الفقهيَّة تقول: «ولا يَنجُسُ شيءٌ بالشَّكِّ حتَّى تتحقَّق نجاسته».

٤- الصَّلاة صحيحة، والدَّم الَّذي رأته بعد الصَّلاة إن كان في زمنِ العادةِ فيُحسَبُ من العادة، وإلَّا فهو مرضٌ ينتقض بخروجه الوضوءُ فقط، فتصلِّي، وتتوضَّأ لكلِّ صلاة.

والمُصَلَّى «السَّجَّادة» وثوب الصَّلاة طاهران.

لا تُكرِهُوا فتياتِكم على البِغَاء

السُّؤال:

قرأت في سورة النور قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: ٣٣].

فما هو تفسير الآية؟ وهل إذا أردن تحصنًّا يكونُ إكراههنَّ حلالًا؟ ونحن نعلم دينًا وعقلًا أنَّ الزِّنا فاحشة، فكيف يُغفر لمن أكرههنَّ على الفاحشة!؟ وحاشا لله وأستغفر الله...

الجواب:

كرَّرتُ نصيحتي مراتٍ عديدةً وقلتُ: من أرادَ السُّؤال عن معنى آية من كتاب الله فلْيقرَأ ما قبلها وما بعدها، فلعلَّ لما يسألُ عنه علاقة بما سبقها أو بما تلاها.

ولْنصحِّح أوَّلًا قراءةَ الآيةِ (٣٣) من سورة النُّور الَّتي سأل عنها السَّائل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النُّور: ٣٣].

وتفسير هذه الآية الكريمة:

إنَّ الإسلامَ يريدُ عفَّة الشبابِ، والشبابُ الفقراء الَّذين لا يجدُون

تكاليفَ الزَّواج ويعفُّونَ نفسًا سيغنيهم اللهُ بعونه على تيسير أمورهم، بما يُهَيِّئ لهم من أسباب العملِ والغنى على أن لا يَسْقُطَ في الزَّلَّة ويتعجَّل الشَّهوة.

ولمَّا كان الرِّقُّ يومئذٍ موجودًا، والرَّقيقُ ذليلٌ حبَّب اللهُ لعباده المؤمنين عِتْقَ الرِّقاب فشَرَعَ المُكاتبة.

والمُكاتبة أن يكون الرَّقيق حرًّا في عمله، يجمعُ من كسبه ليشتريَ نفسه من سيِّده، غيرَ أنَّ بعضَ المنافقين كاتبوا بعض الرَّقيقات على أن تكتسب من الزِّنا لتفكَّ رقبتها، وممَّن فعلَ ذلك عبد الله بن أُبَيٍّ أكرَهَ أمَتَهُ مُعَاذة على الزِّنا، وهي تريدُ التَّحصُّن، ولا تستطيعُ دفعًا لإكراه سيِّدها لها على الزِّنا. فاشتكت مُعاذَة إلى أبي بكر رضي الله عنه، الَّذي أخبرَ الرَّسولَ ﷺ بذلك، فمُعاذة كانت مكرهةً على البِغَاء، وهي امرأة حسنةُ العقيدةِ، مؤمنةٌ تريدُ التَّحصُّن، وكانت تظنُّ نفسها أنَّها مذنبة، فقال اللهُ لها على لسانِ نبيِّه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النُّور: ٣٣] بهنَّ.

فالله ﷻ وعد المُكْرَهَة على البِغَاء بالمغفرةِ والرَّحمةِ بعد ذلك الإكراه الَّذي لا بدَّ لها من دفعه عنها، ومن أكرهها على ذلك حبًّا في اكتسابِ المالِ، فلهُ عذابُ جهنَّم وبئس المصير، وكان هذا المرضُ شائعًا في الأوساط الجاهليَّة، مبعثُه حبُّ المالِ والتَّحكُّم في الرَّقيق، ولمَّا علم الفتيات المؤمنات ببشاعةِ الفعلِ انتَهينَ عن ذلك؛ لأنَّ إيمانهنَّ باللهِ ورغبتهنَّ في رضاه نهاهنَّ عن البِغَاء، وحبَّبهنَّ في التَّحصُّن والسَّتر، فكان الله في عونهنَّ وغفر لهنَّ ما أُكرِهنَ عليه.

إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة

السُّؤال:

قرأتُ في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التّغَابُن: ١٤] فما هي هذه الآية؟ وما تفسيرها؟ وكيف يكونُ الأهلُ والأولاد أعداء للإنسان؟ وهل هذه الآية تفيدُ التَّعميمَ في حُكمها؟

الجواب:

وددتُ لو أنَّ الأخَ السَّائل كتبَ الآيةَ أو قرأها صحيحة لكان أولى به من أن يحرِّف قولَ الله، وهو المسلم، وتحريفُ كلامِ الله ليسَ بالسَّهل، واللهُ جلَّ شأنه عابَ على أولئك الَّذين يحرِّفون الكَلِم، وصحيح الآية هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التّغَابُن: ١٤-١٥].

ومعنى الآية الكريمة: بعضُ الأزواجِ والأولادِ يفعلونَ مع أقربائهم فعل العدوِّ، فيكونون أمامهم حَجَر عثرةٍ يمنعونهم من فعل الخير، ويصدُّونَهم عن المعروف، وقد يدعونهم إلى ارتكاب الإثم في سبيل راحتهم، وحرصًا على سعادتهم، فإذا كان الأمرُ كذلك فاحذروهم، وحافظوا على أنفسكم من الشُّرور والآثام.

والأموالُ والأولادُ فتنةٌ وبلاءٌ ومحنةٌ واختبارٌ، وقد يترتَّبُ على كسبِ الأموالِ الوقوعُ في الآثام والشَّدائد، وإذا كثُر مالُ الإنسانِ طغى وبغى،

وصدق الله العظيم: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦-٧].

وقارون عندما كثُر مالُه بَغَى على قومه، وكَفَرَ اللهَ الَّذي أغناه.

وقد يترتَّبُ على حبِّ الأولاد الكذبُ دفاعًا عن جريمة أحدهم، أو الغرور عند فوز أحدهم، أو كثرتهم، ومع ذلك فالله ﷻ حذَّرنا من فتنة المال والولد، والفتنة بلاء.

رويَ أنَّ هاتين الآيتين نزلتا في رجال أسلموا بمكَّة، منعهم أزواجُهم وأولادُهم من الهجرةِ مع النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا أتوا النَّبيَّ بعد ذلك وجدوا كثيرًا من المسلمين أسلموا معهم فقهوا في الدِّين وهم ما زالوا به جاهلون، فأرادوا أن يُعاقبوا أزواجَهم وأولادَهم فقال لهم الله ﷻ: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

سألوني في التفسير

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجار الله الخرافي

أحاديث

أوَّلًا: تفسير معاني الآيات

ثانيًا: في المناسبات الإسلاميَّة

أولًا: تفسير معاني الآيات

قرآن الفجر (١)

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خير خلقه محمَّد خاتم النَّبيِّين، وعلى آله وصحبه الطَّيِّبين الطَّاهرين، وبعد:

فقد طلب إليَّ المسؤولون في الإذاعة وعلى رأسهم السَّيِّد الوكيل المساعد عبد العزيز محمَّد جعفر أحاديثَ لرمضان بعنوان «قرآن الفجر» تُذاعُ هذه الأحاديث وقتَ الإمساك، واستجابةً لطلبهم قرَّرتُ أن أبدأَ هذه الأحاديث بتفسير الآيات الكريمة من (٧٨) إلى (٨٢) من سورة الإسراء مبتدئًا هذا اليوم بتفسير الآيتين الكريمتين (٧٨) و (٧٩) ثمَّ أواصل الأحاديث بتفسير سورة الفاتحة وآياتٍ أو سورٍ اعتاد المصلُّون قراءَتها في صلواتهم، وبعد الاتِّكال على الله أستفتحُ بقراءة الآيتين:

أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسرَاء: ٧٨-٧٩].

الله ﷻ يأمر نبيَّه، والأمر للنَّبيِّ أمرٌ لأمَّته، يقول له: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسرَاء: ٧٨] والصَّلاة صلةٌ بين العبد وربِّه، أو عُرُوجٌ بالعبد إلى ربِّه كما أخبرنا بذلك نبيُّنا المصطفى ﷺ حين قال لنا: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ**»(١).

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسرَاء: ٧٨] والإقامةُ معناها: الإتمام؛ أي: أدِّها تامَّةَ الأركان مستوفيةَ الشُّروطِ والآداب، ذلك أنَّ الصَّلاة عمادُ الدِّين، من أقامها أقام دينه، ومن تركها فلا دين له، وكما قلت لكم: الأمر للنَّبيِّ أمرٌ لأمَّتِه، والقرآن الكريم عندما يخصُّ النَّبيَّ ﷺ بذكره في بعض الأوامر، يعني بذلك اهتمام المأمور به، فقولُ الله لنبيِّه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسرَاء: ٧٨] لأنَّ الصَّلاة مهمَّةٌ، وهي دليل إيمان الإنسان؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لنا: «**إذا رأيتم الرَّجلَ يعتادُ المساجدَ فاشهدوا له بالإيمان**»(٢).

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسرَاء: ٧٨] ودلوك الشَّمس: زوالُها عن كبد السَّماء إلى غسق اللَّيل، والغسق ظُلْمَةٌ.

والصَّلاة كتابٌ موقوتٌ، أعني أنَّه فرضٌ محدَّدٌ بأوقاتٍ معيَّنةٍ، والوقتُ شرطٌ من شروطِ الصَّلاة، فإذا دخل الوقت وجبت صلاتُه، فللظُّهر وقتٌ محدَّدٌ له مبدؤه وله منتهاه، يبدأ بدلوك الشَّمس؛ أي: بزوالها حتَّى يصير ظلُّ كلِّ شيءٍ مثلَيه، ثمَّ يدخلُ وقت العصر الَّذي ينتهي بغروب الشَّمس، ثمَّ يبدأ وقت المغرب الَّذي ينتهي بغياب الشَّفق الأحمر، وقد يبقى الشَّفقُ الأبيض كما في أوروبا وقتَ الصَّيف، ولا يعني بقاء هذا الشَّفق دوام وقت المغرب، يقول الله ﷻ: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [الإسرَاء: ٧٨] ومعنى

(١) رواه أبو داود، رقم: (٨٧٥).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٨٠٢).

ذلك: وأقم قرآن الفجر، والمفسِّرون يقولون: المراد بهذه الكلمة صلاة الفجر، أقم صلاة الفجر؛ أي: صلاة الصُّبح، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسرَاء: ٧٨] مشهودًا من الملائكة: حرسِ اللَّيل وحرس النَّهار كما أخبرنا بذلك الصَّادقُ صلواتُ الله وسلامه عليه بقوله: «**يتعاقبون فيكم ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهارِ، ويجتمعون في صلاة العصرِ وصلاةِ الفجر، ثمَّ يَعْرُجُ الَّذين باتوا فيكم، فيسألُهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون، وأتيناهم وهم يصلُّون**»[(١)]، رواه البخاريُّ ومسلم، فقرآن الفجرِ مشهودٌ من الملائكة حرس اللَّيل وحرس النَّهار.

ومَن يُوفَّق لصلاة الفجر ويتعبَّد في السَّحر يدرك السِّرَّ ويشعرُ باللَّذة، ويشعر بأنَّها صلاةٌ مشهودةٌ ودرجةٌ مرفوعةٌ، ومَن يقرأ القرآنَ قبل صلاة الفجر بتأمُّلٍ وتدبُّرٍ يشعرُ باللَّذة ويدرك السِّرَّ ويشعرُ بأنَّه مشهودٌ، يستمعُ إلى نفسه، ويشعر بأنَّه مسموعٌ موفَّقٌ.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسرَاء: ٧٩] ومعنى النَّافلة: صلاةٌ زائدةٌ عن الفرائض المطلوبة، صلاة ركعتين أو أربعٍ أو أكثر من ذلك تعرج بها وأنتَ ساجدٌ إلى ربِّك، تدعوه وأنت قريبٌ منه قائلًا: اللَّهمَّ باعدْ بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب، اللَّهمَّ اجعلني من عبادك الصَّالحين ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤١].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٤٨٦)، ومسلم، رقم: (٦٣٢).

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسرَاء: ٧٩] والمقام المحمود: هو المكان المرموق، والمركز المعلوم، مقام الشَّفاعة الَّتي نرجوها في ظلِّ هذا الدِّين دين محمَّدٍ ﷺ، والَّذي نرجو و لذلك نقول بعد كلِّ أذانٍ نسمعه: «**اللَّهمَّ ربَّ هذه الدَّعوةِ التَّامَّة، والصَّلاة القائمة، آتِ محمَّدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الَّذي وعدته**»[1] «**إنَّك لا تخلف الميعاد**»[2]، ذلك هو مقام الشَّفاعة، فما أحوجنا إلى هذه الشَّفاعة الَّتي يتمنَّاها كلُّ مسلمٍ مؤمنٍ مصدِّقٍ، وهذا هو الطَّريق وهذا هو زادُ الطَّريق؛ فاستعدِّوا بالزَّاد لسلوك الطَّريق.

قرآن الفجر (٢)

أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسرَاء: ٨٠-٨٢].

الحياة كلُّها رحلةٌ، تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت، والمسلم يسأل الله السَّلام في هذه الحياة، يدعو الله بصدقِ المدخل وصدقِ المخرج، كنايةً

(١) رواه البخاري، رقم: (٦١٤).
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٩٣٣).

عن صدق هذه الرِّحلة.

﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسرَاء: ٨٠] دعاءٌ يعلِّمه الله جلَّ جلاله لنبيِّه ﷺ، فإذا قاله الرَّسول كان على أتباع هذا الرَّسول أن يتأسَّوا به[١] فيتَّبعوا سنَّته ويدعوا بدعائه ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسرَاء: ٨٠] وللصِّدق ثباتٌ واطمئنانٌ، وفيه مكارمُ أخلاقٍ وإخلاصٌ.

﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسرَاء: ٨٠] السُّلطان: القوَّةُ والهيبةُ الَّتي يستعلي بها سلطانُ الحقِّ على الباطل، وسلطانُ التَّوحيد على الشِّرك.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسرَاء: ٨١] كلمةٌ قالها رسولُ الله ﷺ حين فتح الله له مكَّةَ فكسر الأصنام، وأزالَ سلطانَ الشِّرك.

الحقُّ هو الإسلامُ أو كلُّ ما هو حقٌّ، والباطل هو الشِّركُ أو كلُّ ما هو متنافٍ مع الحقِّ، والحقُّ هو العدل، والباطل هو الظُّلم، الحقُّ هو الأُلفة والوحدة، والباطل هو التَّنازع والاختلاف، الحقُّ هو المحبَّة، والباطل هو البغضاء، الحقُّ هو الإصلاح، والباطل هو الإفساد، وأوامر الإسلام كلُّها حقٌّ، والإسلام لا يأمر إلَّا بالمعروف، ولا ينهى إلَّا عن منكرٍ، والمنكر باطلٌ، والباطل من شأنه الزُّهوق وعدم الثَّبات.

والباطلُ دائمًا ينتفخ ولكنَّه لا يدومُ؛ لأنَّه باطلٌ، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق كشعلة الهشيم، لها لهبٌ يرتفع في الفضاء عاليًا ثمَّ لا

(١) تأسَّى به: اتَّبَعَ فعْلَه واقتَدَى بِهِ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٧/ ٧٨).

يلبث أن ينطفئ، كالزَّبد يطفو على الماء ثمَّ يذهب جفاءً كما قال الله جلَّ جلاله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرّعد: ١٧] كذلك الباطل كان زهوقًا، ونصيرُ الباطل هالكٌ؛ لأنَّ الله وعدَ، ووعدُ اللهِ صدقٌ، وسلطان الله أقوى ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: ١١١] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النِّساء: ٨٧] إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسرَاء: ٨١].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسرَاء: ٨٢] شفاءٌ من كلِّ داءٍ؛ لأنَّ القرآن رحمةٌ، والقرآن كلام الله فهو طمأنينةٌ وأمانٌ، أمانٌ لمن خالطت قلوبُهم بشاشةَ الإيمان، وشفاءٌ من الوسوسة والقلق والحيرة، فالقلق مرضٌ، والحيرة نصبٌ، والوسوسة داءٌ، وفي القرآن شفاءٌ من هذه الأدواء، شفاءٌ من الهوى والدَّنس والطَّمع والحسد ونزغات الشَّيطان، يعصمُ العقلَ من الشَّطط والزَّلل.

في القرآن شفاءٌ من العلل الاجتماعيَّة الَّتي تخلخلُ بناء الجماعات وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها؛ فتعيش في ظلِّ القرآن، وظلِّ نظامه الاجتماعيِّ، وعدالته الشَّاملة، وأمنه، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسرَاء: ٨٢] لأنَّ الظَّالمين لا ينتفعون بما فيه من شفاءٍ ورحمةٍ، فالظَّالم في عناده وكبريائه يعيش في الظَّلام والفساد فهو خائبٌ خاسرٌ، فالشِّفاء والرَّحمة مع المؤمن الَّذي يتوجَّهُ إلى الله بقلبٍ خالٍ من الشَّكِّ والكبرِ والحسدِ والبغضاء وحبِّ الرِّئاسة الكاذبة والخيلاء، أمَّا من كانَ قلبه مريضًا بهذه الأمراض فإنَّه لا يزدادُ إلَّا خسارًا.

قرآن الفجر (٣)

أوَّل سورة الفاتحة (الحلقة الثَّانية)

أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيم

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفَاتِحَة: ١-٧]

ومن أسماءِ هذه السُّورة الكريمة: السَّبع المثاني، أمُّ الكتاب، أمُّ القرآن، الفاتحة، الحمد، وهي تُقرأ في كلِّ ركعةٍ من كلِّ صلاةٍ، يردِّدُها المسلم المصلِّي في اليوم (١٧) مرَّةً في أدنى حدٍّ، وإذا صلَّى السُّننَ ضاعفَ هذا العدد، وقد يرغبُ المسلم فيقف بين يدي ربِّه متنقِّلًا، فلا يقف عند حدٍّ في صلاته فيردِّد الفاتحة؛ لأنَّه «**لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحةِ الكتاب**»(١).

عن عبادة بن الصَّامت قال: كنَّا خلف رسول الله ﷺ في صلاة الفجر، فقرأ رسول الله ﷺ، فثَقُلَت عليه القراءة، فلمَّا فرغ قال: «**لعلَّكم تقرؤون خلفَ إمامَكم**» قلنا: نعم هذا يا رسول الله، قال: «**لا تفعلوا إلَّا بفاتحة الكتاب؛ فإنَّه لا صلاةَ لمن لم يقرأْ بها**»(٢).

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٥٦)، ومسلم، رقم: (٣٩٤).
(٢) رواه أبو داود، رقم: (٨٢٣).

والإسلامُ فرضَ هذه السُّورة لتُقرأَ في كلِّ ركعةٍ من ركعاتِ الصَّلاة؛ لما فيها من توجيهاتٍ ومشاعرَ.

تبدأ السُّورة بآية البسملة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفَاتِحَة: ١] واختلف الفقهاء في هذه الآية، هل هي آيةٌ من الفاتحة؟ أم هي آيةٌ من كلِّ سورةٍ؟ أم هي آيةٌ من القرآنِ تُفتتحُ بها السُّورة؟

وأنا أُرَجِّح أنَّها آيةٌ من الفاتحة من آياتها السَّبع.

ومن الأدب، ومن السُّنَّة النَّبويِّة أن يبدأ الإنسانُ كلَّ عملٍ من أعمالِه باسم الله، فهو الحقُّ الواجب الوجود الَّذي يستمدُّ منه كلُّ موجودٍ وجودَه، ويبدأ منه كلُّ مبدوءٍ بدأه، فباسمه يُستعانُ، وباسمِه يبدأ المتحرِّك حركتَه، والرَّسول ﷺ قالَ لأمَّته: «**كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدَأُ فيهِ بالحمدِ أقطعُ**»(١).

والله اسمُ ربِّنا الأعظم، وقد تنزَّه هذا الاسمُ العظيمُ أن يُسمَّى به غيرُه ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مَريَم: ٦٥] ووصف سبحانه نفسَه بالرَّحمن الرَّحيم، والرَّحمن الَّذي عمَّت رحمتُه الإنسان والحيوان والبرَّ والفاجر والمسلم والكافر في هذه الدُّنيا، يرزقهم ويمدُّهم بأسباب الحياة وأسباب النِّعمة، وهو وصفٌ مختصٌّ باللهِ وحدَه لا يُطلق على أحدٍ سواه، ربُّ رحمةٍ وإحسانٍ، يقبلُ من أقبلَ عليه، ويهدي من أنابَ إليه، ويتوب على من تاب، والرَّحيم الَّذي كمُلَتْ رحمتُه ووسعت كلَّ شيءٍ، فلا ينسى خلقَه ولا يغفل عنهم طرفةَ عين، وفي الصِّفتين مجتمعتين كلُّ معاني الرَّحمة وحالاتها ومجالاتها.

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٩٤).

كثيرٌ من النَّاس يذنبُ ويقولُ: إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ، ورحمة الله واسعة؛ لكنَّه قال جلَّ شأنُه: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

قال: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] إلى أنْ قالَ: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٥٤].

وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحِجر: ٤٩-٥٠].

والرَّحمةُ عند البشر ألمٌ في النَّفس شفاؤه الإحسان.

الآية الثانية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٢] والحمد هو الثَّناء الجميل، والحمد لله هو لذاته تبارك وتعالى، والحمد لله شعورٌ يفيض به قلبُ المؤمن بمجرَّد ذكرِ الله، وإذا قال المؤمن الحمد لله كُتبتْ له حسنةٌ.

عن ابن عمر: «**أنَّ رسول الله ﷺ حدَّثَهم أنَّ عبدًا من عباد الله قال: يا ربِّ لك الحمدُ كما ينبغي لجلال وجهِكَ وعظيمِ سلطانِك، فعضَّلتْ بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتَّى يلقاني فأجزيه بها**»(١).

﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٢] معنى الرَّبِّ: المالك المتصرِّف، فهو جلَّ جلالُه خلقَ الكونَ ولم يتركه وإنَّما تصرَّف فيه: يُصلِح ويرعى ويربِّي، وكلُّ الخلائق والعوالم تحفظُ وتتعهَّدُ برعاية الله ربِّ العالمين، والصِّلةُ بين الخالقِ والخلائق دائمةٌ ممتدَّةٌ قائمةٌ أبدًا.

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٨٠١).

وبذكر الله ربِّ العالمين حرَّر الإسلامُ العقيدةَ بعد أن كانتْ مثقلةً تتخبَّطُ في ظلماتٍ من الأوهامِ والأساطيرِ، يختلط فيها الحقُّ بالباطل، والصَّحيح بالزَّائف، والأسطورة بالفلسفة، والدِّين بالخرافة، فجاء الإسلام وحدَّد التَّصوُّر الَّذي يستقرُّ عليه الضَّميرُ الإنسانيُّ في أمرِ الله وصفاته بأنَّه فوقَ كلِّ شيءٍ، وليس كمثله شي أحد. . ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣-٤] توحيدٌ كاملٌ شاملٌ لا تشوبُهُ شائبةٌ من قريبٍ ولا من بعيدٍ.

قرآن الفجر (٤)

تفسير الفاتحة (الحلقة الثَّانية)

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: صفتان استغرقتا كلَّ معاني الرِّحمة الَّتي تقومُ على الطُّمأنينة وتنبض بالمودَّة، لا حاجةَ به إليهم، وإنَّما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه، قال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذّاريَات: ٥٧].

حديثُ «**يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[(١)].

والله جلَّ جلالُه لا يطاردُ عبادَه مطاردةَ الخصوم كما يتصوَّرُه النَّاس في بعض الأديان، وإنَّما هو جلَّ شأنُه كما قالَ الإسلام: ربُّ رحمةٍ

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٧٧).

وإحسانٍ يقبلُ مَن أقبل عليه، ويهدي من أنابَ إليه، ويتوبُ على مَن تاب.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤] والاعتقادُ بيوم الدِّين ركنٌ من أركان الإيمان، وكلِّيَّةٌ من كلِّيَّات العقيدة الإسلاميَّة.

ويوم الدِّين هو يوم الجزاءِ ويوم الصَّاخَّة والطَّامَّة ويوم النُّشور ويوم الحشر ويوم الحاقَّة ويوم القارعة واليوم الآخر ويوم الحساب والآزفة، وهو اليوم الَّذي يجزى فيه كلُّ امرئٍ بما عمل، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحَاقَّة: ١٩] فناجٍ ناجحٌ، ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحَاقَّة: ٢٥] فخائبٌ خاسرٌ، وما أشبهَهُ بيومِ الامتحان، ومَن اعتقدَ باليوم الآخرِ ليس كمَن أنكرَه، لا في خلقٍ ولا سلوكٍ ولا عملٍ، فهما صنفان من النَّاس متباينان لا يلتقيان في الدُّنيا في عملٍ ولا في الأرض في جزاءٍ.

سُئل عليه الصَّلاة والسَّلام: كيف يُحاسِب اللهُ النَّاسَ؟ قال: «**كما يُرزَقون**»[(١)].

وقد يُعجِّل الله الجزاءَ في الدُّنيا، وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عمَّن يصلُ رحمَه بأنَّه يزادُ في عمره ويبارك له في رزقه[(٢)]، وأخبرنا أنَّ عاقَّ والديه تُعجَّلُ له عقوبتُه في الدُّنيا[(٣)]، وأنَّ كثيرًا من الباغين الظَّالمين يعيشونَ في

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفَّر لي من مصادر حديثيَّة، ويروى كأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٠٦٧)، بلفظِ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**».

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٧٢٦٣)، بلفظ: «**كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله تعالى يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات**».

عذابٍ من ضمائرهم، وخوفًا على حياتهم، وأنَّ المسرفين المنهمكين في شهواتهم أفلسوا ومرضوا وذاقوا من المنغِّصاتِ ما أشقى أواخرَ حياتهم، وأنَّ كلَّ أمَّةٍ انحرفتْ عن صراطِ الله المستقيم ولم تراعِ سُننَه في خليقته أحلَّ الله بها ما تستحقُّ من جزاءٍ كالفقر والذِّلَّة والخوفِ والتَّفكُّكِ وعدم الاستقرار، وقد يصيبهم النَّقصُ في الأموال، والنَّقصُ في عافية الأبدان وقد يسلِّطُ الله عليهم مَن لا يرحم، فقد وردَ في الحديث: «**يا معشرَ المهاجرين خمسٌ إن ابتُليتم بهنَّ - وأعوذُ بالله أن تدركوهنَّ - لم تظهرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتَّى يعلنوا بها إلَّا فشا فيهم الطَّاعونُ والأوجاعُ الَّتي لم تكنْ مضت في أسلافهم الَّذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلَّا أُخِذُوا بالسِّنين وشدَّة المؤونةِ وجور السُّلطانِ عليهم، ولم يمنعوا زكاةَ أموالهم إلَّا منعوا القطرَ من السَّماء، ولولا البهائمُ لم يُمطَروا، ولم ينقضوا عهدَ الله وعهدَ رسوله إلَّا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم تحكمْ أئمتُهم بكتابِ الله ويتخيَّروا ممَّا أنزلَ الله إلَّا جعلَ الله بأسَهم بينهم**»[1] رواه ابنُ ماجه عن ابنِ عمر.

وحديثُ «**ما ظهرَ في قومٍ الرِّبا والزِّنا إلَّا أحلُّوا بأنفسِهم عقابَ الله ﷻ**»[2] رواه أحمد عن ابن مسعودٍ.

وقد رأينا كثيرًا ممَّن عجَّل الله عليهم العقوبةَ في الدُّنيا من آكلي أموال اليتامى وعاقِّي الوالدين والظَّالمين والمغتصبين وأكلةِ الرِّبا والزُّناةِ

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٠١٩)، والحاكم ف المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٥٧٧)، بلفظ: «**ما نقض قوم العهد قط، إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قط، إلا سلط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة، إلا حبس الله عنهم القطر**».

(٢) رواه أحمد، رقم: (٣٨٠٩).

واللَّواطيةِ، رأيناهم في عذابٍ من الأمراض، وعذابٍ من توبيخ الضَّمير، ورأينا أُناسًا باركَ اللهُ لهم في الحياة والصِّحَّة وحسن السُّمعة والذِّكر الطَّيِّب؛ لأنَّهم عملوا صالحًا وفعلوا الخير ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [القَصَص: ٦٠] وهذا مصداقُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطَّلَاق: ٢-٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ۝١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ۝١٧﴾ [الجنّ: ١٦-١٧] وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يُونس: ١٠٣] وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧].

قرآن الفجر (٥)

تفسير الفاتحة (الحلقة الثَّالثة)

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥] والعبادة: هي الطَّاعة مع غاية الخضوع، والعبادة لا تكون إلَّا لله وحده؛ فالصَّلاة مثلًا توجِّهُ القلبَ إلى الله تعالى، وتذكِّرُ بخشيته، وتُشعر بعظمِ سلطانه، ومَن لا يكون في صلاته هكذا لا ينتهي عن الفحشاء والمنكر، ومَن لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكرِ لم يزددْ مِن اللهِ إلَّا بُعدًا، وموقفُ المسلم مع ربِّه موقفُ محبَّةٍ وتعرُّفٍ؛ فقد عرفناه ربَّ العالمين، وعرفنا أنَّه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ

ٱلرَّحِيمُ﴾ [الفَاتِحَة: ٣].

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤] خلق لنا ما في الأرض جميعًا وسخَّره لنا، وأمرنا أن نشكره، وأن نستعمل كلَّ ما أعطانا في طاعته، إذن: فلا عبادةَ إلَّا لله وحدَه، ولا استعانة إلَّا به، وليتحرَّر المسلمُ تحرُّرًا مطلقًا من كلِّ عبوديَّةٍ إلَّا لله وحدَه الَّذي لا شريك له، والمسلمُ لا يكون ذليلًا لغير دينه الَّذي تعبَّد به ربَّه؛ فلا يذلُّ لغريبٍ عنه، ولا لقوَّةٍ من قوى الطَّبيعة، ولا لأساطيرَ وأوهامٍ وخرافاتٍ، ولا لشريكٍ، ولا لواسطةٍ ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ [الحَجّ: ٧٨] ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩] لأنَّ كلَّ قوَّةٍ مصدرُها قوَّةُ الله، وإذا عرفنا ذلك عرفنا أنَّ هذا المعبودَ وحدَه هو المعينُ وحدَه، وكما نخصُّه بالعبادةِ فلا نستعينُ إلَّا به.

وتعسًا لأولئك الَّذين يستعينون بالمقبورين: من أنبياءٍ وأولياءٍ وصلحاءٍ، أو ملائكةٍ أو شياطينَ، وينذرون لهم، وهم مخلوقون مثلهم، محتاجون إلى الرَّحمةِ والعون، فالزَّارع مثلًا يحرثُ ثمَّ يعزقُ[1] ثمَّ يسمِّد، ثمَّ يروي ثمَّ يبذر، وفي كلِّ عملٍ من هذه الأعمالِ يستعينُ باللهِ وحدَه على توفيقِه في عمله، وعلى منع الآفاتِ والجوائحِ السَّماويَّة والأرضيَّة.

والتِّلميذُ يغدو إلى المدرسةِ ويروحُ منها ويدرسُ ويكتبُ ويذاكرُ مستعينًا في جميع أعماله بالله ليأخذَ بيدِه يومَ الامتحانِ إلى النَّجاح، ومثلهما التَّاجرُ يحذق[2] في اختيارِ الأصنافِ، ويمهرُ في الدِّعاية والتَّرويجِ مستعينًا باللهِ متوكِّلًا عليه، أمَّا أولئك الَّذين يستعينون بغيرِ اللهِ على شفاء أمراضِهم ونماء حرثهم وتيسير أمورهم وهلاك أعدائهم، فهم

(١) عزق: عزق الأرضَ شقَّها وكربها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ١٥٢).
(٢) يحذقُ: يمهرُ فيه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٥/ ١٤٥).

مشركون ناكبون عن[١] الصِّراط، وطلبُ المعونة لا يكون إلَّا بعدَ عملٍ يبذُلُ فيه المرءُ طاقتَه في تهيئةِ الأسبابِ ثمَّ يطلبُ المعونةَ على إتمامِه وكمالِه.

حديثُ مسلمٍ عن أبي ذرٍّ «**يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّمًا فلا تظالموا، يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديتُه فاستهدوني أهدِكم، يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلَّا مَن أطعمتُه فاستطعموني أُطعمْكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ إلَّا من كسوتُه فاستكسوني أَكسُكُم، يا عبادي إنَّكم تخطئون باللَّيل والنَّهار وأنا أغفر الذُّنوبَ جميعًا فاستغفروني أغفرْ لكم، يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخركم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زادَ ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخركم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ ما نقصَ ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخركم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألتَه ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما ينقصُ المخيطُ إذا أُدخلَ البحرَ، يا عبادي إنَّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم ثمَّ أوفِّيكُم إيَّاها، فمن وجدَ خيرًا فليحمدِ اللهَ، ومنْ وجدَ غيرَ ذلكَ فلا يلومَنَّ إلَّا نفسَه**»[٢].

حديثُ التِّرمذيِّ عن ابن عباس: «**يا غلامُ إنِّي أُعلِّمكُ كلماتٍ، احفَظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ تجدْهُ تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستعنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمَّةَ لو اجتمعَتْ على أن ينفعوكَ بشيءٍ**

(١) نكب عن: عدلَ ومال. انظر: تاج العروس للزبيدي (٤/ ٣٠٤).
(٢) رواه مسلم، رقم: (٢٥٧٧).

لم ينفعوكَ إلَّا بشيءٍ قدْ كتبَه اللهُ لك، ولو اجتمعُوا على أن يضرُّوكَ بشيءٍ لم يضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ الله عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ»[1].

قرآن الفجر (٦)

(بقيَّةُ الفاتحة)

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦-٧].

ومعنى الآية: وُفِّقْنا إلى معرفةِ الطَّريقِ المستقيمِ الواصلِ، ووُفِّقْنا للاستقامةِ عليهِ بعدَ معرفتِه.

وكما يجبُ علينا أن نستعينَ باللهِ في جميعِ شؤونِنا يجبُ علينا أن نطلبَ منه الهدايةَ والتَّوفيقَ للحقِّ، والسَّلامةَ من الأمراضِ الخلقيَّةِ والأسقامِ النَّفسيَّةِ والأوبئةِ الاجتماعيَّةِ؛ فالهدايةُ ضمانُ السَّعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ عن يقينٍ، والقرآنُ كتابُ اللهِ أنزلَهُ لخلقِه؛ لينظِّمَ علاقاتِ الخلقِ بخالقِهم، وعلاقاتِهم بأنفسِهم، وببعضِهم بعضًا، فإذا انتظمتْ كانَتِ الهدايةُ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعَام: ١٥٣].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٥١٦)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسرَاء: ٩] وكلمة أنا مسلمٌ لا تكفي للنَّجاة والحياة، كلمة الشَّهادة مجرَّدةٌ مِن كلِّ عملٍ لا تكفي، والعبادةُ من دون معاملةٍ لا تكفي، والمعاملاتُ من دون عباداتٍ وعقيدةٍ لا تكفي.

وحاتمُ الطَّائيُّ شهد له الرَّسولُ ﷺ أنَّه كانَ يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ، ولكنَّه كافرٌ، وقالَ ﷺ في حقِّه لابنتِه سفَّانة: «**كان أبوكِ يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ، ولو كانَ مؤمنًا لترحَّمْنا له**»(١).

والصِّراطُ المستقيمُ هو صراطُ الَّذينَ أنعمَ عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقينَ والشُّهداء والصَّالحين، وهو طريقٌ بينَ طريقينِ مَن سلكَ أحدَهما غوى، وهو طريقُ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه ﷺ، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «**إنِّي تاركٌ فيكم ما إنْ تمسَّكتُم بهما لن تضلُّوا**»(٢).

والصِّراطُ المستقيم: طريقٌ وسطٌ لا جبنَ ولا تهوُّرَ، لا إسرافَ ولا تقتيرَ، لا تبلُّدَ ولا إسراعَ، اعتدالٌ لا إفراط ولا تفريط.

طريقُ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: ٧] وهم قومٌ تعلَّموا العلمَ ولم يعملوا به، أُمروا بالخيرِ وجانبوه، نُهوا عن المنكرِ وعملوه، عرفوا الحقَّ وأعرضوا عنه ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طٰه: ١٢٤].

والضَّالُّون: قومٌ جهلةٌ، أتباعُ كلِّ ناعقٍ، اتَّبعوا قومًا أضلُّوهم، أو اتَّبعوا رؤوسًا جُهَّالًا كمن أنبأنا عنهم النَّبيُّ ﷺ: «**فَسُئِلُوا فَأَفْتُوا بغيرِ علمٍ، فضَلُّوا وأضلُّوا**»(٣).

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم (٨٣٩٩).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٧٨٨)، وقال: حديث حسن غريب.
(٣) رواه البخاري، رقم: (١٠٠)، ومسلم، رقم: (٢٦٧٣).

أو قومٌ تعبَّدوا اللهَ بما لم يشرِّعْه فـ ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

حديثُ «**أُوصيكم بتقوى اللهِ والسَّمعِ والطَّاعة، وإنْ عبدٌ حبشيٌّ، فإنَّه منْ يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإيَّاكم ومحدثات الأمورِ فإنَّها ضلالةٌ، فمن أدركَ ذلك منكم فعليه بسنَّتي وسنَّة الخلفاءِ الرَّاشدين المهديِّين، عضُّوا عليها بالنَّواجذ**»(١).

حديث: «**أطيعوني ما كنتُ بينَ أظهركم، وعليكم بكتابِ اللهِ أَحِلُّوا حلالَهُ وحرِّموا حرامَه**»(٢).

وختامًا لسورةِ الفاتحة أقولُ وباللهِ التَّوفيقُ: ومن حرَم نفسَه من المباحاتِ والطَّيِّباتِ من الرِّزقِ فليسَ على الصِّراطِ المستقيمِ.

ومن تحلَّلَ من جميعِ الواجباتِ واستباحَ الفواحشَ والمحرَّماتِ فليسَ على الصِّراطِ المستقيم ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

حديثُ «**إنَّ النَّبيَّ ﷺ وافى بأذرعاتٍ سبعَ قوافلَ ليهودِ قريظةٍ والنَّضير، فيها أنواعُ البزِّ والطِّيبِ والجواهرِ وسائرِ الأمتعةِ، فقالَ المسلمون: لو كانتْ هذه الأموالُ لنا لتقوَّينا بها وأنفقناها في سبيلِ اللهِ، فقالَ لهم الرَّسول ﷺ: سبع آياتٍ هي خيرٌ من هذهِ القوافلِ السَّبع**»(٣).

حديثُ مسلمٍ: «**من صلَّى صلاةً لم يقرأْ فيها بأمِّ القرآنِ فهي خداجٌ**

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) أورده المتَّقي الهنديُّ في كنز العمَّال، رقم: (٩٠٦).
(٣) أورده المناوي في الفتح السماوي، رقم (٦٣٧) وقال: (لم أقف عليه).

ثلاثًا غيرُ تمام، فقيلَ لأبي هريرةَ: إنَّا نكونُ وراءَ الإمامِ، فقالَ: اقرأ بها في نفسِكَ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: قالَ اللهُ تعالى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفين، ولعبدي ما سألَ، فإذا قالَ العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قالَ الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال: مجَّدني عبدي، - وقال مرَّةً: فوَّضَ إليَّ عبدي -، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[(١)].

حديثُ «**إذا أمَّنَ الإمامُ فأمِّنوا فإنَّ مَن وافقَ تأمينُه تأمينَ الملائكةِ غُفرَ له ما تقدَّمَ من ذَنْبِه**»[(٢)].

وكلمةُ آمين سنَّةٌ للمأمومِ والإمامِ يقولانِها بعدَ سكتةٍ، ومعناها استجبْ.

(١) رواه مسلم، رقم: (٣٩٥).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٧٨٠)، ومسلم، رقم: (٤١٠).

قرآن الفجر (٧)

تفسير سورة النَّاس

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [النّاس: ١-٦].

نجدُ فيها صفاتٍ وصفَ اللهُ بها نفسَه، فيها معنى الحماية الَّتي تليقُ بمَن هذه صفاتُه أن يُستعاذ به.

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النّاس: ١] الإلهُ المستعلي المستولي.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [النّاس: ٢] الَّذي بيده مبدؤهم ومنتهاهم، والملكُ معناه المتسلِّطُ.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النّاس: ٣] المعبودُ بحقٍّ الَّذي لا يجوزُ أن يُعبَد سواه.

في هذه السُّورة توجيهٌ من الله سبحانه وتعالى لنبيِّه محمَّد ﷺ ابتداءً، وللمؤمنين من بعده أن يعوذوا بكنف الله ربِّ النَّاس المربِّي الموجِّه الرَّاعي الحارس الحامي، وأن يلوذوا بحماه من كلِّ مخوفٍ خافٍ أو ظاهرٍ، مجهولٍ أو معلومٍ، على وجه الإجمالِ أو على وجهِ التَّفصيل.

فكأنَّه جلَّ جلاله يقول لنبيِّه ﷺ ولأمَّته: تعالوا إلى هنا، تعالوا إلى الحمى، تعالوا إلى المأمن، ففي حمى الله تعالى أمنٌ وطمأنينةٌ وسلامٌ.

حديثُ مسلمٍ عن عقبةَ بن عامرٍ: «**أُنزِلَت عليَّ آياتٌ لم يُرَ مثلُهنَّ قطُّ: المعوِّذتين**»(١).

«**الشَّيطانُ جاثمٌ على قلبِ ابنِ آدم، فإذا ذكرَ اللهَ خشيَ وإذا غفلَ وسوسَ**»(٢).

وفي هذه السُّورة الاستعاذةُ ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النّاس: ١-٣] والمستعاذُ منه ﴿شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [النّاس: ٤-٦] والله جلَّ شأنُه يوجِّه النَّبيَّ ﷺ وأمَّتِه إلى العياذ به والالتجاء إليه مع استحضار معاني صفاته؛ فهو ربُّ النَّاس مع أنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ و﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [النّاس: ٢] وهو ملكُ كلِّ شيءٍ، وهو ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النّاس: ٣] وإله كلِّ شيءٍ؛ ولكنَّه خصَّهم لكي يجعلهم يحسُّون بالقربى في موقفِ العياذِ والاحتماء، ويشعرون أنَّهم لا قِبَلَ لهم بدفع الشَّرِّ إلَّا بعونٍ من الرَّبِّ الملكِ الإلهِ، والوسواسُ هو من اتَّصف بالوسوسةِ، والوسوسةُ هي الصَّوتُ الخفيُّ، ووسوسةُ الشِّيطانِ حديثُ شرٍّ لا خيرَ فيه، يلقيه الشَّيطانُ في فكرِ الإنسانِ، وكم في البشرِ من شياطينَ تُحَسِّنُ القبيحَ! والخنَّاسُ المستخفي فهو خانسٌ يُظْهِرُ أنَّه مِن أهلِ الخيرِ؛ ولكنَّ الشَّرَّ في

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٨١٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣٩٩١)، بلفظ: «**ما من مولودٍ إلَّا على قلبِه الوسواس، فإنْ ذكرَ اللهَ خنس، وإنْ غفلَ وسوسَ، وهو قولُه تعالى** ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [النّاس: ٤]».

ثـيـابـه ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤] أي: يُوقِعُكَ في الشَّرِّ من حيثُ لا تعلمُ، ويأكلُ مالَك عن طيبِ خاطرٍ منكَ.

والجِنَّةُ توسوس، ومن الجنَّةِ الشَّياطينُ نحسُّ في نفوسنا اندفاعًا إلى الشَّرِّ لا ندري مصدرَه، ونحنُ نعلُم أنَّ إبليسَ أعلنَها حربًا على آدم وبنيه منذُ بدءِ الخليقةِ كبرياءً وحقدًا وحسدًا للإنسانِ ولا يحرسُ الإنسانَ من الشَّيطانِ إلَّا الإيمانُ وذكرُ اللهِ والصَّلاةُ والاستعاذةُ باللهِ، وكلُّها أسلحةٌ يتحصَّنُ بها الإنسانُ ضدَّ عدوِّه الشَّيطان، وإذا أغفلَ الإنسانُ سلاحَه استرقَه الشَّيطان.

وفي سورة (ص) نجدُ تحذيرًا من الرَّبِّ جلَّ جلالُه يحذِّرُ بني آدمَ من الشَّيطانِ الرَّجيم: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [صٓ: ٧١-٧٢] ﴿...يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [صٓ: ٧٥-٧٦] ثمَّ يقولُ إبليس: ﴿فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [صٓ: ٧٩] ثمَّ يقولُ: ﴿...فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [صٓ: ٨٢-٨٣].

ويـقـولُ اللهُ جـلَّ جـلالُـه: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [صٓ: ٨٤-٨٥].

وحكمةُ ذلكَ خفيَّةٌ لا يعلمُها إلَّا اللهُ وحدَه.

حديثٌ عن ابن عباس عن النَّبيِّ ﷺ «**الشَّيطانُ جاثمٌ على قلبِ ابنِ آدمَ فإذا ذكرَ اللهَ خنسَ وإذا غفلَ وسوسَ**»(١).

(١) رواه الحاكم في المستدرَك على الصَّحيحين، رقم: (٣٩٩١)، بلفظ: «**ما من** =

أمَّا النَّاسُ ففيهم مَن هو أشدُّ وسوسةً من الشَّيطانِ:

١- رفيق السُّوءِ يدسُّ الشَّرَّ في قلبِ رفيقِه وعقلِه من حيثُ لا يحتسب، الرَّفيقُ مأمونٌ والصَّديقُ مُصدِّقٌ.

٢ - النَّمَّامُ الواشي يزيِّنُ الكلام ويزحلِقُه كأنَّه الحقُّ وكأنَّه الصِّدقُ يصلُ إلى العقلِ دونَ أن يشعرَ الإنسانُ.

٣ - بيَّاع الشَّهواتِ، ويقالُ عنهم: إنَّهم يندسُّون في منافذِ الحواسِّ حتَّى يصلوا إلى الغريزةِ ولا يقدرُ أحدٌ على دفعِهم إلَّا بمعونةِ اللهِ.

٤ - والحاشيةُ حاشيةُ الشَّرِّ تكونُ مع كلِّ ذي سلطانٍ توسوسُ له حتَّى يكونَ جبَّارًا في الأرضِ مفسدًا للصَّالح، مهلكًا للحرثِ والنَّسل.

وعشراتٌ غيرهم من الموسوسين الخنَّاسين الَّذين يعرفون كيف ينصبون الشِّباكَ وكيفَ يصطادون الضِّعاف، وكيف يصلون إلى منافذ القلوب وهم في النَّاس أكثرُ شرًّا من الجِنَّة.

والله ﷻ دلَّ هذا الإنسانَ الضَّعيف على سلاحٍ قويٍّ يدفعُ به عن نفسِه شرَّ الوسواسِ الخنَّاس، وذلك السِّلاحُ أن يستعيذَ باللهِ ﷻ.

= **مولودٍ إلَّا على قلبِه الوسواس، فإنْ ذكرَ اللهَ خنس، وإنْ غفلَ وسوسَ، وهو قولُه تعالى:** ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [النّاس: ٤]».

قرآن الفجر (٨)

(تفسير سورة الفلق)

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: ١-٥].

ومعنى أعوذ: ألجأ وأستعيذ، والفلق: الصُّبح، والفلق: المخلوقات، فالأرض تنفلق بالنَّبات، والجبال تنفلق بعيون الماء، والسُّحب تنفلق بالماء، والأرحام تنفلق بالمواليد.

إنَّ الله فالق الحبِّ والنَّوى وهو جلَّ شأنه فالق الإصباح.

المعنى: أعوذ بالخالق من شرِّ كلِّ مخلوقٍ إطلاقًا وإجمالًا.

وللمخلوقاتِ في بعض الأحيان شرورٌ، كما أنَّ لها في أحيانٍ أخرى خيراتٍ، ومنافع، وإنَّنا هنا نعوذ بالله من شرِّها ليبقى لنا نفعُها، والله الَّذي نستعيذ به من شرِّها قادرٌ على توجيهها، أو تدبير حالات تدفع عنَّا شرَّها وتبقي لنا خيرَها.

ثم خصَّص ممَّا خلق أصنافًا هي أكثرُ أذًى وأوقع شرًّا.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ [الفلق: ٣] والغاسق إذا وقب: هو

اللَّيل حين يتدفَّق فيغمر الأرض وكلَّ ما عليها بظلامه، واللَّيل إذا غمر ظلامه مَخُوفٌ، يبعث على الرَّهبة، وهو ستارٌ يختفي في ظلامه ذوو الإجرام، كمتلصِّصٍ فاتكٍ يقتحم، وعدوٍّ مخادعٍ يتمكَّن، إلَّا أنَّه ستارٌ لا يأمن الإنسان فيه على نفسه من وحشٍ مفترسٍ، أو حشرةٍ سامَّةٍ، وهو وقت تتسرَّب فيه الهواجس، والهموم، والأشجان الَّتي تخنق المشاعر والوجدان.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ٤]: والنفَّاثات في العقد هم الَّذين يحاولون فكَّ الرَّوابط بين المتحابِّين من أرحامٍ وأصدقاءٍ وأزواجٍ، والرَّوابط هي العقد وسمِّيت من ذلك عقدة النِّكاح؛ أي: الرَّابطة الَّتي تربط بين الزَّوجين على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله.

والنَّميمة تحوِّل ما بين الصَّديقين من محبَّة إلى عداوة، بالوسائل الَّتي تشبه أن تكون ضربًا من السِّحر.

والنَّمام دائمًا يأتيك بكلام يشبه الصِّدق كما يفعل السَّاحر المشعوذ فيخدع الحواسَ ويؤثِّر في الأعصاب، وهذا هو السِّحر كما صوَّره لنا القرآن الكريم في قصَّة موسى عليه السَّلام في سورة طه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ [طه: ٦٥-٦٦] ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

فالسَّاحر لا يغيِّر من طبيعة الأشياءَ، ولا ينشئ حقيقةً جديدةً لها، ولكنَّه يأخذ بحواس المسحور فيخيَّلُ له ما يريده السَّاحر.

وقصَّة لبيد بن الأعصم اليهوديِّ قصَّةٌ مشكوكٌ فيها؛ لأنَّ سورة الفلق مكِّيَّة، والنَّبيُّ معصومٌ.

وعلينا أن نأخذ بنصِّ القرآن ونفوِّض الأمر في غيره إلى الله.

وتتضمَّن قصَّة لبيد أنَّ بعضَ اليهودِ سحر النَّبيَّ ﷺ فمرض ثلاث ليالٍ، واشتدَّ عليه ذلك حتَّى كان يُخيَّل إليه أنَّه يفعل الشَّيء ولا يفعله، ثم أتاه جبريل فأخبره بالسِّحر وبموضعه الَّذي وضع فيه وتلا عليه المعوَّذتين، وجيء بالسِّحر وقرأ المعوَّذتين فكأنَّما نشط من عقال.

هذه روايةٌ مدسوسة، أين هذه الحكاية من قول الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المَائدة: ٦٧]؟

كيف نصدِّق إنسانًا يُخيَّل إليه أنَّه فعل الشَّيء وهو لم يفعله؟ اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من مُفترياتِ اليهود الَّذين لا يزالون يمكرون بالإسلام ليشكِّكوا المسلمين بنبيِّهم الَّذي عصمه الله من كيد النَّاس وكفاه شرَّ المستهزئين.

ثمَّ ما هو السِّحر؟ هل للسِّحر وجودٌ؟

إن كان للسِّحر وجودٌ؛ فإنَّه لا يؤثِّر إلا في ذوي العقولِ الضَّعيفة.

اللَّهمَّ إنِّي أؤمن بك وبنبيِّك وبأنَّك عصمته من النَّاس، ومن شرِّ المستهزئين.

اللَّهمَّ إنِّي أؤمن بأنَّ السِّحر خيالٌ، وأنَّه لا يؤثِّر إلا في ضعاف العقول؛ لأنَّك قلت وقولك الحقُّ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢] وأنَّ السَّاحر لا يستطيع أن يضرَّ أحدًا ولكنَّه يضرُّ نفسه؛ لأنَّك قلت وقولك الحقُّ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفَلَق: ٥] والحسد: انفعالٌ نفسيٌّ إزاء بعض مَن أنعم الله عليهم في تمنِّي زوال هذه النِّعمة سواء اتَّبع

الحاسد هذا الانفعال بسعيٍ منه لإزالة النِّعمة تحت تأثير الغيظ والحقد، أو وقف عند حدِّ الانفعال، فإنَّ شرًّا يمكن أن يعقب هذا الانفعال؛ لأنَّ الحاسد لا يرضى إلا بزوال النِّعمة عن المحسود.

والله جلَّ شأنه برحمته وفضله وجَّه رسول الله ﷺ وأمَّة رسوله إلى الاستعاذة به من هذه الشُّرور، ولا شكَّ أنَّ من استعاذوا به عن عقيدةٍ وفق توجيهه أعاذهم، وحماهم، وردَّ عنهم كيد الكائدين، وأذى الأشرار.

وروي في حديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان النبي ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفُثُ**[١] **فلمَّا اشتدَّ وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها**»[٢].

وروي في حديث عن عقبة بن عامر قال: «**بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين الجُحفَة والأبواء إذ غشيتنا ريحٌ، وظلمةٌ شديدةٌ فجعل رسولُ الله ﷺ يتعوَّذ بالمعوَّذتين، ويقولُ يا عقبةُ تعوَّذ بهما فما تعوَّذ مُتعوِّذ بمثلهما، قال عقبة: وسمعته يؤمُّنا بهما في الصَّلاة**»[٣].

وروي في حديث عن عائشة قالت: «**كان النَّبيُّ ﷺ إذا أوى إلى فراشِه كلَّ ليلةٍ جمع كفَّيه ثمَّ نفثَ فيهما فقرأ: قلْ هو الله أحد، وقل أعوذ بربِّ الفلق، وقل أعوذ بربِّ النَّاس، ثمَّ يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاثَ مرَّات**»[٤].

(١) النفث: وهو كالنفخ مع ريق. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٣٧٣).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٠١٦)، ومسلم، رقم: (٢١٩٢).
(٣) رواه أبو داود، رقم: (١٤٦٣).
(٤) رواه البخاري، رقم: (٥٠١٧).

قرآن الفجر (٩)
تفسير سورة الإخلاص

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤]

قال علماء التَّفسير: إنَّ علوم القرآن، أو القرآن كلَّه يحتوي على التَّوحيد والتَّشريع والتَّهذيب.

فالتَّوحيد: عبادة الله، والتَّشريع: تنظيم الحياة الاجتماعيَّة، والتَّهذيب: تنظيم الحياة الفرديَّة.

وهذه السُّورة القصيرة جامعة للتَّوحيد كلِّه؛ لهذا كانت تعدل ثلثَ القرآن.

وروي في حديث إنَّ رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] يردِّدها فلمَّا أصبح جاء إلى النَّبيِّ ﷺ فذكر له ذلك، وكان الرَّجل يَتَقَالُّهَا[1]، فقال ﷺ: «**والَّذي نفسي بيده إنَّها لتعدل ثلثَ القرآن**»[2].

والأحَديَّةُ في الإسلام عقيدة في الضَّمير، وتفسير للوجود، ونهج للحياة.

---

(١) تقلل الشيء: رآه قليلًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ٢٨٠).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٠١٣).

وأحد: غير واحد؛ لأنَّ كلمة أحد أدقُّ، فواحد قد يوجد معه واحدٌ آخر، أمَّا أحد فلا يفتقر إلى شيء؛ لأنَّه ليس كمثله شيء.

﴿ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]: ليس في الوجود حقيقة إلا حقيقته ووجوده، فلهذا كانت العبادة له وحده لا شريك له، والاتِّجاه له وحده لا شريك له، في السَّراء والضَّراء، والنَّعماء والبأساء، فما جدوى التَّوجه إلى غيره، والتَّلقي عنه وحده، ومنه تلقِّي العقيدة، والتَّصور، والقيم، والشَّرائع، والقوانين، والأوضاع، والنُّظم.

فهو المشرِّع وحده ويجب أن تكون شريعته وحدها هي الَّتي تحكم الحياة.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢]: الَّذي يقصده العباد، ويتوجَّهون إليه بقضاء ما أهمَّهم؛ لأنَّه لا يُقضى أمرٌ إلا بإذنه، فكما أنَّه واحد في ألوهيَّته، فكذلك هو أحدٌ مقصودٌ في قضاء الحاجات، مُجيبٌ وحده لأصحابها، يقضي في كلِّ أمرٍ بإذنه، ولا يقضي معه أحدٌ، يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فليس ثمَّة واسطةٌ ولا شفيع.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣]: لأنَّه أحدٌ، والولادة تقتضي المجانسة وهي على الله محَال، وصفته جلَّ جلاله الكمال المطلق في جميع الأحوال ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢﴾ [الصَّافات: ١٤٩-١٥٢].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]: لم يوجد له مُماثل، ولا مُكافئ لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعليَّة، ولا في أيَّة صفة من الصَّفات الذَّاتيَّة، فهو جلَّ جلاله أحد ليس له نِدٌّ ولا مُماثلٌ، وليس ثمَّةَ ازدواج طبيعية كما يقول الفرس.

فهذه السُّورة سمِّيت سورة الإخلاص؛ لأنَّها نفت الشِّرك عن الله بجميع أنواعه.

وروي في حديثُ مسلمٍ عن أبي هريرة: «**احشدُوا فإنِّي سأقرأُ عليكم ثلثَ القرآن فحَشد من حَشد، فخرج نبيُّ الله ﷺ فقرأَ**: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، ثمَّ دخلَ فقالَ بعضُنا لبعض: إنِّي أَرى هذا خبرًا جاء من السَّماء فذاك الَّذي أدخله، ثم خرج نبي الله فقال: إنِّي قلتُ: سأقرأُ عليكم ثلثَ القرآنِ ألا إنَّها تعدلُ ثلثُ القرآن»(١).

وروي في حديث مسلمٍ عن أنسٍ قال أنس: «**كان رجلٌ من الأنصار يؤمُّهم في مسجد قُبَاء فكان كلَّما أمَّهم في الصَّلاةِ قرأَ بـ** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] ثم يقرأُ سورةً أُخرى معها، وكان يصنعُ ذلك في كلِّ ركْعةٍ، فكلَّمهُ أصحابُه إمَّا أن تقرأَ بها، وإمَّا أن تدعَها وتقرأَ بسورةٍ أُخرى، فقالَ: ما أنا بتاركِها، إن أحببتم أن أؤمَّكُم بها فعلتُ، وإن كرهتم تركت، وكانوا يرونه أفضلَهم، فلمَّا أتاهم النَّبيَّ ﷺ أخبروه الخبر، فقال: يا فُلان ما يمنعك ممَّا يأمرك به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأَ هذه السُّورة في كلِّ ركْعةٍ؟ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أحبُّها، فقال: إنَّ حبَّها أدخلكَ الجنَّة»(٢).

وروي في حديث النَّسائي عن معاذ بن عبد الله عن أبيه قال معاذ بن عبد الله عن أبيه: «**أصابَنا طشٌّ وظلمةٌ فانتظرنا رسولَ اللهِ ليصلِّي بنا، فخرج فَقالَ: «قُلْ»**، قلتُ: ما أقُول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]

(١) رواه مسلم، رقم: (٨١٢).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٨٧٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

والمعوِّذتين حينَ تمسي وحين تصبحُ ثلاثًا يكفيكَ كلَّ شيء»[١].

وهذه السَّورة مع وجازتها ردَّت على مشركي العرب، والنَّصارى واليهود كما مرَّ، وأبطلت مذهب المانويَّة القائلين بالنُّور والظُّلمة، ومذهب النَّصارى القائلين بالتَّثليث، ومذهب الصَّابئة الَّذين يعبدون النُّجوم والأفلاك، وردَّت على مشركي العرب الَّذين زعموا أنَّ غير الله يقصد عند الحوائج، وأنَّ له شريكًا، تعالى الله عن ذلك كلِّه.

وتسمَّى هذه السُّورة سورة الإخلاص؛ لأنَّها تضمَّنت إثبات وحدانيَّة الله، وأنَّه لا شريك له، وأنَّه هو المقصود وحده في قضاء الحوائج، وأنَّه لم يلِد ولم يولد، وأنَّه لا مثيل له ولا نظير، وهذا يقتضي الإخلاص في عبادة الله وحده، أو الاتِّجاه إليه وحده.

قرآن الفجر (١٠)

تفسير سورة المسد

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المَسَد: ١-٥].

(١) رواه النسائي، رقم: (٧٨١١).

أبو لهب عبد العزى بن عبد المطَّلب عمُّ النَّبيِّ ﷺ، وامرأته أمُّ جميلٍ واسمُها أروى بنتُ حربٍ بن أبي أميةَ أختُ أبي سفيان.

وقد اتَّخذ أبو لهب موقفه من عداوة الرَّسول ﷺ منذ اليوم الأوَّل للدَّعوة.

وروي في حديث البخاريِّ عن ابن عبَّاس: «**خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى البطحاء وقصدَ الجبلَ فنادى: «يا صَبَاحَاه»**[(١)] فاجتمعت إليه قريشٌ، فقال: أرأيتُم إن حدَّثتكم أنَّ العدوَّ مُصبِّحكم أو مُمسِّيكم أكنتم مُصدِّقي؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليكَ كذبًا، قال: إنِّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ، فقال: أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبًّا لكَ فأنزلَ اللهُ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ... ۝١﴾ [المَسَد: ١]»[(٢)].

قال ابن إسحاق: «**حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة ابن عباد الديلي يقول: إني لمعَ أبي رجلٌ شابٌّ أنظرُ إلى رسولِ الله ﷺ يتبعُ القبائلَ، ووراءهُ رجلٌ أحولُ، وضيءُ ذو جمَّة[(٣)]، يقفُ رسولُ الله ﷺ على القبيلةِ فيقول: يا بني فلان، إنِّي رسولُ اللهِ إليكم آمركم أن تعبدُوا الله ولا تُشركوا به شيئًا، وأن تصدِّقوني وتمنعوني حتَّى أنفذَ عن اللهِ ما بعثنَي بهِ، وإذا فرغَ من مقالتهِ قال الآخرُ من خلفهِ: يا بني**

---

(١) يا صباحاه: العرب تقول إذا نذرت بغارة من الخيل تفجؤهم صباحا: «**يا صباحاه**»، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح، لأنهم أكثر ما يغيرون عند الصباح. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٥١٨).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٩٧٢)، ومسلم رقم: (٢٠٨)، بلفظ: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟**».

(٣) جمَّة: الشعر الكثير. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣١/ ٤٢١).

فلان، هذا يريدُ منكم أن تسلخُوا اللَّات والعزَّى وحلفاءَكم من الحيِّ من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء من البِدعة والضَّلالةِ فلا تسمعُوا له، ولا تتَّبعوه، فقلت لأبي: من هذا؟ قال عمُّهُ أبو لهبٍ».[١] ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ.

كان أبو لهب قد خطب بنتي رسول الله ﷺ رقيَّة وأم كلثوم لولديه: عُتبة ومعتِّب قبل البعثة ولمَّا بعث ﷺ أمرها بتطليقهما.

لم يقصِّر أبو لهب وزوجتُه في إيذاء النَّبيِّ ﷺ وقد أثاراها حربًا شعواءَ على الدَّعوة لا هوادة فيها ولا هُدنة.

أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النَّبيِّ ﷺ تلبية لدافع العصبيَّة القبليَّة، ولكنَّ أبا لهب خرج عليهم، وحالف قريشًا ضدَّهم.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المَسَد: ١] التَّباب: الهلاك والبوار، تبَّت دعاء بالتباب، وتبَّ تقريرٌ لوقوع الدُّعاء.

في كلماتٍ قليلةٍ يصدر الدُّعاء ويتحقَّق ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المَسَد: ٢].

لم يغنِ عنه ماله الكثير ولا سعيه المتواصل فقد تبَّت يداه وتبَّ هو وهلك، وذلك في الدُّنيا.

أمّا في الآخرة فإنَّه ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المَسَد: ٣] تصويرًا للنَّار المتَّقدة الشَّديدة الحرارة.

وستصلاها معه امرأته حمَّالة الحطب، الَّتي تحمل الشَّر وتسعى

---

(١) رواه أحمد، رقم: (١٦٠٢٥)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤٥٨٩).

بالأذيَّة والوقيعة بين النَّاس.

لم تكن امرأة أبي لهب تحمل الحطب، لكنَّها كانت تكلِّف نفسها مشقَّة الإفساد بين النَّاس، وإيقاد نيران العداوة بينهم كمن يحمل الحطب لإيقاد النَّار.

وقد حملت يومًا حزمةً من شوكٍ لتلقيها في طريق النَّبيِّ ﷺ بقصد إيذائه، وكانت حمَّالة الحطب امرأةُ أبي لهبٍ معجبة بنفسها وبزوجها، وكيف لا وهي بنت حرب بن أبي أمية وأخت سفيان وزوجة أبي لهب بن عبد المطلب.

يرسم لها القرآن هذ الصُّورة المزرية صورة حمَّالة الحطب في جيدها حبلٌ من مسد (من ليف).

وانتشر الخبر في مكَّة كلِّها وانزعجت أمُّ جميلٍ وأخذت تبحثُ عن رسول الله ﷺ لتنتقم منه، وجاءت يومًا إلى الحرمِ والرَّسولِ وأبو بكر جالسان وبيدها فهرٌ يملأُ الكفَّ لتضرب به النَّبيَّ ﷺ وقد أخذَ اللهُ بصرَها عنه فلم ترَ غيرَ أبي بكر.

وقد سجَّلت هذه السُّورة في كتاب الله الخالد، سجَّلتها صفحات الوجود بكلمات تنطق بغضب الله على أبي لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

عندما فتح النَّبيِّ ﷺ مكَّة طلب من العبَّاس عمِّه أن يحضر له عُتبة ومعتِّب ابني أبي لهب، ولم يكونا قد أسلما، قال العبَّاس: قلت: تنحَّيا ممَّن تنحَّى، قال: اعتني بهما، فركبت إليهما فأقبلا مسرعين وأسلما وبايعا، فقال ﷺ: «**وإنِّي استوهبت ابني عمِّي هذين من ربِّي فوهبهما**

لي»[١]، وقد شهدا حُنينًا مع رسول الله ﷺ.

قرآن الفجر (١١)

تفسير سورة النصر

سورة النصر مدنيَّة

أعوذُ باللهِ من الشَّيطان الرجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النّصر: ١-٣]

في أسباب نزول هذه السُّورة وردت روايات منها رواية الإمام أحمد أنَّ النَّبيَّ ﷺ في آخر عمره كان يُكثر من قول: «**سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، وقال: إنَّ ربي أخبرني أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبِّح بحمده وأستغفره إنَّه كان توَّابًا، فقد رأيتها** ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النّصر: ١]»[٢].

والمراد بالفتح فتح مكَّة، والعرب كانت تتلوَّم بإسلامها فتح مكة؛ أي: تنتظر، تقول: إن ظهر على قومه فهو نبي، وبعد الفتح بسنتين

(١) أورده العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة، رقم: (٨١٣٨).
(٢) رواه مسلم، رقم: (٤٨٤)، وأحمد، رقم: (٢٤٠٦٥).

أسلمت الجزيرة كلُّها.

أما رواية البخاريُّ الَّذي ذكر بها أنَّ عمرَ كان يُدخِلُ ابن عبَّاس معه وفي مجلسه أشياخ بدر، فاعترضوا عليه، فسألهم عن سبب نزول هذه السُّورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا مكَّة ونصرنا، وسكت بعضهم، فتوجَّه لابن عبَّاس وقال له: أكذلك تقول يا ابن عبَّاس؟ فقال: لا هو أجلُ رسول الله ﷺ، علَّمه له: قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، فذلك علامة أجلِك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣]، فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم إلَّا ما تقول.

نصرُ الله يجيءُ به الله في الوقتِ الَّذي يقدِّره، وفي الصُّورة الَّتي يريدها، وليس لأحدٍ فيه يدٌ، لا للنَّبيِّ ولا لأصحابِه، وإنَّما هو أمرُ الله يحقِّقه بهم أو بدونهم، وحسبهم منه أن يجريه اللهُ على أيديهم، ويقيمهم عليه أمناءَ وحرَّاسًا، هذا هو حظُّهم من نصر الله ومن الفتح، ومن دخول النَّاس في دين الله أفواجًا.

والله جلَّ شأنه أكرم نبيَّه وأصحاب نبيِّه بأن حقَّق نصره على أيديهم، فعليهم أن يقابلوا هذا الإكرام بالاتِّجاه إلى الكريم بالتَّسبيح والحمد والاستغفار في لحظة الانتصار.

التَّسبيح والتَّحميد على ما أولاهم من مِنَّة بأن جعلهم أمناءَ على دعوتِه، وحرَّاسَ دينِه، وفتح على رسوله، ودخول النَّاس في الدِّين أفواجًا.

والاستغفار من زهوٍ قد يأتي بعد النَّصر، أو فرحةٍ في الظَّفر بعد طول العَناء، أو من شيء يساور القلب في فترة الكفاح الطَّويل، والشِّدَّة

الطاغية، أو من استبطاء لوعد الله بالنَّصر، الاستغفار من التَّقصير في حمد الله؛ لأنَّ جهد الإنسان ضعيف، ونعم الله دائمةٌ كثيرةٌ لا تُحصى.

والله جلّ شأنه توَّاب، كثير القَبولِ لتوبة عباده، فهو يحبُّ التَّوَّابين، ويفرح بتوبة العبد إذا تاب، والقرآن بأدبه يريد للبشريَّة أن ترتفع بالإيمان بالله، ويريدها أن تشرق به، وأن تَشِفَّ وترفرفَ، حتَّى تبلغ من العظمةِ والقوَّة والانطلاق درجات الكمال.

قيل: إن هذه السُّورة هي آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت في مِنى قبل وفاته ﷺ بـ (٩٠) يومًا، ونزلت آية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] بنفس التَّاريخ.

ثم إنَّ آية الكَلالة نزلت قبل وفاته ﷺ بخمسين يومًا: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النِّساء: ١٧٦]، ثم آية ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش ﷺ بعدها خمسة وثلاثين يومًا.

وآخر ما نزل في القرآن هي الآية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٨١] فعاش بعدها واحدًا وعشرين يومًا.

وهنا أحبُّ أن أذكر بعض صفات الأنبياء كما ذكرها القرآن.

فيُوسف عليه السلام عندما وصل إليه إخوته وأبواه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يُوسُف: ١٠٠] فلم تأخذه فرحة الانتقام ولا زهوة النَّصر ولا الكرسي ولا ذلَّة إخوته، بل قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يُوسُف: ١٠٠].

وفي هذه اللَّحظة تصفو النَّفس وترجع إلى الفاعل الأوَّل ويُوسف جالس على كرسيه في أُبَّهة سلطانه، ويقول: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يُوسُف: ١٠١].

وسليمان وقد وهبه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده وقد سخَّر له الرِّيح، والشياطينَ، والجنَّ، والأنسَ والطَّير، وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضرًا بين يديه قبل أن يرتدَّ إليه طَرفه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النَّمل: ٤٠].

وهكذا كلُّ الصَّالحين لا تبطرهم النِّعمة ولا تنسيهم فضل المنعم عليهم.

قرآن الفجر (١٢)

تفسير سورة الكافرون

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافِرون: ١-٦].

ما كان العرب يجحدون أو ينكرون الله، ولكنَّهم لا يعرفونه بحقيقته الَّتي وصف بها نفسه بأنَّه أحد صمد، فكانوا يشركون به الأصنام والأنصاب، ويتمثَّلون بها الصَّالحين أو الملائكة، كانوا يعترفون بأنَّ الله خالق السَّموات والأرض، مسخِّر الشَّمس والقمر، منزِّل المطر ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العَنكبوت: ٦٣] كانوا يحلفون بالله، ويدعون الله، ويقولون: اللَّهمَّ، ولكنَّهم مع إيمانهم بالله يشركون، ويجعلون للآلهة الباطلة نصيبًا في زرعهم وأنعامهم.

كانوا يعتقدون أنَّهم على دين إبراهيم، وأنَّهم أهدى من اليهود والنَّصارى؛ لأنَّ اليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنَّصارى قالوا: المسيح ابن الله، ونسوا أنَّهم يقولون: الملائكة بنات الله، والأصنام قرابة الله.

ولكن ليس في الشِّرك خيارٌ؛ لأنَّ الشِّرك أمَّةٌ واحدةٌ، والكفر ملةٌ واحدةٌ، وكلُّهم يظنُّ نفسَه أنَّه خيرٌ من جماعته.

كانوا يحاولون صرف النَّبيَّ ﷺ عن دعوتِه، بأن يجمعوا إليه مالًا إن كان يريد مالًا حتَّى يكون أكثرهم مالًا، أو يقيموه عليهم رئيسًا إن كان يطمع في الرِّياسة، أو يزوِّجوه أجمل بناتهم وأكرمهن نسبًا إن كان يرغب في ذلك، أو يجاملهم بالسُّجود لآلهتهم، ولكنَّه ﷺ قال كلمته الَّتي كانت تعني تساميًا عن هذه المطالب الرَّخيصة والإعراض عنها: «**والله لو وضعوا الشَّمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر**»[1].

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ورواه الطبراني بلفظ آخر وهو: «ما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم...» رقم (٥١١).

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٤].

وبعث الله محمدًا بالحنيفيَّة الغرَّاء الخالصة من شوائب الشِّرك، وحاول المشركون أن يتَّخذ معهم خطَّة وسطًا بينه وبينهم فيسجد لآلهتهم ويسجدوا لإلهه، وأن يسكت عن عيب أصنامهم وعيب عبادتهم ويتركوه في دعوته، ويلتقوا معه في نصف الطَّريق، ولكن الرَّسول ﷺ قال لهم: «**معاذ الله أن تشرك به غيره**»(١).

ثم أنزلت عليه السُّورة فقرأها عليهم فأَيَسُوا منه عند ذلك وطفِقوا يؤذونه ويؤذون أصحابه حتَّى كانت الهجرة.

وفي السُّورة أمرٌ من الله حاسمٌ؛ لأنَّ عقيدة محمَّد ﷺ أمر من الله وحده، ليس لأحدٍ فيها أمر.

والكافرون هنا هم المشركون أهل مكَّة الَّذين يعبدون الأحجار والأصنام والتَّماثيل المصنوعة من الحجارة والطِّين والخشب والمعدن، ووصفهم بالكفر إشارة إلى أنَّهم من الَّذين استبدَّ بهم العناد، وركَّبهم الضَّلال، فانتقلوا من الشِّرك إلى الكفر الصَّريح.

ومن معجزات القرآن الكريم أنَّ من خاطبه بالكفر مات على الكفر ومن وعده بالعذاب والنَّار مات على الكفر أيضًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافِرون: ١]: ناداهم بحقيقتهم، ووصفهم بصفتهم، ومعنى ذلك ليس بين الإيمان والكفر التقاء.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافِرون: ٢]: عبادتي غير عبادتكم،

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية.

ومعبودي غير معبودكم، فمعبودي لا مثل له ولا ندٌّ، ولا صاحبة ولا ولد، وأنتم تعبدون من يتَّخذ الشُّفعاء والولد، ومن يتجلَّى في صورة، فبين ما تعبدون وما أعبد فارق كبير وبَون شاسع.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ [الكافِرون: ٣]: تأكيد للآيتين الأُوْلَيين لا أنا عابد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي، حتَّى لا تبقى مظنَّة، ولا شُبهة، ولا مجال لمظنَّة، أو شُبهة، بعد التَّوكيد المكرَّر، ثمَّ هددهم بأنَّ لكم جزاؤكم على أعمالكم، ولي جزائي على عملي، اختلاف لا تشابه فيه، وانفصال لا اتِّصال معه، وتمييز لا اختلاط فيه، ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافِرون: ٢].

أنا هنا وأنتم هناك، لا معبر ولا جسر ولا طريق، وهذا تمييز واضح، ومفاصلة كاملة شاملة ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [القَصَص: ٥٥].

إنَّ الجاهليَّة جاهليَّة، والإسلام إسلام، والفارق بينهما بعيد، والسَّبيل هو الخروج من الجاهليَّة بجملتها إلى الإسلام بجملته.

السَّلامة هو الانسلاخ من الجاهليَّة بكلِّ ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكلِّ ما فيه لا ترقيع ولا أنصاف حلول ولا التقاء في منتصف الطَّريق، ومهما تزيَّنت الجاهليَّة بزيِّ الإسلام أو تسمَّت باسمه فهي جاهليَّة، والإسلام منها بريءٌ ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافِرون: ٦].

قرآن الفجر (١٣)

تفسير سورة الكوثر

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١-٣].

هذه السُّورة خالصة لرسول الله ﷺ مثل: الضُّحى والشَّرح، فيها وصف ما منح الله رسوله ﷺ من الخير والبركة، ثُمَّ يوجهه إلى طريق الشُّكر.

كذلك تُمَثِّل حقيقة الهدى والإيمان بكثرةٍ وفيضٍ وامتدادٍ، وحقيقة الضَّلال والكفران بقِلَّةٍ وانحسارٍ وانبتارٍ.

كان سفهاء قريش يتابعون الرَّسول ﷺ ودعوته بالكيد والمكر، وإظهار السُّخرية والاستهزاء ليصرفوا النَّاس عن الاستماع للحقِّ الَّذي جاء به من عند الله، فكانوا يقولون إنَّه أبتر يشيرون إلى أنَّه لا ابن له، والبيئة العربيَّة تتكاثر بالأبناء، وتُعِيبُ على من لم يولد له ذكر، وهذه الوخزة تجد من يهشُّ لها من أعداء الرَّسول ﷺ.

ولكن هذه السُّورة نزلت لتمسح على قلبه ﷺ، وتُقَرِّر حقيقة الخير الذي اختاره له ربُّه، وحقيقة البتر المُقدَّرِ لأعدائه قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ

أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: ١].

كان المشركون حينما يرون النَّبيَّ ﷺ والمسلمين في قلَّةٍ من العدد والمال يستخفون بهم، ويهونون من شأنهم، ظانِّين أنَّ الحقَّ والخير إنَّما يكون مع المال والغناء، وكثرة العدد.

فالله ﷻ قال لنبيِّهِ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: ١] والكوثر: الخير الكثير، ومنه: النُّبوَّةُ والدِّينُ الحقُّ، وإرسالك للنَّاس كافَّة، وجعل دينك خاتم الأديان، وجعلك خاتم الأنبياء، ورسالتك نهاية الرسالات، وجعل دينك الذي بُعِثْتَ به جامعًا بين خيري الدُّنيا والآخرة، وبين الحسن والمال من كلِّ ناحية.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: ١]؛ أي: القرآن، والهدى، والنُّور، والعلم، وسعادة الدُّنيا والآخرة لك ولأصحابك ولأمَّتك إلى يوم القيامة.

الكوثر: الخير الكثير المفرط في الكَثْرَة، والمواهب الكثيرة الَّتي يعجز عن بلوغها العدُّ، وهو خيرٌ مطلقٌ غير محدود، خيرٌ أنت واجده في النُّبوَّة، والاتِّصال بالحقِّ الكبير، وأيُّ شيءٍ أكبر من الاتِّصال بالله؟ وأيُّ شيءٍ يفقده من وجد الله؟

وأحد هذا الكوثر في القرآن كتاب الله، فسورةٌ واحدةٌ من هذا القرآن كوثرٌ لا نهاية لكثرته.

هذا الخير الكثير واجده في الملأ الأعلى الَّذي يُصَلِّي على النَّبيِّ، ويُصَلِّي على من يُصَلِّي عليه في الأرض، وفي الأذان الَّذي ينادي المُنادي فيه باسم الله وإلى الله، ويقترن فيه اسم محمَّد باسم الله وفي سُنَّةِ النَّبيِّ

المُمتدَّة عبر القرون في أرجاء هذه الأرض الواسعة، وفي الملايين بعد الملايين السَّائرة على أثره، وملايين الملايين من الألسنة الهاتفة باسمه، والقلوب المُحِبَّة لسيرته وذِكْرِهِ، حتى يَرِثَ الله الأرضَ ومن عليها، وفي الخير الكثير الذي فاض على البشريَّة في جميع أحوالها وأجيالها بسببه وعن طريقه، وفي مظاهر شتَّى لا حدَّ لمدلولها، ولا إحصاء لفوارقها.

قالوا: إنَّ الكوثرَ نهرٌ في الجنَّة، أو حوضٌ أعطاهُ اللهُ رسوله ﷺ في طول شهرٍ وعرض شهر، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللَّبن وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السَّماء، من شَرِبَ منه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا، ولكنَّ ابن عباس رضي الله عنهما قال: بأنَّ هذا النَّهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه رسول الله ﷺ، فهو كوثرٌ من الكوثر.

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]؛ أي: إنَّا منحناك من الفضائل ما لا سبيل إلى عدِّه وإحصائه.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢] وجَّه المولى جلَّ اسمه نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ إلى كيفيَّةِ شُكْرِهِ بأن يتجرَّد لله وحده في العبادة، والاتِّجاه في الصَّلاة وفي ذبح النُّسك ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وكان من تمام نِعَم الله على عبده محمَّد ﷺ أن يُصبِحَ عدوُّهُ مقهورًا مبتورًا، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣] ليس محمَّدٌ هو الأبتر، وإنَّما الذي يكرهُ محمدًا أو يعيبه أو يهجوه هو الأبتر، وقد صدق الله فيهم وعده فمن كان منهم مذكورًا بقي له سوء الذِّكر، ومن لا ذِكْرَ له انقطع وانطوى ذكره، بينما ذِكْرُ محمَّدٍ ﷺ يمتدُّ ويعلو ما بقيت على الأرض حياة.

قرآن الفجر (١٤)

تفسير سورة الماعون

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [المَاعون: ١-٧].

الدِّينُ الإسلاميُّ ليس دين مظاهرٍ وطقوسٍ، ولا تُغني فيه مظاهر العبادات والشَّعائر ما لم تكن صادرة عن إخلاصٍ لله.

كذلك ليس هذا الدِّينُ أجزاءَ وتفاريقَ يؤدِّي الإنسانُ منها ما يشاءُ ويتركُ ما يشاء، إنَّما هو منهجٌ كاملٌ في عباداتهِ ومعاملاتِهِ، وتكاليفهِ الفرديَّة والاجتماعيَّة، التي تعودُ كلُّها بالخيرِ على البشرِ، وكلُّها غايةٌ تتطَّهرُ معها القلوب، وتصلُحُ بها الحياة، وحقيقةُ الإيمانِ حينَ تستقرُّ في القلبِ تتحرَّكُ من فورها لتُحَقِّقَ ذاتها في عملٍ صالحٍ تستجيبُ له الجوارح، فإذا لم يظهر لها أثرٌ فهذا دليلٌ على عدم وجودها.

قد يقولُ الإنسانُ بلسانهِ: أنا مسلمٌ ومُصَدِّقٌ بهذا الدِّينِ وقضاياه، وقد يُصَلِّي، ويؤدِّي شعائرَ أُخرى غير الصَّلاة، ولكنَّ حقيقة الإيمان وحقيقة التَّصديق بالدِّينِ تَظَلُّ بعيدةً عنه، ويظلُّ بعيدًا عنها؛ لأنَّ لهذه الحقيقة علامات تَدُلُّ على وجودها وتحقُّقِها.

وقديمًا قال آباؤنا وأجدادنا: العبادةُ غير العادة، وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق؛ لأنَّ الإيمانَ الحقَّ هو قولٌ باللِّسانِ، وتصديقٌ بالقلبِ.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ [المَاعون: ١] سؤالٌ ينتظرُ من يُسْمِعُه الجواب: إلى أين؟ وإلى من يتَّجه؟ ومن الذي يُكَذِّبُ بالدِّين؟ إن كنت لا تعرفه بذاته فاعرفه بصفاته.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [المَاعون: ٢] يدفعه دفعًا وبعنفٍ، ويزجره زجرًا يهينُ اليتيم ويؤذيه.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [المَاعون: ٣] لا يوصي برعايته، ولا يَحُثُّ غيره على إطعامه.

إنَّ حقيقة التَّصديق بالدِّينِ ليست كلمةً تُقَالُ باللِّسانِ، وإنَّما هو تَحَوُّلٌ بالقلب، يدفع المصدِّق بالدِّين إلى فعل الخير والبرِّ بإخوانه من البشر المحتاجين إلى الرعاية والحماية.

والله ﷻ لا يريد منَّا كلماتٍ أو حركاتٍ؛ وإنَّما يريدُ منَّا أعمالًا تُصَدِّقُ هذه الحركات، «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدًا**»(١) و«**الدِّينُ المعاملة**»(٢) و«**من غشَّ فليس منَّا**»(٣).

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [المَاعون: ٤-٥] يؤدُّون الصَّلاة ولكن دون أن يكون لها أثرٌ في نفوسهم؛ أي: يؤدُّونها

(١) أورده الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١١٠٢٥).
(٢) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية.
(٣) رواه الترمذي، رقم: (١٣١٥).

حركات لا تعيش قلوبهم معها ولا بها، ولا يتدبَّرون حقيقة ما فيها من قراءاتٍ ودعواتٍ وتسبيحاتٍ؛ بل حركات اعتادوها، وكلمات حفظوها، لا تدرك نفسهم معناها، ولا تصل إلى معرفة ثمراتها.

و﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [المَاعون: ٦] إنَّهم يُصَلُّونَ رياءً للنَّاس لا إخلاصًا لله، وإنَّهم يفعلون ما يفعلون ليراهم النَّاس دون أن تستشعر قلوبهم فعلَ الخيرِ.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [المَاعون: ٧] لا ينهضون بباعثِ الرَّحمة إلى سدِّ حاجةِ المُعْوِزين، وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم، فلو كانوا يقيمون الصَّلاة حقًّا لما منعوا العون عن عباده، فهذا هو محكُّ العبادة الصَّالحة المُرتضاة عند الله، المقبولة ممَّن أرادها.

وهكذا نجد أنفسنا أمام حقيقة هذه العقيدة، عقيدة الإسلام، وأمام طبيعة هذا الدِّين نجد نصًّا قرآنيًّا يُنذِرُ مصلين بالويل؛ لأنَّهم لم يقيموا الصَّلاة حقًّا، وإنَّما أدَّوا حركاتٍ لا روح فيها رياءً فلم تترك أثرًا في قلوبهم وأعمالهم.

هل للمسلمين الَّذين يزعمون أنَّهم آمنوا بما نُزِّلَ على محمَّدٍ أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم ليعرفوا هل هم من المُصَدِّقين بالدِّين أو من المُكَذِّبين أمام اليتامى والمُعْوِزين؟ ثم ليقلعوا عن الغرور برسوم هذه الصَّلاة الَّتي لا أثر لها في نفوسهم أو هذا الجوع الَّذي يُسَمُّونه صيامًا، والَّذي لا أثر له إلَّا في عبوس وجوههم وبذاءة ألسنتهم، وضياع أوقاتهم في النَّوم نهارًا وفي اللَّهو والبطالةِ ليلًا، وليرجعوا إلى الحقِّ من دينهم فيُقِيموا الصَّلاة بخشوعٍ للعليِّ الأعلى حتى تنهاهم عن الفحشاءِ والمُنكرِ وسوء الخُلُقِ.

قرآن الفجر (١٥)

تفسير سورة قريش

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾﴾ [قُرَيش: ١-٤].

سورةُ قريش أو سورة الإيلاف، والإيلاف: كلمةٌ مأخوذةٌ من أَلِفَ إلفًا، أوآلفَ إيلافًا: إذا عكف عليه واستأنسَ بهِ ولم ينفُر منه.

كلُّنا يعرف أنَّ مكَّة وما حولها بلادٌ قاحلةٌ لا نباتَ فيها ولا زرع ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وهذا الوضع جعل سكَّانها يفكرون في أمر معاشهم، فكانوا تُجَّارًا يتاجرون مع جيرانهم في الشَّمال والجنوب، فرحلوا إلى اليمن شتاءً وإلى الشَّام صيفًا، ولأنَّهم أهل بيت الله وجيرانه كان النَّاسُ يحترمونهم ويكرمونهم ويعاملونهم معاملةً حسنةً، وبذلك زادت منافعهم، واتَّسعت تجارتهم، وكَثُرَ ربحهم، وعقدوا المعاهدات والمحالفات التِّجاريَّة مع جيرانهم، وقد ألفت قريش رحلة الشِّتاء إلى اليمن ورحلة الصَّيف إلى الشَّام، تتاجر بهما فتأتي إلى مكة بمنتجاتِ الهند من اليمن، وتجلب من الشَّام الحاصلات الزراعيَّة إلى مكَّة - الوادي الجدب غير ذي الزَّرع - حتى ألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين فصارتا عادةً وإلفًا.

وكان العرب يحترمون قريشًا في أسفارهم؛ لأنَّهم جيرانُ بيتِ الله، وسُكَّانِ حرمه، وولاةُ الكعبة، فيذهبون آمنين في رحلتيهم، ويعودون منهما سالمين لا يمسُّهم أحدٌ بسوءٍ على ما كان من فوضى ضاربة في تلك الطُّرق.

فكان احترام البيت واحترام أهله وجيرانه حزمًا من القوَّة المعنويَّة التي تحتمي بها قريش في أسفارها، ولهذا ألفتها نفوسهم وتعلَّقت بالرحيل استدرارًا للرِّزقِ، ولا ننسى دعوة نبيِّ الله إبراهيم عليه السَّلام وهو يرفعُ القواعدَ من البيت مع ابنه إسماعيل فجعلَ هذا البيتَ آمنًا، وجعله عتيقًا من كلِّ سوء: من سُلْطَةِ المُتَسَلِّطِين، وجبروت الجبَّارين، حتى حين انحرف النَّاس وأشركوا وعبدوا الأصنام كان من يأوي إليه آمنًا، والمخافة من حوله في كلِّ مكانٍ، هذه الحال كَفِلَت لجيرة هذا البيت الأمن والسَّلامة في جميع أنحاء الجزيرة العربيَّة عند جميع القبائل العربيَّة مع ما تحمله قوافلهم من بضائع مُغرية، وجعلت لقريش بصفةٍ خاصَّةٍ ميزة ظاهرة، وفتحت أمامها أبواب الرِّزقِ الواسع المكفول في أمانٍ وسلامٍ وطُمَأنينة، وهذا كلُّهُ من تسخير ربِّ هذا البيت الَّذي حفظ حرمته، وزادها في نفوس العرب، وردَّ عنها كيد الكائدين، واعتداء الباغين، من أجل هذا الإيلاف الَّذي ألفوه والأمن الَّذي أعطوه.

﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ [قُرَيش: ٣] الَّذي بسببه مكَّن منزلتهم في قلوب النَّاس، فلولاه ما طعموا، ولكانت أرضهم قفرة ليست بذات زرعٍ ولا ضرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة حتَّى يأتي النَّاس إليهم.

وربُّ هذا البيت ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قُرَيش: ٤] فوسَّع لهم الرِّزق، ومهَّدَ لهم سُبُلَ الكسب وطرق التَّحصيل، ومنع عنهم التَّعدي

والتَّطاول على أموالهم، ولولا ذلك لعاشوا في ضَنْكِ عيشٍ وجوعٍ، ولما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته في حياتها، وما كانت في ساعة الشِّدَّة وفي الكريهة تلجأ لغير ربِّ هذا البيت وحده، فهذا تذكيرٌ يستجيشُ الحياة في النُّفوس، ويثير الخجل في القلوب.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قُرَيش: ٤]: آمن طريقهم، وأورثهم القبول عند النَّاس، وإذا كانوا يعرفون أنَّ هذا كلُّه من فضل ربِّ هذا البيت، فَلِمَ يَتَوَسَّلُونَ إليه بتعظيم غيره؟ ولِمَ يتقرَّبون إليه بعبادة سواه؟ مع أنَّه لا فضل لأحدٍ سواه عليهم، فهو وحده المنعم عليهم بنعمة الرِّزق، والأمن، وكفاية الحاجة، يُذَكِّرُهم الله جلَّ شأنه بهذه المنن ليستحيوا ممَّا هم فيه من عبادة غير الله معه، وهو ربُّ هذا البيت الَّذي يعيشون في جواره آمنين طاعمين، ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون إليه سالمين.

قرآن الفجر (١٦)

تفسير سورة الفيل

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفِيل: ١-٥].

قصَّةُ أبرهة وعزمه على هدم الكَّعبة مشهورة، واختلاف الروايات فيها كثيرة، ذلك أنَّ أبرهة عامل ملك الحبشة على اليمن أراد أن يصرف أهل اليمن عن حجِّ الكَّعبة، فبنى كعبةً في صنعاء باسم ملك الحبشة، فخمة على جانب كبير من الأُبَّهة، فلم ينصرف عرب اليمن إليها، فصحَّ عزم أبرهة على هدم الكعبة، وقاد لذلك جيشًا جرَّارًا تصاحبه الفيلة، وفي مقدِّمتها الفيل المشهور، فوقف في طريق أبرهة نفر عربي من ملوك اليمن لكنَّ أبرهة كسره وأسره، ثُمَّ وقف له نفيل ابن حبيب الخثعمي في قبيلتين من العرب فهزمهم وأسر نفيلًا، فكان نفيل بعد هذا الأسر ذليلًا لأبرهة، ثُمَّ مرَّ بالطَّائف فلم يجد من قاومه حتَّى وصل إلى مكَّة، واستاق نعمها، وفيها مئتا بعير لعبد المُطَّلب، فَهَمَّت قريش بقتاله، لكن عبد المطلب قال لهم: لا طاقة لكم به فاتركوه، وبعث أبرهة رسولًا يسأل عن سَيِّدِ مكَّة، ويقول: إنَّه إن كان لا يريد حربه فليُكَلِّمه، فقال عبد المُطَّلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، وانطلق مع الرَّسول إلى أبرهة، وكان عبد المُطَّلب وسيمًا جميلًا عظيمًا، وقيل: كان أوسم النَّاس وأجملهم، فلمَّا رآه أبرهة أجلَّه وجلس معه على البساط، ثُمَّ قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن يردَّ الملك عليَّ مئتي بعيرٍ كان قد أصابها لي، فقال الملك: أتكلِّمني في مئتي بعيرٍ أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك جئت لهدمه؟ قال عبدُ المُطَّلب: أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ يحميه، وسيمنعه، قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك فردَّ أبرهة إبله عليه، وانصرف عبدُ المُطَّلب إلى مكَّة يأمر قريشًا بالخروج منها والتَّحرز في شَعَفِ[1] الجبال،

(١) شَعَفِ: وهي رؤوس الجبال. انظر: تاج العروس للزبيدي (٢٣/ ٥١٣).

ثُمَّ أخذ بحلقة باب البيت يدعو الله ويقول:

لاهُمَّ إنَّ العبدَ يمنعُ رحله فامنَعْ رحالك

لا يغلبنَّ صليبهم ومِحالهم أبدًا محالك

إنْ كنت تاركهم وقبلتنا فَأَمْرٌ ما بدا لَكْ

ثُمَّ وجَّه أبرهة جيشه وفيله إلى مكَّة، فبرك الفيل، وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا، ولا ننسى حادث القَصْوَاء ناقة رسول الله ﷺ حين بركت، وقوله ﷺ: «**ما خلأت**[1] **القصواء وما كان ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل**»[2]، إنَّ الله حبس الفيل عن مكَّة لأمرٍ يريده.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: ١] استفهامٌ بيَّنه عظمة الحادث، والحادث معروف للعرب يؤرِّخون به، ومولد رسول الله ﷺ كان عام الفيل ذاته.

ألم تعلم بقصةٍ متواترةٍ مُستفيضةٍ أصبح العالم بها يساوي في قوَّتِهِ وجلاله العالم بحقيقة الرؤية والمشاهدة؟!

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾ [الفيل: ٢]: أضلَّ مكرهم فلم يبلغ هدفه وغايته، والله على كلِّ شيءٍ قدير، فقد ضيَّع تدبيرهم، وخيَّب سعيهم.

يُذَكِّرُ الله قريشًا بنعمته عليهم في حماية هذا البيت في الوقت الَّذي عجزوا هم عن الوقوف في وجه المعتدين، ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ٣-٥]

(١) خلأت: بَرَكَتْ وحَرَنَتْ. انظر: تاج العروس للزبيدي (١/ ٢١٦).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٧٣١).

يُفَصِّلُ الله تعالى كيف أبطل هذا الكيد، فأرسل عليهم طيرًا أبابيل[١] لم يَرَ العرب مثله من قبل، أرسله جماعات يتلو بعضها بعضًا، تحمل معها حجارة يابسة وملوَّثة بطين، لترمي بها أولئك الباغين، حتى جعلتهم كالعصف، والعصف: هو ما يبقى من الزَّرعِ بعد الحصاد، تعصف به الرياح وتأكله الماشية، ووصفهم بالعصفِ المأكولِ الممضوغ المطحون أو أنَّه عصف سوس؛ صورةٌ حسِّيَّةٌ للتَّمزيقِ البدنيِّ الَّذي أُصِيْبَ به أولئك الباغون، أما أبرهة فقد أُصيبَ بما أُصيب به قومه لكنَّه عاش حتى رأى هلاكهم كلَّهم بعينه ثُمَّ انشقَّ صدره عن قلبه وهلك.

قرآن الفجر (١٧)

تفسير سورة الهمزة

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾

[الهُمَزة: ١-٩].

---

(١) طيرًا أبابيل: يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا إِبِّيلًا إِبِّيلًا؛ أَي: قَطيعًا خَلْفَ قَطِيعٍ. انظر: لسان العرب (١١/ ٦).

هذه السُّورة تُعْطِينَا صورةً للَّئيم الحقير، الصَّغير النَّفس الذي يُؤتي المال فتسيطر نفسه به، يشعر أنَّ المال هو القيمة العليا للحياة فلا أقدار للمعاني، ولا للحقائق، ولا للنَّاس؛ إنَّما المال وحده له تلك الأقدار كلُّها، وأنَّ من ملك المال هانت أمامه الكرامات والأقدار بلا حساب، وما أكثر هؤلاء النَّاس في كلِّ زمانٍ ومكان، بل وفي كلِّ بيئة!.

صورةٌ لئيمةٌ حقيرةٌ من صور النَّفس البشريَّة يحسب أنَّ المال إلهٌ قادر، وبه يقدِرُ على كلِّ شيء، وربما ظنَّ أنَّه يستطيع دفع الموت، وتخليد الحياة، ويعدد المال بهوس أو يستلذَّ تعداده، ويستهين بأقدار النَّاس وكراماتهم، بلمزهم وهمزهم، يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته، قد خلا من الإيمان قلبه، وعرت من المروءة نفسه، والإسلام نهى أمته عن السُّخْرِيَة واللَّمز والعيب حتَّى الظنَّ.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهُمَزة: ١] وقد تقدَّم ذكر الويل في سورة الماعون، وهو السُّخط والعذاب من الله لكلِّ هُمَزَةٍ، مبالغة من همَّاز، طعَّان في النَّاس، أكَّال لحومهم، ومؤذٍ لهم إن غابوا وإن حضروا، وكذا معنى اللُّمزة.

وويلٌ: عذابٌ شديدٌ لا يُدْرَكُ كُنْهُهُ، ولا تعرف حقيقته كل همزة لمزة.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾ [الهُمَزة: ٢]: أطغاه غناه وجمعه المال، وشغفه بعدده وإحصائه؛ لأنَّه يرى أنَّ لا عزَّ له إلَّا به، ولا شرف له بغيره.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهُمَزة: ٣] يظنُّ أنَّ المال أعطاه الأمان فهو خالدٌ في الدُّنيا، ونسي أنَّ الله أعدَّ له عذابًا يليقُ به.

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾ [الهُمَزة: ٤]: سيُطرَحُ طرح الإهانة والتَّحقير في الردى المُهِل، في الحُطَمَة: النَّار التي تُحطِّم كلُّ ما يُلقى إليها، فتُحطِّم كيانه وكبرياءه وغروره.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ [الهُمَزة: ٥] علمُكَ لا يُحيط بها، ولا يقف على حقيقتها، نعم لا يعلم من شأنها إلَّا الذي أعدها لمستحقيها.

الحُطَمَة: هي ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهُمَزة: ٦] التي أعدَّها الله، فهي تُنسَبُ إليه، وهي نار لا تخمد أبدًا، فهي ملتهبة التهابًا لا يدرك حقيقتها إلَّا من خلقها، ثُمَّ وصفها بأوصافٍ تُخالف نيران الدُّنيا، فهي ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهُمَزة: ٧] تدخل في الأجواف حتى تصل إلى القلوب، والقلبُ أشدُّ أجزاء البدن تألمًا فإذا وصلته النار فقد بلغ العذاب بالإنسان الغاية، وهي بعد كلِّ ذلك مُسلَّطة على كلِّ إنسان بجرمه، فهي تطَّلع على ما في القلوب من عصيان وطاعة من خبث وطيبة.

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨﴾ [الهُمَزة: ٨] مطبقة كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعِيْدُوا فيها.

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ [الهُمَزة: ٩] إطباقٌ مُحكم لا خلاص منه؛ لأنَّ الخلاص ميئوس منه؛ لأنَّهم سيُشَدُّون إلى أعمدة طويلة لا يستطيعون معها الحركة، أو أنَّ الأبواب ستطبق عليهم فتوضع وراءها أعمدة لا يستطيعون لها فكاكًا.

وقد كان النَّبيُّ ﷺ وصحابته يواجهون حالة واقعيَّة من بعض المشركين الَّذين أوتوا المال فأطغاهم غناهم، فأنزل الله على نبيه هذه السُّورة حفظًا لنفوسهم من أن تتسرَّب إليها مهانة الإهانة، وليشعرهم أنَّ الله جلَّ شأنه يرى ما يقع لهم وسيعاقب عليه وسيردُّ كيد اللَّئيم إلى نحره.

وقيل: إنَّ السُّورة نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في أُبي بن خلف، وقيل: إنَّها مرسلةٌ للعموم ولكلِّ من كان همزة لمزة.

قرآن الفجر (١٨)

تفسير سورة العصر

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العَصر: ١-٣].

سورةٌ قصيرةٌ قليلةُ الكلمات، كبيرة المعنى، يتمثَّلُ فيها منهجٌ كاملٌ للحياة البشريَّة كما يريدها الإسلام، تضع دستورًا للمجتمع في كلماتٍ قِصَارٍ، وتصف الأُمَّة المسلمة: حقيقتها ووظيفتها، منهجٌ لا ينتهي أبد الآبدين في كلِّ عصرٍ ومِصر، منهجٌ دائمٌ أبديٌّ، إيمان وعمل صالح، وتواصٍ بالحقِّ، وتواصٍ بالصَّبر.

فما هو الإيمان؟ تعريف الإيمان الفقهي: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرِّه من الله.

ومعناه: اتِّصال هذا الكائن الصَّغير المخلوق الفاني بالخالقِ الأزلي الباقي، بالعبادة والتَّعبُّد لإلهٍ واحدٍ، يرفع الإنسانيَّة عن العبوديَّة لسواه، ويُقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد، فلا يذلُّ لأحد، ولا يحني

رأسه لغير الواحد القهار، ومن هنا كان الانطلاقُ التَّحرري الحقيقيُّ للإنسان؛ إذ إنَّه ليس في الوجود إلَّا قوَّة واحدة، ومعبود واحد، والاستقامة بعد ذلك عن المنهج الذي يريده هذا المعبود الواحد هو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٠].

إيمانٌ ينبعث عن دوافع، ويتَّجه إلى هدف، فلا يكون الخير فلتة طارئة، ولا نزوة عارضة، ولا حادث وينقطع، والإيمان هو أصلُّ الحياة، ينبثق عنه كلُّ فرع من فروع الخير، وتتعلق به كلُّ ثمرة من ثماره. فالَّذين كفروا ولم يؤمنوا ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وفي موضعٍ آخر ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النُّور: ٣٩].

الإيمان دليل على صحَّةِ الفطرة، وسلامة التَّكوين الإنساني، فالإنسان الَّذي يعيش في هذا الكون لا بُدَّ أن يتجاوب مع من حوله «**المؤمن أَلِفٌ مألوف**»[1] وينتهي هذا التَّجاوب إلى الإيمان بمن أوجد هذا الكون، وإلَّا كان هذا الإنسان مختلًا أو ناقصًا، وحينئذٍ يكون في خسر.

والمؤمن الذي يجد حلاوة الإيمان يعيش في سعة وسعادة وارتفاع وجمال، ويرى عيشة غيره من غير المؤمنين ضيِّقة شقيَّة، هابطة، شوهاء، فالمؤمن يرى الخسران في غير الإيمان، وعمل الصَّالحات والتَّواصي بالحقِّ والصَّبر.

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ [العَصر: ١] مخلوق من مخلوقات الله، فيه أحداث

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٢٦٩٨).

وعبر، فيه ليل ونهار، سرَّاء وضرَّاء، صحة وسقم، غنى وفقر، راحة وتعب، حزن وفرح، سعادة وشقاء، حياة وموت. . . إلى نحو ذلك ممَّا يسترشد به العاقل أنَّ للكون خالقًا مدبِّرًا، أمَّا الكافر فينسب هذه الأحداث للدَّهر فيقول: إنَّها من بلايا الزَّمان، وقسوة الحياة، ونوائب الدَّهر.

ولكنَّ الله ﷻ هدانا بالإسلام، وعلَّمنا أنَّ العصر أو الدَّهر مخلوق، والخالق هو الله، وليس للدَّهر من سبب، ولا فعل، والإنسان مخلوق صغير من مخلوقات الله، فضَّلَه عليها بعقله ولسانه، فأعماله مصدر شقائه وسعادته، وليس للزَّمان فيها فعل، فهو دائمًا في خسر؛ لأنَّ حيوانيته تقوده إلى الخسر، أما المذنب فهو الَّذي جحد معروف خالقه عليه وجحوده جريمة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر: ٣] هذه هي الصِّفة الأولى من صفات النَّاجين من الخسران، ومن هم الذين آمنوا؟

إنَّ الله يصف الذين آمنوا في كتابه بأوصافٍ كثرة منها:

١- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

٢- ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١-١١].

٣-﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟... ﴿١٥﴾﴾ [الحُجرَات: ١٥] إلى آخر الآية.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٧]، والبأساء: شدَّة الفقر، والضَّراء: شدَّة المرض، وحين البأس: الحرب.

قرآن الفجر (١٩)

تفسير بقية سورة العصر

١- حديث مسلم عن عليٍّ أنَّه قال: والَّذي فلقَ الحبَّة، وبَرَأَ النَّسمة، إنَّه لَعَهْدُ النَّبيِّ ﷺ إليَّ: «**أنَّه لا يحبِّني إلَّا مؤمنٌ، ولا يُبْغِضَني إلَّا منافقٌ**»(١).

٢- حديث التِّرمذيِّ والنَّسائيِّ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمون مِن لسانِه ويدِه، والمهاجرُ مَن هجرَ ما**

(١) رواه مسلم، رقم: (٧٨).

نَهَى اللهُ عنه(١)**، والمؤمنُ مَن أَمِنَه النَّاس على دمائِهم وأموالِهم**»(٢).

٣- حديث مسلم عن العبَّاس: «**ذاقَ طعْمَ الإيمانِ مَن رضِي بالله ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمَّدٍ رسولًا**»(٣).

٤- حديث مسلمٍ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال: «**والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّة يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثمَّ يموتُ وَلم يُؤمن بالَّذي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كان مِن أصحابِ النَّار**»(٤).

٥- حديث التِّرمذيِّ عن عليٍّ عن النَّبي ﷺ قال: «**لا يؤمنُ عبدٌ حَتَّى يؤمنَ بأربعٍ: يشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، بعثني بالحقِّ، ويؤمنُ بالموتِ، ويؤمنُ بالبعثِ بعدَ الموتِ، ويؤمن بالقَدَر**»(٥).

٦- حديث عن أنس عن النَّبي ﷺ: «**آيةُ الإيمانِ حُبُّ الأنصارِ، وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأنصارِ**»(٦).

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٣] وعملُ الصَّالحاتِ يوصلُ إلى كلِّ خيرٍ، ويُسعِدُ العاملين بها في الحياة الدُّنيا، وينجِّيهم في الأخرى، ودليلُ ذلك في كتاب الله تعالى:

١-﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٤٨٤).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٢٧)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٣) رواه مسلم، رقم: (٣٤).
(٤) رواه مسلم، رقم: (١٥٣).
(٥) رواه الترمذي، رقم: (٢١٤٥).
(٦) رواه البخاري، رقم: (١٧)، ومسلم، رقم: (٧٤).

وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يُونس: ٩-١٠].

٢-﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النُّور: ٥٥].

٣- ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: ٩٧].

٤-﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طٰه: ١٢٣].

أمَّا الشَّقاء؛ ففي المعاصي، وهذا ما أيَّده كتاب الله:

١-﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعرَاف: ٩٦].

٢-﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ [القَصَص: ٥٨].

٣-﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النّحل: ١١٢].

٤-﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طٰه: ١٢٤-١٢٦].

وأعرض المسلمون فكانوا أبعدَ أهلِ الأرض عن الخير؛ لأنَّهم أشدُّ النَّاس إعراضًا عن منهج الله وذكره الَّذي اختاره لهم.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر: ٣]؛ أي: أوصى بعضُهم بعضًا بالحقِّ، والحقُّ: هو الأمر الثَّابت الَّذي لا سبيلَ إلى إنكاره، والتَّواصي بالحقِّ ضرورةٌ؛ لأنَّ النُّهوض بالحقِّ عسيرٌ، والمعوِّقات عن الحقِّ كثيرةٌ منها: هوى النَّفس، وتصوُّرات البيئة، ومنطق المصلحة، وطغيان الطُّغاة، وظلم الظَّلَمَة، وجَوْرُ الجائرين، وقوَّة المحتاجين، وقوَّة الحجَّة العاطفة.

والأمَّةُ الَّتي عملها؛ التَّآمر بالمعروف، والتَّناهي عن المنكر، والتَّواصي بالحقِّ، والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى أمَّةٌ ناجحةٌ، وهذا هو الدِّين الَّذي لا يقوم إلَّا في حراسةِ جماعةٍ متعاونةٍ متواصيةٍ متكافلةٍ متضامنةٍ متضامَّةٍ.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] الصَّبر على البلايا الَّتي يتلقَّاها بالرِّضى ظاهرًا وباطنًا، وعلى المعاصي الَّتي تميلُ إليها النَّفسُ، وعلى الطَّاعاتِ الَّتي يشُقُّ عليه أداؤها، فلا بدَّ من الصَّبرِ على جهاد النَّفس، وجهادِ الغير، وتبجُّح[1] الباطل، وتنفج[2] الشَّرِّ، ولا بدَّ من الصَّبرِ في البأساء والضَّرَّاء وحين البأس، وطول الطَّريق، وبطء المرحلة، وانطماس المعالم.

والصَّبرُ لا يعني الاستسلامَ، والخضوعَ للواقع، بل على العكس تمامًا حيث نهى الإسلامُ عن الاستسلام، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ... ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩] و﴿ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التّوبَة: ١٠٥]، وقال النَّبيُّ ﷺ: **«اعملوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لِما خُلِقَ له»**[3].

---

(١) تبجَّح به: فَخَرَ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٢٩٧).

(٢) نفجت الشيء فانتفج؛ أي: رفعْتُه وعظَّمته. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٢٤٨).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٤٩٤٩)، ومسلم، رقم: (٢٦٤٧).

وبعد، فجميعُ النَّاس في خسرانٍ، إلَّا مَن اتَّصفوا بهذه الصِّفات الأربع: الإيمان، والعمل الصَّالح، والتَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبر.

جماعةٌ آمنوا بالله ورسله، وأحبُّوا الخيرَ، وعملوه لله، ونصحوا لله ورسوله، وتعاونوا مع غيرهم على نصرةِ الحقِّ وتواصلوا به، وصبروا على ما أُوذُوا حين جاءَهم نصر الله.

وننظرُ اليومَ إلى عالمنا فنرى الخسرانَ يحيطُ بنا من جميع جهاتِنا بلا استثناء؛ لأنَّنا أعرضنا ونسينا.

قرآن الفجر (٢٠)

تفسير سورة التكاثر

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التّكاثُر: ١-٨].

سؤالٌ رهيبٌ كأنَّما هو صوتٌ نذيرٌ، يصيح بقومٍ غافلين سادرين[1]، أو سكارى مخمورين، يقول: أيُّها اللَّاهون، والغافلون، والمتكاثرون

(١) السادر: اللاهي الذي لا يهتم لشيء ولا يبالي ما صنع. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١١/ ٥٢٨).

بالأموالِ والأولادِ، وأعراض الحياة الدُّنيا، ستُفارقِون، أيُّها المتفاخرون، وسترحلون عمَّا تتفاخرون به إلى حفرةٍ ضيِّقةٍ لا تكاثرَ فيها ولا تفاخر.

وسبب النُّزول: أنَّ قبيلتين من الأنصار هما: بنو حارثة، وبنو الحرث تفاخروا وتكاثروا، حتَّى قالت إحداهما: أَفيكم مثلَ فلانٍ وفلان؟ وقالت الأخرى مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثمَّ قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، يتفاخرون ويتكاثرون، فنزلتْ هذه السُّورةُ تقول لهم: أَشَغَلَكُم التَّكاثرُ، والتَّفاخرُ بكثرةِ الأنصار، والأشياعِ عن الجِدِّ في العملِ فلَهَوتُم بالقول عن الفعل.

والتَّكاثرُ يصرفُ وجوهَ النَّاس عن الحقِّ إلى الباطل بأنْ يطمعَ كلُّ واحدٍ أن يكون أكثر من الآخر مالًا أو عدد رجالٍ ليعلو عليه، أو يستخدمَه في سلطانه، أو يذلَّه قدرَ إمكانه.

ويعجبني هذان الحديثان اللَّذان رواهما مسلم، والإمام أحمد: «**يقولُ ابنُ آدمَ: مَالي، مَالي، وهَلْ لَكَ يا ابْنَ آدَمَ مِن مَالِكَ إلَّا ما أكلتَ فأفنيْتَ، أَوْ لبسْتَ فأبليْتَ، أَوْ تصدَّقْتَ فأمضيْتَ؟ ومَا سِوى ذَلِك فذاهبٌ وتاركهُ للنَّاس**»[(١)].

وروى الثَّاني أحمد، والبخاريُّ، ومسلم عن أنس وابن عبَّاس: «**لو كانَ لابنِ آدمَ وادِيانِ من مالٍ لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّراب، ويتوبُ اللهُ على مَن تابَ**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٩٥٨)، وأحمد، رقم: (١٦٣٢٧).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٤٣٦)، ومسلم، رقم: (١٠٤٨)، وأحمد، رقم: (١٢٢٢٨).

ثمَّ يقرعُ قلوبهم بهولِ ما سيُلاقون بقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [التّكاثُر: ٣]؛ أي: ستعلمونَ أنَّ عاقبةَ ما أنتم عليه من أباطيلَ، قد يُفكِّك الجمعَ، ويُولد الضَّغينةَ والأحقادَ، ثم يُكرِّر هذا الزَّجرَ والوعيد، فيقول:

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التّكاثُر: ٤] زيادةً في الوعيد، وتلويحًا بما سيكون وراء هذا التَّكاثر من أمرٍ ثقيلٍ هم عنه غافلون.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ [التّكاثُر: ٥] علمًا يكشف هذا الأمر ليُبيِّنَ الحقيقةَ الهائلةَ الَّتي سينتهون إليها بعد هذا اللَّهو.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ [التّكاثُر: ٦] سيتذوَّقون عذابها.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التّكاثُر: ٧] تأكيدًا لما سبق لترونهَّا وتذوقون عذابها لا بالتَّهديد وإنَّما باليقين؛ يؤكِّد الحقيقةَ، ويُعمِّق وقعها الرَّهيب في القلوب حتَّى ينتبهَ الغافلُ، ويتلفَّت السَّادر، ويخاف المطمئنُّ.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التّكاثُر: ٨] ستُسْأَلون عنه هل أدَّيتم حقَّ الله فيه؟ هل راعيتم حدود أحكامه في التَّمتُّع به؟

قيل: إنَّ عمر رضي الله عنه سأل رسولَ الله ﷺ: أيُّ نعيمٍ نُسَألُ عنه يا رسول الله، وقد أُخرِجْنَا من ديارنا وأموالنا؟ فقال ﷺ: «**ظلال المساكن، والأشجار، والأخبية التي تَقِيكم الحرَّ، والبردَ، والماءَ الباردَ في اليوم الحارِّ**»[1].

الحياةُ أيَّامٌ معدودة تنتهي بأجلها المسمَّى ثمَّ تنطفي وَمْضَتُها، وتنطوي

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفَّر لي من مصادر حديثية، وأورده المراغي في تفسيره (٣٠/ ٢٣٢).

صفحتها، ثمَّ يمتدُّ الزَّمن بعد ذلك وتمدُّ الأثقال، ثمَّ إذا ذُكِرَ الإنسانُ؛ ذُكِرَ بالخيرِ أو الشرِّ أو نُسِيَ، ثمَّ بعد ذلك كلُّه بعث وحساب.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القَارعَة: ٦-١١].

وأخيرًا فإنَّ معنى السُّورةِ الإجماليَّ يُرْتَدع به عن كلِّ عملٍ ينشأ عنه التَّدابر والتَّقاطع.

ارتَدِعُوا عن كلِّ عملٍ يشغلكم بما لا ينفعكم في دنياكم وآخرتكم حتَّى لا تندموا يوم لا ينفعكم النَّدم، فإنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عن كلِّ عملٍ يعمله، ودينكم دين الإسلام يُريدكم أن تعيشوا بسلام حتَّى تكونوا قدوةً لغيركم.

قرآن الفجر (٢١)

تفسير سورة القارعة

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القَارعَة: ١-١١].

القارعة: القيامة، والعهن: الصُّوف: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القَارِعَة: ٥].

والقارعة، والحاقَّة، والطامَّة، والصَّاخَّة، والغاشية أسماء ليوم القيامة.

والقارعة: يومُ الفزعِ الأكبر الَّذي يُفزِّعُ النَّاسَ بهوله الشَّديد، ويَصُكُّ آذانَهم بصوته المزعج، وهي ذلك اليوم الَّذي يُحَلُّ فيه النِّظام، فتصطكُّ[١] فيه الأجرام[٢] العلويَّة بالسُّفليَّة، ويقرع فيها أعداء الله بالعذاب والخزي والنَّكَال[٣]، تلك هي القارعة، وتلك هي الحاقَّة والصَّاخَّة والطَّامَّة، ولا أحدَ يُخبِرُ عنها إلَّا خالقها؛ الله.

القيامة: شديدة الهول، تقرع قلوب النَّاس بشدَّتها، ولا يحيط علم الإنسان بوصفها، والمشهد المعروض لها في هذه السُّورة مشهدُ هولٍ يحيط بالنَّاسِ والجبالِ، فالنَّاس حَيَارى قد طارت قلوبُهم، فهم في اضطرابٍ وضعفٍ وذلَّةٍ وكأنهَّم الفراشُ المنتشر كلُّ واحدٍ منهم في حيرة لا يملك لنفسه وجهةً يتَّجهُ إليها، ولا يَعرِف له هدفًا.

وهذه الجبال الَّتي كانت راسخةً وثابتةً سوف تُدَكُّ، وتُفتَّت حتَّى تصبح كالصُّوف المنفوش تتقاذفه الرِّياحُ، ويعبث به الهواء، وتتطاير شعراته مع النَّسمات.

مشهدٌ ترتجف منه الأوصال، وتذهل منه العقول، وتطير له القلوب،

---

(١) اصطك: تضارب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/ ٢٤٤).
(٢) الجِرْمُ بالكسر: الجسد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣١/ ٣٨٨).
(٣) نكَّل به تنكِيلًا: إذا عاقبه في جرم أجرمه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣١/ ٣٣).

فلا يلبثُ الإنسان أن يتلفَّت يبحث عن شيءٍ يتشبَّث به فإذا كلُّ شيء من حوله قد صار هباءً حتَّى الجبال.

ثمَّ يلتفت فإذا الميزان قد نُصِبَ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القَارِعَة: ٦-٧] ميزانٌ لا نعلم ما صفته وما شكله، نؤمن به ونَكِلُ أمرَه إلى الله فهو من الأمور الغيبيَّة كالقيامة والجنِّ والملائكة.

وخفَّة الوزن وثقله قيمٌ لها عند الله اعتبار، وقيم ليس لها عنده اعتبار.

فالَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات تثقل موازينهم باعتبار مالك الملك جلَّ شأنه، ثمَّ يُسَاقُون إلى النَّعيم و الجنَّة والرِّضى والمتعة، واللَّذَّة الَّتي لا تنتهي.

وأمَّا أولئك الَّذين خفَّت موازينهم لنقصِ حسناتهم، وقلَّة فضائلهم، وكثرة ما ارتكبوا من السَّيِّئات فمرجعهم الهاوية، والهاوية؛ الحفرة العميقة يُرمى فيها منكوسًا على أمِّ رأسه.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ [القَارِعَة: ١٠]: سؤال تخويف.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القَارِعَة: ١١]: عند الأمِّ الأَمْن والرَّاحة، ولكنْ عندها العذاب الطَّويل، والألم الدَّائم ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزّخرُف: ٧٧].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٥٦]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الزُّمَر: ٧١]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ [الزُّمَر: ٧٣].

هناك استقبال إهانة وتحقير وتأنيب وتبكيت[1]، وهنا استقبال ترحيب

(١) التبكيت: التقريع والتوبيخ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/ ٤٤٧).

وثناء وتحيَّات كانوا طيِّبين وجاؤوا طيبين، والجنَّة طيِّبة ولا يدخلها إلَّا الطيِّبون.

قرآن الفجر (٢٢)

تفسير سورة العاديات

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾ [العَاديَات: ١-١١].

والعادياتُ: هي الخيل الجارية بسرعةٍ، والضَّبح: صوتٌ يخرجُ من جوفِها عند الجري.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾ [العَاديَات: ٢] بحوافرها وهي تعدو، فإذا أصَاب الحافرُ حصاةً قدحت تُغِيرُ صباحًا، وتثير بغارتها نقعًا - والنَّقع: هو الغبار - ثم تتوسَّط جيش العدوِّ فتشتِّته على غيرِ انتظار.

والإنسان كنودٌ[1]؛ كافر بالنِّعمة، جاحدٌ لها، وهو يشهد على هذا الخلق الَّذي هو صفة له متى فقد إيمانه بربِّه، وهو شديد الحبِّ للمال.

---

(١) كنود: جحود. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٩/ ١١٤).

فإذا بعثر ما في القبور من عظام بالية، ونُبِشت الحياة في هذه القبور، ثمَّ بعد ذلك أُعطِيَ كلٌّ كتابَه فرأى ما فيه حتَّى ما كان يكتمه في صدره؛ عَلِمَ بعد ذلك كلِّه أنَّ الله ﷻ خبير.

يُقسِم الله تعالى بمخلوق من مخلوقاته، هي الخيل العادية، تجري مسرعةً وهي ضابحة بأصواتها، قادحة النَّار من شدة جريها بحوافرها، فتُفاجِئ الأعداء صباحًا على غرَّة مثيرةً النَّقع والغبار، وتدخل وسطهم بغبارها، فتشتِّتهم وتتوسَّط صفوفَهم على غرَّة، وتوقع بينهم الفوضى والاضطراب.

يُقسِم الله إنَّ الإنسانَ جاحدٌ نعمةَ ربِّه عليه، وناكر جزيل فضله، وكنود وجحود في مظاهر تبدو منه في أفعاله وأقواله، ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العَاديَات: ٧]؛ لأنَّه يمنع الخير عن عباد الله، ويحبُّ المال، ويحبُّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل، وسينطق بالحقِّ على نفسه يوم تشهد عليهِ يديه، ورجليه، ولسانه، حيث لا جدال ولا محال.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العَاديَات: ٨] يحبُّ الخير كما يتصوَّره هو؛ من المال، والسُّلطة، والجاه، وأعراض الدُّنيا، ويبخل بها بخلًا شديدًا على المحتاجين، وهذه فطرة الإنسان، وهذا طبعه، ما لم يخالطه الإيمان فيُغيِّر من طبعه، ويهذِّب أخلاقَه، والإنسانُ بغير إيمانٍ حقيرٌ صغيرٌ.

أَفَلا يعلمُ ذلك الجاحد النَّاكر - وعلمه بذلك وحدَه يهزُّ مشاعرَه - ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العَاديَات: ٩] بعثرةَ عنفٍ، وخرج النَّاس للحساب، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العَاديَات: ١٠] تحصيل عنف.

وظهرتْ الأسرارُ التي ضمَّتها الصُّدور وخبَّأتْها بعيدًا بعيدًا عن العيون والآذان.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [العَاديَات: ١١]: فهو وحده خبير بهم، عليم بأحوالهم وأسرارهم، في كلِّ وقتٍ وكلِّ حالٍ وإنَّها لخبرةٌ وراءها عاقبة، ثمَّ وراءَها حساب وجزاء.

وهكذا بدأت الصُّورة بالغارة؛ غارةُ خيلٍ عاديةٍ ضابحةٍ تقدح الشَّرر بحوافرها، تغير صباحًا لتُباغتَ الأعداءَ بغارتها وغبارها وضبحها، وتدخل وسطهم فجأةً، وتأخذهم على غرَّة، وتتركهم مذعورين، ثم إنسانٌ كنودٌ وجحود، وأُثْرَةٌ[١]، وشحٌّ وبعثرة قبور، وظهورُ أسرارٍ كانت مخبَّأةً في الصُّدور، ثم تنتهي الجولة إلى استقرارٍ ونهايةٍ مخيفةٍ، ولكنَّها مُطمْئِنَةٌ تنتهي إلى الله وحده ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [العَاديَات: ١١].

وروى ابن ماجه عن جابر عن النَّبي ﷺ: «**إنَّ من أحسنِ النَّاس صوتًا بالقرآن، الَّذي إذا سمعتموه يقرأُ، حَسِبتُمُوه يخشى الله**»[٢].

عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ كمَا أَذِن لنبيٍّ حسنِ الصَّوْتِ يتغنَّى بالقرآنِ يجْهَرُ بِهِ**»[٣].

أَذِنَ: استمع استماع مجاز جلَّ جلاله عن التَّشبيه.

ابن ماجه عن أبي ذرٍّ عنه ﷺ: «**يا أبا ذرٍّ، لَأَنْ تغدوَ فَتَعَلَّمَ آيةً من كتابِ اللهِ، خَيرٌ لكَ مِن أنْ تُصلِّيَ مئةَ ركعةٍ، وَلَأنْ تَغْدوَ فَتَعَلَّم بابًا من العلم، عُمِل به أو لم يُعمَل، خيرٌ من أن تصلِّيَ ألفَ ركعةٍ**»[٤].

---

(١) الأثرة: الجَدْبُ، والحال غير المَرْضِيَّة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٠/١٨).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٣٣٩).
(٣) رواه مسلم، رقم: (٧٩٢).
(٤) رواه ابن ماجه، رقم: (٢١٩).

حديث مسلم عن جابر: «**اتَّقوا الظُّلم، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ فإنَّه أهلكَ مَن كان قبلَكم حمَلَهُم على أنْ سَفَكُوا دماءَهُم واستحلُّوا محارمَهم**»(١).

حديث البخاري عن سهل: «**أنَّ امرأةً جاءت إلى النَّبيِّ ﷺ ببُردةٍ منسوجةٍ، فقالت: نسجْتُها بيدِي لِأَكْسُوكَهَا، فأخذها النَّبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنَّها إزارُه، فقال فلان: اكْسُنِيهَا ما أحسَنَهَا، فقال ﷺ: نَعَم، فجلس النَّبيُّ ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها ثمَّ أرسلَ بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنتَ! لَبِسَهَا النَّبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، ثمَّ سألْتَه، وعلمْتَ أنَّه لا يَرُدُّ سائلًا، فقال: إنِّي والله ما سألْتُه لِأَلبِسَهَا، وإنَّما سألْتُهُ لِتَكونَ كَفَنِي، قال سهلٌ: فكانَت كَفَنَهُ**»(٢).

حديث «**جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنِّي مجهودٌ**(٣) **فقال ﷺ: مَن يُضِيفُ هذا اللَّيلةَ رحمه الله؟ فقام رجلٌ من الأنصار، فقال: أنا، يا رسول الله، فانطلق به إلى رَحْله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلَّا قوتُ صبياني، قال: فعَلِّلِيهِم بشيءٍ، حتَّى يناموا، فإذا دخلَ ضَيْفُنا فأطفئي السِّراجَ، وأَرِيه أنَّنا نَأكُل معه، فقعدوا وأكلَ الضَّيفُ، وباتَا طاويين، فلمَّا أصبحَ وغدَا على رسول الله ﷺ، قال له: قد عَجِبَ اللهُ مِن صَنيعِكُمَا بضيفِكُما اللَّيلةَ**»(٤).

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٧٨).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١٢٧٧).
(٣) رجلٌ مجهود: محتاج. انظر تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٣٢٤).
(٤) رواه مسلم، رقم: (٢٠٥٤).

قرآن الفجر (٢٣)

تفسير سورة الزلزلة

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزّلزَلة: ١-٨].

الزَّلزَلة أو الزِّلزال: اهتزازُ الأرضِ اهتزازًا عنيفًا يغيِّرُ من معالمها، ويهدمُ ما عليها من قائم.

أثقال الأرض: معادنُها ونيرانُها.

والزَّلزلة ورد ذكرها في القرآن كثيرًا منها قوله:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحجّ: ١-٢].

٢-﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقِعَة: ٤-٦].

٣-﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾ [النّازعَات: ٦-١٠].

٤-﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عَبَسَ: ٣٤-٣٧].

أشتاتًا: متفرِّقين إلى النَّعيم أو إلى الجحيم.

الذَّرَّة: الهباءةُ التي تُرى في ضوء الشَّمس، أو هي الجزء الذي لا يتجزَّأ.

إذا أذن الله يوم القيامة ترتجف الأرض ارتجافًا، وتزلزل زلزالًا، وتنفضُ ما في جوفها نفضًا، وتخرج أثقالها أجسادًا ومعادن ممَّا حملته زمنًا طويلًا، ويُخيَّل للنَّاس أنَّهم يترنَّحون، والأرض تحتهم تهتزُّ وتمور، فيحصل الدهش للإنسان ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القَارعَة: ٦-٧]؛ سؤالٌ مشدوهٌ مبهوتٌ ذاهل، رأى ما لم يعهد، وواجهَ ما لا يُدرك، ما الَّذي حدث فرجَّ الأرض رجًّا؟ يحاول أن يتمسَّك بشيء فلا يجده.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزّلزَلة: ٤] يوم يقع هذا الزَّلزال تحدث هذه الأرض أخبارها، وتصفُ حالَها، وما جرى لها ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزّلزَلة: ٥] أمرَهَا أن تمورَ، وترتجفَ، وتتزلزلَ، وتكونَ خرابًا، أمر جبالَها أن تدكَّ دكًّا، وتتناثرَ فتكون سرابًا، فأطاعتْ أمرَ ربِّها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق: ٢] استمعت الأمر، فأطاعت، وانقادت.

وفي لمحةٍ أو لحظةٍ يصدر النَّاسُ من قبورهم أشتاتًا متفرِّقينَ مختلفينَ، تشقَّقتِ الأرض عنهم سراعًا، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القَمَر: ٨]، شاخصة

أبصارهم، و﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عَبَسَ: ٣٧].

﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزّلزَلة: ٦] وهنا الشدَّة والدَّاهية، فهم ذاهبون إلى الحساب الدَّقيق والعسير، والسِّجلَّات الَّتي لا تغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصتْهَا، يُواجَهُون بأعمالهم على رؤوس الأشهاد، عقوبة هائلة كبيرة.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزّلزَلة: ٧] ومعنى المثقال: الوزن.

والذرَّة: شيءٌ لا يُرى بالعين المجرَّدة، فما هو وزنه؟ وكيف يكون هذا الميزان الذي يَزِن الذرَّة؟ إنَّه ميزان لا شبيهَ له في الأرض.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزّلزَلة: ٨] فالخير تكافأ عليه، والشَّرُّ تكافأ عليه لا يضيع قليله ولا كثيره.

حديث عن ابن عبَّاس: «**يا أيُّها النَّاس، إنَّكم تُحشَرُون إلى اللهِ تعالى حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**[1] ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبيَاء: ١٠٤]، أَلَا وإنَّ أوَّل الخلائقِ يُكسَى يومَ القيامةِ إبراهيمُ عليه السَّلام، أَلَا وإنَّه يُجَاء برجالٍ من أُمَّتي فيُؤخَذ بهم ذات الشِّمال، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيُقَال: إنَّك لا تدري ما أحْدَثوا بعْدَكَ فأقولُ كما قال العبد الصَّالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [المَائدة: ١١٧] إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المَائدة: ١١٨] فيُقال: إنَّ هؤلاءِ لم يزالوا مُرْتدِّين على أعقابهم منذ فارقْتَهم»[2].

---

(١) الغُرْل: جمع الأَغْرَل، وهو الأقْلَف، والغُرْلَة: القُلْفة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٣/ ٣٦٢).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٦٢٥)، ومسلم، رقم: (٢٨٦٠).

حديث: عن أنس بن مالك: «**أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، قال الله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفُرقان: ٣٤] أَيُحْشَرُ الكافرُ على وجهه؟ قال ﷺ: أَلَيْسَ الذي أمشاهُ على الرِّجلين في الدُّنيا قادرًا أن يُمشيَهُ على وجهه؟ قال قتادة حين بلغه: بلى وعزَّةِ ربِّنا»(١).

حديث عن جابر بن عبد الله عن النَّبيِّ ﷺ: «**يبعثُ اللهُ يوم القيامةِ ناسًا في صور الذَّرِّ يَطؤُهم النَّاس بأقدامهم فيُقال: ما هؤلاء في صور الذَّرِّ؟ فيُقال: هؤلاء المتكبِّرون في الدُّنيا**»(٢).

قرآن الفجر (٢٤)

تفسير سورة القدر

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: ١-٥].

ليلة القدر: التَّقدير والتَّدبير، وهي اللَّيلةُ المباركةُ الَّتي جاء ذكرُها في سورةِ الدُّخان، ليلة بَدْءِ نزول القرآن.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٧٦٠)، ومسلم، رقم: (٢٨٠٦).

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، رقم: (١٨٣٢٧).

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدّخان: ٣-٦] وهي لا شكَّ ليلةٌ من ليالي رمضان، كما ذكر الله في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥].

وهذه اللَّيلةُ عظيمةٌ عظَّمها المولى جلَّ شأنه بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾ [القَدر: ٢] واختارها لبَدْءِ نزول القرآن، وأفاض فيها النَّور على الوجود كلِّه، أسبغَ فيها السَّلام الذي فاض من روح الله على الحياة الإنسانيَّة بما شرع في هذا القرآن من عقيدةٍ، وشريعةٍ، وآداب يحيا بها مَن استجابَ لها الحياةَ الطيِّبةَ.

ولقد فرق فيها من كلِّ أمرٍ حكيم، وليلةُ القدر ليلة بدء الاتِّصال المطلق بين السَّماء والأرض، وقُدِّرت فيها الأقدار؛ أقدارُ ليلةِ الحدثِ العظيم الَّذي لم تشهد الأرض مثل عظمته ودلالته، وآثاره في حياة البشريَّة كلها، وهذه اللَّيلة لم تخطَّ أقدار الأفراد فقط، وإنَّما خطَّت أقدارَ أممٍ ودولٍ وشعوبٍ، وأقدارَ حقائقَ وأوضاعٍ وقلوبٍ.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القَدر: ٤] - جبريل عليه السَّلام - ﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القَدر: ٤] في موكب ليس كمواكب الملوك الَّتي نراها ونعرِفها، وإنَّما هو موكبٌ تنزَّل بأمرِ اللهِ؛ لينشرَ السَّلام والسَّعادة على المؤمنين الصَّالحين المستجيبين لأمرِ الله جلَّ جلاله.

﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ [القَدر: ٥]: سلامُ الفردِ، والضَّميرِ، والعائلةِ، والمجتمعِ، والدَّولةِ، وسلامٌ للجميع إذا عملوا بأمر الله.

ونحن - المؤمنين - مأمورون أن لا ننسى ليلةَ القدرِ، ولا نَغفُلُ عن

ذكرها، وقد جعل لنا نبيُّنا محمَّد ﷺ هنا سبيلًا لإحيائها فقال: «**تحرُّوا ليلةَ القدر في الوِتْر، من العَشْر الأواخرِ من رمضان**»[١] عن عائشة.

وحديث: «**مَن قامَ ليلةَ القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه**»[٢].

والإسلام كما قلنا عقيدةٌ، وإيمانٌ، واحتساب، وليس مظاهرَ شكليَّة، أو رهبنة؛ إنَّما الإسلام تجرُّد وإخلاصٌ لله ﷻ وليس أوهامًا أو أساطيرَ وخرافاتٍ يُشِيعُها المخرِّفون من عامَّةِ النَّاس.

الإسلام يأمرنا أن نربطَ بين ذكرى هذه اللَّيلة وبين القيامِ فيها إيمانًا واحتسابًا والتماسًا لمغفرة الله وعفوه.

والصَّحيح المشهور أنَّ ليلةَ القدر خاصَّةٌ بهذه الأمَّة، وأنَّها باقية إلى يومِ القيامة.

حديث روى الإمام مالك عن النَّبيِّ ﷺ: «**أنه أُرِيَ أعمارَ النَّاس قبله أو ما شاء اللهُ من ذلك فكأنَّه تقاصرَ أعمار أُمَّته ألا يبلغوا من العمل ما بلغَ غيرُهم في طول العمر، فأعطاهُ ليلةَ القدر خيرًا من ألف شهر**»[٣].

حديث عن ابن عمر رضي الله عنه: «**أنَّ رجالًا من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ، أُرُوا**

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٠١٧)، ومسلم، رقم: (١١٦٩)، وأبو داود، رقم: (١٣٨٥) بلفظ: «**تحرُّوا ليلة القدر في السبع الأواخر**»، وأحمد، رقم: (٢٤٢٩٢)، ولم أقف عليه في ابن ماجه.

(٢) رواه البخاري، رقم: (١٩٠١)، ومسلم، رقم: (٧٦٠)، وابن ماجه، رقم: (١٦٤١) بلفظ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه**».

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٣٣٩٥).

ليلةَ القدرِ في المنام في السَّبعِ الأواخِر، فقال رسول الله ﷺ: أرى رُؤياكم قد تواطأتْ في السَّبعِ الأواخرِ فمَن كان مُتحرِّيها فَلْيَتحَرَّها في السَّبعِ الأواخرِ وغيرهما»[1].

وأكثر العلماء قالوا: إنَّها ليلة (٢٧)، وبعضهم قال: إنَّها ليلة (٢٣)، والله أعلم.

ولقد سمَّاها خالقُها جل شَّأنه ليلةَ القدر، وأنزل باسمها قرآنًا يُتلى، وسمَّاها ليلةً مباركة.

والقدر معناه: التَّقدير والتَّدبير، والقيمة والمقام، وليلة القدر جديرةٌ بكلِّ ذلك؛ فيها سطعَ نور الهداية الإلهيَّة على قلبِ رسوله محمَّد ﷺ؛ رحمةً بعباده يُبشرِّهم، وينذرهم، ويهديهم، ويجعل منهم أمَّة تقودُ إلى الخير، وتحرِّر من عبوديَّةٍ، وتجمع بعد فرقةٍ، وتُعلِّم من جهلٍ، وتلمُّ من شتات.

وليلة القدر كانت - ولا شكَّ - في رمضان، وثبت في السُّنَّة أنَّها في الثُّلث الأخير منه؛ لأنَّ بعثة النَّبيِّ ﷺ كانت في رمضان، ويوم الفرقان كان في رمضان، وفي شهر رمضان أُنزِلَ القرآن.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ [القَدر: ٢]؛ أي: إنَّ علمكَ لا يبلغ غايةَ فضلِهَا، ومُنتَهى عُلوِّ قدرها، وإنَّما يعلم ذلك علَّام الغيوب، فَرَق فيها من كلِّ أمر حكيم؛ قُدِّرَت فيها أقدارُ أممٍ ودولٍ وشعوبٍ، وأقدارُ حقائقَ وأوضاعٍ، وضعت فيها قيمًا وأسسًا وموازينَ ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ [القَدر: ٣].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٠١٥)، ومسلم، رقم: (١١٦٥).

نعم، هي اللَّيلة الَّتي وُضِعَ فيها الحجرُ الأساسيُّ لهذا الدِّينِ الصَّالح لكلِّ زمان ومكان والَّذي جاء لخير البشريَّة، والَّذي ختم نبيُّه الأنبياءَ، وخُتِمت به الأديانُ، وهي خير من ألف شهر تخبَّط فيه النَّاس في ظلام الشِّرك وضلال الوثنيَّة، والله تعالى يُفضِّل ما يشاءُ على ما يشاءُ من زمانٍ ومكانٍ لمعنًى من المعاني، أو حدثٍ من الأحداث.

والمسلمون مأمورون بأمر النَّبيِّ ﷺ أن لا ينسَوا ليلةَ القدر، ففي أحاديث وردتْ أمرَ فيها ﷺ، فقال: «**تحرُّوا**»(١)، وقال: «**التمسوها**»(٢)، وقال: «**مَن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه**»(٣).

ولكنَّ النَّاس منذ أغفلوا هذه الأوامر فقدوا آلاءَ اللهِ ونعمه عليهم، وفقدوا سلامَ الضَّميرِ، والبيتِ، والمجتمعِ، والسَّلام الذي كان يفيضُ على الأرواحِ والقلوبِ نعمةً وطُمأنينةً وقناعةً ورضًى وبردًا، ورفرفةً بالأرواح إلى عليِّين.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القَدر: ٤]: موكبٌ جميلٌ لا كلالة(٤) فيه، ولا موسيقى، ولا فوضى، وهو موكبٌ ملائكيٌّ فيه جبريل الرُّوح الأمين يُرَفرِف على الوجود، وعلى الأرواح السَّارية، والأعين السَّاهرة في طاعةِ ربِّها.

وفي نزول الملائكة شأنٌ من شؤونِ الله لا نبحث عن كيفيَّته وإنَّما نؤمنُ به، دون أن نعرِفَ تفاصيلَه، أو أسراره، فما عَرَفَ العالم بعدَ علمه

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٠١٧)، ومسلم، رقم: (١١٦٩).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٠٢١)، ومسلم، رقم: (١١٦٥).
(٣) رواه البخاري، رقم: (١٩٠١)، ومسلم، رقم: (٧٦٠).
(٤) أَكِلٌ كَلالًا وكَلالة؛ أَي: أَعْيَيْت. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٥٩٢).

المادي بشتَّى وسائله إلَّا النَّزَر اليسير ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٨٥].

والإسلام ليس مظاهرَ شكليَّة، وإنَّما هو دينُ قلوبٍ؛ فلهذا حثَّ النبيُّ ﷺ على قيام هذه اللَّيلة - إيمانًا واحتسابًا - تجرُّدًا لله، وخلوصًا له.

والإسلام دائمًا يربِطُ بين العبادة، وحقائق العقيدة: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى**»(١).

﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القَدر: ٥]: هي ليلةٌ كلُّها سلامةٌ، وأمنٌ، وخيرٌ، وبركةٌ من أوَّلها إلى آخرها، وإلى طلوعِ الفجرِ وانبثاق النَّهار الجديد.

وكيف لا تكون كذلك وفيها فرَّجَ اللهُ الكرْبَ عن نبيِّه، وفتَحَ له سُبُلَ الهداية، والإرشاد، وأكرمَهُ بأنْ أنزلَ عليه الدُّستور الشَّامل لخير البشريَّة إلى يوم القيامة.

قرآن الفجر (٢٥)
تفسير سورة البيِّنَة

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ

(١) رواه البخاري، رقم: (١).

﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البيّنة: ١-٤].

منفكِّين: راجعين عمَّا هم فيه، متحوِّلين عن شرِّهم وفسادهم.

كانت الأرض في حاجة ماسَّةٍ إلى رسالةٍ جديدةٍ، وكان الفساد قد عمَّ فلا يُرْتَجَى صلاحُ مُصْلِحٍ إلَّا برسالة من السَّماء ومنهجٍ جديدٍ، وحركةٍ جديدةٍ، وكان الكفر قد تَطَرَّقَ إلى عقائد أهلها جميعًا حتَّى أهل الكتاب الَّذين عَرَفُوا الدِّيانات السَّماويَّة ثمَّ حرَّفوها لن ينفكُّوا عن هذا الكفر أو يتحوَّلُوا عنه إلَّا برسالةٍ سماويَّةٍ يكون الرَّسول ذاته بيِّنَةً واضحةً فارقةً فاصلةً، يتلو صُحُفًا مُطَهَّرة من الشِّرك والكفر، فيها كُتُبٌ قيِّمة.

ومعنى الكتاب هنا: الموضوع.

وجاءت الرِّسالة في وقتها، وبُعِثَ محمَّد ﷺ في وقته، وجاءت الصُّحف صُحُف القرآن لتُحْدِثَ في الأرض حدثًا لا تصلح هذه الأرض إلَّا به.

وكان الإنسان قد نسي خالقه فنسي مصيره، وفَقَدَ رشده وإدراكه فلا يميِّز بين خيرٍ وشرٍّ، ولا بين حَسَنٍ وقبيح، وكان الفساد قد عمَّ، وانسحب رجال الدِّين إلى الأديرة والكنائس والخَلَوَات؛ حفاظًا على دينهم، وفِرَارًا من تكاليف الحياة، ومن بقي منهم وَافَق الملوك على ما يريدون وأعانهم على ظلمهم وإِثْمِهم، وأصبحت الدِّيانات فريسةَ العابثين واللَّاعبين، فقد قالت اليهود: يدُ اللهِ مغلولةً، وقالوا: العزير ابن الله، وقالت النَّصارى: إنَّ الله ثالث ثلاثة، وقالوا: المسيح ابن الله، وقالوا: إنَّ الله هو المسيح ابن مريم، والعرب عبدوا الأصنام والنُّجوم والكواكب وسجدوا للنُّصُبِ.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البَيِّنَة: ٤] فقد تفرَّقَ اليهود إلى طوائف ثمَّ تفرَّقوا بعد ذلك إلى يهود ونصارى مع أنَّ المسيح عليه السَّلام من بني إسرائيل وجاء مُصَدِّقًا للتَّوراة، ثمَّ تفرَّق النَّصارى إلى فِرَقٍ متعدِّدة، وكلُّ هذه الخلافات حصلت بين أهل الكتاب جميعًا وبين أيديهم التَّوراة والإنجيل، وفيهما البيِّنَة، فلم يكن ينقصهم علمٌ ولا بيانٌ، وإنَّما انحرفوا مع الهوى والشَّهوات.

وروي في حديثٍ عن معاوية قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «**أَلَا إنَّ من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين مِلَّة، وإنَّ هذه الأمَّةَ ستفترِقُ على ثلاثٍ وسبعين مِلَّة، ثنتان وسبعون في النَّار وواحدة في الجنة**»[(١)]، رواه أحمد وأبو داود وزاد: «**وإنَّه سيخرج في أمَّتِي أقوامٌ تتجاربهم الأهواء، كما يتجارى الكَلْبُ بصاحبه لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مَفْصِل إلَّا دخله**»[(٢)].

وروي عن غُضَيْف بن الحارث الثُّمَالِي، قال: بَعَثَ إليَّ عبد الملك بن مروان، فقال: يا أبا سليمان، إنَّا قد جمعنا النَّاس على أمرين، فقال: ما هما؟ قال: رفعُ الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقَصَصُ بعد الصُّبح والعصر، فقال: أمَّا إنِّهما أَمْثَلُ بدعتكم عندي، ولست بمجيبكم إلى شيءٍ منهما، قال: ولم؟ قال: لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ما أَحْدَثَ قومٌ بِدْعةً إلَّا رُفِعَ مثلُها في السُّنَّة، فتَمَسُّكٌ بسُنَّةٍ خَيْرٌ من إحداثِ بِدْعَةٍ**»[(٣)]، رواه أحمد والبزَّاز.

---

(١) رواه أحمد، رقم: (١٦٩٣٧).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٤٥٩٧).

(٣) رواه أحمد، رقم: (١٦٩٧٠)، ورواه البزار، رقم: (٢٣٤٦)، بلفظ: «**إن لكل عمل شرة ولكل شرة فترة، فإما إلى سنة وإما إلى بدعة...**».

وروي في حديث عن حذيفة عنه ﷺ: «**لا يَقْبَلُ الله لِصَاحب بِدْعَةٍ صومًا، ولا صلاةً - فرضًا أو نفلًا -، ولا حجًّا، ولا عمرةً، ولا جهادًا، ولا صرفًا، ولا عدلًا، يَخْرُجُ من السَّلام كما يخرج الشَّعر من العجين**»[(١)]، رواه ابن ماجه.

وروي في حديث عن بَرْزَةَ عنه ﷺ: «**إنَّ ممَّا أخشى عليكم شهواتِ الغَيِّ في بطونكم وفُرُوجِكُم ومُضِلَّات الهوى**»[(٢)]، رواه أحمد.

قرآن الفجر (٢٦)

تفسير بقيَّة سورة البيِّنَة

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البيّنة: ٥-٨].

حُنَفَاء: مُسْتَقِيمين على الحقِّ، مائلين عن الضَّلال إلى الهدى، والقيِّمَة: الأمَّة المستقيمة على الحقِّ، وهو عبادة الله وحده، وإخلاص الدِّين له،

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٩).

(٢) رواه أحمد، رقم: (١٩٧٨٧).

والميل عن الشِّرك وأهله، وإقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البَيِّنَة: ٥] الدِّين: العقيدة الخالصة في الضَّمير، وعبادة الله تُتَرْجِمُ عن هذه العقيدة، وإنفاق المال في سبيل الله يُزَكِّي النَّفس من الشُّحِّ ويُوْصِلُ إلى الفلاح، فمن حقَّقَ هذه الأوامر فقد حَقَّقَ الإيمان كما أُمِرَ به أهل الكتاب وكما جاء في الدِّين الَّذي بُعِثَ به الأنبياء، دين واحد لا غموضَ فيه ولا تعقيد.

وقد جاءت الأنبياء من قبل بالبيِّنَة، ثمَّ جاءت البيِّنَة في بعثة رسول الله محمَّد ﷺ فقدَّمَ لهم العقيدة الواضحة البسيطة الميسَّرَة، وجاءهم بالرِّسالة الأخيرة الجامعة الشَّاملة الكاملة، وقد شاء الله تعالى أن يَخْتِمَ بها الرِّسالات إلى الأرض، فإمَّا إيمان به النَّجاة، وإمَّا كُفْرٌ به الهلاك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البَيِّنَة: ٦] وهذا حكم قاطعٌ لا جِدَال فيه، وصلاحهم في بعض أعمالهم لا يفيدهم شيئًا ما دام قائمًا على غير إيمان بهذه الرِّسالة الخاتمة، وهذا النَّبي الخاتم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البَيِّنَة: ٧] حكمٌ قاطعٌ أيضًا لا مجال فيه للشَّكِّ، ولكن فيه شرط، وشرطه إيمان وعمل صالح، فأمَّا الإيمان فلا يكون إيمانَ كلمات وخطبةً تُرْتَجَل وتقال أو قصيدةً تُنْشَدُ في مَحَلٍّ، أو كلماتٍ يتشدَّق بها النَّاطق، ولكن إيمان له أثره في واقع الحياة، وأمَّا العمل الصَّالح، فهو الأعمال الصَّالحات في العبادة والخُلُق والعمل والمعاملة، فمتى جمع هذه الصِّفات فهو من خير البريَّة.

وروي في الحديث: «**من لم تَنْهَه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَد**

من الله إلَّا بُعدًا»[(١)].

وخير البريَّة ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [البَيِّنَة: ٨] قرارٌ نافذ المفعول، لا استئناف فيه ولا تمييز، فجزاؤهم جنَّاتٌ دائمة في نعيمها، أبديَّة الإقامة، آمنة من الفناء، لا يعكِّرها قلق ولا يُنْقِصُها، تجري من تحتها الأنهار، وتُلْقَى عليها النَّداوة والحياة والجمال.

هؤلاء ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البَيِّنَة: ٨]، ورضا الله أعلى من كلِّ نعيمٍ وهو الغاية الَّتي يطلبها المتَّقون.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البَيِّنَة: ٨]؛ أي: رضوا عن إنعامه عليهم، وهدايتهم رضًا يغمر النَّفسَ بالهدوءِ والطُّمَأنِينة والفرح.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البَيِّنَة: ٨] وخشية الله تتوقَّفُ على صِلَة القلوب بالله، ودليلها الابتعاد عن نواهيه وعن كلِّ انحراف، وهي عمل لله وحده.

وروي في حديث عن أنس عنه ﷺ: «**مَنْ فارقَ الدُّنيا على الإخلاص لله وحده، لا شريك له، وأقام الصَّلاة وآتى الزَّكاة، فارقها والله عنه راضٍ**»[(٢)]، رواه ابن ماجه والحاكم.

وروي في حديث عن معاذ بن جبل أنَّه قال حين بُعِثَ إلى اليمن: يا رسولَ اللهِ أوصني، قال ﷺ: «**أخلص دينك يكفك العمل القليل**»[(٣)]، رواه الحاكم.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١١٠٢٥).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٧٠)، ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣٢٧٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٧٨٤٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وروي في حديث عن ثَوْبَان قال: سمعت رسول الله ﷺ: «**طُوبَى للمخلصين، أولئكَ مَصَابِيح الهدى تَتَجَلَّى عنهم كلُّ فتنة ظَلماءَ**»(١).

ومن ذلك أيضًا حديث الثَّلاثة الَّذين انطبقت عليهم الصَّخرة(٢).

والسُّورة جاءت بحقائقَ أربعةٍ:

الحقيقة الأولى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ... ۝١﴾ [البَيِّنَة: ١] إلى ﴿...كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣﴾ [البَيِّنَة: ٣].

الحقيقة الثَّانية: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ... ۝٤﴾ [البَيِّنَة: ٤] إلى ﴿...جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البَيِّنَة: ٤].

الحقيقة الثَّالثة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ... ۝٥﴾ [البَيِّنَة: ٥] إلى ﴿...وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البَيِّنَة: ٥].

الحقيقة الرَّابعة: إنَّ شرَّ البرية الَّذين كفروا، وخير البريَّةِ الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ... ۝٦﴾ [البَيِّنَة: ٦] إلى آخر الآيات الثَّلاث.

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٥٢٦٨).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٣٣٣)، ومسلم، رقم: (٢٧٤٣).

قرآن الفجر (٢٧)

تفسير سورة العلق

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥].

روى البخاريُّ في «**صحيحه**» عن عائشة رضي الله عنها ما معناه: «**قالت: أوَّل ما بُدِئَ به رسول الله من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة في النَّوم، فكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مِثْلَ فَلَقِ الصُّبح، ثُمَّ حُبِّبَ إليه الخَلَاءُ، فكان يأتي حراء فيتَحَنَّثُ[1] فيه اللَّيالي ذوات العَدَدِ، ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجِع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتَّى فاجَأَهُ الوحي، وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فيه، فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطَّنِي[2] حتَّى بَلَغَ منِّي الجُهْد، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطَّنِي الثَّانية حتَّى بَلَغَ منِّي الجهدَ، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطَّنِي الثَّالثة حتَّى بَلَغَ منِّي الجُهْدَ، ثمَّ أرسلني**

---

(١) يتحنث: يتعبد، ويقال: فلان يتحنث؛ أي: يفعل فعلا يخرج به من الإثم والحرج. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٤٤٩).

(٢) الغط: العصر الشديد والكبس. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ٣٧٣).

فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]»[(١)].

معنى هذا أنَّ هذه الآيات الخمس أوَّل آياتٍ نَزَلَت من القرآن تبدأ باسم الله، توجِّهُ محمَّدًا ﷺ إلى أن يقرأَ باسمِ اللهِ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، وتبدأ صفاتُ الرَّبِ بالصِّفَة الَّتي بها الخَلْقُ والبدء، خلق جميع الكائنات، ثمَّ تُخصَّصُ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [العلق: ٢] العاقل، ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]؛ أي: من جرثومة صغيرةٍ علقت ببويضة المرأة في جدار الرَّحم فصارتا نقطة دمٍ جامدة، ومن ذلك المنشأ الصَّغير السَّاذج كان تكوين خلق الإنسان، ورفعه إلى درجةٍ فوق كلِّ الحيوان، ومن ذلك العلق، فقد خلق كلَّ حيْوانٍ لكنَّه كرَّمَ الإنسان بالعقل، فهو يعلم فيتعلَّم.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ٣] الزَّائد في كرمه، فهو أكرم من كلِّ كريمٍ، فهو الأكرم الَّذي فاقَ كرَمُه جميعَ الكرماء.

وهنا يبرز كرم الخالق جلَّ شأنه بحقيقة التَّعليم، وهي تعليم الإنسان بالقلم، فالقلم هو الأساس الأوَّل للعلم، وما يزال أوسع أدوات التَّعليم أثرًا في حياة الإنسان وأعمقها، والله جل شَّأنه - وهو العليم بهذه الحقيقة - نبَّه إليها في أوَّل لحظة من لحظات الرِّسالة، وفي أوَّل سورةٍ نزلت من سور القرآن على النَّبيِّ الأُميِّ الَّذي ما كتب بالقلم؛ لذلك هو وحيٌ ورسالةٌ.

ومصدر التَّعليم هو الله وحدَهُ يستمدُّ منه الإنسان كلَّ ما عَلِمَ، وما يَعْلَمُ، وكلَّ ما تفتَّحَ له من أسرارٍ، ومنها أسرار نفسه، وأسرار هذه

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٩٥٣)، ومسلم، رقم: (١٦٠).

الحياة، والوجود والكون، فكلُّ ذلك من توفيق الله، ومن ذلك المصدر الوحيد الَّذي ليس هناك سواه، فالله الَّذي خَلَقَ وعَلَّمَ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العَلق: ٥].

وللعلم فضله، والعلماء يخشون الله تعالى أكثرَ من غيرهم؛ لأنَّهم عرفوه أكثر من غيرهم، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩] فلا يستوي عالم وجاهل؛ لأنَّ بينهما فَرْقٌ عظيم، والله جلَّ شأنه ضرب للنَّاس الأمثال الكثيرة في كتابه العزيز، وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: ٤٣].

وروي في حديثٍ عن معاوية «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**[(١)]، **وإنَّما أنا قاسم والله يعطي، ولن تَزَالَ هذه الأمَّة قائِمَةً على أمر الله، لا يضُرُّهم من خَالَفَهم حتَّى يأتي أمرُ الله**»[(٢)].

وروي في حديثٍ عن أبي وافد اللَّيثيِّ: «**بينما رسولُ الله ﷺ جالس في المسجد والنَّاس معه إذ أقبل ثلاثةُ نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأمَّا أحدهما فرأى فُرْجَةً في الحَلْقَة فجَلَس فيها، وأمَّا الآخر فجَلَس خلفهم، وأمَّا الثَّالث فأدبر ذاهبًا، فلمَّا فَرَغَ رسول الله ﷺ قال: أَلَا أخبركم عن النَّفر الثَّلاثة، أمَّا أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأمَّا الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه –**

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٤٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، رقم: (٢٢٠).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٧١)، وأبو داود، رقم: (٤٢٥٢)، بلفظ: «...**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم...**».

أي: لم يزاحم فلن يعاقبه الله -، وأمَّا الآخر فأعرض الله عنه»[(١)].

وروي في حديث عن أبي أُمَامَة الباهليِّ قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما، عابدٌ والآخر عالمٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**فَضْلُ العالم على العابد كفضلي على أدناكم، ثمَّ قال: إنَّ الله وملائكته وأهل السَّموات والأرض حتَّى النَّملة في جحرها وحتَّى الحوت ليصلُّون على معلميِّ النَّاس الخير**»[(٢)].

قرآن الفجر (٢٨)

تفسير بقيَّة سورة العلق

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: ٦-١٤].

في الحديث عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمَّدًا يصلِّي عند الكعبة لأَطَأَنَّ عنقَه، فبلغ النَّبيَّ ﷺ، فقال: «**لو فعله**

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٦)، والترمذي، رقم: (٢٧٢٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى، رقم: (٥٨٦٩)، ولم أقف عليه عند ابن ماجه.

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٨٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

لأخذته الملائكة»[(١)].

وعن ابن عبَّاسٍ قال: «**كان النَّبيُّ ﷺ يصلِّي فجاء أبو جهل، فقال: ألم أَنْهَك عن هذا؟ ألم أَنْهَك عن هذا؟ فَزَبَرَه**[(٢)] **النَّبيُّ ﷺ، فقال أبو جهل: إنَّك لَتَعْلَمُ ما بها نَادٍ أَكْثَر منِّي، فأنزل الله** ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: ١٧-١٨]»، قال ابن عباس: «**فوالله لو دعا نادِيَه**[(٣)] **لأخذته زبانيَةُ**[(٤)] **الله**»[(٥)]، رواه التِّرمذيُّ.

إنَّ الَّذي أعطى هذا الإنسان فأغناه هو الله، وهو الَّذي خلقه وكَرَّمَه وعلَّمَه، ولكن مَنْ لم يَعْصِمَه إيمانه لا يشكر حين يستغني ولا يعرف مصدر النَّعمة الَّتي أغنته، فهو يَطْغَى ويَفْجُر ويتكبَّر ويبغ، من حيث كان عليه أن يعرِف ويشكر، ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدَّثِّر: ١١].

وبعد ذلك يأتي التَّهديد اللَّاذع ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العلق: ٨]، فأين مَفَرُّ هذا الَّذي استغنى فطغى وتكبَّر؟

أرأيت رجلًا يصلِّي فيأتيه طاغية ينهاه؟ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [العلق: ١١] ثمَّ ينهاه وهو على الهدى، ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ [العلق: ١٢]،

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٣٤٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والنسائي في السنن الكبرى، رقم: (١٠٩٩٥).

(٢) زبره: انتهره وغلَّظ له في القول والرد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١١/ ٣٩٩).

(٣) النادي: العشيرة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٠/ ٦٣).

(٤) الزبانية: عند العرب هي الشرط، وطله من الدفع، وسمي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها. انظر: لسان العرب، لابن منظور، (١٣/ ١٩٤).

(٥) رواه الترمذي، رقم: (٣٣٤٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

ثمَّ يضيف هذا المتكبِّر فِعْلَةً أُخْرَى أشدَّ نكرًا من الأولى ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [العَلق: ١٣] فينهى العبد المؤمن إذا صلَّى، وهو على الهدى ويأمر بالتَّقوى، فهو يرى هذا ويعلم بأنَّ الله يرى، ثمَّ يجيء التَّهديد الحاسم مكشوفًا بقوَّةٍ ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العَلق: ١٥-١٩].

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ [العَلق: ١٥] تهديد في وقته، ووعيد شديد، ونسفع؛ أي: نأخذ بشدَّةٍ وعنف، والنَّاصية: مُقَدَّم الرَّأس والجبهة الَّتي يرفعها المتكبِّر حين يتشامخ.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العَلق: ١٦]؛ أي: أهل للسَّفع والصَّرع والذَّمِّ والإهانة.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [العَلق: ١٧] الَّذي يعتزُّ به من أهله وصحبه، أمَّا نحن ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العَلق: ١٨]، وهم أصحاب جهنَّم من الملائكة الشِّداد الغِلَاظ، والمعركة معروفة المصير والنَّتيجة.

ثمَّ في آخر السُّورة يوجِّه نبيَّه الحبيب الطَّائع للثَّبات على إيمانه وطاعاته ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العَلق: ١٩].

وهذه السُّورة وإن نَزَلَت في أبي جهلٍ والنَّبيِّ ﷺ كما ذكرنا، لكنَّ دلالتها عامَّةٌ، فهي لكلِّ مؤمنٍ طائعٍ عابدٍ داعٍ لله، وكلِّ طاغٍ باغٍ معاندٍ مكابرٍ ينهى عبادَ الله عن الصَّلاة ويختال بقوَّته ويَطْغَى بغناه، وكان التَّوجيه الرَّبانيُّ الأخير ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العَلق: ١٩].

وروي في حديث عن معدان بن أبي طلحة رضي الله عنه، قال: لقيت ثوبان

مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعملٍ أعمله يدخلني الله به الجنَّة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**عليك بكَثْرَة السُّجود، فإنَّك لا تسجد لله سجدةً إلَّا رفعك الله بها درجةً وحطَّ بها عنك خطيئة**»(١)، رواه مسلم والترمذي والنَّسائي وابن ماجه.

وروي في حديث عن عبادة بن الصَّامت أنَّه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما من عبدٍ يسجد لله سجدةً إلَّا كتب الله له بها حسنةً، ومحا عنه بها سيِّئَةً، ورفع له بها دَرَجَةً، فاستكثروا من السُّجود**»(٢).

وروي في حديث عن النَّبيِّ صَّلى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «**أقرب ما يكونُ العبدُ من ربِّه ﷻ، وهو سَاجدٌ، فأكثِرُوا من الدُّعاء**»(٣).

وروي في حديث آخر: «**الصَّلاة خير موضوع فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر**»(٤).

(١) رواه مسلم، رقم: (٤٨٨)، والنسائي في السنن الكبرى، رقم: (٧٢٨)، بلفظ: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»، والترمذي، رقم: (٣٨٩)، بلفظ: «**...ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه بها درجة، وحط عنه بها خطيئة**»، وابن ماجه، رقم: (١٤٢٣) بنفس لفظ الترمذي.

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٤٢٤).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٤٨٢).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٢٤٣).

قرآن الفجر (٢٩)

تفسير سورة التِّين

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

[التِّين: ١-٨].

التَّين والزَّيتون: موضعان في فلسطين، أحدهما يُسَمَّى طور تينا، والثَّاني طور زيتا، وطور سينين هو طور سينا، والبلدُ الأمينُ مَكَّةُ، واختلفت الأقوال في التِّين والزَّيتون.

وقد أقسم الله بهذه الأماكن الَّتي شرَّفَها بإنزال وحيه فيها على أنبيائه، ومنهم موسى وعيسى ومحمَّد صلَّى الله عليهم وسلَّم أجمعين، وذَكَرَها لِمَا لها من علاقة بمبعث الأنبياء ونشأة الإنسان.

والله الَّذي أحسن كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ خصَّصَ الإنسان بأن خلقه في أحسن تقويم، وأكمل صورة، حيث خَلَقَهُ فسوَّاه فعدله، وخصَّه دون سائر الحيوان بالعقل والتَّفكير، فالإنسان مخلوقٌ من نفس المادَّةِ الَّتي خُلِقَ منها الحيوان، لكنَّ عناية الله تجلَّت في خلقه وتركيبه، سواءٌ في تكوينه الجسمانيِّ البالغ في الدِّقَّة والتَّعقيد، أم في تكوينه العقليِّ أم في تكوينه الرُّوحيِّ.

والإنسان مُهَيَّأٌ روحيًّا لِأَن يبلغ من الرِّفعة مدىً يفوق مقام الملائكة المقرَّبين، بينما هو مُهَيَّأٌ لِأَن ينتكس ويهوي إلى الدَّرك الأسفل، حيث تكون البهائم أرفع منه؛ لأنَّ البهيمة مُلْهَمَة لها فطرة لا تتعدَّاها، والإنسان الَّذي خُلِقَ في أحسن تقويم ربِّهِ مُرْتَكِسٌ[1] في هواه وغَيِّه، أمَّا البهيمة لا تملك ذلك.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التِّين: ٤]؛ أي: بفطرة واستعداد.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التِّين: ٥] وذلك حين يَنْحَرِف عن الفطرة السَّليمة والطَّريق السَّويِّ الَّذي هداه الله إليه وبيَّنَهُ له: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التِّين: ٦] فهؤلاء كَمَّلُوا فطرتهم وخلقهم السَّويَّ بالإيمان والعمل الصَّالح، وارتقوا بهما إلى حياة الكمال والفضيلة، ولهم بعد ذلك في دار الكمال ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فُصِّلَت: ٨]؛ أي: دائم غير مقطوع، أمَّا أولئك الَّذين عملوا السَّيِّئات فينحدرون بها حتَّى تستقرَّ بهم في الدَّرك الأسفل في نار جهنَّم، وهاتان نهايتان طبيعيَّتان فإمَّا استقامة على الفطرة وتكميل لها بالإيمان ورفع بالعمل الصَّالح ثمَّ وصولٌ إلى النَّعيم، وإمَّا انحراف عن الفطرة وارتكاس ثمَّ خلودٌ في الجحيم.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾ [التِّين: ٧] فإنَّ الله بعد هذه الحقيقة ينادي عبده الإنسان: ما الَّذي يكذِّبُكَ بالدِّين في يوم الجزاء بعد ما ظهر من قُدْرَةِ الله؟!

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التِّين: ٨]؛ أي: أليست حكمةُ الله

(١) الارتكاس: الارتداد. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ١٠٠).

بالغةً في حكمه هذا على المؤمنين وغير المؤمنين.

وروى التِّرمذيُّ عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ**: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التين: ١] فقرأ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨] فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشَّاهدين»(١).

وروي في حديث عن ابن عبَّاس عن النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الَّذي ليس في جوفه شيءٌ من القرآن كالبيت الخَرِب**»(٢).

وروي في حديث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُرِضَت عليَّ أجور أُمَّتِي حتَّى القذاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجل من المسجد، وعُرِضَت عليَّ ذنوب أُمَّتِي فلم أرَ ذنبًا أعظم من سورةٍ من القرآن أو آيةٍ أوتيها رجلٌ ثمَّ نسيها**»(٣).

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٣٤٧).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٩١٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٢٠٣٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٢٩١٦)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو داود، رقم: (٤٦١)، ولم أقف عليه عند ابن ماجه.

قرآن الفجر (٣٠)

تفسير سورة الشَّرح أو الانشراح

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشَّرح: ١-٤].

هذه الآيات تُوحِي بأنَّ ضائقةً كانت في روح الرَّسول ﷺ من كَيْدِ الكفَّار له، والمكر المضروب حول الدَّعوة والعقبات الوعرة في طريقها، وتوحي بما في صدر الرَّسول ﷺ من هموم ثقيلة، فكانت المناجاة الجميلة من ربٍّ كريم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشَّرح: ١] لهذه الدَّعوة؟ ألم نُيَسِّر لك أمرها، ونُشْرِعُ لك طريقها، ووضعنا عنك الحِمْلَ الثَّقيل الَّذي كان يُسَبِّبُه إعراضُ قريش عن إجابة دعوتك؟! فقد كنت حريصًا على هدايتهم، ولكنَّ الله شَرَحَ صدرك بتوفيقه لك، وبالوحي الَّذي يَكْشِفُ لك عن الحقيقة ويُعِيْنُكَ على التَّسلُّل بدعوتك إلى النُّفوس السَّليمة ومداخل القلوب المُنْفَتِحَة للخير.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشَّرح: ٤]؛ أي: رفعناه في الملأ الأعلى، واللَّوح المحفوظ والأرض، ورفعناه في هذا الوجود جميعًا، ورفعناه فجعلنا اسمك مقرونًا باسم الله تنطِقُ به الأفواه، لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله، تنطِقُ به ملايين الملايين على مَمَرِّ القرون وتَكَرُّرِ الأجيال في

كلِّ مكانٍ مع حبٍّ عميقٍ لك في القلوب واحترامٍ وتعظيمٍ وصلاةٍ وتسليمٍ، وكانت تلك رفعة لم يَنَلْها أحد من قبل ولا من بعد، ولَن ينالها أحد في هذا الوجود.

وإن العسر لا يخلو من يُسْرٍ يصاحبه ويلازمه، فحينما ثَقُلَ العبء عليك شرحنا لك صدرك فخفَّ الهمُّ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشَّرح: ٥-٦] وهنا تَكْرَار يدلُّ على أنَّ الضِّيق كان شديدًا عليه ﷺ، وأنَّه كانَ في عُسْرٍ ومَشَقَّةٍ، فلا بُدَّ أنَّه كان في أمرٍ عظيم يَثْقُلُ على نفسه ﷺ.

ثمَّ يأتي التَّوجيه من الرَّبِّ الكريم لعبده الرَّسول العظيم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشَّرح: ٧-٨]؛ أي: فإذا فَرَغْتَ من شغلك مع النَّاس ومن شواغل الدَّعوة فتوجَّه لدنياك إلى أن تَنْصَب[1] وتَكُدَّ وتَجْهَد، فإنَّ العاقل المؤمنَ إذا فَرَغَ من عملٍ وَصَلَهُ بآخرَ وتَعِبَ فيه حتَّى يصلَ إلى غايته الَّتي يسعى إليها، واطلب من الله التَّوفيق والنَّجاح، وتَطَلَّع وتوجَّه إلى ربِّك وارغب، وارفع طلبك إليه، فهو وحدَهُ الَّذي يمدُّك باليسر بعد العسر، وبالفرج بعد الضِّيق.

روى البخاريُّ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: «﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشَّرح: ١] للإسلام، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشَّرح: ٥-٦]، قال ابن عُيَيْنَة؛ أي: مع ذلك العسر يسرًا آخرَ، كقوله: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، ولن يغلب عسر يسرين»[2].

وروي في حديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**قال لي رسول الله ﷺ وهو على المنبر: اقرأ عليَّ، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال**

(١) ينصب نصبًا: إذا تعب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٢٨٠).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٩٥١).

ﷺ: **إنِّي أحبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النِّساء حتَّى أتيت هذه الآيـــة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾** [النِّسَاء: ٤١]، قال: حسبك الآن، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»[(١)].

وروي في حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبيِّ بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، قال عبد الله: آلله سمَّاني لك؟ قال ﷺ: نعم، قال: وقد ذُكِرْت عند ربِّ العالمين؟ قال ﷺ: نعم، فذرفت عيناه**»[(٢)].

وفي رواية: «**إنَّ الله أمرني أن أقرأ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾** [البَيِّنَة: ١] قال: فسمَّاني؟ قال: نعم، فبكى»[(٣)].

قرآن الفجر (٣١)

تفسير سورة الضُّحى

أعوذُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٥٨٣)، ومسلم، رقم: (٨٠٠)، وابن ماجه، رقم: (٤١٩٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٩٦١).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٧٩٩)، ولم أقف عليه عند ابن ماجه.

مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ [الضّحىٰ: ١-٤].

هذه السُّورة خالصة للنَّبيِّ ﷺ، فكلُّها تسليةٌ وترويحٌ وطمأنةٌ، وألطاف من القربى، وأنسام من الرَّحمة، يقسم الله بهذين الوقتين الرَّائقين: الضُّحى الرَّائق واللَّيل السَّاجي، وسجى معناه: رقَّ وسَكَنَ وصفا.

ما تركك ربُّك من قبلُ ولا قَلَاكَ ولا أخلاك من رحمته ورعايته وإيوائه، فهو راعيكَ وكافلك فلم يقطع معين فضله عنك، ولا منعكَ من فيضِ عطائه، وآخرتك خير من أولاك، ومستقبلك خيرٌ من ماضيك.

إنَّ ربَّك معك فأبشر بالتَّوفيق في دعوتك وإزاحة العقبات عن طريقك، وغَلَبَةِ منهجك وظهور حقِّك.

فانظر - أيُّها الإنسان - إلى واقع حالك وماضي حياتك، هل ودعك ربُّك وقلاك؟!

فقد وُلِدْتَ يتيمًا فآواك، وعَطَّفَ عليك القلوب، وكنت فقيرًا فأغنى الله نفسك بالقناعة كما أغناك بالكسب، ونشأت في الجاهليَّةِ المضطربة فهداك الله إلى الحقِّ بما أوحى إليك، فلا تحزن فالنِّهاية ستكون خيرًا من البداية، وستتوالى عليك نِعَمُ الله ومنها إعلاءُ كلمةٍ ورفعُ ذِكْرٍ، والله بذكره النِّعمَ المتوالية عليه وجَّهَ أمَّته من ورائه إلى رعاية كلِّ يتيمٍ، وكفاية كلِّ سائلٍ والتَّحدُّث بنعمة الله.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضّحىٰ: ٩-١١] نهى الله عن قهر اليتيم وكسر خاطره وإذلاله، وأوجبَ رعايتَهُ وإكرامَهُ وحفظَ مالِهِ، وأَمَرَ بالرِّفقِ بالسَّائل، ومنع عن نَهْرِه وزجره.

وأمرك أن تُحَدِّثَ بنعمته عليك، ونعمة الهدى خاصَّةً، وتكمِّلُها بالبرِّ بعباد الله، وتجعلَ من مظهرك وتواضعك شكرًا لربِّك واعترافًا بفضله عليك.

وروي في حديث عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه: «**من مَسَحَ على رأس يتيمٍ لم يَمْسَحْهُ إلَّا لله كان له في كلِّ شَعْرةٍ مرَّت عليها يدُهُ حسناتٌ، ومن أحسنَ إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ عنده كنت أنا وهو في الجنَّة كهاتين، - وفرَّق بين إصبعيه السَّبَّابة والوسطى -**»[(١)]، رواه أحمد وغيره.

وروي في حديث عن أبي هريرة «**أنا أوَّل من يفتح باب الجنَّة إلَّا أنِّي أرى امرأةً تبادرني فأقول لها: مالك؟ من أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتامٍ لي**»[(٢)]، رواه أبو يعلى.

وروي في حديث عن عوف بن مالك الأشجعيِّ: «**أنا وامرأة سفعاء[(٣)] الخدَّين كهاتين يوم القيامة - وأومأ بإصبعيه السَّبَّابة والوسطى - امرأة آمَتْ[(٤)] من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتَّى بانوا أو ماتوا**»[(٥)]، أبو داود.

وروي في حديث عن أبي هريرة «**يقول العبد: مالي، مالي، وإنَّما له**

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٢١٥٣).

(٢) رواه أبو يعلى في المسند، رقم: (٦٦٥١).

(٣) السفعة: نوع من السواد ليس بالكثير، وقيل: هو سواد مع لون آخر، وأراد أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها واسودَّ إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٣٧٤).

(٤) آمت: أي: صارت أيِّمًا لا زوج لها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٨٥).

(٥) رواه أبو داود، رقم: (٥١٤٩)، وأحمد، رقم: (٢٤٠٠٦).

من ماله ثلاثٌ: ما أَكَلَ فأفنَى، أو لَبِسَ فأَبْلَى، أو أَعْطَى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للنَّاس»[(١)]، مسلم.

وروي في حديث عبد الله بن مسعود «**من نَزَلَت به فاقةٌ فأنزلها بالنَّاس لم تُسَدَّ فاقته، ومن نزلت به فاقةٌ فأنزلها بالله، فيوشك الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجلٍ**»[(٢)].

وروي في حديث عن مالك بن نضلة: «**الأيدِي ثلاثةٌ، فَيَدُ الله العليا، ويد المُعْطِي الَّتي تليها، ويَدُ السَّائل السُّفْلَى، فأَعْطِ الفضل، ولا تعجِز عن نفسك**»[(٣)]، رواه أبو داود وابن حبَّان.

قوَّة الإيمان (٣٢)

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحُجرَات: ١٤].

إنَّ القوَّة الإيمانيَّة هي الَّتي تدفع المؤمن إلى الحقِّ في كلِّ ما يفعل أو يقول.

وأكثر ما يحتاج إليه المسلمون في هذا الزَّمان هو تحريك هذه القوَّة الكامنة الَّتي رانت[(٤)] عليها الغفلة والجهالة، فأصبح النَّاس عُمْيُ البصائر،

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٩٥٩).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٣٢٦)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأبو داود، رقم: (١٦٤٥).

(٣) رواه أبو داود، رقم: (١٦٤٩)، وابن حبان، رقم: (٣٣٦٢).

(٤) ران عليه: غلب عليه وغطاه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ١٣٠).

غُلْفُ[١] الألباب.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الإيمان ضَعُفَ في الأمَّة وتراكم عليه الغبار غبارُ الجهالة، وأحاطت به الأهواء الطَّاغية المتناوشة[٢] من كلِّ جانبٍ، وهذا ما ليس فيه خلاف.

وقد فُقِدَ الإيمان في الأمَّة حتَّى أصبح النَّاس في أوطانهم مسلمين بالاسم.

إنَّ الإيمان قوَّةٌ غلَّابة كبرى، تُمْلِي كلمتَهَا وتفرض إرادتَها وتُثْبِتُ حجَّتَها وقوَّتَها وصلاحيَّتَها على مرِّ العصور، في سائر المجتمعات والبلاد فلا فَرْقَ بين شَرْق وغرب، وعُرْبٍ وعجم، وبين أمَّة إسلاميَّة عريقةٍ في الإسلام أو حديثة عهدٍ فيه، فإنَّ قوَّةَ الإيمان كالنُّور الَّذي يبدِّدُ الظَّلام ما اشتدَّ وأظلمَ وطَبَّقَ[٣] الآفاقَ بظلمته، ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور: ٣٥].

وكان هذا الإيمان وراءَ كثيرٍ من الحركات الإسلاميَّة في كثير من البلاد الإسلاميَّة، وقد قاد المسلمين في حروبهم الدِّفاعيَّة شمالًا وشرقًا، فكان هذا الإيمان يمشي مع صلاح الدِّين وجنوده في حربهم ضدَّ الصَّليبيِّين، ومع قطز وجنوده في حربهم ضدَّ التَّتَار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمَّد: ٧]؛ حتى يدفعوا عنهم الوعيد، وعيد الله القائل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمَّد: ٣٨].

(١) الأغلف: عليه غشاوة عن سماع الحق وقبوله. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٤/ ٢٢٥).

(٢) نشت الشيء: إذا تناولته. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/ ٤٣٢).

(٣) طبَّق الشيء: غطاه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ٤٩).

شرح الصُّدور (٣٣)

قرأت قول الله ﷻ في كتابه العزيز وهو يَصِفُ عباده المؤمنين في سورة الأنفال (٢- ٤): ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال: ٢-٣].

ثمَّ قرأت قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

أنزل الله هذا الكتاب من السَّماء ذِكرًا تلقَّته القلوب الحيَّة فتفتَّحت وانشرحت وتحرَّكت فيها حركة الحياة، مَثَلُهَا كمثل ماءٍ نَزَلَ من السَّماء فتلقَّته الأرض فتفتَّحت وتشقَّقت وأزهرت وازدهرت فأنبتت زرعًا مختلفًا ألوانه.

الله جلَّ شأنه يشرحُ للإسلام قلوبًا يعلَمُ فيها الخير، ويصلُهَا بنورِه فتُشْرِق وتضيء بنور الإيمان، فسبحان الله خالق القلوب العليم بأسرارها فإذا تُلِيَت عليها آيات الله زادتها إيمانًا وتصديقًا.

تلقَّت هذه القلوب آيات الله فانشرحت واستبشرت وأشرقت بنور الإيمان ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الزُّمَر: ٢٢]، فالإيمان بأحسن الحديث كتاب متشابه مثانٍ تقشعرُّ منه جلود الَّذين يخشون ربَّهم، إنَّهم المؤمنون الَّذين إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيمانًا وعلى ربِّهم

يتوكَّلُون، يعرفون هذه الآيات ويفقهون معانيها وأوامرها ونواهيها، فإذا قرؤوها وجلت قلوبهم فيغشاها من جلال الله ما يغشاها، ولا سيَّما إن كانت في هذه الآيات أوامر ونواهٍ، فتُنَفَّذُ الأوامر وتُجْتَنَب النَّواهي؛ مخافةً من القائل ومهابةً من الأمر إلى جانب تقصير المأمور، فيقول: ربِّ أعنِّي على طاعتك وجَنِّبني معاصيك.

يدعو الله فيطمئنُّ إلى حسن إجابته وكريم عونه.

والقلب المؤمن يَجِدُ في آيات هذا القرآن ما يزيده إيمانًا؛ لأنَّه يُدْرِك أنَّ هذا القول قول الله، القائل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٥٢]، والإيمان إذا حلَّ في قلب المؤمن وجد في آيات الله لَذَّةً حين يقرأ، وحلاوةً حين يسمع، وهذه الحلاوة واللَّذَّة تجعله يعيش مع القرآن في صباحه ومسائه، وفراغه وعمله.

كان سلفنا الصَّالح يعيشون هكذا مع القرآن الَّذي يتنزَّلُ عليهم، فيسمعون آياته من رسول الله ﷺ، فإذا تلاها عليهم زادتهم إيمانًا، وعلى ربِّهم يتوكَّلون، وهكذا عاش التَّابعون الَّذين سَمِعُوا القرآن من أفواه أصحاب النَّبيِّ ﷺ، الَّذين إذا تُلِيَت عليهم زادتهم إيمانًا وعلى ربِّهم يتوكَّلون.

نعم، يتوكَّلون على الله وحده لا يشركون معه أحدًا ويستعينون به ويتوكَّلون عليه، لا يرجون سواه ولا يقصدون إلَّا إيَّاه، ولا يلوذون إلَّا بحنانه، ولا يطلبون الحوائج إلَّا منه، ولا يرغبون إلَّا إليه، ولا يخافون إلَّا منه، ويؤمنون بأنَّه المتصرِّف في الملك ﴿لَا مُعَقِّبَ[1] لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ

(١) لا معقب: لا راد. انظر: تاج العروس، للزبيدي، (٣/ ٤١١).

سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرّعد: ٤١].

﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]؛ أي: يوحِّدون الله ولا يتوكَّلون على أحدٍ غيره، ولا يطلبون العَوْنَ والنَّصر إلَّا منه.

والاتِّكال على الله وحده لا يمنع من اتِّخاذ الأسباب، فالمؤمن يتَّخِذُ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتِّخاذها: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [المُلك: ١٥]، ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ١٠]؛ أي: في الأسباب لا النَّتائج، ولا علاقة بين السَّبب والنَّتيجة في عقل من توكَّلَ على الله؛ لأنَّ اتِّخاذ السَّبب طاعةٌ لله، والنَّتيجة قَدَرٌ مِنَ الله، وفي كليهما توكُّلٌ على الله، فالَّذي يتوكَّلُ على الله يعمل ويتَّخِذ السَّبب.

وبالعودة إلى حديثنا الأوَّل ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزُّمَر: ٢٢-٢٣].

كلمات تُشِعُّ بالنُّور، نور لم تَمْسَسْهُ نارٌ ولا تيَّارٌ كهربائيٌّ، إنَّه نور الله في كلامه أَشرقَ، فتَقَبَّلَهُا قلب المؤمن فاستضاء، فويل لمن قَسَا قلبه، وصمت أذنه، وعميت بصيرته، أمَّا من اتَّقى الله وآمن فإنَّه يتلقَّى هذا الذِّكر في وَجَلٍ، ولكنَّ هذا الوجل ليس كالخوف من الصَّاعقة أو العذاب الشَّديد، بل وَجَلٌ تهدأ إليه النَّفس وتَلِين له الجلود، وتطمئنُّ له القلوب، وتَأْنَسُ به العقول، ويرتاح المُتَّقِي إلى ما فيه من ذِكْرٍ فيَأْنَسُ ويتذكَّرُ قولَ

الله ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨]، ثمَّ ينتبه قلبه فيتذكَّر الآية: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٣٣]، فيستعيذ بالله ويرفع يديه إلى السَّماء داعيًا الله بقَلْبٍ وَجِلٍ: اللَّهم إنِّي أعوذ بك من الضَّلال بعد الهدى، ومن الجهل بعد العلم، ومن الغواية بعد الرُّشد، ومن فتنة المحيا والممات.

الطَّيِّبات (٣٤)

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

الإسلام لا يصادم الفطرة البشريَّة ولا يقيِّدها، بل يهذِّبها بأوامره ونواهيه عن أن تنطلق وراء شهواتها انطلاق الحيوان، وهو بهذا التَّهذيب لا يمنع الإنسانيَّة عن أن تَلْتَذَّ بغذاءٍ أو تَتَزيَّن بلباس أو تَسْعَدَ بحياةٍ، بل يقودها إلى حياة صفاء وهناءةٍ وسعادةٍ، معتدلة لا إفراط فيها ولا تفريط.

خلق الله الإنسانَ خليفةً في أرضه؛ لتَصْلُحَ به الأرض وتُعْمَر، وبعد أن هَبَطَ فيها حَرَثَ وبَذَرَ وزَرَعَ، ثمَّ أَنْشَأَ الله من هذا الحرث والبذر جنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ[1] وغير مَعْرُوشَاتٍ والنَّخل والزَّرع مختلفًا أكله، والزَّيتون والرُّمَّان متشابهًا وغير متشابه، وقال لنا جلَّ جلاله: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقال لنا أيضًا: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [النّحل: ١١٤].

(١) جنات معروشات: بساتين الكروم. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ١٧٢).

والإسلام دين الله الَّذي بَعَثَ به محمَّدًا النَّبيَّ الأُمِّيَّ الَّذي خَتَمَ برسالته الرِّسالات، وختم ببعثته النُّبوَّات، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويُحِلُّ الطَّيِّبات ويُحَرِّم الخبائث، فأنزل عليه ربُّه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٢]، وأنزل عليه أيضًا: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [طٰه: ٨١].

إذن فهناك أطعمةٌ غير طيِّبَةٍ نهى الإسلام عنها، وهي أطعمة وأشربة ولَذَّاتٌ معيَّنَة لا شَكَّ أنَّها تضرُّ بالإنسان، وصفوه وهناءته وسعادته الَّتي أرادها الله له، كما نهاه عن طعام وشراب ولباس دفع ثمنه من كَسْبٍ حرام.

والإسلام حين حَرَّم المُحَرَّمَات حرَّمَها لحكمةٍ معيَّنَةٍ يعلمها الله جلَّ شأنه، فقد حَرَّم الإسلام المَيْتَة والدَّم ولحم الخنزير ونحوها من المأكولات، وحرَّمَ الخَمْرَ وكلَّ ما أَسْكَر وخَدَّرَ من المشروبات؛ حفظًا لصحَّةِ جسم الإنسان وسلامة عقله، وحَرَّمَ القمارَ والمراهنةَ؛ حفظًا للأُخُوَّة الإنسانيَّة ومكارم الأخلاق، والمحرَّمَات من المآكل والمشارب والغرائز والمعاملات كلُّهَا معروفةٌ.

إنَّ الفِطْرَةَ البشريَّة تطلب بغريزتها الإنسانيَّةَ الأمنَ والعَدْلَ والسَّلام، والإسلام بعدله وسلامه يُمَكِّن لهذه المطالب تأسيسًا وحمايةً وتَمَسُّكًا؛ لهذا عاقب المفسدين في الأرض والعابثين بالأمن، وحَدَّ لهذه العقوبات حدودًا نصَّ عليها في كتابه العزيز.

ولا ننسى أنَّ اللهَ ﷻ أمرَ أن ندفع بالَّتي هي أحسن السَّيِّئَة، ووعد المصلحين الحفظَ من الهلاك، وقال في مُحْكَمِ تنزيله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هُود: ١١٧].

أمَّا من لم يبالِ بأوامرَ، ولم يحفظ حدوده وعاث في الأرض فسادًا، فالهلاك أقربُ إليه من حبل الوريد، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النّحل: ١١٢].

والإسلام بعد ذلك كلِّه أحلَّ لنا لذيذَ المَأْكَلِ والمشرب، ولكن نبَّهَنَا على أنَّ الأنانيَّة والاستئثار شيءٌ قبيحٌ، وأنَّ الإيثار خُلُقٌ كريم، ومَدَحَ أولئك النَّاس الَّذين يؤثِرُون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة[1].

إذن فليذكر المسلم بعد المغرب في كلِّ يوم من أيَّام رمضان حين يأكل الطَّيِّبات أخاه، وليستمع قول الله ﷻ: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحجّ: ٢٨].

والإسلام وضع تعاليمه ومكَّنَ لها وحثَّ عليها وأَمَرَ بحمايتها؛ ليَظْهَرَ الإنسان المسلم بأبهى صوره، ويحمل معه معاني كلمة الإسلام.

الصِّلات الإسلاميَّة (٣٥)

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢-١٠٣].

---

(١) الخصاصة: الفقر وسوء الحال والحاجة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/ ٥٥٢).

ومجيء الإسلام بالأخوَّة يستهدف إحكام الرَّوابط بين المسلمين، ويشدُّ وثاقهم بالأخوَّة التي تعلو على كلِّ أخوَّةٍ فلا أجناس، ولا أوطان ولا قبائل. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠] وهذه الآية جاءت لتشمل كلَّ المؤمنين على سطح هذه الأرض بكلام إلهيٍّ جليلٍ.

إنِّها أخوَّة إسلاميَّة ارتفعت على الصُّحبة والصَّداقة، والأخوَّة والنَّسب.

وتتابعت آيات القرآن في مراحل دعوة رسول الله، لتزيد في توثيق الصِّلات الإسلاميِّة بين المسلمين، فيهتف القرآن بهم قائلًا: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾ [التّوبَة: ٢٣]، فيقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفُرقان: ١٨].

فيؤكِّد الكتاب الكريم هتافه لهم: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التّوبَة: ٧١].

ويثني القرآن الكريم على هذه الصِّلة المتينة بوصف أولئك الذين فضَّلوا أخوَّة الإسلام على كلِّ أخوَّة، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ [الحَشر: ٩].

ألَّف الله بين قلوبهم حتى آثروا بعضهم على بعض، وسجَّل القرآن هذه الأُلْفَة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾ [الأنفَال: ٦٢-٦٣].

كتب أصحاب رسول الله ﷺ والتَّابعون لهم بإحسانٍ ومن اتَّبعهم تاريخهم بصحائف من نورٍ أحبُّوا محمَّدًا ﷺ الرسول الَّذي هَدَى الله به مَن اتَّبع رضوانه سُبُلَ السَّلام فأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه، وأحسنوا القصد، ووفَّقهم الله وأعزَّهم على من سواهم.

عَلِمُوا أنَّ الإسلام دين توحيدٍ للباري ﷻ فلا يُعبد أحدٌ سواه، ولا يُقصد أحدٌ سواه، ولا يُسأل أحدٌ سواه.

وعَرَفُوا أنَّ الذِّلَّة لله عزَّة، وأنَّ الاعتماد عليه نجاحٌ، وأنَّ الحاجة إليه غنًى، وهذه قضيةٌ لا تحتاج إلى بيانٍ، ولا إلى برهانٍ.

فإنَّ الإسلام ربَّى أولئك الرِّجال تربيةً صالحةً طاهرةً من كلِّ دنسٍ حتى جعلت منهم رجال حكمٍ، وأئمَّة هدايةٍ، ورواد إصلاحٍ، وموازين عدلٍ، وينابيع حكمةٍ.

إخوتي وأخواتي:

هكذا كان ديننا وما يزال كما هو، وهكذا كان سلفنا، ولكنِّي أقول ويا للأسف: خلف من بعدهم خلف انحرفوا عن الطريق وهم يعلمون أنَّهم انحرفوا.

صلاح القلوب (٣٦)

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البَقَرَة: ١٠].

وكلمة قلب هنا تُشير إلى عقل الإنسان، فكلَّما قرأنا كلمة «**قلب**»

شعرنا بأن المعنى يتَّجه إلى القلب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: ٤٦]؛ أي: العقول.

وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البَقَرَة: ٧].

وهنا نفهم أنَّ كلمة قلب بمعنى العقل، الذي ختم الله عليه فهو لا يسمع ولا يبصر.

أخبرنا رسول الله ﷺ: «**إنَّ في الجسد مُضغَة**[١] **إذا صَلَحَت صَلَحَ سائر الجسد، وإذا فَسَدَت فسد سائر الجسد**»[٢] وهذه المضغة هي القلب.

ولما كان الأمر كذلك فقد جاء الإسلام بكتابه العزيز ليصلح القلوب، فقال الله تعالى في سورة يونس: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يُونس: ٥٧]، وقال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسرَاء: ٨٢]، ويصف القرآن في سورة فصِّلت بأنَّه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فُصّلَت: ٤٤]، والقرآن شفاءٌ لأمراض القلوب، وأمراض الصُّدور، وأمراض المجتمعات، وأمراض الأخلاق.

والإسلام جاء ليضع للنَّاس مفاهيم الحياة منذ ولادة الإنسان حتى

---

(١) المضغة: هنا يعني القلب؛ وهي القطعة من اللحم. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/ ٣٣٩).

(٢) رواه البخاري، رقم (٥٢)، ومسلم، رقم (١٥٩٩) بلفظ: «**ألا وإنَّ في الجسد مُضغَة إذا صَلَحَت صَلَح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب**».

يموت، فيعيش مع الإسلام في كلِّ حياته وفي منامه ويقظته، وفي غدوِّه ورواحه، وفي سوقه وفي محرابه، وفي وظيفته منفردًا أو مع النَّاس، وفي مأكله ومشربه وملبسه، وحتى في خلوته عند قضاء حاجته أو عند اغتساله.

إن الإسلام لا دين مثله فهو يعيش مع المسلم في كلِّ حياته؛ لأنَّ الإسلام - كما قلت - صانعٌ لمفاهيم الحياة، وهو الدِّين الَّذي قال الله في كتابه للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والإسلام يريد من المسلم أن يعيش بعقله وإدراكه وجميع حواسه، لذلك ذمَّ أولئك الَّذين لهم قلوبٌ لا يعقلون بها، وأعينٌ لا يبصرون بها، وآذانٌ لا يسمعون بها، فالمؤمن لا يكون مغفَّلًا ولا كسولًا.

والإسلام يقول: «**لا يُلْدَغُ المؤمن من جُحرٍ مرَّتين**»[1]؛ لأنَّ الَّذي يُلدغ من الجحر يكون حذرًا يحتاط من كلِّ الجحور، فكيف يُلدغ من نفس الجحر الَّذي لُدِغَ فيه أولًا؟

ولا ننسى قول الله ﷻ لعباده: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النِّساء: ٧١] ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ لأنَّ معنى هاتين الآيتين الحذر، وفي تنزيل صلاة الخوف أمرنا الله بالحذر فقال ﷻ:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٌ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾ [النِّساء: ١٠٢]، ومعنى هذا أنَّه حتى

(١) رواه البخاري، رقم: (٦١٣٣)، ومسلم، رقم: (٢٩٩٨).

في وقت العبادة يجب الحذر؛ لأنَّ في ترك الحذر غفلة، والقلب متى كان سليمًا كان الجسد سليمًا.

أقول للمستمع الكريم: قيمة الإنسان تكمن في قلبه، واللِّسان ترجمان القلب، وقد سمعنا حكمةً نُسِبَت إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «**المرء بأصغريه قلبه ولسانه**».

والشَّاعر يقول:

ترى الرَّجُل النَّحيف فَتَزدريه وفي أثوابه أسدٌ مَزِير[1]

ويُعجِبُك الطَّرير فتَبتَليه فيُخلِفُ ظنَّك الرَّجُل الطَّرير[2]

فالعقل لبٌ والجسد غلافٌ، ولا قيمة لغلافٍ بلا لُبٍّ، وكم سمعنا من فلان كلامًا فارغًا؛ لأنَّه بلا قلبٍ.

(١) المزير: الشديد القلب القوي. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٤١٩٢).

(٢) الرجل الطرير: رجل ذو طُرَّةٍ وهيئةٍ حسنةٍ وجمالٍ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٢/ ٤٢٥).

ثانيًا: أحَادِيث في المنَاسبَات الإسْلَاميَّة

العظمة في شخصيَّة المصطفى ﷺ

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزَاب: ٢١].

أيُّها السَّادة:

إنَّنا كمسلمين يجب علينا أن نعتزَّ بشخصية النَّبيِّ محمَّد، لا بوصفه نبيًّا للإسلام فقط، ولكن بوصفه مبعوثًا للنَّاس كافَّة بشيرًا ونذيرًا ليُخرِج الإنسانيَّة كلَّها من الظُّلمات إلى النُّور، ومن الجهالة إلى المعرفة، ومن الضَّلالة إلى الهدى، ومن الظُّلم إلى العدل، ومن حياة البؤس والشَّقاء إلى الحياة السَّعيدة والعيش الكريم.

وحبُّنا لشخصيَّةِ النَّبيِّ ﷺ يُحتِّم علينا أن نضعه في الإطار الَّذي صنعه الله له، دون مغالاةٍ أو مبالغةٍ، وحسبه من تعظيم الله له، أن كلَّفه بتبليغ رسالةٍ خالدةٍ خُلُودَ السَّموات والأرض، فهي عامَّةٌ لجميع النَّاس ولم تُقيَّد بشعبٍ أو إقليمٍ أو حدودٍ، وأيَّده بمعجزةٍ باقيةٍ بقاءَ هذا العالم، وهي معجزة القرآن، فهو كتاب الله الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسيظلُّ هذا الكتاب آيةً لتأييد رسالة الله الَّتي جاء بها محمَّدٌ من عند الله، حتى يَرِثَ الله الأرض ومن عليها.

أيُّها الإخوة:

إنَّ في تاريخ رسول الله عِبرةٌ، وإنَّ جميع أيَّامه عظمةٌ، وإنَّنا نجتمع اليوم في مكاننا هذا للذِّكرى، وإنَّ الذِّكرى تنفع المتذكِّر الَّذي يؤمن بالله ورسوله ويتَّخذ منه أسوةً حسنةً كما أراد الله حتى إذا اطمأنت قلوبنا بهذه الذِّكرى، واهتزت هزَّة الإجلال لصاحبها الَّذي نحبُّه حبَّ طاعةٍ واقتداءٍ، ثمَّ رجعنا إلى أنفسنا، فنظرنا إلى أخطائنا في بيوتنا، وأسواقنا، وعوائدنا، وأخلاقنا، وتربيتنا، وما أحدثناه من بدعٍ في أفرادنا ومجتمعاتنا وجدنا أننا قد انحرفنا عن الطَّريق، فإذا علمنا أنَّ لنا في رسول الله أسوةٌ، علمنا أنَّه من الواجب علينا أن نسعى إلى تصحيح هذه الأخطاء، وإكمال هذه النَّواقص ومحوِ هذه البدع، ورجعنا إلى الأسوة الكاملة نتبع خُطَاها، ونستنُّ بسُننها.

إنها ظلمات تحيط بنا من جميع جهاتنا، ومن فوقنا ومن تحتنا، ومن أمامنا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، فهي ظلمات بعضها فوق بعض ولا يمحوها إلَّا نور القرآن، فهل يا ترى يعود المسلمون إلى هذا النُّور فيبدِّدوا به تلك الظُّلمات لنسير جميعًا في النُّور على الصِّراط المستقيم؟ تالله لا سعادة ولا هداية بغير نورٍ، ولا نور إلَّا القرآن.

وتذكروا أيُّها الإخوة قول النَّبيِّ المصطفى ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسَّكتم بهما لن تَضِلُّوا: كتاب الله وسُنَّتي**»[1].

أيُّها الإخوة: اعتاد المسلمون في السَّنوات الأخيرة أن يحتفلوا في أوَّل يومٍ من محرم، مبدأ كلِّ عامٍ هجري بذكرى الهجرة، أو كما يسمُّونه أخيرًا يوم الهجرة أو عيد الهجرة، وليعلم الإخوة أنَّ الهجرة كانت في

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٨٧٦).

ربيع الأوَّل في سنة (١٣) من البعثة.

وإنَّها لذكرى حبيبة إلى نفوسنا وعزيزة علينا؛ لأنَّها ذكرى العظمة والجهاد والصَّبر، والتَّضحية والمُثل العليا.

أما العظمة: فعظمة محمَّد ﷺ لا يجرؤ أحد أن ينكرها، ولا أن ينكر ما وصف به من أخلاقٍ ساميةٍ، ولا ما امتاز به من ملكات فاضلة استقرَّت في نفسه، وصدرت عنها أفعاله وتصرفاته الَّتي هيَّأته، بل هيَّأه الله بها لأن يكون النَّبيَّ الرَّسول، والزَّعيم القائد، كيف لا وهو القائل ﷺ: «**أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي**»(١).

وإننا - معشر المسلمين - حيث ما ولَّينا وجوهنا شرقًا أو غربًا شمالًا أو جنوبًا، نبحث عن قدوةٍ نتأسَّى بها، أو عن مثالٍ نقتدي به، فلن نجد أفضل من محمَّد ﷺ أسوةً حسنةً نتأسَّبها، ودينًا نتعبد لله به، وخلقًا نصلح مجتمعنا به.

إنَّه عبد الله ورسوله الَّذي اصطفاه الله ليكون معلم البشريَّةِ وهاديها إلى النُّور في كلِّ جوانب حياته الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

* فهو الزَّوج نقتدي به في حياتنا العائليَّة.

* وهو الأبُّ نقتدي بتعاليمه في تربية أبنائنا وحياتنا البيتيَّة.

* وهو القاضي نقتدي به في فصل قضايانا وفضِّ خلافاتنا وحكوماتنا.

* وهو القائد نقتدي به في دفاعنا عن حريتنا وعزَّتنا ومجدنا.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٦٤).

* وهو المجاهد الَّذي نتأسَّى به في التَّضحية والتَّفاني في نصرة الحقِّ.

* وهو الرَّاعي الَّذي نقتدي به في تدبير الرَّعية، وفي رعاية ما نحن مسؤولون عنه في حياتنا.

* وهو المتعبِّد الَّذي نقتدي به في توجهنا لربِّنا وفي عباداتنا لخالقنا.

* وهو روحانيَّة صافية في مزاجٍ بشري متكاملٍ وطبيعةٍ إنسانيَّةٍ مشرقةٍ.

* وهو بشرٌ لكنَّه شمل اتجاهات البشر كلَّها بطهارةٍ وصفاءٍ.

* وهو الإنسان الَّذي ينبغي أن يهتدي به كلُّ إنسانٍ بقدر ما تطيقه النَّفس الإنسانيَّة.

* وهو المقياس الَّذي يجب على كلِّ إنسان أن يقيس عليه حياته ليعرف إلى أيِّ مدى هو مصيبٌ باقتدائه، وإلى أيِّ مدى هو مخطئ في اقتدائه.

* وهو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

أيُّها الإخوة: هذا كتاب الله بين أيدينا نقرأ فيه قوله تعالى ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

يهلُّ علينا هلال المحرم أوَّل شهر من العام الهجري، ونحن نقرأ هذه الآية الكريمة، ونقول لبعضنا: كلُّ عامٍ وأنتم بخير، ونتذكر الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة، ونتذكر التَّضحية الكبرى والجهاد المرير، ثمَّ نتذكر ثلاثة أيَّامٍ في

حياة النَّبيِّ ﷺ هي أصعب أيَّامٍ مرَّت في حياته الشَّريفة.

ونجد في حياة النَّبيِّ ﷺ أيَّامًا عظيمةً كثيرة، لكنَّ هذه الأيَّام الثَّلاثة من أعظم الأيَّام الَّتي هزَّتني مواقفه فيها أمام الحقِّ.

أمَّا اليوم الأوَّل فصباح ليلة الإسراء والمعراج: وهو يقف وحده أمام جموع المستهزئين من المشركين والَّذين في قلوبهم مرض، والمرتابين ممَّن أسلموا الَّذين يقفون موقف الرِّيبة والهزء، ويلتفت ﷺ هنا وهناك فيجد الحقَّ معه، فيقف وقفة العظمة لا يأبه لهذا ولا لذاك؛ لأنَّه يعلم يقينًا أنَّ الله هو الحق، وأنَّه مع الحق.

وأمَّا اليوم الثَّاني فيوم الهجرة، يوم أصبح في الغار مع صاحبه وحيدين ليس معهما إلَّا عون الله، وقد بذلت قريش الثَّروة والغنى لمن يأتي به أو يدل عليه، ويرى هو وصاحبه الطُّلَبَ يجولون حول الغار فيقول له صاحبه: «**لو طأطأ أحدهم رأسه لرآنا**» فيقول العظيم قولته الخالدة: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التّوبَة: ٤٠] «**يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثُهُمَا**»[1]، ويسجلها القرآن مقروءةً باقيةً بقاء الزَّمن حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

أمَّا اليوم الثَّالث - أيُّها السَّادة - فيوم الخندق أو يوم الأحزاب ذلك اليوم الَّذي جاءت قريش بخيلها ورجالها وحلفائها تريد المدينة والقضاء على كلمة الحقِّ فيها، وفي ذلك الوقت يتَّفق اليهود والمنافقون الَّذين يساكنون المسلمين في مدينتهم مع المشركين، فيجتمع العدو داخلًا وخارجًا ضدَّ المسلمين.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٦٦٣)، ومسلم، رقم: (٢٣٨١).

ويسجل القرآن صبر النَّبيِّ وعظمته بكتابه الخالد بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزَاب: ١٠-١١].

أيُّها الإخوة المسلمون: كلنا نعرف حادثة الهجرة وحوادثها، كما نعرف من سيرة المصطفى صلوات الله عليه الشَّيء الكثير، ولكننا - ويا للأسف - تغافلنا عما نعرف أو تناسيناه، وتعامينا عن طريق الحقِّ، وطال الأمد على المسلمين كما طال على غيرهم فقست قلوبهم وتجاهلوا ماضيهم، وجهلوا دينهم وأحكام دينهم، واستغلَّ أعداء المسلمين هذا الجهل، فهبُّوا في وجهه في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، ولكن الإسلام جالدهم وهو أعزلُ؛ لأنَّه الحقُّ، وإنَّ الله مع الحقِّ.

وحارب عدوُّ الإسلام دين الإسلام كما حارب نبيَّه عندما بزغ نوره في البشريَّة، وما زال ولن يزال يحاربه في كلِّ مكانٍ؛ لأنَّ الإسلام دينٌ يقف لهم في الطَّريق يعوقهم عن الطُّغيان والتَّسلُّط والاستغلال، فأطلقوا عليه حملات التَّشويه والخداع والتَّضليل.

وقال أعداء الإسلام: إنَّه يقسر النَّاس على اتِّباعه قسرًا ويحملهم عليه حملًا، وجهلوا أنَّ لا إكراه في الدِّين، ونسوا قول الحقِّ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النّحل: ١٢٥].

وأخذوا على الإسلام أنَّه دين القصاص، وأنَّه يضرب على يد كلِّ مستكبرٍ، ويقطع يد كلِّ طامعٍ، ويقطع رأس كلِّ معاندٍ، ويقضي على كلِّ طاغيةٍ، ويقطع دابر مَن يسعى في الأرض بالفساد.

ونسوا أنَّ هذا هو العدل وتعاموا عن الحقِّ، وكأنهم لم يعلموا أنَّ هذا

هو السبيل الوحيد لنشر الأمن والسَّلام؛ لأنَّ الفتنة أشدُّ من القتل، والفساد في الأرض شرٌّ من الفتنة.

والإسلام في كلِّ عصرٍ من عصوره يعادي أشدَّ العداء أسلوب القسر والإكراه في الدَّعوة لمن لم يعرف حقيقته، ويحصل على فكرة تامَّة عنه لكنه في الوقت نفسه يحارب الطُّغاة والجبَّارين والسَّاعين في الأرض فسادًا، ويحارب الظُّلم والاستغلال والاستعمار والاستعباد، ويحارب أولئك الَّذين يقفون في طريق دعوته، ويصدُّون عن سبيل الله، فإذا وجد هؤلاء وأولئك جالدهم بالسَّيف عدلًا وإحسانًا منه، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

أيُّها الإخوة: إنَّ خصائص الإسلام هي الَّتي تَحْنِقُ[1] عليه أعداءه الطَّامعين في الوطن الإسلامي، ولكنَّ الَّذي لا شكَّ فيه هو أنَّ المستقبل لهذا الدِّين.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨-٩].

أيُّها الإخوة: إنَّ في ذكرى الهجرة دروسًا وعبرًا، ذلك أن المبادئ الحميدة لها أعداء، ولن تنتصر إلَّا بجهادٍ شاقٍّ، وتضحيةٍ كبرى، وعلى قدر ما يكون الجهاد والتَّضحية يكون الفوز والنَّصر، وما أحوج الشُّعوب الإسلاميَّة في عصرنا هذا إلى الجهاد والتَّضحية لتسترد حرِّيَّتها وكرامتها، ولتستكمل عزَّتها وتضامنها.

---

(١) الحنق: الغيظ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٥/ ٢٠٧).

ولقد ترك رسول الله ﷺ فينا تراثًا ضخمًا يمكننا أن نستفيد ونفيد دروسًا نافعةً، وعِظَاتٍ بالغةً، وأن نهدي به ونهتدي إلى الَّتي هي أقوم.

ذلك كتاب الله وسُنَّة نبيِّه اللَّذان تمسَّك بهما الأولون فلم يضلوا، ولو تمسَّكنا بهما كما تمسَّكوا، وعملنا بهما كما عملوا، لبنينا عالمًا أفضل كما بنوا، وعشنا حياةً أكرم كما عاشوا.

أيُّها الإخوة: أرجو أن يكون حاضرنا امتدادًا لماضينا الصالح المجيد، وقد قرأنا في الأثر الطَّيب: «**ولن يصلح آخر هذه الأمة إلَّا بما صلح به أوَّلها**»(١) والله جلَّ جلاله يقول: ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

أيُّها المسلمون في كلِّ مكانٍ من الأرض: ها نحن نحتفل بذكرى الهجرة كما احتفلنا قبل بذكرى المعراج والمولد النَّبوي وغيرها من الذِّكريات، فنحن نحتفل احتفال ذكرى، والذِّكرى تنفع المؤمنين كما قال ذلك ربُّ العزَّة.

قد احتفلنا بالذكريات فهل تذكَّرنا أو تعلَّمنا أو تيقظنا؟ أو هل انتبهنا لما نحن فيه من ضلال وانحلال واقتدينا بصاحب الذِّكرى وتأسينا به؟ هل دعونا الله أن يجعلنا ممن اهتدى بهديه واتَّبع سُنَّته؟

وهذا المسجد الأقصى القِبلة الأولى لنا ومسرى نبيَّنا، الَّذي اغتصبه أعداء الله وأعداء الإنسانيَّة منَّا، اغتصبه مَن ضُربت عليهم الذِّلَّة والمسكنة

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية.

وباؤوا بغضب من الله، اغتصبوه لا بعددهم فعددنا مئة أضعاف عددهم، واغتصبوه لا بعدَّتهم فعندنا من الأموال الكثير، ولكن استغلوا تفرقتنا وتشتتنا واختلافنا، واستعبدونا بجهلنا وضلالنا وغرورنا.

هذه صفاتٌ شائنةٌ لا يرضاها إلَّا من ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم صفاتٌ أذلتنا أمام عدوِّنا، ولو أنَّنا آمنا كما أراد الله لنا، وعملنا كما فرض الله علينا، وتآلفنا كما أمرنا ربنا كنَّا أعزَّة، والعزَّة لله ورسوله والمؤمنين فهي عزَّةٌ لا تذلُّ، وقوةٌ لا تندحر.

أيُّها الإخوة: المسجد الأقصى ينادي: هلمُّوا إليَّ فقد أذلَّني الكفر بعد العزَّة، وأهانني بعد الكرامة، ودنَّسني بعد الطَّهارة، وأخافني بعد الأمن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢-١٠٣].

الإيمان اطمئنان لذا يجب أن نربِّي أولادنا على الإيمان

خلق الله الإنسان مؤمنًا بما وراء المنظور والمادَّة ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الـــــــــرُّوم: ٣٠] فالإيمان في قلب كلِّ إنسانٍ مفطورٍ على الفطرة السَّليمة.

فالمتعلِّم والجاهل على حدٍّ سواء يؤمنان بأن وراء هذا الكون خالقًا يلجأ المخلوق إليه فيسأله الفرج من الكرب، والعزاء عند المصيبة،

والصِّحة عند المرض.

والإيمان بالله عند المتعلِّم أصحُّ منه عند غيره من الجاهلين فصدق الله العظيم حين قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨]؛ لأنَّ المتعلِّم يعرف الحقيقة، وكلَّما تقدَّم العلم بالإنسان تحقَّقت عنده معرفة الله جلَّ شأنه، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**رأس الحكمة مخافة الله**»(١) أو معرفة الله، ومخافة الله من تمام معرفته.

والإيمان بالله دليلٌ على سلامة الرُّوح، وصفاء النَّفس، وحسن الخلق سواءً في المسلمين أو في غيرهم؛ لأنَّ الإسلام إيمانٌ بوحدانيَّة الله أولًا، وبرسالة محمَّد ﷺ ثانيًا، والمؤمنون بوحدانيَّة الله في العالم كثيرون، وكثيرٌ منهم كان في العرب قبل رسالة محمَّد ﷺ، منهم:

قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن نفيل عمُّ عمر الَّذي قال عنه رسول الله ﷺ: «**إنَّه يُبعث أُمَّة وَحدَه**»(٢).

والإيمان بالله عاملٌ نفسيٌّ لسعادة الإنسان النَّفسيَّة، فلا يفرح ذلك الفرح الطَّاغي إذا أصابه خير، بل يكون فرحه بشُكر الله وحمدِه على ما أعطاه، بأنَّ ما أصابه من حسنةٍ فمِنَ الله، وإن أصابه مكروه صَبَر فلا يحزن على ما فاته من خيرٍ، بل يصير مؤمنًا بأنَّ كلَّ ما حصل له كان من عند الله، وأنَّ الله أعدَّ للصابرين أجرًا عظيمًا.

أما إذا ضاع الإيمان فلا أمان بفرحٍ طاغٍ قد يُذهب العقل، أو حزنٍ طاغٍ قد يؤدي إلى الجنون أو الموت.

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٥٨٧٣).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤٦٦٣).

والإيمان بلسم شافٍ لجراح النَّفس، وإذا فقد الإنسان الإيمان فلا أمانة له في كلِّ معاملاته مع أهله وأولاده، وفي وظيفته مع مراجعيه، وحتى مع نفسه الَّتي هي أقرب إليه من كلِّ أحد.

والإيمان حصنٌ منيعٌ يمنع عن المؤمن كلَّ الزَّوابع النَّفسيَّة، وهو ملجأٌ قويٌّ ينعم فيه بالاستقرار النَّفسيِّ إذا أحاطت به الكوارث، وجلَّ من قال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: ١٧].

ولقد رأينا كثيرًا من دعاة الإلحاد يذكرون اسم الله من دون قصدٍ في أحاديثهم أو في سرحاتهم ذلك أنَّ عقلهم الباطن مؤمنٌ بالله، وذكرهم لله دليلٌ على إيمانهم الخفي.

هذه مقدمةٌ بدأت بها حديثي عن هبة الله ﷻ للزَّوجين ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

وإنَّ ديننا الحنيف مع المسلم منذ أن تزوَّج أبواه على سُنَّة الله تعالى ورسوله، ثمَّ تقبَّلاه هديةً من الله تعالى بحمده وشكره.

فكان واجبًا على الأبوين أن يزوِّدا هذا المولود الموهوب لهما الَّذي كان ثمرة لزواجهما بمختلف الخيرات أثناء سنواته التَّكوينيَّة الأولى وفي مقدمتها كلمات الذِّكر الإسلاميَّة؛ لأنَّ للسَّنوات الأولى الَّتي يقضيها الطِّفل بين أبويه أبلغ الأثر في تكوين شخصيَّته بما تتضمنه من اتِّجاهات ومفاهيم وأساليب سلوكيَّة.

فتربية الأبوين من أهمِّ العوامل الثَّابتة في حياة الطِّفل، وإنَّها الحصن

المنيع له إذا كانت حسنةً وبعيدةً عن رفاق السوء في المدرسة والطَّريق، وأمَّا إذا كانت التَّربية سيِّئة فربَّما جرَّته إليهم وجرَّتهم إليه.

ويجب على الأبوين أن يُشعِرا ولدهما بإسلامه، فيُعلِّمانه معنى الحلال والحرام، وأوَّل ما يبدأ الطِّفل من حيوانيَّته، والإنسان حيوان يتعدَّى على حقوق الغير، إذا أحسَّ بضعفهم، فإننا نرى الطِّفل الأكبر يعتدي على أخيه الأصغر، أو على مَن يقدر عليه ممَّن هو أقلُّ قوَّةً وأكثرُ ضعفًا.

لهذا يجب على الأبوين منع الطفل من التَّعدِّي على غيره، وإفهامه أنَّ الله لا يرضى بذلك، وأنَّ ما لا يرضاه الله حرام، وأنَّ الله يغضب مِن فِعْلِ الحرام فيجب أن يمنعانه عن فعل ما يضرُّه باللِّين والحسنى، وكذلك عليهما أن يمنعاه عن قول الكذب ويقومان بإنكار ما فعل.

فإذا بلغ الطِّفل السَّابعة من عمره - وهو السِّنُّ الَّذي يسمِّيه الفقهاء سِنَّ التَّمييز - أخذ يستعرض نفسه ذكرًا كان أو أنثى بصفةٍ مستمرَّةٍ سرًّا وجهرًا، فيُكثر النَّظر إلى وجهه في المرآة ليقدِّر طوله وقوَّته ورجولته إن كان صبيًا، وأنوثتها وجمالها إن كانت أنثى.

لهذا كان واجبًا على الأبوين أن يمتنعا في مثل هذا السِّنّ عن نعت ولديهما بالغباء أو البلادة أو الخور والضَّعف أو القبح أو أن يقال له: فلانٌ أفضل منك، أو فلانةٌ أجمل منك، فقد يؤثر هذا الوصف في عقله الباطن، وتبقى العلَّة فيه كامنةً، فيشعر بالنَّقص أمام غيره من الأطفال وهنا قد يُذَلُّ ويستوحش.

وقد جرَّبنا فكان لمثل هذه الكلمات آثارها السَّيِّئة في النُّفوس، منها: ذلٌّ أو انكماشٌ نفسيٌّ، أو انعزالٌ عن الآخرين أو عقدةٌ، وهي تسمَّى الآن العقد النَّفسيَّة.

فيجب على الأبوين أن يَصِفَا ولدهما ذكرًا كان أو أنثى بالذَّكاء والنَّباهة، وبالقوَّة وحُسن التَّصرف، وبالعقل والإدراك، وأن يَصِفَا الابن بالرُّجولة، ويَصِفَا الابنة بالجمال واللُّطف والحصانة لكي ينشأ الطِّفل وقد رسخت في عقله الباطن هذه الصِّفات ولكن بلا غرورٍ، ولا تدليلٍ، ولا إسرافٍ، ولا إعجابٍ؛ لأنَّ الغرور داءٌ يجرُّ إلى الأنانيَّة أو إلى الحماقة، فالمغرور يرى نفسه أفضل من الآخرين، وأسمى من أن يختلط بهم، وهنا تكون العزلة والانكماش.

بناتي، وأخواتي

شتَّان بين طفلين: طفلٌ عاش في بحبوحة من الحبِّ بين أبويه، فيفتح عينه في الصَّباح ليرى السَّعادة على طلعتيهما، والبسمة على شفتيهما، فلا يسمع إلَّا كلمات المجاملة وعبارات المحبَّة من كليهما لكليهما، ويمسي ليُغمض عينيه على مثل ما أصبح عليه: ودٌّ، وتفاهمٌ، وثقةٌ، وتقديرٌ، ومحبَّةٌ، واحترامٌ.

وطفلٌ ثانٍ عاش مع الرُّعب والغيظ، وحُرِمَ من الأمن والعطف، فإذا أصبح يجد نفسه بين أبوين متخاصمين ومتشائمين، وإذا أمسى بينهما يجدهما متشاكسين ومتلاعنين، وليس كالطِّفل في شدَّة إحساسه، فهو يشعر من حيث لا تشعر.

ونرى النَّتيجة في هاتين الحالتين عند كبر الأولاد، وكلُّ صغيرٍ يكبر.

فمَن أَمِنَ في عهد الطُّفولة وعاشها رائقةً له، وكان هادئًا فيها، وهانئًا بين أبويه، شبَّ مسرورًا آمنًا في حياته، وتقبَّل عمله في كبره مطمئنًا طول حياته، ومَن عاش طفولته في المشكلات محرومًا من الهدوء، شبَّ خائفًا وخانعًا، وفاشلًا، وقلقًا، أقول ذلك عن الأغلبيَّة، ولا أحكم على

الجميع فالشَّاذُّ كثير، ولكني أنصح كل أبوين بالآتي:

١-أن يبتعدا عن المشاجرة والمخاصمة أمام أولادهما، فإنَّ الخلاف بين الأبوين قلق للأطفال.

٢-أن لا يُفضِّلا ولدًا على ولدٍ، سواءً بالكلمة أو بالعطية.

٣-أن لا يحرما أولادهما من الحنان، فإنَّ الحرمان من حنان الوالدين عقدةٌ تصاحب الطِّفل مدى حياته.

٤-أن لا تحرم الأمُّ طفلها من درِّها الَّذي خلقه الله فيها، فوظيفة الأمِّ إرضاع طفلها، والطِّفل الَّذي يرضع من ثدي أمِّه حنونٌ.

جرِّبي، وأقولها لكلِّ أمٍّ: متى رأيت من طفلك قلقًا من دون مرضٍ، وهو في حجرك تحاولين إسكاته، جاملي أباه أمامه، أو ليجاملك هو بحركةٍ تدلُّ على المحبَّة والصَّفاء بينكما، فإنَّ الطِّفل سيسكت وسيبتسم، اللَّهمَّ إلَّا إذا كان قلقه من مرض.

والولد ذكرًا كان أو أنثى هبةٌ من الله ونعمةٌ - كما قلنا - فكيف نشكر نعمة الله إن لم نرعها، ورعاية النِّعمة كما علَّمنا ديننا شكرٌ لها.

إذن فالواجب علينا أن لا نترك أولادنا للخدم؛ لأنَّنا لا نأمن من هؤلاء الخدم على أولادنا.

إنَّ الطِّفل يشعر بلمسات أمِّه الحقيقيَّة ولا يشعر بغيرها من الأمَّهات المأجورات، فإنَّ تعدُّد الأمَّهات عند الطِّفل يؤثر في نفسه وعقله وسلوكه كما رأينا ذلك في الملاجئ، وإنَّ المرأة الَّتي تترك أولادها في رعاية الخدم إنما ترمي مستقبلهم في الهاوية.

وقد رأينا في المحاكم الفضائح من معاملات الخدم مع الأولاد،

وهي فضائح يندى لها الجبين، فمن تردَّد على المحاكم عرفها، ولا مجال لذكرها هنا.

والمرأة الَّتي لا ترعى أولادها، ولا تعرف عنهم شيئًا أضاعت مستقبل وطنها، بل ومستقبل مجتمعها وقِيَمَه.

والخدم الَّذين يدينون بغير ديننا خصوصًا يستغلُّون أطفالنا ليُلَقِّنُوهم الكُفر والإلحاد، ومن شبَّ على شيءٍ شابَ عليه.

الولد يتعلَّم من أمِّه لغة أمَّته، ويتعلَّم منها كيف يتحدَّث مع بني وطنه وقومه، والأمُّ الفاضلة الكريمة تزرع فضيلة الكرم في أبنائها وبناتها، فيشبُّون محبِّين للفضيلة، ويتحاشون الرَّذيلة، وينفرون منها ومن أهلها، وصدق شوقي فيما قال رحمه الله:

الأمُّ مـــدرســـةٌ إذا أعـــددتـــهـــا أعـددت شـعـبًـا طـيِّـب الأعـراق

وأختم حديثي هذا بثناء النَّبيِّ ﷺ على نساء قريش، فقد قال عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام: «**خير نساءٍ رَكِبن الإبل نساءُ قريشٍ أَحْنَاهُنَّ على ولدٍ في صغره، وأرعاهنَّ على زوجٍ في ذات يده**».(١)

الدِّين الخلق

روحي الفداء لمن أخلاقه شهدت بـأنَّـه خـيـر مـولـودٍ مـن الـبـشـر

عـمَّـت فـضـائـلـه كـلَّ الـعـبـاد كـمـا عـمَّ الـبـريَّـةَ نـورُ الـشَّـمـس والـقـمـر

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٣٦٥)، ومسلم، رقم: (٢٥٢٧).

لـو لـم تـؤيـده آيٌ مُـبَـيَّـنـة كانت بديهته تغني عن الخبر

الصَّحابيُّ الجليل عبد الله بن رواحة.(١)

نفرح في مثل هذه الأيَّام من كلِّ عام بذكرى حبيبةٍ إلى نفس كلِّ مسلمٍ، هي ذكرى المولد والبعثة فتحتفل الكويت المسلمة بهذه الذِّكرى كما يحتفل بها كلُّ المسلمين على اختلاف أوطانهم وأجناسهم وألوانهم وجنسيَّاتهم ولغاتهم، وأسأل الله الكريم أن يجعل في هذه الاحتفالات ذكرى موعظةٍ نافعةٍ، والذِّكرى تنفع المؤمنين.

وقد تكلَّم الوعَّاظ والخطباء والشُّعراء المحتفلون في كلِّ مكان من الوطن الإسلاميِّ في المولد والبعثة، وكتب الكتَّابُ وقالوا الكثيرَ من القول، ونصحوا وأفصحوا، فجزى الله من أحسن القصد بقوله ومن سمع القولَ فاتَّبع أحسنه خيرًا؛ لهذا رأيت - أيُّها الإخوة المسلمون - أن أُغيِّر الحديث بهذه المناسبة، فأحدِّثكم عن الدِّين الَّذي بُعِثَ به المصطفى نبيُّ الرَّحمة، فأشرق نورُهُ بهذه البعثة، ليضيء به العالم كلَّه ما دامت السَّموات والأرض.

وأبدأ حديثي معكم بقول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقوله تعالى في سورة النَّحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

(١) معجم أعلام شعراء المدح النبوي، لمحمد أحمد درنيقة (١/ ٢٧٨) وورد بلفظ:

روحي فداء لمن أخلاقه شهدت بأن غيرته تكفي من الغير
عمَّت فضائله كلَّ العباد كما بغارة الحقِّ قد أردى أولي الغير
لو لم يكن فيه آيات مبيَّنة كانت مبرَّته تُغني عن الأثر

[النّحل: ٩٧]، فمن هاتين الآيتين وغيرهما كثير في كتاب الله ﷻ نفهم أنَّ الإسلام حياة المسلم؛ بل هو الحياة كلُّها، فهو معه في مسجده يتعبد ربَّه، وفي سوقه وعمله يكسِب رزقه، وفي بيته بين أهله وأولاده، وفي فراشه، والإسلام مع الموظَّف في وظيفته، والقاضي في محكمته، والمدَّعي في مرافعته، والشَّاهد عند أداء شهادته، والإسلام مع المسافر في ترحاله، والمقيم في إقامته، وهو مع المرأة في دارها، ومع الرَّاعي في رعيته، فهو مُصاحِبٌ للمسلم في كلِّ شأن من شؤونه.

والقرآن كتاب الله للمسلمين لم يترك لهم مجالًا ليستوردوا مبادئ ونظمًا يكيِّفون بها حياتهم؛ لأنَّ فيه غنىً عن استيراد أيِّ نظام، ولا أقول هذا بدافع التَّعصُّب للإسلام، فالإسلام ليس بحاجة إلى تَعَصُّب متعصِّبٍ أو نُصْرَة نصير.

والمسلم لا يكون مسلمًا حقًّا إلَّا إذا أقام إسلامه على أسس ثلاثة: الإيمان، والعمل، والمعاملة؛ لأنَّ الإسلام بني على هذه الأسس.

أمَّا الأساس الأوَّل فالإيمان، وهو العقيدة، وهي أن تؤمن بوحدانيَّة الله، وأنَّ الله ليس كمثله شيء وقادرٌ على كلِّ شيء، كما وصف نفسه في كتابه العزيز، وأن تؤمن بملائكته، وكتبه، ورسله، وأنَّهم بشر مثلنا، اختارهم من عباده البشر؛ ليكونوا رسله إلى البشر فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وتؤمن باليوم الآخر الَّذي يَبْعَثُ الله فيه الأوَّلين والآخرين؛ ليجازي فيه من أحسن ومن أساء، حتَّى يكونوا فريقًا في الجنَّة وفريقًا في السَّعير.

وأمَّا الأساس الثَّاني فالعمل وهو أداء المسلم ما افترضه الله عليه من صلاة، وزكاة، وصيام، وحجٍّ، وجهاد في سبيل الله بالمال والنَّفس

والكلمة، وأمرٍ بمعروف، ونهيٍ عن منكر.

وأمَّا الأساس الثَّالث فالمعاملة، وهي موضوع حديثي إليكم، فالإنسان لا غنى له عن المعاملة في كلِّ يوم من أيَّام حياته، بل في كلِّ حركة من حركاته، فالمعاملة تربط الإنسان بالمجتمع، فتربط الزَّوج بزوجته، والأب بأولاده، والمدرِّس بتلامذته، والمخدوم بخدمه، والرَّئيس بمرؤوسيه، والتَّاجر بزبائنه وعملائه.

والمعاملة أخلاق، والنَّبيُّ العظيم الخلق الَّذي بعث ليتمِّمَ مكارم الأخلاق قال لأمَّته: «**أكْمَلُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**»(١)، وقال أيضًا: «**لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا خُلُقَ له**»(٢).

والمعاملة الَّتي نحن بصدد الحديث عنها صدقٌ ووفاءٌ وعفوٌ وأمانةٌ، والرَّسول ﷺ الَّذي نعيش ذكراه وصف المنافق بصفاتٍ أربعةٍ: «**إذا حدَّث كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا خَاصَم فَجَرَ، وإذا أُؤْتُمِنَ خَانَ**»(٣)، والمنافق شرُّ النَّاس لا يحفظ عهدًا ولا أمانةً، بخلاف الإنسان الصَّادق الَّذي تتجسَّد أخلاقه بالأمانة، فإذا تتبَّعنا حياة هذا الإنسان وجدنا أنَّ الأمانة موجودةٌ في معظم شؤون حياته، فقد يكون طالب علمٍ، وطلب العلم أمانةٌ، يبدأ إدراكه بالتَّلمذة وسيكون وقتها أمينًا على دروسه، وعليه أن يحفظ هذه الأمانة فيصدق في إجابته، ويفي بمواعيده، ويؤدِّي واجباته بأمانةٍ خاليَّةً من شوائب الغشِّ والتَّزوير أيَّام الامتحان خاصَّةً.

وقد يكون موظفًا، والوظيفة أمانةٌ والمراجعون عملاءٌ، فعليه - إن

---

(١) رواه الترمذي، رقم:(١١٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) رواه أحمد رقم: (١٣١٩٩).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٣٣).

كان مسلمًا - أن يحفظ الأمانة، ويَصدُق مع العملاء، فلا يؤخِّرَ عملَ اليوم إلى الغد.

وقد يكون تاجرًا، والتِّجارة أمانةٌ، والرَّسولُ المصطفى ﷺ مَدَحَ التُّجار الَّذين «**إذا حدَّثوا لم يكذبوا، وإذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان عليهم لم يبطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا**»[(١)]، وقال ﷺ: «**التَّاجرُ الصَّدوقُ مع النَّبيين والصَّدِّيقينَ والشَّهداء**»[(٢)] وحسْبُ التَّاجر الخائن ذمًّا قولُ الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفّفِين: ١-٣].

وقد يكون زوجًا والزَّواج أمانةٌ، ولا تكتمل حياة المسلم والمسلمة حتَّى يكون زوجًا أو تكون زوجةً؛ لأنَّ الزَّواجَ في الإسلام حياةٌ، وحياةُ المسلم كلُّها عبادةٌ، والمسلم يتزوَّج زوجته على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله، ويأخذها بأمانة الله، فمتى قصَّر في حقِّها فقد خان الأمانة، ونقضَ العهدَ، ولا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، وخِيارُ المسلمين خِيارُهم لنسائهم[(٣)] كما جاء في الحديث الشَّريف.

والزَّوجة المسلمةُ راعيةٌ في بيت زوجها، وأمينةٌ على نفسها وأولادها؛ فمتى قصَّرت فقد خانت الأمانة، والأولادُ أمانةٌ عند والديهم.

والرَّجل يشيخ أبواه فيكونان أمانةً عنده ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسرَاء: ٢٣].

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٩٣٤١).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٢٠٩)، وقال: هذا حديث حسن.
(٣) رواه الترمذي، رقم:(١١٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ولا ننسى الصَّديقين المسلمين، والصَّداقةُ عهدٌ وأمانةٌ وحديثٌ وتبادلُ مودَّة، والصَّديقان إذا تحابَّا في الله كانا في ظلِّ عرش الرَّحمن، يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه.

والوطنُ والأمَّةُ أمانةٌ عند كلِّ فرد وعلى هذا الفرد أن يعمل لأمَّته ووطنه، وحبُّ الوطنِ من الإيمان.

والعزَّة أمانةٌ، ويجب على كلِّ مسلمٍ أن يدافع عن عزَّته وكرامته، فالمسلم عزيز كما أراد الله له أن يكون، وهذا ما نجده في كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والإسلامُ لا يرضى للمسلم أن يَذِلَّ لغير الله، وهذه الآية الكريمة في سورة آل عمران تنهانا عن ذلك: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩]، وآية أخرى في سورة محمَّد تنهانا أيضًا عن أن نفرِّط في عزَّتنا: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمَّد: ٣٥]، ولكن إذا جنح عدوُّنا السَّلم ذليلًا استجبنا له بلا ذِلَّةٍ ولا التماس ولا هوانٍ، ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفَال: ٦١].

ومن عزَّة المسلم ألَّا يفرَّ أمام عدوِّه في قتالٍ كما أمره ربُّه بذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفَال: ٤٥]؛ لهذا كان علينا - نحن المسلمين - أن نبني هذه العزَّة بالتَّعاون فيما بيننا، فيكون بعضنا كالبنيان المرصوص، وأن نمتثل أمر الله حيث قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المَائدة: ٢]، وأن نطيع قوله لنا: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العَصر: ٣]، وأن نحذر ممَّا حذَّرَنا منه حين قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفَال: ٧٣].

وعلينا - أيُّها الإخوة - أن نكونَ أمَّةً واحدةً، فندافع عن وطننا الكبير في كلِّ مكان؛ تكريمًا لعزَّتنا خشية أن تهان، وندافعَ عن مقدَّساتنا عامَّةً، والمسجد الأقصى الَّذي بارك الله حوله، مَسْرَى نبيِّنا المصطفى خاصَّةً، وندافعَ عن الأرض الَّتي بارك الله فيها للعالمين، ونعينَ إخواننا المجاهدين في سبيل الله؛ لتحرير هذه الأرض المقدَّسة أوَّلِ قبلةٍ صلَّى إليها المصطفى ﷺ، وثالثِ الحرم الَّتي أمرنا بزيارتها واحترامها، وعلينا أن نتعبدَ اللهَ في الجهاد معهم، ممتثلين أمرَ الله حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١﴾ [الصَّف: ١٠-١١].

وتأكيدًا لهذه العزَّة الَّتي أرادها الله للمؤمن أخبرنا النَّبيُّ المصطفى ﷺ أنَّه «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ**»(١)، و«**أفضلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ عندَ سلطانٍ جائرٍ**»(٢)؛ لأنَّ الجور كبت للحرِّيَّات وقهرٌ للنُّفوس، وكلمةُ الحقِّ عند الجائر دفاعٌ عن عزَّة الحرِّيَّة وكرامتها، والعزَّة والحرِّيَّة والكرامة عند المؤمن أمانةٌ يجب عليه أن يدافع عنها.

ويخبرنا التَّاريخ عن الخليفة الأوَّل أبي بكر الصَّديق رضي الله عنه عندما ولِّي أمرَ المسلمين بعد وفاة النَّبيِّ المصطفى ﷺ أنَّه خطب في المسلمين فقال: «**أطيعوني ما أطعتُ اللهَ فيكم فإذا عصيته فلا طاعةَ لي عليكم**».

ولعزِّة المسلم عند الله حرَّم الله عليه المسألة، وقال نبيُّ الإسلام ﷺ: «**إنَّها تأتي نكتةً في وجه السَّائل يومَ القيامة**»(٣)، وقال أيضًا صلوات الله

(١) رواه أحمد، رقم: (١٠٩٥).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٠١١).
(٣) رواه أبو داود، رقم: (١٦٤١).

وسلامه عليه: «**إنَّ المسألةَ لا تَصْلُحُ إلَّا لذي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أولذي دَمٍ مُوجِعٍ**»[(١)]، وكلُّ ذلك حفاظًا على عزّة المسلم من أن تهان.

والمسلمون تتكافأ دماؤهم، «**والمؤمن للمؤمن كالبنيان**»[(٢)]، كلماتٌ قالها المصطفى عليه السَّلام ليعمل كلُّ فرد في هذا الكيان على شاكلته وتبعًا لحاله ومكانته، وعلى قدر استطاعته، فمتى قصَّر فقد قصَّر في الأمانة.

أيُّها المسلمون: القرآنُ كتابُ الإسلام، يهيب بالمسلمين أن يستجيبوا لله وللرَّسول إذا دعاهم لما يحييهم كما قرأتُ عليكم في آية الأنفال في أوَّلِ حديثي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ لهذا نرى الإسلام حارب أوَّل ما حارب الجهلَ عدوَّ الإنسان الألدَّ[(٣)]؛ لينقذَ الإنسان من شرِّه، فهو الَّذي يمسخ الإنسان ويجعله كالحيْوان بل أضلُّ، له إدراكٌ لا يعقل به، وعينٌ لا يبصر بها، وأذنٌ لا يسمع بها.

وقد تتبع الإسلام الجهل في كلِّ جحرٍ من جحوره، وكلِّ لون من ألوانه، فحارب جهالةَ الشِّرك بالتَّوحيد والإيمان، والخرافاتِ بالتَّثقيف، والضَّلالَ بالهدى، والأميَّةَ بالتَّعليم، وحارب الظُّلمَ والظَّالمين بالعدل، والرذائلَ كلَّها بالفضائل، والظُّلماتِ كلَّها بنور القرآن، وحارب الفقرَ، فكانت هذه حروبًا قويَّةً لا هوادةَ فيها، وأمر بالعمل في جميع ميادينه:

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (١٦٤١).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٨١)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٥).

(٣) الألد: الشديد الخصومة الجَدِل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٩/ ١٣٨).

بحرث الأرض، وتربية الحيوان، وأنزل بالتِّجارة آيات تتلى في سورة البقرة وغيرها من كتابه الكريم.

وأمر بالصِّناعة وأمر بالسَّعي في مناكب الأرض ابتغاء فضل الله، وعاب على العاطلين عيشهم، وأفاد أنَّ شرَّ النَّاس ذلك المكفيُّ[1] الفارغُ.

والإسلامُ حارب التَّفكك والعداء والتَّفرقة، وجعل في أموال الأغنياء حقًّا معلومًا للسَّائل والمحروم؛ ليكون وسيلةَ محبةٍ، ورابطةَ ألفة.

وأمر الإسلام بصلة الرَّحم، وإصلاح ذات البين، وهذا ما نجده في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النِّسَاء: ١١٤].

وحارب الإسلام المرض البدني، فحثَّ على التَّداوي، وأمر بالوقاية من العدوى من كل الأمراض البدنيَّة والخلقيَّة، وسمَّى سوءَ الأخلاق مرضًا، ووصف المنافقين بقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البَقَرَة: ١٠].

وحارب الإسلام جميع المنكرات، وقال نبيُّ الإسلام عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام: «**ما أُعْطِيَ الإنسانُ خيرًا من خُلُقٍ حَسَنٍ**»[2].

وما انتشر الإسلام في بقاع المعمورة بسيف ولا بمدفع، ولا دخل النَّاس في دين الله أفواجًا بقوَّةٍ أو إرهاب أو شدة، وإنما انتشر بالخُلُقِ الحسن، ولن تصلح تربية ولن تسود أمة إلَّا إذا اعتمدت على الخلق

(١) مكفي: من الكفاية. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ١٤١).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الصغير، رقم: (٥٥٩).

الحسن، وأحسن النَّاس وأكثرهم محبَّة عند النَّاس من حَسُنَ خُلُقَه.

وأنادي إخواني - أبناء هذا البلد الكريم - ألَّا يستبيحوا المنكرات باسم الحرية أو التَّقدُّم، فما كان المنكرُ يومًا تقدُّمًا، ولا كانت الفاحشةُ يومًا حريَّةً، ولا صارت الرذائلُ فضائلَ، ولا وصفت المساوئُ بالمحاسن.

والفاحشةُ تيارٌ يجرف معاني الإنسانيَّة؛ لأنَّها منكر، والمنكر لا يكون معروفًا عند كلِّ البشر، والشرُّ لا يكون خيرًا عند جميع النَّاس.

والمنكرات التي استباحها النَّاس باسم الحريَّة ما كانت يومًا حريَّةً بل كانت عبوديَّةٌ أذلَّت أنفس من استباحوها، و كانت فوضى أخلاقيَّة وانحلال، أقضَّت[1] مضاجع النَّاس.

وكلمة ختاميَّة أوجهها لأبنائي وبناتي المسلمين الشَّبابِ والشَّوابِّ في كلِّ مكان، وبالأخص أبناء كويتنا الغالية، فأقول: أيُّها الشباب، اصرفوا قوة شبابكم الهائلة في سبيل تنفعون بها وطنكم، وتُسعِدون بها أُمَّتكم وتؤيدون - يا أبنائي - دينكم، فالإسلامُ - يا شبابنا - معانٍ عاليةٌ، وليس هو مظاهر ولا قشور.

والإسلام يسرٌ لا عسرَ فيه، واذكروا وصيَّة المصطفى نبيَّ الرحمة ﷺ للشَّابينِ: عليِّ بنِ أبي طالب ومعاذِ بنِ جبل رضي الله عنهما عندما بعثهما مبشرين لليمن وقوله لهما: «**يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا**»[2].

---

(١) أقضَّت: أقضَّ عليه المضجع: خّشُنَ وتترَّب. انظر تاج العروس، للزبيدي رقم: (١٩/ ٢٦).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٣٤١).

فالإسلامُ - أيُّها الشَّباب - أمرٌ بالمعروف، والمعروفُ بسمةٌ عريضةٌ تملأ الوجهَ، والمعروفُ كلمةٌ حلوة ووجهٌ طليقٌ، وهو دعوة إلى الخير بالقول الطيب، وبالحكمة والموعظة الحسنة، وللابتسامة سحرٌ جذابٌ، يجذب لك القلب قبل الجسم، ولا ننسى قول النَّبيِّ ﷺ: «**وابتسامةُ الرَّجلِ في وجه أخيه صدقةٌ**»(١).

والإسلام سلامٌ - كما قلت اليوم في الإذاعة - نقلًا عن المرحوم الشهيد سيد قطب:

سلامٌ للفرد وللجماعة وللعالم وللضمير وللعقل وللجوارح وللبيت والأسرة وللرجل والعائلة وللمجتمع والأمة وللبشر والإنسانيَّة في مختلف الأوطان والأجناس، والإسلام سلام مع الحياة، وسلام مع الكون، وسلام مع الله رب الكون والحياة، ويكفينا - أيُّها الشَّباب - أن يكون التَّعارف بين المسلمين بكلمة السَّلام.

أيُّها الشَّباب العزيز: يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا واعلموا أنَّ المصطفى ﷺ بعث للناس كافَّة بشيرًا ونذيرًا بالكتاب المبين الذي يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام، وأن البشير لا يكون عبوسًا أبدًا، وأنَّ هذا النَّبيَّ المصطفى ﷺ، قال لأمته: «**إنما بعثتم ميسرين**»(٢).

أيُّها الشَّباب: لا يجرفنَّكم تيار المدنيَّة الزائفة، ولا تغرنَّكم كلمات دعاة الدَّعارة والإباحيِّة، إنَّ الوطن بحاجة إليكم، والأمة بحاجة إلى شباب، والمجدُ بحاجة إلى أيدي عاملة بنَّاءة قويَّة، ولا قوة أقوى من

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٩٥٦) وقال: هذا حديث حسن غريب.
(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٢٠).

الشباب، كونوا - يا شباب الأمة - رجالًا أشِدَّاء في قوَّة وطنكم، وكُنَّ - يا شوابَّ - قوةً تُشِدُّ أزر[١] رجالكنَّ، كما كانت المرأة في صدر الإسلام، وكونوا جميعًا أيدي عاملة في بناء المجد، وكتلة قويَّة تدفع عن الأمة اعتداءَ المعتدين.

يا شبابَ الأمَّة الإسلاميَّة كما بدأت قولي بشعر عبد الله بن رواحة الصَّحابي الشَّاب شهيد مؤتة، أختم قولي بشعره أيضًا ففيه نفحة نشاط وهبة إخلاص، قال ابن رواحة رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

كتاب الله

أعوذ بالله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ [إبراهيم: ١-٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

(١) أزر: الظَّهر. انظر تاج العروس، للزبيدي (١٠/ ٤٢).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسرَاء: ٩].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ١-٣].

أنزل الله كتابه على أفضل رُسله، وخَاتمِ أنبيائه، محمَّدٍ ﷺ؛ ليكون للنَّاس موعظةً، وتبيانًا لكلِّ شيءٍ، وشفاءً لِما في الصُّدور، وبشرىً للمؤمنين الَّذين يعملون الصَّالحاتِ، وتحذيرًا ونذيرًا للكافرين والعصاة.

ووصف اللهُ تعالى كتابَه بالشِّفاء والهدى والبرهان والنُّور والرَّحمة، فهو شفاءٌ من أمراض الجهل وآفاته، وأمراض الكفر وهلكاته، وكلِّ ما يصيب المجتمعات من أمراض، وهدىً؛ لأنَّه يُخرِج النَّاس من غياهب[1] الظُّلمات والضَّلال إلى النُّور الحقِّ الصَّريح ويهدي إلى صراطٍ مستقيم، ونورٌ؛ لأنَّه يفتح القلوب، وينير البصيرة، ويصقل العقول، ورحمةٌ؛ لأنَّه ينقذ النَّاس من هلاك الفرقة والخلاف، ويسعدهم بنعمة الأُلفة والوفاق.

والقرآن علمٌ، وكم كشف القرآن عن خفايا العلوم وأسرارها وما يزال، وسيكشف عن هذه الأسرار الكثير والكثير، وهذا دليلٌ على أنَّ القرآن من لدنِّ حكيمٍ حميدٍ عليمٍ خبيرٍ.

وكلَّما كان قارئُ القرآن أوسعَ علمًا كان لآياته أكثرَ فهمًا، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا...﴾ [آل عِمرَان: ٧]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [صٓ: ٢٩].

---

(١) الغيهب: شدة سواد الليل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ٤٩٦).

أخي المسلم: هذا كتابُ الله بين يديك، وهديته إليك، وعقيدتك وعقيدة آبائك وأجدادك، فالواجب عليك أن تتعلَّم من هذا الكتاب عقيدتَك، حتَّى لا يكون معتقدُك تقليدًا لغيرك، فتدخل فيمن وصفهم الله فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولكن كن ممَّن وصفهم بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

القرآن كتاب الله وهديَّته إليك، فاحترم - يا أخي المسلم - هديَّة الله بقراءة آياته بتدبُّرٍ وفَهْمٍ، وأنصت إليها إذا سمعتها تُتلى بإجلالٍ واحترام، تفهمْ معانيها باهتمامٍ، وكنْ ممَّن قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

أيُّها الإخوة: اجعلُوا لبيوتكم نصيبًا في تلاوة كتاب الله، ولا تكونوا من أولئك الَّذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠]، فكتابُ الله رحمةٌ لعباده المسلمين، فلا تهجروا رحمة الله بالبعد عن كتابه، والإعراض عنه ومقاطعته، ولينظر هذا المُعرض عن كتاب الله مَن يقاطع؟ ولمن يسيء؟ وبرسالة من يستخفُّ؟ فالبعد عن القرآن بُعدٌ عن الله، وبُعدٌ عن الحقِّ فـ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه: ١٠٠-١٠١].

إخوتي: ليس من تكريم القرآن أن يكون تميمةً، أو حجابًا يوضع في مجلسٍ أو غرفةِ نومٍ أو سيَّارةٍ أو تحتَ وسادةِ مريضٍ أو على صدرِ طفلٍ أو زندِ عاملٍ أو أن تُهدى قراءته لميِّت، ولكن استمعوا معي قولَ الله مُنزِل

الـكـتـاب: ﴿...إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يـس: ٦٩-٧٠]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النَّمل: ٧٧]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [صٓ: ٨٧].

وما كان القرآنُ يومًا تميمةً أو حجابًا، لكنَّه كتابٌ مبينٌ يهدي إلى الخير ويردع عن الشَّر، آياتٌ بيِّناتٌ يُخرِج الله بها الذين آمنوا من الظُّلمات - كلُّ الظُّلمات - إلى النُّور الواضح المشرق، ويهديهم بها إلى الصِّراط السَّوي المستقيم، ومن يُرد الله به خيرًا يوفِّقه لاتِّباع هذه الآيات.

أمَّا بعد:

فقد وفَّق الله البنت البارَّة بوطنها، والأميرة الجادَّة في نفع أمَّتها لتأسيس جمعيَّة الرِّعاية الإسلاميَّة، وقد أخذت هذه الجمعيَّة على عاتقها فصولًا نافعةً لربَّات البيوت وبناتها في هذا الصَّيف، ولم تحرم الرِّجال من هذه المنافع العامَّة: الدِّينيَّة والاجتماعيَّة.

وقبل أن أترك مكاني هذا، أحببت أن تسمعوا هذا الحديث الَّذي رواه التِّرمذيُّ عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب: «**كتاب الله فيه نبأُ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكمُ ما بينكم، هو الفصل[1] ليس بالهزل[2] من تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، وهو حبلُ الله المتين، وهو الذِّكر الحكيم، وهو الصِّراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كَثْرَة الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الَّذي لم تنته الجنُّ إذ سمعته حتَّى**

(١) الفصل: الحق من القول. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ١٦٢).
(٢) الهزل: نقيض الجد، أي: اللعب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣١/ ١٣٢).

قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجنّ: ١-٢][(١)].

الإسلام والسَّيف

بعد الحمد لله أقول: اعتاد النَّاسُ أن يسمعوا من الوعَّاظ والمتكلِّمين في مثل هذه الأيَّام عن غزوة بدر أو فتح مكَّة، كما اعتاد الوعَّاظُ والمتكلِّمون أن يقولوا ما شاء الله أن يقولوا عنهما، ولا أريد أن أتكلَّم عن الغزوتين، فقد سمع الإخوةُ الكثيرَ عن مجرياتهما وأحوالهما، وألمُّوا بكلِّ تفاصيلهما تقريبًا، واستنبطوا منهما الدُّروس والعِبَر، ولكن سأتكلَّم عن ديننا المُفترى عليه دين الإسلام الَّذي يحاول الأفَّاكون أن يطفئوا نوره ويأبى الله إلَّا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون.

والكذب على الإسلام كثيرٌ وقد تفنَّن فيه الكذَّابون، فصاغوا القصص، ونظموا القصائد، واستأجروا الدُّعاة؛ لينشروا البُهتان والإفك[(٢)]، ويخلقوا الكذب، وهؤلاء الكذَّابون هم الدُّعاة الَّذين أخبرنا عنهم خيرُ البشرِ ﷺ بأنَّهم: «**دعاةٌ على أبوابِ جهنَّمَ، ومَن أجابهم إليها قذفوه فيها، ووصفهم بأنَّهم من جلدتِنا ويتكلَّمون بألسنتِنا، نعرفهم ويعرفوننا، ويقولون من قول خير البشر**»[(٣)].

وقد قال هؤلاء الحاقدون: لولا السَّيف لما كان الإسلام، ولولا

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٩٠٦).
(٢) الإفك: الكذب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/ ٤٥).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٧٠٨٤)، ومسلم، رقم: (١٨٤٧).

السِّلاح لما كان المسلمون، وقالوا كلمتَهم أمام أناسٍ جهلوا تاريخَ دينهم أو تجاهلوه، وهم مسلمون سمعوا آياتِ الله تُتلى، ولكنَّهم لم يفهموا معانيها، بل طربوا لجمالِ صوتِ قارئها، وهتفوا للصَّوت لا للمعنى ولم يمتثلوا أمرًا ولا نهيًا.

وقال الأفَّاكون فريتَهم[1] على مسمعٍ من أولئكَ الجاهلين، واستدلُّوا بأنَّ النَّبيَّ ﷺ غزا أكثر من عشرين غزوةً، وأرسل أكثرَ من أربعين سريَّةً؛ لكي يُخْضِع العرب إلى الإسلام، وصدَّقهم الجاهلون.

وأذكر فيما أذكر أنَّ خطيبًا في يوم جُمُعة في بلدٍ غير عربيٍّ كان يصعد المنبر بسيفٍ، ولمّا قلت له: إنَّ العصا أفضلُ من السَّيف، قال: «**لولا السَّيف لما كان إسلام**»، وكأنَّه يقرِّر حقيقةً ثابتةً في قوله هذا، والحقيقة بعيدةٌ عن علمه بعد السَّماء عن الأرض.

واستدلُّوا أيضًا بالآية الكريمة من سورة البقرة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٣]، وللتَّضليل تركوا الآيات قبلها ولم يبحثوا في أسباب الغزوات ولا فيما دعا إليها.

وموقفي هذا لا يكفي لذكر الأسباب الدَّاعية لهذه الغزوات؛ لهذا سأتكلَّم عن مشروعيَّة القتال في الإسلام، فقد أذن الله لأصحاب نبيِّه المهاجرين الَّذين أُخرجوا من ديارهم أن يقاتلوا مَن ظلموهم فأخرجوهم بغير حقٍّ، فقال الله تعالى في سورة الحجِّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحَجّ: ٣٩-٤٠]، وفي سورة البقرة: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ

(١) الفرية: أكذب الكذبات، انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٩/ ٢٣٣).

ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٠-١٩٣].

ولكن بعد أن حرَّض مشركو مكَّة عربَ الجزيرةِ على قتالِ محمَّدٍ ﷺ، فاستجابوا لهم ومالؤوهم[1] على حرب المسلمين قال الله لنبيِّه في سورة التَّوبة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التّوبَة: ٣٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التّوبَة: ١٢٣]، وفي سورة الأنفال: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [الأنفَال: ١٥].

وصار القتال - كما قال الشَّيخ محمَّد الخضريّ في كتابه «**نور اليقين**» - يسير على مبادئ، فإذا بدأ مشركو قريش بالعدوان عدُّوا محاربين، وإذا رأى المسلمون من اليهود خيانةً أو ممالأةً للمشركين قاتلوهم؛ لأنَّهم عُدُّوا بذلك معتدين، وإذا اعتدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشًا في حربها عليهم عُدَّت معتديةً وحُورِبَت، وإذا بدأ أحد من أهل الكتاب بعداوةٍ قوتل، ومن أسلم عصم دمَه إلَّا بحقِّ الإسلام.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفَال: ٦١]، ولنذكر الأسباب الدَّاعية إلى القتال في غزوة بدر وأحد والخندق، فأمَّا بدر فمن

(١) مالؤوهم: ساعدوهم عليه وشايعوهم. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ١٥٩).

أسبابها إصرار المشركين على القتال، وأنَّ الله وعد المسلمين إحدى الطَّائفتين، ولولا خروج مشركي قريش لما كانت حربٌ، ولولا إصرارُهم على القتال لما كان قتالٌ.

وأمَّا أُحد والخندق فمن أسبابها مجيء مشركي مكَّة ليحتلُّوا المدينة متَّفقين مع المنافقين في الأولى، ومع اليهود والمنافقين في الثَّانية، ولياخذوا المسلمين على غِرَّة[1] في مدينتهم، فهل يسكت المسلمون ودينهم يقول لهم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩]، أم يدافعوا عن النَّفس والحمى ممتثلين أمر الله في قوله: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البَقَرَة: ١٩١]!

وفتح مكَّة لم يكن فيه ابتداءُ قتالٍ من المسلمين، لكنَّ قريشًا نقضوا عهد الحديبية بقتل نفرٍ ممَّن دخلوا في عهد النَّبيِّ ﷺ، فوجب عليه أن يردَّ العدوان عمَّن دخل في عهده، فكانت الغزوة، وجاء نصر الله، وكان الفتح المبين، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا، وطهَّر الله حرمه الشَّريف من دنس الكُفر ورجس الشِّرك ونجس المشركين.

وقد كذب من قال: إنَّ الإسلام انتشر بحدِّ السَّيف، وهذا القول من آلافُ الأكاذيب الَّتي أطلقها بعضُ المستشرقين والحاقدين على الإسلام، فالإسلام دعوةٌ، ومحمَّدٌ ﷺ بشيرٌ كما وصفه ربُّه جلَّ شأنه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾ [فَاطِر: ٢٤]، وقد أمر ربُّ الإسلام نبيَّه أن يبشِّر بدينه، ويدعو إليه بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، ويجادل بالَّتي هي أحسن، كما أمر أمَّته أن يقولوا للنَّاس حُسنًا، فالإسلام دعوةٌ، وعلى كلِّ مسلمٍ أن

(١) غرة: أي غفلة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٣/ ١٣١).

يكون داعيةً، والإسلام نورٌ حمل مصباحه دعاةُ الإسلام من أرض الحجاز الضَّيقة إلى جميع بلاد الله الواسعة بالدَّعوة المخلصة، والكلمة الطَّيبة، واللَّباقة بالقول، والإقناع بالكلمة الَّتي تخرج من قلب الدَّاعية فتصل إلى قلب المدعوِّ بلا رشوةٍ ولا أطماعٍ ولكن باقتناعٍ وإقناعٍ.

وقد حمل المسلمون قبل عشرة قرون السِّلاح؛ دفاعًا عن حدودهم، فانتصروا على أعدائهم، وكان آخر قوَّاد المسلمين عبد الرَّحمن الغافقيِّ في الغرب، وقتيبة بن مسلم الباهليِّ في الشَّرق، لكن الإسلام بعد ذلك تجاوز شرقيَّ ذلك المشرق، وغربيَّ ذلك المغرب، فدخل الإسلام بالدَّعوة الصَّينَ والهندَ وجزرَ الشَّرقِ الأقصى والفلبِّينَ، وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والقرم وتركستان الشَّرقية، ودخل الإسلام أوروبَّا وأمريكا، والمساجد فيهما شاهدة على ذلك، فهل دخل الإسلامُ هذه وتلك بالسَّيف والسِّلاح أم بالدَّعوة؟ سؤال كما يقولون يجيب عن نفسه.

ولنا في أمريكا طلبةٌ مسلمون ذوو نيَّاتٍ مخلصةٍ، وقلوبٍ مؤمنةٍ بالدَّعوة إلى الله، آمنوا بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١﴾ [الصَّف: ١٠-١١]، وبأنَّهم هناك مُرابطون مسؤولون عن نشر كلمة الله، ودُعاة مأمورون بتبليغ دين الله فصبروا وصابروا ورابطوا ودعوا في بلاد الكفر إلى كلمة الإسلام، ودعوا في بلاد الإلحاد إلى توحيد الواحد الأحد، ودعوا في بلاد الباطل إلى نصرة الحقِّ، ودعوا إلى الله ودينه، ولمَّا كانت كلماتهم تخرج من القلوب فقد وصلت تلك الكلمات إلى القلوب.

وقد رأيت منهم من رأيت، فهنيئًا لمن رأيت، فكان بعضهم في رقَّة

الحرير بأخلاقه وكلماته، ولكنَّه كان في صلابة الحديد بدعوته لدينه.

وفي ماليزيا مكاتب وجمعيَّات تدعو إلى الله بلا سيفٍ ولا مدفعٍ، تدعو بالكلمة الطيِّبة يقولها قائلها بالَّتي هي أحسن لمن يثق به، وقبالة هذه المكاتب الَّتي لا تدفع رشوةً ولا كسوةً ولا دواءً ولا طعامًا، ولا تحمل سلاحًا تخيف به مكاتبُ تدعو إلى الكفر بأنواعه: الشِّرك والإلحاد والخلاعة، وقد جهِّزت هذه المكاتب بالطَّعام والكساء والتَّعليم والدَّواء أيضًا، والإسلام قبالتها صامدٌ صابرٌ مصابرٌ مرابطٌ أعزلُ، يقول كلمته الَّتي تصل إلى كلِّ قلبٍ يسمع.

وسأضرب لكم أمثلة عن الإسلام ودعاته في بعض البلاد؛ ففي كوالالمبور عاصمة ماليزيا مكتب تابع لدائرة الإفتاء، دعاته متطوِّعون لا يريدون إلَّا ما عند الله، وقد قال لي المفتي: إنَّه يسلم عندنا سنويًّا ما بين (٢٠٠-٣٠٠) مقتنعين بالإسلام.

وفي سرواق - وهي ولاية من ولايات ماليزيا - بلغ الإسلام (٢٧٪) من البلاد، والمبشِّرون يخافون من انتشاره، وقد أنشؤوا لذلك مطارات ومستشفيات ومدارس، وبذلوا من الأموال ما لا عدَّ له ولا حصر؛ لكي يحموا القبائل من الدَّعوة الإسلاميَّة، وفي هذه الولاية جمعيَّة تسمَّى «**جمعية المؤلَّفة قلوبهم**» يرأسها رجلٌ مسلمٌ من أهل البلاد اسمه الدُّكتور عبد الرَّحمن يعقوب شعار هذه الجمعية «**نصرٌ من الله وفتحٌ قريب**»، وأعضاء هذه الجمعيَّة رجالٌ لا يريدون من تأييدهم ونصرتهم للجمعيَّة إلَّا ما عند الله أمام أعداء دينه، وقد دخلتُ بعض مدارس هذه الجمعيَّة «**جمعيَّة المؤلَّفة قلوبهم**» فرأيت الشَّباب المسلم والشَّواب المسلمات حديثي العهد بالإسلام يقبلون بحماسٍ على تعلُّم أحكام الإسلام السَّمحة

ويتعلَّمون في نفس الوقت بعض الكلمات العربيَّة، وكان ممَّا أثلج قلوبَ المسلمين في هذه الولاية -ولاية سرواق- في شهر حزيران سنة (١٩٧٧م) إسلامُ زعيمٍ كبيرٍ، وأربعمائةٍ من قبيلته، وكان إسلامهم اقتناعًا لا إكراه فيه، ومن حسن حظِّي أنِّي وفدت في شهر يوليو على هذا الزَّعيم؛ لتهنئته؛ أي: بعد إشهار إسلامه بنحو شهر، وسألته عن سبب إسلامه فقال: أنا مسلمٌ منذ سنين عن دراسةٍ، ولكنِّي لم أشأ أن أُعلِن إسلامي حتَّى أقتنعَ اقتناعًا تامًّا، وكان الاقتناعُ والحمد الله، وأرجو أن يكون له أثره على جميع أفراد قبيلتي.

وقد علمتُ أنَّه حجَّ في العام سنة (١٣٩٧هـ)، وقد كان لإسلامه صدىً كبيرٌ في جميع الأوساط الإسلاميَّة هناك، وبعثت المملكة العربيَّة السعوديَّة وفدًا لتهنئته، وكان من أعضاء هذا الوفد رئيسُ رابطة العالم الإسلاميِّ ووزيرُ الأوقاف والحجِّ وسفيرا المملكة العربيَّة السعوديَّة في ماليزيا وأندونسيا.

وفي جاوا الوسطى تطوَّع شابٌّ وزوجته وأخوه لإنشاء مدرسةٍ إسلاميَّةٍ، وقد أقلق إنشاء هذه المدرسة الأوساط التَّبشيريِّة هناك فأحاطوها بستِّ مدارسَ للقضاء عليها، وهذه المدارس الستُّ مزوَّدةٌ بكلِّ المغريات، ولكنَّ الله ﷻ كان مع ذلك المجاهد ومساعديه، فكان النَّاس يتخطَّفون مدارس التَّبشير إلى مدرسته المسلمة، وقد زرتُ أيضًا هذه المدرسة، ورأيتُ ولمستُ فيها ما يشرح صدر كلِّ مسلمٍ، ولمستُ في تلامذتها كلَّ ما يبشِّر بالخير، علمًا أنَّ أكثر هؤلاء التَّلاميذ يتكلَّمون باللُّغة العربيَّة.

وهنا يحقُّ لي أن أسأل أولئك المدَّعين: أين السَّيف والإكراه؟ لم

أرهما، بل رأيتُ العكس تمامًا، رأيت الدَّعوة بالحسنى والاقتناع، والرَّغبة في معرفة الله والقرب منه، ورأيت من يصمدون أمام مغريات هي في متناول أيديهم، وأماكن تفتح لهم أبوابًا، فيها من النَّعيم ما لا يخطر مثله على بال، ومع ذلك أعرضوا عنها وشقُّوا طريقهم بخطًا ثابتةٍ إلى الإسلامِ دينِ الحقِّ دين الله المُفْتَرى عليه.

وإنَّ عودةَ كثيرٍ من شبابنا إلى دينهم دين الدُّنيا والآخرة يبشِّر بالخير وينشرح له الصَّدر، لا في الكويت والبلاد العربيَّة فقط، ولكن في جميع البلاد الإسلاميَّة في المشرق والمغرب، وإنَّها ليست عودةً فقط، بل إنَّها عودةٌ إلى الإسلام ودعوةٌ إليه، ذلك أنَّ الإسلام دينُ دنيا وآخرة، وعبادة ومعاملة، دينٌ يقول لأمَّته: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: ٩٧]، والإسلام دينٌ صاحب المسلمَ منذ تزوَّج أبواه على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله، ثم تقبَّلاه حين ولادته هبةً من الوهَّاب بحمده وشكره، ثمَّ أنشآه على آداب الإسلام، ليعيش مع الإسلام وعلى ملَّة رسولِ الله، ثمَّ يُبعَثُ بالإسلام لآخرته، وقال شبابنا الدَّاعون إلى الإسلام، وصدقوا فيما قالوا: الإسلام يسرٌ لا عسرَ فيه، سهلٌ لا صعبَ فيه، لم يحرِّم مُباحًا، ولا أوجب رهبانيَّة، وحياةُ المسلم كلُّها واجباتٌ تعبُّديَّة، فإذا أدَّى ما عليه لربِّه ونفسه وغيره فهو عابدٌ؛ لأنَّ الإسلام يقول: **«إنَّ لربِّك عليك حقًّا، وإنَّ لنفسك عليك حقًا، وإنَّ لغيرك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه»**[1].

فالزَّواج من سنن المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام، فمن رغب عن سنَّة

(١) رواه البخاري، رقم: (١٩٦٨).

المصطفى فليس من أمَّته، وفي الزَّواج إنجابٌ وتناسلٌ، ورسول الله ﷺ: «**يكاثر بأمَّته الأممَ يوم القيامة**»(١).

والتَّاجر الصَّدوق المسلم الأمين مع النَّبِّيين والصِّدِّيقين والشُّهداء يوم القيامة، والزَّارع مباركٌ له في دنياه وآخرته، وحتَّى ما يلتقطه الطَّير بمنقاره من زرعه يُكتَبُ له في حسناته يوم القيامة، والله يحبُّ العاملَ الَّذي يتقن عمله، ومن خرج يسعى على نفسه ليعفَّها عن ذلَّة المسألة فهو في سبيل الله، ومن خرج ليكسب قوت عياله الصِّغار فهو في سبيل الله، هذه بعض صفات الإسلام وقطرات من حسناته، ومن عدَّ موج البحر عدَّ طويلًا، وفضائل الإسلام لا يعلمها إلا من اعتقدها، وحسنات الإسلام لا يعرفها إلا من عايشها.

ويكفينا أن نقول: إنَّ ربَّ محمَّدٍ ﷺ أدَّب نبيَّه فأحسن تأديبه، ثمَّ وصفه في كتابه العزيز بأنَّه على خُلق عظيم فقال النَّبيُّ: «**أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا**»(٢).

فبمحاسنِ الأخلاق فتحَ الإسلامُ قلوبَ النَّاسِ قبل بلادهم، واستمال إليه النُّفوسَ بلا استعمار، وتألَّفهم دون استعباد، وعندما اطمأنُّوا إليه آمنوا به بلا سيفٍ ولا إرهابٍ، وكانوا أنصار الله، آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢٠٥٠)، بلفظ: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم**»، وأحمد، رقم: (١٢٦١٣) بلفظ: «**تزوجوا الودود الولود، إني مكاثر الأنبياء يوم القيامة**».

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٠١٨)، بلفظ: «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**»، وقال: حديث حسن غريب.

أيُّها الإخوة: نحن اليوم في جهادٍ مع أعداءِ الإسلام، جهادٍ لا قتال فيه، جهادٍ بالعلمِ والتَّعلُّم، جهادٍ بالقلمِ والكلمة، فشاركوا أيُّها الإخوةُ إخوانَكم الَّذين وقفوا مع الحقَّ مسلَّحين بالكتاب والتَّعليم والتَّعلُّم ضدَّ أعداءِ الحقِّ الَّذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وكتبهم وأقلامهم، وتعاليمهم وثقافتهم، أعينوهم فإنَّ معونتَهم جهادٌ، والإسلام لم يحصر الجهاد بالنَّفس، فكلمة الحقِّ جهادٌ، والإنفاقُ في نصرةِ الحقِّ جهادٌ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١﴾ [الصَّف: ١٠-١١].

إنَّ أعداءَ الإسلام ما يزالون في حربٍ مع الإسلام، وقد يئسوا أن يحوِّلوا المسلمين إلى دينٍ غير الإسلام، فأخذوا يمكرون بطرقهم الخبيثة في زلزلة العقيدة عند جهلة المسلمين بكثير ممَّا يكتبون ويقولون، والطُّرق الخبيثة كثيرةٌ ووسائلها أكثر، إنَّهم حرَّفوا الكلم عن مواضعه، ووصفوا الكفر بالإسلام، ووصفوا المعصية بالطَّاعة، وسمُّوا المسمَّيات بأضَّدادها، فالانحلال والخلاعة تطوُّرٌ، والفُسوق والفُجور تجدُّدٌ، والنِّفاق مجاملةٌ، والغشُّ وسوءُ الظَّنِّ فِطنةٌ.

علمًا أنَّهم لم يتنكَّروا لدينهم على الرَّغم من أنَّهم ما زالوا مسلمين، ولكنَّهم استسلموا لمكر الماكرين، وخداع الخادعين، ففسقوا وفجروا وانحلُّوا باسم المدنيَّة والتَّطوُّر والتَّجدُّد والتَّقدُّم، وابتدعوا ووضعوا وترهبنوا وتخاذلوا باسم الدِّين.

واستخدم أعداءُ الإسلامِ لمكرهم كثيرًا من دُعاتهم منَّا، كما ذكرنا ذلك في أوَّل حديثنا هذا، ووصفهم المصطفى ﷺ بأنَّهم: «**حدثاءُ**

الأسنان، سفهاءُ الأحلام يقولون من قول خير البشر وهم من نعرفهم ويعرفوننا، ويتكلَّمون بألسنتنا»[(١)].

أيُّها الإخوة: المسلم لا يُبدِّل دينه، وصدق رسول الله ﷺ حين قال ما معناه: «**إنَّ الشَّيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب ولكنَّه رضي فيما دون ذلك**»[(٢)].

أيُّها الإخوة: الإسلام دينُ الفطرة، يعيش مع الفطرة، لا يحتاج إلى السَّيف، والإسلام دين العقل فهو دين من يعقلون ويتفكَّرون، وذكرى لمن كان له قلب، والإسلام يحتاج إلى عقلٍ يميِّزُ، ولُبٍّ يفكِّر، وضميرٍ يُنصف، ونظرةٍ واحدةٍ إلى أولئك الَّذين حاربوا المسلمين بحدِّ السِّلاح، وانتصروا عليهم من المغول في العراق ومن الصَّليبيِّين في فلسطين والشَّام ومصر، فكيف دخلوا في دين الله بعد أن عرفوه، وكيف آمنوا به بعد أن درسوه حتَّى أصبح أعداؤُه أنصاره، وحتَّى صار أبناءُ أعدائه دعاةً له.

الإسلام لم يقف يومًا من الأيَّام موقف المعتدي ولا بادأ أحدًا بالقتال؛ بل كان دائمًا مع الحقِّ ضدَّ الباطل وأنصاره، وفي نصرتِه، وكان يقف موقف الدِّفاع عن دعوته وموقف النُّصرة للمظلوم، فالإسلام حارب الغشَّ والمؤامراتِ والعدوان، وكان المسلمون كما وصفهم ربهم في كتابه العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العَنكبوت: ٦٩].

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٦١١).

(٢) رواه أحمد، رقم: (١٧١٤٠)، والنسائي، رقم: (٤٠٨٥)، بلفظ: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا**».

الكِبْرُ والتَّكَبُّر

وصف رسول الله ﷺ التَّكَبُّرَ بأنَّه «**بطر الحقِّ وغَمْطُ النَّاس**»(١)، وبطرُ الحقِّ معناهُ: كراهةُ الحقِّ وعدمُ قبولِه، ومَن بَطِرَ النِّعمةَ لم يشكرْها، وتُستَعملُ في الكويت كلمةُ بَطْران، ومعناها في اللُّغةِ الدَّارجةِ: مَن لا يشكرُ نعمةَ الله، أو المتكبِّرُ على نعمةِ الله، ومن معاني الغَمْط: الاحتقارُ والازدراءُ؛ فمَن غَمِطَ الحقَّ جَحَدَه، ومَن غَمِطَ النَّاسَ احتقرَهم.

ومن التَّكبُّر: عدمُ رضا الإنسانِ عن نفسِه، واقتناعُهِ برأيِه وعملِه وعبادتِه، والرَّسولُ عليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام قال: «**من ظنَّ أنَّه خيرٌ من غيرِه فقدْ تكبَّرَ**»(٢)، والإعجابُ بالعلمِ أو بالشِّكلِ أو بالهيئةِ كثيرٌ عندَ النَّاسِ، والرِّياءُ من أخلاقِ المتكبِّرين، وهو لا يقفُ عندَ حدٍّ؛ فقَدْ يُرائي الإنسانُ في زُهدِه كما يُرائي في عبادتِه أو في شكلِه الَّذي يظهرُ فيه بمظهرِ الزُّهَّاد والعُبَّاد، ونعوذُ باللهِ من شَرِّ ذلك، والمتكبِّرُ حَقودٌ حَسودٌ لأنَّه متكبِّرٌ، فإذا رأى إنسانًا تحترمُه النَّاسُ حسدَهُ وحقدَ عليه، وقد يمتنعُ المتكبِّرُ من قبولِ النَّصيحةِ فلا ينقادُ لها؛ لأنَّهُ يشعرُ في نفسِه أنَّه أعلى مكانًا من النَّاصح، وأكبرُ قَدْرًا منه، وقد يتكبَّرُ على سماعِ الوعظِ من غيرِه؛ لأنَّهُ يشعرُ في نفسِه أنَّهُ أنضجُ إدراكًا وأوسعُ علمًا، ومن صفاتِ المتكبِّرِ أنَّه يصعِّرُ وجهَهُ ويتبختَرُ في مِشيَتِه وقيامِه وجلوسِه ومعاملاتِه، وقد

(١) رواه مسلم، رقم: (٩١).

(٢) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفَّر لي من مصادر حديثيَّة.

ينظرُ إلى النَّاسِ شَزَرًا[١]، ويظنُّ أنَّهُ يجبُ على النَّاسِ أن يقوموا له، وأن يخاطبوه باحترامٍ، ومن النَّاسِ من يتكبَّرُ على زيارةِ غيرِه، ويطلبُ من النَّاسِ أنْ تزورَهُ، والمتكبِّرُ مكروهٌ؛ لأنَّهُ جرحَ عواطفَ النَّاسِ بتعاليه عليهم، وربَّما شعرَ بأنْ لا وجودَ لهم.

العُتوُّ من الكبرياءِ، والعتوُّ أن يستعملَ الموظَّفُ نفوذَه على غيرِه لصالحِه، وهذا جهلٌ فاضحٌ، والعُتوُّ أيضًا ظُلمٌ، ولو أنَّ الموظَّفَ استعملَ نفوذَه دونَ اعتداءٍ على شخصيَّةِ غيرِه ودونَ تفضيلٍ لأحدٍ على أحدٍ لأحبَّهُ النَّاسُ واحترموه؛ ولكنَّ حُبَّ الظُّهورِ والجهلَ بعواقبِ الأمورِ أعمى بصيرتَهُ، فلم يُكْسِبْهُ المركزُ إلَّا النِّفاقَ، نفاقَ المحتاجينَ إليه، وإنَّ الَّذي ينفخُ أوداجَه أمامَ مُراجِعيهِ أحمقُ، ولو خضعَ للقانونِ أو للنِّظامِ لكانَ حريًّا بالحبِّ، فإهانةُ النَّاسِ تُثمِرُ البغضاءَ، واحتقارُ المُراجعينَ يولِّد كرهَهم عند المُراجعين، والعُتوُّ على النَّاسِ لا يأتي بخيرٍ.

إنَّ بُخْلَ العَالِم بعلمِه كِبْرٌ، واللهُ جلَّ شأنُه أخذَ عهدًا على العلماءِ أنْ يعلِّموا النَّاسَ، والرَّسولُ ﷺ أخبرَنا أنَّ الأنبياءَ لم يورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا[٢]، وإنَّما ورَّثُوا العلمَ، و«**العلماء هم ورثةُ الأنبياءِ**»[٣]. ومن بَخِلَ بعلمه على النَّاسِ قصَّر؛ لأنَّ الكِبْرَ أخذَ بخناقِه، فرأى أنَّهُ أكبرُ من العامَّة، وأنَّه لا يليقُ بمثلِهِ أنْ يقفَ بينهم ليجيبَ عن أسئلتِهم أو يعلِّمَهم،

---

(١) الشَّزرُ: نظرٌ فيه إعراضٌ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٢/ ١٦٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٧٧٦)، بلفظ: «**لَا يَقْتَسِمُ وَرَثَتِي دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي، وَمَئُونَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ**»، ومسلم، رقم: (١٧٥٨)، بلفظ: «**لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ**».

(٣) رواه البخاري، رقم: (٦٧)، بابٌ: العلم قبل القول والعمل.

أو أنَّ تعليمَهم - وهو من هو - ضياعٌ لعلمِه؛ لأنَّه لا يرى فيهم الأهليَّةَ لتلقِّي المعرفةِ من مثلِه، ونَسيَ أنَّ المُصطفى صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وقفَ بين الجاهلينَ في الجاهليَّةِ ليعلِّمَ وينصحَ.

والمذنبُ مريضٌ كما وصفَهُ اللهُ في كتابِه العزيزِ[1]، ومِن لوازمِ الإنسانيَّةِ معالجةُ المريضِ، إلَّا أن يكونَ مريضًا بمرضٍ لا يُرجى بُرْؤه فيُقامُ عليهِ الحدُّ، ومن لوازم الإنسانيَّةِ ولوازمِ الإصلاحِ: النَّصيحةُ، والنَّصيحةُ لا تكونُ إلَّا للمخطئِ، والنَّصيحةُ أمرٌ بالمعروفِ ونهيٌ عن المنكرِ، وكيفَ يأمرُ الآمرُ بالمعروفِ إن لم يكنْ مُنكِرًا؟! فالمدرِّسُ إذا لم يفتحْ صدرَه لكلِّ سؤالٍ من أسئلةِ تلاميذِه فهو متكبِّرٌ؛ لأنَّهُ رضيَ أن يكونَ معلِّمًا، والمعلِّمُ يعلِّمُ الجُهَّال، فإذا لم يكن هناك جهَّالًا فلا حاجةَ إلى معلِّمٍ، إذن: يجبُ عليهِ ما دامَ قد رضيَ بهذهِ الوظيفةِ أن يفتحَ صدرَه وأُذُنيه لكلِّ سؤالٍ يُوجَّهُ إليهِ من هذا المتعلِّم، يسمعُه منه دونَ أن يَعيبَه عليه، فإذا لم يكنِ السُّؤالُ واضحًا أوضحَه وصحَّحَه وأجابَه عنه.

أنا لا أُنكِرُ أنَّ حُسْنَ السُّؤالِ نصفُ العلمِ؛ لكنَّ السُّؤالَ دائمًا يأتي على قَدْرِ السَّائلِ، فمَن أحسنَ سؤالَه فهو نصفُ عالمٍ تصديقًا لقولِ المصطفى عليه الصَّلاةُ والسَّلام «**حسن السُّؤالِ نصفُ العلمِ**»[2]؛ لكنْ إنْ لم يحسِنِ السَّائلُ سؤالَ واعظِه وجبَ على الواعظِ أن يُصحِّحَ السُّؤالَ دونَ مساسٍ بكرامةِ السَّائلِ، ثمَّ يجيبُه عنه كما يفعلُ المُدرِّسُ مع تلميذِه، أقولُ هذا إذا كان السَّائلُ في مجلسِ الوعظِ لكيلا يلفتَ أنظارَ المستمعين إليه، أمَّا إذا كانَ بعيدًا لا يراهُ أحدٌ فإنَّ للواعظِ أن يعيبَ جهلَ المجتمعِ الَّذي منهُ هذا السَّائل.

---

(١) قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ... ﴿١٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٠].

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٥٤٣٤).

وأختِم كلمتي هذه بقول النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ من أحبِّكُم إليَّ وأقربِكم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسِنُكم أخلاقًا، وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمْنا الثَّرثارين والمتشدِّقين، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبِّرون**»(١). رواه التِّرمذيُّ عن جابرٍ رضي الله عنه.

الدَّاعيةُ والدَّعوةُ

قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: ١٢٥]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وقال لنبيِّه أيضًا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، هذه صفاتُ الدَّاعيةِ الأوَّلِ إلى اللهِ محمَّد ﷺ، ويجبُ أن يتَّصفَ بهذه الصِّفاتِ كلُّ من أرادَ أن يكونَ داعيةً إلى اللهِ لا إلى دنيا أو مجدٍ أو سلطانٍ أو جاهٍ أو عصبيَّةٍ جاهليَّةٍ، ولكن دعوةٌ مُخلَصةٌ للهِ وحدَه لا لَبْسَ فيها ولا غموضَ، لا يريدُ الدَّاعيةُ بها شهرةً ولا جاهًا ولا متاعًا ولا انتفاعًا، و«**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ**»(٢).

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٠١٨)، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) رواه البخاري، رقم: (١).

الدَّاعي يتعبَّدُ اللهَ بالدَّعوةِ إليه على أنَّها جزءٌ من الواجباتِ الَّتي كُلِّف بها، أو أنَّها جهادٌ في سبيلِ الله، فإذا أيقنَ بكونِ الدَّعوةِ جهادًا في سبيل الله هانَ عليهِ في سبيلِها كلُّ صعبٍ، وحُبِّبَتْ إليهِ كلُّ تضحيةٍ؛ لهذا رأينا السَّلفَ الصَّالحَ من الدُّعاةِ الَّذين تعبَّدوا اللهَ بدعوتهم فلم ييأسوا ولم يخافوا حينَ توجَّهوا إلى اللهِ بقلوبِهم أفرادًا وجماعاتٍ، وفقَّهَهم اللهُ في دعوتِهم إليهِ وانقادتْ لهم شعوبٌ.

ونحنُ اليومَ محتاجونَ إلى دعاةٍ لإعادةِ دينِ اللهِ إلى أرض اللهِ، ودعاةٍ يدعون بالَّتي هي أحسن، يقولون ويفعلون، يعلِّمونَ النَّاسَ الخيرَ، يأمرونَ بالمعروفِ حتَّى يستحقُّوا أن يُوصَفوا بورثةِ الأنبياءِ، لا يشدِّدونَ ولا يصعِّبون، وعلى الدَّاعي أن يَصْدُقَ اللهَ في كلِّ كلمةٍ يقولُها داعيًا، وأن يقصدَ وجهَه الكريمَ في كلِّ خطوةٍ يخطوها في سبيلِ هذه الدَّعوةِ، وأن يكونَ على بيِّنةٍ فيما يدعو إليه، وأن يكونَ المثلَ الأعلى في دعوته، فلا يخالفُ فعلُه قولَه، فيكون ممَّن قال فيه الله ﷻ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصَّف: ٣].

والدَّعوةُ إلى الله معركةٌ مع الكفرِ والشِّركِ والباطلِ والضَّلال في واقعِ الحياة، ومع الطُّغيانِ والظُّلمِ في واقعِ المجتمعاتِ، ومع الجهلِ والهوى في النَّفسِ، والرَّسولُ ﷺ واجَهَ ذلك كلَّه فلم ييأسْ، وأخلصَ الدَّعوةَ، وعالجَ كثيرًا من الأمراضِ النَّفسيَّةِ والفرديِّة والاجتماعيِّة، وقاومَتْهُ كلُّها بكلِّ ما لديها من سلاحٍ، سلاحِ الكفرِ والتَّقاليدِ القبليَّةِ والاجتماعيِّةِ؛ لكنَّ أهلَ البصائرِ السَّليمةِ نظروا إلى الحقِّ فاتَّبعوه وسمعوا قولَ الله فلانتْ قلوبُهم له واهتدْت بهداه.

أيُّها الإخوة والأخوات:

نرى اليومَ الحربَ قائمةً على أشدِّها بين الكفرِ والإسلامِ في كلِّ بقعةٍ من بقاعِ الأرضِ، بينَ الدِّينيَّةِ واللَّادينيَّةِ، بين الإلحادِ والإيمانِ، بين عقائدِ كلِّ أصنافِ البشرِ، سواءٌ كانتْ هذه العقائدُ سماويَّةً أم غيرَ سماويَّةٍ، إنَّها حربٌ لا صلاحَ فيها ولا دماءَ بعدَ أن كانَتْ هذه الحروبُ تزهقُ فيها الأرواحُ، وتسفكُ الدِّماءُ، إنَّها حربٌ في كلِّ ميدانٍ في المجتمعاتِ والمدارسِ والمعابد، إنَّها حربُ ترغيبٍ وترهيبٍ، حربٌ سلاحُها القلمُ واللِّسانُ والصَّحيفةُ، حربٌ يجبُ على المسلم أن يبذلَ فيها كلَّ ما يستطيعُ وأن يستجيبَ لنداءِ الله القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

إخوتي وأخواتي: نحمدُ اللهَ أن جعلَنا من عبادِه المؤمنين، نؤمنُ باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دينًا، وبمحمَّدٍ نبيًّا، وبالقرآنِ نورًا ودستورًا ونظامًا، ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩]، هذا القرآن يقولُ لأمَّةِ محمَّدٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣]، وكلمة لا تفرَّقوا تعني: الوحدة الَّتي يفسِّرها قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وحدةٌ تضامنَ أهلُها وتكافلوا فيما بينهم، فالتزموها ورعوها خيرَ رعايةٍ،

وعملوا على تقويةِ الرَّوابط الأخويَّة فيما بينهم، ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣]، وتذاكروا في أوامر الله الَّذي أرادَ لهم بها أن يحيَوا بالعملِ الصَّالحِ، وأن يموتوا على العملِ الصَّالح، دعَوا إلى الله فأحسنوا الدَّعوة، وقالوا فأحسنوا القول، وذلَّلوا كلَّ أساليبِ الدَّعوةِ لدعوتِهم، فلم يتركوا أسلوبًا منها إلَّا فعلوه، ولا سبيلًا إلَّا سلكوه، دعَوا إلى الله بالقول والقلم والمال وكلِّ وسائل الإعلامِ المعروفةِ، دعَوا بالَّتي هي أحسن؛ حتَّى تلينَ لدعوتِهم القلوبُ؛ والقلوبُ لا تنقاد لشدَّةٍ، وتصغي لكلماتِهم الأسماعُ؛ والأسماعُ لا تُصغي لقسوةٍ، وصدق الله العظيمُ إذ قال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فُصّلَت: ٣٣-٣٤].

بالعملِ الصَّالحِ تطيبُ الحياةُ

دعَتِ الأديانُ كلُّها إلى العملِ الصَّالحِ، وتتابعَ رسلُ اللهِ يحملونَ رسالتَه إلى عبادِه في مختلفِ الأزمانِ، يبشِّرونَ النَّاس بأنَّ ﴿مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ [الكهف: ٨٨].

يضرِبُ القرآنُ الكريمُ مثلًا قومَ يونس: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يُونس: ٩٨]، ويخبرنا عن نوحٍ أنَّه قالَ لقومِه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نُـــوح: ١٠-١٢]،

ويقصُّ عن هودٍ عليه السَّلام، إذ يقولُ هودٌ لقومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هُود: ٥٢].

بفعلِ الصَّالحاتِ استخلفَ اللهُ في الأرضِ أُممًا عمَّروها، لكنَّهم بعد أجلٍ عاثوا فيها فسادًا، وطغَوا وظلمُوا؛ فأهلَكَهم اللهُ بذنوبِهم، فكأنَّهم لم يُعمِّروا أرضًا، ولم يبسطوا بها يدًا، ولم يسلكوا فيها سبيلًا، ثمَّ ختمَ اللهُ الرِّسالاتِ ببعثةِ محمَّد ﷺ خاتم الأنبياء، يدعو النَّاسَ إلى الخيرِ، فاتَّبعتْه أمَّةٌ كانَ منها الشُّهداءُ على النَّاس، وكانَتْ خيرَ أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ عبادةً لله، ودعوةً إلى الخير، ونهيًا عن المنكراتِ، ووعدَها الله ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبَة: ١١١].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور: ٥٥]، وقد وفَّى اللهُ لهذه الأمَّة وعدَه، واستخلَفَها في الأرضِ، فتكسَّرتْ من هيبتِها عروشُ الطُّغاةِ، وهوَتْ رهبةً منها تيجانُ البغاةِ، ودالتْ[1] أمامَ فتحِها دولُ الظُّلمِ، وكانت الشُّعوبُ المظلومةُ تستقبلُ جيوشَ المسلمينَ الفاتحةَ بالتَّرحيبِ مع أنَّ الجيش الفاتح لا يُرحَّبُ به؛ ذلك لأنَّ فتحَ المسلمينَ أمنٌ وسلامٌ، وجيشُ المسلمينَ الفاتحُ لا يقتلُ شيخًا ولا امرأةً ولا طفلًا ولا متعبِّدًا تفرَّغَ لعبادتِه، ولا يقطعُ شجرًا، ولا يهدمُ دارًا، ولا يصطحبُ معَه في الفتحِ الظُّلمَ والعدوانَ، والشُّعوبُ المفتوحةُ بلادُها تعلمُ أنَّ جيشَ المسلمينَ جاءَ ليحميَ الحرِّيَّةَ لا ليعتدي عليها، وليكرِّمَ الإنسانيَّةَ لا ليُهينَها ويحطِّمَ قيمتَها، وليصونَ

(١) دالت: انقلبت من حالٍ إلى حال. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ٥١١).

الملكيَّةَ والأموالَ لا لينهبَ ويغتصبَ، وليصونَ الأعراضَ لا ليهتِكَها.

ودخلَ تلكَ البلادَ مع الفاتحين كتابُ اللهِ العربيُّ المبينُ باسمِ اللهِ ورسوله، وفيه الدِّينُ والدُّنيا، وهو دستورُ دولةٍ، وقانونُ حكمٍ، ومعاملاتٌ، ونظامُ مجتمعٍ، وعبادةٌ، يهدي للَّتي هي أقومُ، وكرامةٌ تطيب للإنسان بها الحياةُ، وعلمٌ يعرِفُ به الإنسانُ قيمةَ الحياةِ.

وذاق النَّاس حلاوةَ الحياةِ في ظلِّ الإسلامِ، وعرفوا الكرامةَ الَّتي كرَّم اللهُ بها الإنسانُ، وعاش النَّاسُ في ظلِّ الإسلامِ كِرامًا أعزَّةً.

وطالَ على المسلمين الأمدُ كما طالَ على غيرِهم من الأممِ قبلَهم، وأعرضوا عن القرآنِ وتعاليمه، وقستْ قلوبُهم على بعضهم فتفرَّقوا، وكانَتِ النَّتيجةُ إخفاقٌ وذهابُ ريحٍ، وصدقَ اللهُ العظيمُ إذ يقولُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، معَ ذلك ما زلْنا نَدِينُ بالإسلامِ والحمدُ لله، ولن نزالَ إن شاء الله مسلمين، نؤمنُ بالله ربًّا، وبمحمَّدٍ ﷺ نبيًّا، وما زلنا نقدِّسُ القرآن كتاب اللهِ ونعتني به، لكنَّا في أكثرِ البلادِ الإسلاميَّةِ العربيَّة وغير العربيَّة أعرضْنا عنه، فلا هو دستورُ دولةٍ، ولا قانونُ حكمٍ، ولا نظامُ مجتمعٍ.

لقد كنَّا بالقرآن مسلمين، هدى الله به أسلافنا، وعلَّمهم وزكَّاهم، وبه مكَّن لهم في الأرضِ، واستخلفَهم فيها، ومحا بهم ظلمَ النَّاسِ للنَّاسِ، وفي ظلِّ القرآنِ أقامَ المسلمونَ دولةَ الإسلامِ بينَ مشرقِ المعمورةِ ومغربِها، وظلُّ القرآنِ لا ينحسرُ أبدًا، لكنَّ الخلفَ الَّذي اتَّبعَ دعاةَ الضَّلالِ وباعةَ الشَّهواتِ، هو الَّذي ابتعدَ عن ظلِّ القرآنِ وانحسرَ عنه،

والبابُ ما يزالُ مفتوحًا لمن أرادَ دخولَه، والظِّلُّ ما يزالُ ممدودًا لمن أرادَ أن يستظِلَّ به، واللهُ جلَّ جلالُه باقٍ يستجيبُ لمن استجابَ لهُ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، وقالَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

الاقتصادُ في الإسلامِ

الاقتصادُ هو التَّوسُّط في الإنفاقِ من غيرِ إسرافٍ ولا تقتيرٍ، لأنَّ في الإسرافِ الفقرَ، والفقرُ ذلَّةٌ، وفي التَّقتيرِ الحرمانُ، والحرمانُ حسرةٌ ولومٌ، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]، وللاقتصادِ منزلةٌ في حياةِ الفردِ والأمَّة، وقد بيَّن نبيُّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذلك بقوله: «**الاقتصادُ في النَّفقةِ نصفُ المعيشةِ**»[1]، لهذا كانَ الاقتصادُ رائدَ الحكوماتِ المنظَّمة في أعمالِها النَّافعة، وسبيلَ العقلاءِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وقد اهتمَّ علماءُ الاجتماعِ وعلماءُ الإدارةِ بالاقتصادِ، وجعلوه علمًا يُدَرَّس في الجامعاتِ، حتَّى أصبحَ من أشهرِ العلومِ، وتولَّى العلماءُ فيهِ أشرفَ المناصبِ.

ومعنى الاقتصاد أيضًا: القصدُ في النَّفقة، والقصد هو العدل، ومعنى ذلك كلِّه: استفضالُ شيءٍ من النَّفقةِ يرجعُ إليها الإنسانُ وقتَ حاجتِه، كقعودٍ عن العملِ بمرضٍ يُبتَلى به، أو عطلٍ يُصيبُه، حتَّى يكونَ بمَأمنٍ من

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٦١٤٨).

عوادي الزَّمان، وبغنًى وقتَ الحاجة.

النَّاس جميعُهم على اختلافِ أزمانِهم وتفاوتِ درجاتِهم في الغنى والفقر وجميعِ وسائل الكسب في حاجةٍ إلى الاقتصادِ، ليأمنوا غوائلَ[١] الدَّهرِ الَّتي تصيبُهم على غرَّةٍ منهم، فتذهب بما ملكت أيديهم، أو تقعدهم عن العمل بذهاب قوَّتهم وقدرتهم، فكم رأينا من غنيٍّ افتقرَ، ومن عزيزٍ ذُلَّ، وقويٍّ غالَه[٢] الدَّهرُ فأذهبَ قدرتَه وجَلَدَه، وصانعٍ مبدعٍ أصبحَ عاطلًا ولم يبقَ له غيرُ ما ادَّخرَه من غناه لفقرِه، ومن شبابِه لشيبِه، ومن عملِه لفراغِه، فإن لم يكن شيءٌ من هذا - وهذا أكثرُ ما يكون - نال منهم العدمُ وأذلَّهم الفقرُ، والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام نبَّهنا لهذا في تعاليمه العظيمةِ، حيثُ قال: «**اغتنمْ خمسًا قبلَ خمسٍ، حياتَك قبلَ موتِك، وصحَّتَك قبلَ سقمِك، وفراغَك قبلَ شغلِك، وشبابَك قبلَ هرمِك، وغناك قبلَ فقرك**»[٣].

والمبذِّرُ جاهلٌ أحمقُ، ربَّما دفعَه تبذيرُه إلى الاستدانةِ وبذلِ ماءِ وجهِه، وربَّما بذلَ عِرضَه وشرفَه في سبيلِ تبذيرِه، وفي النَّاسِ مَن هو على عكسِ هذا: يجمعُ الدِّرهمَ إلى الدِّرهمِ، ويحرِصُ على فِلسِه حرصَه على حياتِه، يرى في هذا لذَّة عيشِه وغايةَ سعادتِه، يحرِمُ نفسَه من لذائذِ العيشِ وزينةِ الحياة، ويحرِمُ منهما أهلَه وعيالَه، يُقصِّر في حقِّ ذوي الحقوقِ عليه خوفًا من الذُّلِّ وهو في الذُّلِّ والهوان، وخوفًا من الفقرِ وهو في الفقرِ والحرمانِ، وقد قالَ الشَّاعرُ في ذلك:

---

(١) الغائلة: أمرٌ داهٍ منكر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ١٣١).

(٢) غاله الدَّهر: أهلكه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ١٢٧).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٧٨٤٦).

ومَن ينفقُ السَّاعاتِ في جمعِ مالِه مخافةَ فقرٍ فالَّذي فعلَ الفقرُ(١)

واللهُ ﷻ أثنى على عباده الَّذين التزموا في إنفاقِهم طريقَ الوسطِ وسمَّاهم في كتابِه العزيز: عباد الرَّحمن، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفُرقان: ٦٧]، والإسلامُ ينظرُ إلى المالِ على أنَّه عصبُ الحياةِ وقوامُها وضرورةٌ من ضروراتِها، لا يستغني عنه أحدٌ فردًا كانَ أو جماعةً أو أمَّةً أو حكومةً، المالُ هو الخيرُ، وزينةُ الحياةِ، لهذا يجبُ حفظُه، فلا يُبَدَّدُ ولا يُبَذَّر في غيرِ طائلٍ أو مفيدٍ، يقول الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إنَّ اللهَ يرضى لكم ثلاثًا، ويكرُه لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تفرَّقوا، ويكرَهُ لكم: قِيلَ وقال، وكثرةَ السُّؤال، وإضاعةَ المالِ**»(٢).

والقرآنُ الكريم أمرَ بحفظِ المالِ في مواطنَ منها:

١-الحجرُ على السُّفهاءِ الَّذين لا يحسنونَ التَّصرُّفَ في أموالهم، فيضيِّعونها في غير مفيدٍ، أو ينفقونَها فيما لا يعود بالنَّفع عليهم أو على الوطنِ، فقالَ في كتابِه العزيز: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ [النِّسَاء: ٥].

٢-وجوبُ حفظِ أموالِ اليتامى، وتنميتِها بالعملِ فيها، ورعايتُها رعايةَ الأموالِ الخاصَّة، حتَّى إذا بلغ اليتامى الرُّشدَ وجبَ علينا اختبارُهم، فإن كانوا صالحين راشدين سُلِّمت إليهم أموالُهم، وإلَّا مُنِعوا تسلُّمَها، قالَ

(١) ينسب البيت للمتنبي.
(٢) رواه مسلم، رقم: (١٧١٥).

اللهُ تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ [النِّسَاء: ٦].

٣-الدَّينُ والرَّهنُ: أمرَ الله بكتابتِهما حمايةً لهما من الضَّياعِ، فقال تعالى في كتابه العزيز في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

والمال في الإسلام ليس ملكًا خاصًّا بمالكه، وإنَّما هو ملكُ الله، وضعه وديعةً في يد صاحبه، فيدُ المالكِ عليهِ يدُ وديعةٍ استودَعها الله إيَّاه، فيجبُ على المستودَع أن يحفظَ الأمانةَ ولا يصرفها إلَّا فيما أمرَ المُودعُ، والقرآنُ يقولُ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النُّور: ٣٣]، ويقولُ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحَديد: ٧].

ثمَّ إنَّ المالَ فتنةٌ وامتحانٌ، فإن أنفقَهُ صاحبُه في وجوهِه المشروعةِ نجحَ في امتحانِه، وإلَّا فإنَّه مفتونٌ فيه، يقولُ تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾ [الشُّورىٰ: ٢٧]، فالإنسانُ يطغى إن استغنى، ويتجاوزُ بطغيانِه هذا حدودَ ما أمرَ اللهُ به فيُبذِّرُ ويطلقُ لنفسِه العنانَ في ميادينِ الشَّهواتِ، ويتكبَّرُ على غيرِه، وقارونُ طغى على موسى وقومه، وبغى عليهم، وكفرَ باللهِ الَّذي آتاهُ مالًا مفاتِحَ كنوزِه تنوءُ بالعصبةِ[1] أُولي القوَّةِ، لهذا كانَ من وصايا الإسلام للمسلمين: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ

(١) تنوء بالعصبة: تُميلهم من ثِقلها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/ ٤٧١).

أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

[القَصَص: ٧٧].

المالُ ليس خيرًا بذاتِه؛ إنَّما وسيلةٌ لفعلِ الخيرِ إذا وقعَ بيدِ من يريدُ الخيرَ، ولا هو شرٌ بذاته؛ إنَّما وسيلةٌ لإتيانِ الشَّرِّ لمن حُرِمَ فعلَ الخيرِ، والمالُ لا تكمُلُ به سعادةٌ، ولا تَشرُف به نفسٌ، فكم مِن رجلٍ ملكَ من المالِ ما لا يحصى عدًّا، لكنَّه كان شقاءً على صاحبه، وكم من شخصٍ تكدَّسَتِ الأموالُ في خزائنِه، وعظُمَت في البنوكِ أرصدتُه، لكنَّه ذليلٌ في أعينِ النَّاسِ.

إنَّما يسعدُ الإنسانُ ويشرفُ قدرُه ويعلو بأشياء أخرى وراءَ المال، هي: القيمُ الصَّالحةُ، والمُثلُ العليا، والصِّدقُ في المعاملةِ، والثِّقةُ في النَّفسِ، والإحسانُ إلى المحتاجين، والجودُ على السَّائلين، والإنفاقُ في وجوهِ البرِّ المشروعةِ، وأبوابُها كثيرةٌ مفتَّحةٌ لكلِّ طالبٍ، وطرقُها سالكةٌ مُعبَّدةٌ لكلِّ راغبٍ، قال الشَّاعر:

ما أحسنَ الدِّين والدُّنيا إذا اجتمعا .....

نعود الآن إلى الاقتصادِ، وأنصحُ كلَّ مواطنٍ أن يتَّبعَ نظامَ الاقتصادِ في حياتِه. ولمَّا لم أكنْ من رجاله، ولم أدرسْ في حياتي شيئًا من كتبه رأيتُ أن أقدِّم لأخي المواطن ما يعرفُه كلُّ عاقلٍ، ويصادقُ عليه كلُّ رشيدٍ، سبعَ نصائحَ أحصرُها في هذه الكلمات:

١- انظرْ إلى من هو دونك في مصروفك ولا تنظرْ إلى من هو أغنى منك وأقوى على جلب المال، وإلَّا عجزْتَ متى نظرْتَ إلى الأعلى.

٢-أتقن عملَك إن كنتَ صادقًا، واصدُق في المعاملة إن كنت تاجرًا،

يزدْ مورِدُك ويَحِلُّ كسبُكَ.

٣-اصدُق في وظيفتكَ إن كنتَ موظَّفًا، وأدِّ الواجبَ الَّذي عليك، ولا تضيِّعْ وقت المراجعين الثَّمين يَطِبْ رزقُك، ويُبارَك لكَ فيه.

٤-ابتعدْ عن الاستدانةِ، ووازِن بين دخلِك وإنفاقِك، وإلَّا كانَ عملُك سَفَهًا.

٥-شهواتُ النَّفسِ ليسَ لها حدٌّ، فلا تتَّبعْها، ولا تُجِبْ طلباتِها، ولا تشترِ إلَّا ما تحتاجُ إليه.

٦-ابتعدْ عن اللَّهوِ ومواطنِ السَّرَفِ والتَّبذيرِ.

٧-اجتنبْ حبَّ الظُّهورِ والتَّقليدِ.

وبعدُ، فالمالُ إن ملكْتَه وأردْتَه عِزًّا فالعزُّ في يدِكَ وليسَ في المال، وإنْ بخِلْتَ فيه على المستحقِّ وعلى نفسِك فلن يفيدَك، بل سيكونُ عليكَ وبالًا ومذلَّة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبإ: ٣٧].

وصفهم ربُّهم في كتابه العزيز ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إصلاح ذات البين

جاء الإسلام ليجمع القلب إلى القلب، ولِيَضُمَّ الصَّف إلى الصَّف،

ولِيَجْعَلَ مِنَ المسلمينَ أُمَّةً واحدةً لها كيانُها المُوَّحدُ القويُّ، حتَّى يعيشَ النَّاسُ في ظِلِّهِ آمنين على روابطهم أن تتصدَّع، والرَّوابط بين النَّاس تختلف اختلافًا ظاهرًا، وتتدرَّجُ من دائرةٍ ضيِّقةٍ إلى دائرة أوسع فأوسع.

ومن الرَّوابط الَّتي تَرْبِطُ الإنسان بغيره: رابطته بوالديه: أُمِّهِ وأبيه، ثُمَّ أهل بيته وعياله، ثُمَّ قبيلته وذوي قرابته، ثُمَّ أُمَّتِهِ ووطنه، ثُمَّ رابطته بالبشريَّةِ كافَّة، وهذه الرَّابطةُ الكُبْرَى.

أمَّا الإسلام فقد ربط المسلمين جميعًا برباطٍ من أوثق الرَّوابط، رباط الأُخوَّة الإسلاميَّة الَّتي تزول أمامها جميع الفوارق، فلا نسب يُخْفِضُ، ولا جنس يَرْفَع، ولا لون يُدْنِي، ولا جاه يُعْلِي، ولا مال، ولا مُمَيِّزات درج النَّاس على اعتبارها جيلًا بعد جيل، كلُّها زالت أمام قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠] وقول رسوله: «**أيُّها النَّاس كلُّكم لآدم وآدم من تراب**»(١).

فأيُّ إنسانٍ مهما كان عريق النَّسبِ وواسع الثَّروة، أو كان ذا شأنٍ في قومه فهو أخٌ لمن دونه نسبًا، أو لمن هو أقلُّ منه مالًا، أو أحطَّ منه شأنًا في المنزلة الاجتماعيَّة، فـ «**المسلم أخو المسلم**»(٢).

وهذا الإخاء يفرض على كلِّ مسلمٍ أن يهتمَّ بأمر أخيه المسلم - يعني بشأنه - قَرُبَ منه أو بَعُدَ، ويدافعَ عنه، ويذود(٣) عن حياضه، ويمدَّ

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٥٥)، بلفظ: «**لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم...**»، وقال: حديث حسن.
(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٩٥١)، ومسلم، رقم: (٢٥٦٤).
(٣) الذود: الطرد والدفع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/ ١٦٧).

يد العون له، ويعملَ على حفظ ماله ومستقبله مهما اتَّسعت دائرة المسلمين وتباعدت ديارهم، ويمثِّل لهذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وقول رسوله: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(١).

فالجسد لا يرضى أن يُعتَدَى على جزءٍ منه إذ يدافع كلُّه عن بعضه، وكذلك يجب أن يكون المسلمون في وطنهم الأكبر مهما تباعدت أقطارهم؛ لأنَّ كلَّ فردٍ من المسلمين خليَّة من ملايين الخلايا في هذا الجسم، وكلَّ إقليم من أقاليمهم عضو في مجموعة هذا الجسم.

وحرص الإسلامُ أشدَّ الحرص ألَّا يتفكَّك هذا الجسم حتَّى لا تتفكَّك وحدة المسلمين؛ فالعقيدة واحدة، والعبادة واحدة، والقبلة واحدة، والشَّريعة واحدة، والغاية واحدة، وحرص أن يجعل من المسلمين أُمَّةً واحدة، يحسب حسابها، ويرهب جانبها، فقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا**»(٢) وقال: «**المسلمون يد واحدة على من سواهم يجير عليهم أدناهم**»(٣) وقال: «**من لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس منهم**»(٤).

وجعل الإسلام لهذه الوحدة سياجًا يقيها شرور التَّدخُّل الخارجيِّ،

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٨٦).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٦). ومسلم، رقم: (٢٥٨٥).
(٣) رواه أحمد، رقم: (٦٦٩٢).
(٤) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٢٦١٧).

وأيُّ صدعٍ في هذه الوحدة وأيُّ هزَّةٍ في كيانها يُعْتَبَرُ جريمة ما بعدها جريمة، فهذا كتاب الله ينادي: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفَال: ٤٦]، والرِّيح: هي القوَّة، ومتى ذهبت القوَّة كان الضَّعف، وعاقبة الضَّعف ذلَّة، وبعد الذِّلَّة الفناء والزَّوال.

والإسلام أعلن البراءة من المُفَرِّقِين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعَام: ١٥٩]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الرُّوم: ٣١-٣٢]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٥].

والإسلام عندما جعل المسلمين أُمَّةً واحدةً لها كيانها القويُّ، وأراد لها البقاء لتكون خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، وأراد لهذه الوحدة أن تبقى؛ بَيَّنَ في كتابه العزيز أنَّ للوحدة أمراضًا يجب اجتنابها؛ لئلَّا تُصَابَ بها، والوقاية خيرٌ من العلاج، فقال جلَّ شأنه في سورة الحجرات: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحُجرَات: ٦]، وقال فيها أيضًا: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ [الحُجرَات: ٩]، وقال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحُجرَات: ١١]، ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحُجرَات: ١٢].

كلُّ هذا وقاية لهذه الوحدة؛ لئلَّا تصاب بصدعٍ أو تفكُّكٍ من بدايتها في البيت حتَّى نهايتها في العالم الإسلاميِّ الأكبر.

وكنَّا قد قلنا في أوَّل هذا الحديث: إنَّ الرَّوابط بين الإنسان وغيره من

النَّاس تتدرَّج من دائرة ضيِّقة إلى دائرة أوسع، فقد أراد الإسلام لهذه الرَّوابط حفظًا وبقاءً، وأن تظلَّ صالحة مشدودة إلى بعضها ليبقى المجتمع قويًّا ومُتضامنًا.

فعلاقة الإنسان بوالديه قضى فيها: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسرَاء: ٢٣-٢٤].

وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، وقرنه بالشِّرك بالله وقتل النَّفس، كما أمر بتربية الأولاد والإحسان فيها، وأوجب على الوالد أن يُعَلِّمَ ولده برَّه، وأمر الإسلام برعاية علاقة الإنسان بذوي قُرْباهُ وصلتِها، وحذَّر من قطيعتها، ووعد واصل أرحامه بسعة الرِّزقِ وطول العمر(١)، وقال ﷺ: «**أَسْرَعُ الخيرِ ثوابًا البِرُّ وصِلَةُ الرَّحِمِ، وأسرع الشَّرِّ عقوبةً البَغْيُ وقَطِيعَةُ الرَّحِمِ**»(٢).

والعلاقة الزَّوجيَّة أمر أن تكون على ما في كتاب الله وسُنَّة رسوله، ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩]؛ لأنَّ الحياة الزَّوجيَّة هي الحياة الطَّبيعيَّة لكلِّ إنسان، وفيها البقاء: بقاء الجنس البشريِّ وحفظ نوعه، فوجب أن تكون هذه العلاقة علاقة حُبٍّ تكتسحُ أمامها كلَّ مُكَدِّرات العيش حتَّى تتوفَّر أسباب الهناء والغبطة للزَّوجين بهذه الحياة.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٠٦٧)، بلفظ: «**من سرَّه أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه**».

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٢١٢).

فمتى تخاصم زوجان وجب على المسلمين أن يسعَوا لإزالة هذا الخلاف، وإذا تعذَّر بمواجهةِ كلٍّ من الزَّوجين وجب عليهم أن يبتغوا حَكَمًا من أهلِ الزَّوجِ وحَكَمًا من أهلِ الزَّوجة ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ [النِّسَاء: ٣٥].

والعلاقة بين النَّاس - تقاربوا أو تباعدوا - أمرٌ يجب أن يبقى حسنًا تطيب به المعاملة، وتقوى به الثِّقة، فإذا حصل خلاف بين اثنين وجب على كلٍّ من علم بهذا الخلاف ووجد في نفسه القوَّةُ على إزالته أن يقضي فيه ويزيله، فكما قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النِّسَاء: ١١٤]، ويقول الرَّسول ﷺ: «**ألا أدلُّك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ قال المخاطب: بلى يا رسول الله، قال: تصلح بين النَّاس إذا تباغضوا وتفاسدوا**»[(١)].

والكَذِبُ خصلةٌ مذمومةٌ وحرامٌ وإثمٌ، وهو من صفات المنافقين ولم يُرَخِّص الإسلام في الكذب إلَّا في الإصلاح بين النَّاس يقول ﷺ: «**ليس الكذَّاب الَّذي يصلح بين النَّاس فينْمِي خيرًا أو يقول خيرًا**»[(٢)].

أمَّا الغاية الَّتي أرادها الله لهذه الأُمَّة في وحدتها فهي: أن تكون صالحةً مُصْلِحَةً، تفعلُ الخير وتقود النَّاس إلى الخير، وأن تكون بعيدةً عن الشَّرِّ؛ لأنَّ الشَّرَّ يضعف جانب الخير في النُّفوس، ويوقد نار العداء بين النَّاس، فلا يبالي النَّاس بما يصيبهم في مجتمعهم، أو يعكِّر صفو العلاقات فيما بينهم ويصبح كلُّ فردٍ في المجتمع أنانيًّا لا يبالي بما يصيب غيره إذا سَلِمَ هو، فكما قال الشَّاعر:

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣٩٢٢).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٦٩٢). ومسلم، رقم: (٢٦٠٥).

إذا مِتُّ ظمآنًا فلا نزل القطر

فالغاية من هذا كلِّه امتثالُ أمرِ الله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

الإسلام دين العدل

العدل هو: التَّوسُّط والاستقامة، ومعناه: وضع الشَّيء في موضعه.

واستحسان العدل غريزةٌ في البشر، وفطرة فطرهم الله عليها على اختلاف أديانهم وأجناسهم.

والعدل في الأحكام معناه: عدم الميل إلى أحدٍ في الدَّعوى، وحسم القضيَّة طبق الشَّريعة في بلاد تحكم بالشَّريعة، أو طبق القانون أينما يسود القانون.

والله أمر المسلمين بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وأمرهم أن يؤدُّوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين النَّاس أن يحكموا بالعدل، والإسلام حرص أشدَّ الحرص على المحافظة على حقوق النَّاس ودمائهم وأعراضهم وأموالهم، وعُنِيَ أشدَّ العناية بصيانة حُرِّيَّاتهم وكراماتهم.

والله جلَّ شأنه ما بعث رسله وأنزل عليهم كتبه إلَّا ليقوم النَّاس بالقسط ويأمنوا على ما تقوم به حياتهم ويحفظ لهم حقوقهم ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

وخاتم الأنبياء سيِّدُنا محمَّد ﷺ كان من وظائفه إقامة العدل بين النَّاس، قال تعالى: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ

بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

والإسلام اتَّخذ جميع الوسائل الَّتي تُصَانُ بها الكرامات والحُرِّيَّات، وتُحفَظُ بها الحقوق، وتُحقَنُ بها الدِّماء، حتَّى تشيع الطُّمَأنينة بين النَّاس، فينتشرَ الأمن، وتُشَدُّ علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتقوى الثِّقة بين الحاكم والمحكوم، وتنمو الثَّروة وتزيد في رخاء العيش، ويمضي كلُّ فردٍ من الأُمَّة إلى غايته في العمل والإنتاج آمنًا مطمئنًّا على كسبه وإنتاجه، دون أن يقف في طريقه ما يعوق نشاطه، أو يُعَطِّل عمله.

وبالحاكم العادل يقوم كلُّ سائل، ويصلح كلُّ فاسد، وإليه يفزع كلُّ ملهوفٍ، وبه يقوى الضَّعيف حتَّى يأخذ حقَّه، ويضعف القويُّ حتَّى يؤدِّي ما عليه من حقٍّ، وهو للرَّعيَّة كالأب يسهر على مصالحهم، فيُعَلِّم جاهلهم، ويُرَبِّي قاصرهم، ويحفظ أموالهم وأعراضهم ودماءهم، وهو في الوقت نفسه وصيُّ اليتامى وخازن المساكين، وهو للأُمَّةِ كالقلب في الجسد تصلح الأعضاء بصلاحه، وتفسد بفساده، وهو ظلُّ الله على عباده في أرضه، هكذا يكون الحاكم العادل.

خطب أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه لمَّا بُويعَ بالخلافة فقال: «**يا أيُّها النَّاس، القويُّ فيكم ضعيف عندي حتَّى آخذ الحقَّ منه، والضَّعيف فيكم قويٌّ عندي حتَّى آخذ الحقَّ له**».(١)

هذا هو مثل الحاكم العادل، وأقصد به: ملك البلاد أو أميرها أو رئيسها.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٦٦١).

أمَّا القاضي: فأوَّل عدله أن يُسَوِّي بين الخصمين في الدُّخول عليه والوقوف بين يديه، ويستمع لِما يقولانه، فيبدأ بالمدَّعي ثمَّ المدَّعى عليه، ولا يُلَقِّن واحدًا من الخصمين حجَّته، ولا يردُّ شهادة شاهد، أو يشير إلى أحد طرفي الدَّعوى بما يفيده فيها، محاباة منه له أو جنوحًا عن الحقِّ، ثُمَّ يحكم بما يراه حقًّا ممتثلًا أمر الله ﷻ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النِّسَاء: ٥٨]، ومتمثِّلًا قول النَّبيِّ ﷺ: «**أيُّها النَّاس إنَّما أنا بشر، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم يكون ألحن بحجَّته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحقِّ أخيه فإنَّما أقطع له قطعة من النَّار**»[(١)].

ومن أبلغ ما أوصى به خليفةٌ قاضيًا الكتاب الَّذي بَعَثَ به أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري عندما ولَّاه قضاء العراق، نَقتَطِفُ منه هذه الجمل:

قال عمر في رسالته:

«**وآس بين النَّاس[(٢)] في وجهك، وعدلك، ومجلسك، حتَّى لا يطمع شريفٌ في ميلك، ولا ييأس ضعيفٌ من عدلك، البيِّنَةُ على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، والصُّلح جائزٌ بين المسلمين إلَّا صلحًا أحلَّ حرامًا أو حرَّمَ حلالًا، وإيَّاك والقلق والضَّجر، والتَّأذي من الخصوم، والتَّنكُّر عند الخصومات، فإنَّ الحقَّ في مواطن الحقِّ يعظِّم الله به الأجر ويحسن به الذُّخر، واجعل لمن ادَّعى حقًّا غائبًا أو بيِّنة غائبة أمدًا ينتهي**

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣٥٨٣).
(٢) آسِ بين الناس: أَي سَوِّ بَيْنهم واجْعل كُلَّ واحِدٍ مِنْهُم أسْوَة خَصْمِه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٧/ ٧٦).

إليه، فإن أحضر بيِّنته فخذ له بحقِّه، وإلَّا استحللت عليه القضيَّة فإنَّه أنفى للشَّكِّ وأجلى للعمى»[(١)].

هذه نبذةٌ من كتاب عمر رضي الله عنه الَّذي جعله العادلون دستورًا، لهم يسيرون في قضائهم على ضوئه، فلا تأخذهم في الحقِّ لومة، ولا قرابة، ولا صداقة، ولا خوف، ولا حب، ولا إكراه.

وحماية المظلوم والوقوف في وجه الظَّالم عدلٌ، فقد قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا قيل: كيف أنصره ظالمًا يا رسول الله؟ قال: تحجزه عن الظُّلم فإنَّ ذلك نصره**»[(٢)].

وليس العدل موقوفًا على من وُلِّي القضاء، بل هو مفروض في كلِّ شيءٍ، وعلى كلِّ واحد، وحتَّى على من رضيه اثنان ليقضي خصومتهما، أو انتدبه القضاء ليصلح في قضيَّة، أو يستمع إلى شهادة. ولا يزال هذا الحلُّ موجودًا في بلدنا، وقد كان موجودًا فيما مضى قبل.

والعدل واجب في الشَّهادة، والقرآن أمر بأداء الشَّهادة وأوجب العدل فيها في مواضع من كتابه وحذَّر من كتمانها فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [الطَّلَاق: ٢]، وقال: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النِّسَاء: ١٣٥].

---

(١) رواه البيهقي، رقم (٣٢٥٩).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٩٥٢).

وحذَّر الإسلام وشدَّدَ الحذر من تحريف الشَّهادة أو صبغها بصبغة تخالف الواقع، وقرن ذلك بعبادة الوثن، بالشِّرك بالله، فقال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحَجّ: ٣٠].

وقال الرَّسول ﷺ: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النَّفس، ألا أُنبِئُكم بأكبر الكبائر: قول الزُّور شهادة الزُّور**»(١).

ذلك لأنَّ شهادة الزُّور تُبَدِّلُ الحقَّ باطلًا، وتُحِيلُ الباطل إلى حقٍّ، وتبعد الحقَّ عن صاحبه، وتعطيه إلى من ليس له حقٌّ، وشاهد الزُّور أساء إلى نفسه وإلى من شَهِدَ عليه وله، وإلى القاضي والمجتمع.

أساء إلى نفسه: باستحقاقه غضب الله عليه، وإلى من شهد عليه: فحرمه من حقِّه، وإلى من شهد له: فجرَّأه على أن يأكل حقَّ غيره، وإلى القاضي: لأنَّه ضلَّله عن طريق العدالة، وإلى المجتمع: لأنَّه مجرم يُشجِّع على الإجرام.

والعدل مطلوبٌ من الأبِ بين أولاده، والرَّئيسِ بين مرؤوسيه، والمديرِ بين موظَّفي دائرته، والمراقبِ بين عمَّاله، والرُّبَّانِ بين ملَّاحي سفينته، والتَّاجرِ بين زبائنه وعملائه، والمُدَرِّسِ في صَفِّهِ بين تلامذته.

ومطلوبٌ أيضًا في الكتابة بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

ولهذا أوجدت الحكومات المسلمةِ وغير المسلمة منها كاتبًا أسمته:

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٨٧١).

كاتب التَّوثيق أو كاتب العدل، وظيفته التَّصديق على ما يكتبه المتعاقدون من اتِّفاقيَّات وعقود بينهم.

والعدل لا يُفَرِّق بين ألوان ولا أديان، ولا يُفَضِّلُ طبقة على طبقة، ولا أهل إقليمٍ على آخر.

العدل يجب أن يكون بين النَّاس جميعًا، والنَّاس أمامه كأسنان المشط سواء، قويُّهم كضعيفهم، وسيِّدهم كمسودهم، وشريفهم كوضيعهم.

وأختتم كلامي بقصَّة تُبَيِّنُ عدل سلفنا الصَّالح في العهد العمريِّ المجيد:

ذلك أنَّ يهوديًّا رفع إلى عمر بن الخطَّاب دعوى ضدَّ عليٍّ بن أبي طالب ﷺ، فلمَّا حضر عليٌّ قال له عمر: اجلس يا أبا الحسن لكنَّ عمر بعد نطقه بهذه الكلمة رأى الغضب والاشمئزاز في وجه عليٍّ، وبعد الانتهاء من الخصومة وانفضاض مجلسهما قال عمر لعليٍّ: أكرهت أن يخاصمك رجلٌ يهوديٌّ؟ قال عليٌّ: لا يا أمير المؤمنين، ولكن كرهت تفضيلك لي بأن كنَّيتني في مجلس خصومة[1].

وهناك قِصَّةٌ أخرى: وهي أنَّ ملك الرُّوم المعاصر لعمر، أرسل رسولًا إلى عمر بن الخطَّاب لينظر أحواله ويشاهد أفعاله، فلمَّا دخل المدينة سأل أهلها أين ملككم؟ فقالوا: لنا أمير وليس لنا ملك، وقد خرج إلى ظاهر المدينة فاطلبه تجده، فخرج رسول ملك الرُّوم إلى خارج المدينة فرآه نائمًا على الأرض وقد توسَّد يده، فوقعت في قلبه هيبة من هذا الرَّجل

(١) رواه البيهقي في الكبرى (١٣٦/ ١٠)، والقاضي كان شُريحًا.

العظيم المتواضع وقال: رجلٌ تهابه الملوك، لا يقرُّ لهم قرارٌ هيبةً وخوفًا منه وتكون هذه حاله! إنَّ هذا لعجب.

الإخلاص لله فوزٌ

نعيشُ أيَّامنا هذه في خِضَمِّ حياةٍ عابسةٍ، وخلافٍ شديدٍ بين دعوات صاخبة لمذاهب مُتَبَايِنَة وأهواء مختلفة، منها: هدَّام الأخلاق وماحي الفضائل، والسِّياسيُّ وغير السِّياسيِّ، ودعاتها مختلفون متباينون فمنهم من يدَّعي الكمال، ومنهم من يدَّعي أنَّه على الحقِّ، ولكنَّهم بعيدون عنهما.

وبين هذه الأصوات المختلطة المزعجة الصَّاخبة تقف دعوة الله ساخرة من كلِّ داعية مهما كان صوته شديدًا وجنده قويًا وناصره عنيدًا، وأهل هذه الدَّعوة غافلون؛ فمنهم اليائسون، ومنهم العاجزون؛ لأنَّهم بحقيقتها جاهلون، ولو علموا لأخلصوا، ومتى أخلصوا لله فازوا كما فاز الماضون، ولنجحوا كما نجح السَّابقون الأوَّلون، وكما فاز بها المخلصون.

أُمَمُ العالم جميعُها تتكالبُ ضدَّ الإسلام على اختلاف مللها وتباين نحلها، وترى في الإسلام خطرًا عليها فهي تكيد له، وتحيك مؤامراتها ضدَّه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

إخوتي وأخواتي: ظهر الإسلام في العرب، وبه أعزَّهم الله، وتحقَّقَ المسجد لهم، وبه وجدت دولتهم وتاريخهم وحضارتهم وثقافتهم، ولا

شكَّ أنَّ الله أعزَّ الإسلام بالعرب فقد كانوا جنده وحماته.

وجديرٌ بنا بعد هذا كلَّه أن نعتزَّ بالإسلام وأن نفخر بنبيِّ الإسلام وأن نحقِّقَ ما تمنَّاه لنا أصحاب هذا النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام بأنَّه: «**لن يصلح آخر هذه الأُمَّة إلا بما صلح عليه أوَّلها**»(١).

وقد صلح سلف هذه الأُمَّة بِتَمَسُّكِهم بكتاب الله وسنَّة نبيِّه فلم يضلُّوا وحقَّقوا ما قاله لهم عليه أفضل الصَّلاة والتَّسليم: «**تركت فيكم أمرين ما إن تمسَّكتم بهما لن تضلُّوا بعدي؛ كتاب الله وسنَّتي**»(٢).

واجتنبوا ما حذَّرهم منه هذا النَّبيُّ الكريم حين قال لهم: «**إيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعة ضلالةٌ**»(٣).

وكان حُبُّ الله ورسوله أسمى من كلِّ محبَّةٍ وأعلى وأجلُّ، حين ظهرت آثار هذا الحُبِّ في حياتهم وعلى أعمالهم ففعلوا ما يرضى به المحبوب، واجتنبوا ما يسخطه، وكانوا عند حدود قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عِمرَان: ٣١].

وأفلحوا بهذا الحُبَّ وهذه الطَّاعة، ووفَّى الله ﷻ وعده لهم، فعاشوا حياة رضيَّة يفيض عليها الأمن والسَّلام، وبنفسٍ صافيةِ البشائر، طيِّبةِ الآمال لا يمسُّها حزنٌ، ولا يقلقها خوفٌ كما أراد الله لهم: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٨].

---

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفَّر لي من مصادر حديثيَّة، وينسب هذا القول للإمام مالك رحمه الله.

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٨٧٦).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٨٦٧).

ونحن اليوم أيُّها الإخوة في آخر العشر الأواخر من رمضان، وستنتهي الدَّورة الدِّراسيَّة السَّنويَّة في مدرسة رمضان، فالفوز لمن نجح في الامتحان، والهناء والتَّهنئة لمن نال شهادة النَّجاح، وكلُّنا نعرف أنَّ المُتَفوِّق محبوبٌ فيا فوز من أحبَّه الله وسعادته وبُشراه.

أقول يا فوز من أحبَّه الله؛ لأنَّه شتَّان بين حُبِّنَا لله وبين حُبِّ الله لنا،كلُّنا نُحِبُّ الله، فهل صدقنا بهذا الحُبِّ؟ وهل حقَّقنا معنى الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عِمرَان: ٣١]؟ لا ندري، وقد ندري وكلٌّ منَّا عن نفسه يدري!.

إنَّ حُبَّ الله عبدَه فوق كلِّ حبٍّ، ينالُ العبدُ بهذا الحُبِّ سعادته في الدُّنيا بالفلاح، والآخرة بالنَّجاح.

القتالُ دفاعٌ وردٌّ للأذى

قامتِ الدَّعوةُ الإسلاميَّة على الإقناع، ولم تقم على الإكراه كما يَزْعُمُ المبشِّرون والجهلة من أبناء المسلمين الَّذين قالوا: إنَّ الدِّين ما قام إلَّا بالسَّيف.

والحقيقةُ أنَّ الإسلامَ يَجْنَحُ إلى السِّلم فلا يبدأ بعدوانٍ، ويأمرُ المسلمين بـ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [المَائدة: ٨٧]، ويحارب الإكراه في العقائد بـ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

أمَّا الحروب الَّتي خاضها المسلمون فقد كانت لصيانة أمنهم، والدِّفاع عن أنفسهم وعقيدتهم، فالإسلامُ جدال بالَّتي هي أحسن قبل أن يشرَعَ

القتالَ دفاعًا عن الدَّعوة، وهو صبرٌ ومصابرةٌ ودعوة إلى الله بأحسن الحديث، ومبدأ كريم: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وقد عاش رسولُ الله ﷺ في مكَّة ثلاثَ عشرةَ سنة يدعو إلى الخير بالكلمة الطَّيِّبة، ويُبَصِّرُ النَّاسَ بالفضيلة، ويلقى مع أتباعه من عَنَتِ[1] الأعداء، وضروب الإيذاء ما جعل المسلمين يفِرُّون بعقائدهم مهاجرين إلى الحبشة مرَّتين، وكلَّما استشرى[2] الخصومُ في الشَّرِّ كان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يتلقَّى من ربِّه آياتٍ يُثبِّت بها فؤادَه، وتُعلِّم العفوَ والمعروف والإعراض عن الجاهلين، وكانتِ الدَّعوة تُنفَّذُ من وراء حُجُبِ الإغراء والإيذاء والشَّرِّ والتَّعذيب، وتقتحم أقفالَ القلوبِ تاركةً وراءَها جبروت الأقوياء الَّذين طغَوْا على الفقراء والضُّعفاء.

ومضى ثلاثةَ عشرَ عامًا والجهادُ لم يُشرَّع، والعقولُ السَّليمة تتقبَّل الدَّعوةَ وتُسارِع إلى اعتناق العقيدة حتَّى صار المسلمون جماعةً فوجب عليهم حينئذٍ أن يحمُوا دعوتهم من مدِّ الطُّغيان حتَّى لا يقف في سبيلها ولا يطفو عليها فيُغرقَها، ثمَّ وجبَ دفْعُ الشَّرِّ بالشَّرِّ عند القدرة عليه إذا أصبحت الكلمةُ الطَّيِّبةُ لا تنفع، والمجادلة بالَّتي هي أحسن لا تُفيد.

ولمَّا نفَدَت جميع الوسائل السِّلميَّة أمام الطُّغيان شُرِّعَ القتالُ دفاعًا عن النَّفس، وعن الدَّعوة إذا وقف الجبروتُ في طريقها يُعذِّب مَن آمن مختارًا ليردَّهُ عن دينه، أو يحولَ بين المؤمن و إيمانه، أو يمنعَ الدَّاعي عن أداء دعوته.

---

(١) العَنَت: الجور والأذى. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ١٢).

(٢) استشرى: تَمادى في غيِّه وفساده. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٣٦٥).

ثمَّ جاءت الآية الكريمة تَأذَنُ بالدِّفاع: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحَجّ: ٣٩]، وتحدِّدُ سببَ القتال بدقَّةٍ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحَجّ: ٤٠]، وتذكرُ نتيجةَ القتالِ لمِن أخلص في الدِّفاع عن نفسه وعقيدته: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَجّ: ٤٠].

كما ذكرتْ الآيةُ نوع هذا الظُّلم وفحشه وهو إخراج المسلمين من ديارهم بغير حقٍّ؛ لأنَّهم أصحاب عقيدة قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [فُصّلَت: ٣٠] لم يذلُّوا إنسانيَّتَهم لمعبودٍ لا يسمعُ ولا يُبصِر، وعندما نقرأ هذه الآية الكريمة نعلم أنَّ الإسلامَ دينُ محبَّةٍ وسلام، قال الله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [المُمتَحنَة: ٨-٩].

ممَّا سبق نرى أنَّ الحروبَ الإسلاميَّة ليست حروبَ عدوانٍ ولا انتقام، وإنمَّا هي مقابلة الشَّرِّ بمثله، وعلاجٌ للفساد الاجتماعيِّ.

وقد حثَّنا اللهُ على أن نُعامِلَ الَّذين لم يحاربوا الدِّين ولم يُسيئوا إلينا في الدُّنيا معاملةً حسنةً، وأن نُقسِطَ إليهم بالعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المَائدة: ٤٢]، ونهانا عن موالاةِ ومحبَّة مَن يقاتلوننا بكلِّ ما يستطيعون؛ ليردُّونا عن ديننا ويخرجونا من ديارنا.

ولعلَّ قائلًا يقول: إذن، فلا أُؤذي إلَّا مَن أذاني! والجواب:

مَن أذى أخاك في الدِّين فقد أذاك، ومَن حارب مسلمًا أيًّا كان جنسه أو جنسيَّته فقد حاربكَ.

والمسلمون إخوةٌ وأمَّة واحدة كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبيـاء: ٩٢]، وهم جسد واحد مَن اعتدى على عضو منه؛ اعتدى عليه كلَّه.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ [المُمتَحنَة: ٥].

أهميَّة المسجد في الإسلام

كنتُ في أثناء الأسبوع الثَّاني من شهر يناير في ماليزيا، لحضور مؤتمرٍ إسلاميٍّ انعقد هناك للدَّعوة الإسلاميَّة والدُّعاة، وحضر هذا المؤتمر كثيرون من دول الشَّرق الأقصى، ولا سيَّما من الدُّول الَّتي تعيش فيها أقليَّات مسلمة.

ومن المواضيع الَّتي بحث فيها المؤتمر موضوعُ المسجد وأهميَّتُه وأنَّه أوَّل بيتٍ في الإسلام.

وبناءُ المسجد أوَّلُ عملٍ قام به النَّبيُّ ﷺ بعد هجرته؛ إذْ أمر ببنائه وشارك فيه، فكان هذا المسجدُ حياةَ المسلم كلِّها؛ منه مغداه ومبدؤه، وإليه مراحُه ومنتهاه، وهو مقصدُه لِنَهْلِ العلمَ الَّذي أُمِر بطلبه من المهد إلى اللَّحد، وفيه يعبدُ ربَّه لا يلهيه عن عبادته تجارةٌ ولا بيعٌ، وفيه يلتقي بأحبابه في الله.

وقد كان المسجد على مرِّ القرون ملتقى أولي الأحلام والنُّهى؛ وهم أولو العقول الَّذين عاشوا تجاربَ الحياة، والَّذين يزداد الإنسانُ بلقائهم

معرفةً وعلمًا، ويربحُ مَن جالسهم أو استمع إليهم فقهًا ورشدًا ونصحًا، وكان إمامُ المسجد أعلمَ النَّاس بشؤون دينهم ودنياهم يتعلَّمون منه فِقْهَ عبادتهم ومعاملاتهم، وكان الرَّاشدَ المُرشِدَ الَّذي بهدايته يهتدون، وبنصحه ينتصحون، ويُميِّز لهم بين الحلال والحرام، ويعرِّفهم البرَّ والإثم، فيعملون البرَّ ويبتعدون عن الإثم، وكان قولُ الإمام قولًا فصلًا؛ لأنَّ النَّاس عَرَفُوا إمامَهم عالمًا فقيهًا صالحًا راشدًا مصلحًا مرشدًا، فالإسلام منهاجُ حياةٍ لكلِّ المسلمين.

ومنذ أُغلِقَ مدخل المسجد في وجه المعلِّم والمتعلِّم، وسُدَّت أبوابُه في وجه النَّاصح والمنتصِح، واُختِيرَ لوظيفةِ المسجد الجَهَلةُ وأشباهُ المتعلِّمين، انحلَّت الرَّابطة بين المسلم وأخيه، وتفكَّكت الوشائجُ[١] بين أهل المَحَلَّة[٢] والقرية الواحدة، فالصَّلاة عمودُ الدِّين، وهي الرُّكن الأوَّل من أركان الإسلام، وهل يقوم بيت بلا عمود؟ الجواب: لا.

والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام أمر المسلمين بأن يؤمَّ القومَ أقرؤُهم لكتاب الله وأعلمُهم بسنَّة رسوله، وفي حديثٍ رواه الدَّار قطنيُّ والبيهقيُّ: «**اجعلوا أئمَّتَكُم خيارَكم، فإنَّهم وَفْدُكُم**[٣] **فيما بينكم وبين ربِّكم**»[٤].

وحذَّر صلواتُ الله وسلامه عليه أنْ يؤمَّ الإنسانُ قومًا يكرهون إمامتَه،

---

(١) الوشائج: وشائج النسب: اشتباك القرابة والتفافها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٢٦٠).

(٢) سُمِّيَت المحلة دارًا، وسُمِّي ساكنوها بها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١١/ ٣٢٠).

(٣) الوفد: هم القوم يجتمعون ويردون البلاد. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٥/ ٢٠٩).

(٤) رواه الدار قطني، رقم: (١٨٨١)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٥١٣٣).

وأنذره بلعنة الله، وطرده من رحمته.

أقولُ كلمتي هذه وأرجو من المسؤولين عن المساجد أن يختاروا الأئمَّة الصَّالحين المصلحين، والرَّاشدين المرشدين، الَّذين يعرفون كيف يُعلِّمون وينصحون ويرشدون، فالنَّاس بحاجةٍ إلى مَن يُصلِح ويُرشِد؛ لأنَّهم يسمعون القولَ ويقتدون بقائلِهِ، والويلُ كلَّ الويلِ لمريضٍ يداوي النَّاس وهو عليل، قال الشِّاعر:

يا أيُّها الرَّجل المعلِّمُ غيرَه ... هلَّا لنفسك كان ذا التَّعليمُ

تصف الدَّواء لذي السِّقام وذي الضَّنا[1] ... كيما يصِحُّ به وأنت سقيم

ابدأ بنفسك فانْهَهَا عن غيِّها[2] ... فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

لا تنهَ عن خلُقٍ وتأتيَ مثله ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيم[3]

الفتوى في الكويت

الفتوى إشارةٌ وتعليمٌ، والمُستَفتِي مُستَشِيرٌ ومتعلِّم، والمُفتي مُستَشَارٌ مُشِير ومُعلِّم، وقال لنا نبيُّ الإسلام محمَّد ﷺ: «**المستشار مُؤتمَنٌ**»[4].

(١) ذو الضَّنا: السقيم الذي طال مرضه وثبت فيه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٤٧٣).

(٢) الغيُّ: الضلال والانهماك في الباطل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٩/ ١٩٨).

(٣) شرح شذور الذهب، لابن هشام (١/ ٣١٠)

(٤) رواه الترمذي، رقم: (٢٨٢٢)، وقال: حديث حسن.

وللفتوى أهميَّتُها عند النَّاس ومسؤوليَّتهُا ضخمة؛ ولهذا حذَّر منها رسول الله ﷺ، وأخبرنا أنَّ أعظم النَّاسِ جرأةً على الله مَن أفتى بغير علمٍ إذْ لا بدَّ أن يكون المفتي ذا درايةٍ، فاهمًا للسُّؤال، عالمًا بالفتوى، واسع الصَّدر لا يضيقُ بجهل السَّائل ولا إلحاحه ولا تفاهته، فالسَّائل جاهلٌ يريد أن يفهمَ فلجَأ لمَن يعلم، ليسألَ عمَّا لا يعلم.

والفتوى قديمةٌ قِدَم الإسلام، وصحابة النَّبيِّ ﷺ كانوا يسألونه ليتعلَّموا منه ويعملوا؛ اقتداءً بأمره عليه الصَّلاة والسَّلام: «**فليُبلِّغ الشَّاهد منكم الغائب**»(١)، ويعني بالغائب: مَن لم يحضر المجلس، أو مَن لم يُولَد بعد، أو مَن سيأتي في الأجيال القادمة والقرون المستقبَلَة.

وبعد انتقال الرَّسول ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى، لم يأنَفِ الصَّحابةُ رضي الله عنهم أن يسألَ بعضُهم بعضًا، ولا أن يتعلَّم بعضهم من بعض، ومن الكلام المأثور في هذا السِّياق كلام عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في مجلس القضاء: «**لولا عليٌّ لَهَلَكَ عمرُ**»(٢) وقوله في المسجد النبويِّ الشَّريف: «**حتَّى النِّساء أفقهُ منك يا عمر**»(٣).

وجاء عهد التَّابعين وتابعيهم بإحسان، والنَّاس على ذلك يُحسِن بعضُهم الظنَّ ببعضٍ، ولا يأبى أحدُهم أن يتعلَّم من الآخَر، مهما كانتِ الفروق في السِّنِّ والمكانة، فقد يجد العلَّامةُ حُكْمًا عند مُحترِفٍ أو عند صغيرٍ فيأتيه حتَّى يسأله عنه.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٧٣٩)، ومسلم، رقم: (١٦٧٩).
(٢) انظر: منهاج السنة النبوية (٦/ ٤١).
(٣) انظر: أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١١٨) بلفظ: (كل الناس . . .).

ثمَّ بدأت العصور المظلمة الَّتي اشتغل النَّاس فيها بدنياهم عن التعلُّم، وأصبح المال في نظر المجتمع هو الحياة، وشاع الجهل في النَّاس، وكان لا بدَّ للمسلم من رجلٍ عارف يسأله عن دينه، حتَّى لا يقعَ في الخطأ، فالدِّين حياةُ المسلم يبقى معه أينما كان، ولا يفارقه.

وعلى المسلم أن لا يخجلَ من السُّؤال عن أمور دينه، وأن يسألَ مَن يَثِقُ بمعرفته وتقواه، على أن يقْتَرِنَا ؛ - أي: المعرفة والتَّقوى - بخوفٍ من الله وحُسنِ الخُلُق، وحتَّى لا يختلطَ الأمر على النَّاس، ولا يقعوا في متاهات الجهل، لجأ بعض المسؤولين من المسلمين في كثيرٍ من الأقطار إلى تعيين مُفتِينَ، يسألهم النَّاسُ عن أمور دينهم.

والكويت بلدٌ مسلمٌ، حافَظَ القليلون من أهله على شعائر الإسلام، فأقاموا أركانه وأدُّوا واجباتِه، وكان أكثرُ سكَّانه يعملون في البحر ملَّاحين أو غوَّاصين أو صيَّادين أو مسافرين، وكان فيهم التَّاجر والعامل والصَّانع.

والإسلامُ دائمًا بخير طالما لم يخلُ هذا البلد الصَّغير بحجمه، القليل بسكَّانه من رجلٍ يُسمَّى الشَّيخ أو المطوِّع يستفتيه الجاهلُ لِيَعلمَ، أو يسأله لِيعرفَ.

وقد يكون هذا المسؤول إمامَ مسجدٍ قرأ فَفَقِهَ، أو تعلَّم فعلَّم؛ لأنَّ المهمَّ في الأمر أن يكون جوابُه صحيحًا، وقد لا يأنَفُ بعضُهم أن يقول للسَّائل: لا أدري، اذهبْ إلى فلانٍ فاسْأَلْه فإنَّه أعلمُ وأدرى منِّي بسؤالكَ.

وقد عَرَف الكويتُ - هذا البلد الطَّيِّب - كثيرًا من رجال المعرفة، الَّذين كانوا عند حسن الظَّنِّ بهم ورعًا وصدقًا وتقوًى، وكانوا كما قال الشَّاعر:

وإنَّـمـا الـمـرءُ حـديـثٌ بـعـدَه فكُـن حـديـثًا حَـسَـنًا لـمـن وعـى

ولم يكن الإفتاء في الكويت ذا صفةٍ رسميَّة، - أي: بتعيين شخص للفتوى من وليِّ الأمر - إلى أن عهد الشَّيخُ المرحوم سالم المبارك الصَّباح الحاكم التَّاسع سنةَ (١٩١٦ - ١٩٢٠). بإسنادِ الفتوى إلى الشَّيخ عبد الله بن خالد العدساني، لكنَّ هذا التَّعيين لم يستمرَّ إلَّا لسنةٍ وأشهر، فقد تُوفِّي قاضي الكويت الشَّيخ عبد العزيز العدساني، وقلَّد[1] عبدَ الله بن خالد القضاءَ، ومع وجود المفتي المعيَّن من قِبَل وليِّ الأمر لم يتركِ النَّاسُ عادتَهم فكانوا يسألون مَن يَثِقون بهم من العلماء، ويلجؤون إلى مَن يحسنون الظَّنَّ بهم من العارفين، فالفتوى ليست قضاءً، وإنَّما هي استهداءٌ، واسترشادٌ، وتعلُّمٌ.

وكانت الكويت مضيئةً بعلماء ومشايخ ذوو علم ومعرفةٍ وتقوًى وورعٍ ومكارمِ أخلاقٍ، منهم: الشَّيخ عبد الله بن خلف الدَّحيان، والشَّيخ يوسف بن حمُّود، والشَّيخ عبد اللَّطيف العدساني، والشَّيخ جمعة بن جودر، وغيرهم ممَّن عَلِمُوا وعَمِلُوا.

وكانت مجالسُهم مجالسَ وعظٍ وإرشادٍ، وسؤالٍ وجوابٍ، أذكُرُ منهم المرحومَ أستاذي الشَّيخ عبد الله بن خلف الَّذي كان يلتمس أسهل الحلول للسَّائل دونَ الخروجِ من نطاق الشَّريعة محتجًّا بأنَّ: العامِّيَّ لا مذهب له، مُمتثِلًا أمرَ الرَّسول ﷺ: «**يسِّرُوا ولا تُعسِّروا**»[2].

وللشيَّخ عبد الله الخلف مجلسان: الأوَّل بعد شروق الشَّمس لقراءة

---

(١) القِلْد: أعطيته قِلْدَ أمري: فوَّضته إليه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٩/ ٦٧).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٩)، ومسلم، رقم: (١٧٣٤).

التَّفسير، والثَّاني: بعد صلاة المغرب لقراءة الحديث، والمجلسان حافلان بالنَّاس المستمعين من كلِّ أنحاء مدينة الكويت.

وعلى كثرةِ من يُحِسن الإجابةَ إلَّا أنَّ النَّاس يسألون مَن يثقون به ويُفضِّلونه على غيره، أو يرتاحون لإجابته، وإجماع النَّاس على تفضيله شهادةُ امتيازٍ له، ووسامُ تقديرٍ وتكريمٍ.

وبدأت المنيَّة تخْطِفُ الرِّجال العارفين، ولم يجد المجتمع مَن يَلِيقُ بسدِّ فراغِهم.

وفي سنة (١٣٥٣هـ) أجمعَ النَّاسُ على الشَّيخ المرحوم يوسف بن عيسى القناعيِّ مسؤولًا عليهم ومجيبًا عن أسئلتهم الدِّينيَّة والاجتماعيَّة في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم، فكان رحمه الله نِعْمَ المجيب، يلتمس الأيسر والأسهل، مُتَّبِعًا مبدأ سلفِه: لا مذهب للعامِّيِّ.

ولعلَّ من الإنصاف أنْ نذكرَ أنَّ الشَّيخ يوسف بن عيسى هو أوَّلُ مَن أفتى في هذا البلد في مسألةِ طلاق الثَّلاث في مجلسٍ واحد بوصفه طلقةً واحدةً.

وكان رحمه الله يجلِسُ صباح كلِّ يومٍ لقراءة شيءٍ من تفسير القرآن، وكلَّما ختم تفسيرًا من التَّفاسير بدأ بغيره، وعُمِّرَ هذا المجلسُ بعد وفاة المرحوم الشَّيخ عبد الله بن خلف سنةَ (١٣٤٩هـ).

وانتقل المرحومُ الشَّيخ يوسف إلى جوار ربِّه سنة (١٩٦٨م)، ولم يَخلُفْهُ في مكانهِ مَن يرضاه النَّاس للفتوى.

وأدركتْ وزارةُ الأوقاف ذلك فكلَّفتْ وكِيلَها الأستاذَ عبد الرَّحمن المجحم بتشكيل لجنةٍ خاصَّةٍ للفتوى مكوَّنةٍ من ثلاثةِ أعضاء: اثنانِ من

موظِّفيها، والثَّالث كويتيٌّ، وبعد أن انتهى التَّعاقد مع الموظَّفين شكَّلتْ لجنةً ثانية تتكوَّن من أربعةِ أعضاء: كويتيٌّ، ومعه ثلاثة موظَّفين.

وفي سنة (١٩٧٦م) عُيِّنتْ لجنةُ الفتوى بقرارٍ وزاريٍّ مكوَّنة من خمسة أعضاء أحدهم ذلك الكويتيُّ.

وما زالت هذه اللَّجنة الخماسيَّة تعمل بإخلاص لعقد جلستها الرسميَّة كلَّ أسبوع، لتُجِيبَ عن أسئلة السَّائلين الرَّسميِّين والشَّعبيِّين، تُصدِر فتاواها وهي مُطمئنَّة إلى فَهْمِ السُّؤال وصِحَّة الإجابة.

الذِّكر نعمة والحمد لله

الحمد لله على نعمه، ونسأله المزيد من فضله وكرمه، وأن يوفِّقنَا إلى ما يُصلِح حالَنا، ويحفظ علينا مستقبلنا، وبعدُ:

إنَّنا أيُّها الإخوة نعيش في نعمِ الله الكثيرة، فيجب علينا أن نحفظَ هذه النِّعم بشكر المُنْعِم.

وهذه الأيَّام تُذكِّرنا بذكرى عزيزة علينا، وهي الذِّكرى الثَّامنة عشرة لعيدنا الوطنيِّ.

والكويتُ منذ كانت وإلى القرن الثَّالث من عمرها، ما ذُلَّت يومًا لأحد، وقاومت المعتدين، وجاهدت الظَّالمين، واستشهدَ في سبيلِ بقائِها الكثير من الآباء والأجداد الَّذين صبروا وصابروا، وتوكَّلوا على الله، وصمدوا أمام المِحَن والمصائب والنَّوائب، وتواصوا بالصَّبر في ساعات اليأس، وتمسَّكُوا بقول ربِّهم ﷻ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفَال: ٤٦]، وأخلصُوا لله في الدِّفاع عن أرضهم، والطَّاعةِ لوليِّ أمرهم،

فكان الله مع الصَّابرين الَّذين أيَّدهم بنصره، ومدَّهم بعونه، ورعاهم برعايته، ومَن كان مع الله فلن يغلبه غالب.

والأمَّة الصَّالحة هي الَّتي يعمل عقلاؤها على جمع شتاتها فينظرون إلى الماضي ليأخذوا منه درسًا وعبرةً، ويتَّخذوه قدوةً وأُسوةً للمستقبل، ويتعلَّمون من تجارب الشُّعوب الأخرى فيتَّبعون ما نفعهم، ويجتنبون ما ضرَّهم.

والبَطَرُ أيُّها الأخوة - وأُعيذكم بالله من البطر - خُلُقٌ ذميم، - حذَّرنا الله ﷻ منه بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨] - يؤدِّي إلى زوال النِّعم والوقوع في ساحات النَّدم، وهو الطُّغيان بالنِّعمة وعدمُ شكرِها، وصرفِها إلى غير وجهها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٦].

ونسمع كثيرًا من النَّاس يقولون على الله غير الحقِّ، ويكذبون ويفترون ويتفوَّهون بكلمات الشَّرِّ الَّتي يُلقِيها الشَّيطان على ألسنتهم، ويقولون: هلك النَّاس فلا صلاحَ يُرجَى، ونَعِمَ النَّاس فلا جهاد يُجدي، ويَئِسَ النَّاس فلا سعيَ يَنفع، ولكنَّ قولَ الله أبلغُ وأصدق؛ إذ يقول: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [يُوسُف: ٨٧]، ويقول: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣]، والأثر الصَّادق يقول: «**الأمم تمرضُ ولا تموت**»، و«**للباطلِ جولةٌ ولا بدَّ للحقِّ أن ينتصر**».

أيُّها الإخوة: الأمم تحتضرُ ولا تموتُ، والخيرُ أقوى من الشَّرِّ، والأملُ أقوى من اليأسِ، والفضيلةُ لا بدَّ أن تفوزَ على الرَّذيلة.

والكويت دولةٌ لها مكانتها المرموقة بين الدُّول، وصوتُها المسموع،

وسمعتها النَّيِّرة، وما زالت عزيزةً عند أبنائها، مُعِينَةً لجيرانها وإخوانها وأصدقائها، وما زالَ يَذكرُها القاصي والدَّاني، والغريب والقريب والجار والبعيد، والعربيُّ وغير العربيِّ.

فَلْنَحمَدِ اللهَ، على الذِّكر فهو نعمةٌ وحياةٌ وسعادةٌ وعزٌّ وشرفٌ.

وفي كلِّ يومٍ نَسمع الأخبارَ الرَّسميَّةَ وغير الرَّسميَّةِ، ونقرأُ في الصُّحفِ أنَّ الكويتَ أعانتْ أُمَّةً اجتاحها زلزالٌ أو فيضانٌ أو وباءٌ، أو أنَّ أحد الأفراد الكويتيِّين بنى مسجدًا للعبادة في بلد شقيق، أو شيَّد معهدًا للعلم، كما نسمع في الأخبار ما تتبرَّع به الحكومة من خير كثير للدُّول الشَّقيقة والصَّديقة، وهذا ذِكرٌ جميلٌ وحَسَنٌ ولكنَّه في طاعةِ الله قليلٌ.

أيُّها الإخوة: إنَّ الله أمرنا أن نشكرَه على نعمه، وأن لا نجعلها وسيلة إلى معصيته أو كفران فضله، وأن نكون أمَّةً واحدةً، وصفًّا واحدًا ضدَّ أعدائنا، ونهانا أن نتنازعَ حتَّى لا نفشل أمام خصومنا.

إنَّ اللهَ جلَّ شأنه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٧].

غزوةُ الفتح الأعظم أو فتح مكَّة

نحن اليوم في العشرين من شهر رمضان المبارك وهذا التَّاريخ يذكِّرنا

بيوم الفتح الَّذي منَّ الله به على المسلمين بإنزال سورةٍ كاملةٍ في كتابه العزيز أَلَا وهي: سورة الفتح.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفَتْح: ١-٣]

وفتحُ مكَّةَ معناه: انتهاء دولة الشِّرك في جزيرة العرب، وكان ذلك في السَّنة الثَّامنة من الهجرة النَّبويَّة في شهر رمضان، وكان رسول الله ﷺ يعلم بأنَّ العربَ لن تنقادَ لدعوته حتَّى تنقاد قريش، ولن تُفتَح البلادُ حتَّى تفتح مكَّة، وقد هيَّأ اللهُ أسبابَ ذلك وأزال موانعَه، واستنفر مَن كان حول المدينة من الأعراب، - ومعنى استنفر؛ أي: أمر بالنَّفير وهو الاستعداد للحرب - وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**مَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليحضرْ رمضان بالمدينة**»(١).

وكانت عدَّة الجيش عشرةُ آلافِ مجاهدٍ خرج بهم إلى مكَّة بعد أن طوى عليه الصَّلاة والسَّلام الأخبار حتَّى لا يشيعَ الأمرُ فتعلمَ قريشٌ وتستعدَّ للحرب، وهو لا يريد حربًا بمكَّة بل يريد انقيادَ أهلِهَا مع عدم المَسَاس بحرمتها، ودعا ربَّه جلَّ جلالُه قائلًا: «**اللَّهمَّ خذِ العيون والأخبار عن قريش حتَّى نبغتَها في بلادها**»(٢) - العيون: الجواسيس - وخرج من المدينة بالجيش إلى مكَّة في أثناء الأسبوع الأوَّل من شهر

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية.
(٢) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر حديثية.

رمضان ووَصلَها صباحَ يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رمضان.

وفي يوم (٢١) دخل مكَّة ومبنى الكعبة، وكبَّر في نواحيها الأربع، ثمَّ طاف بالبيت، وخرج إلى مقام إبراهيم وصلَّى فيه، وشرب من ماء زمزم، وجلس عند الكعبة والنَّاسُ حولَه والعيون شاخصةٌ تنظرُ إليه لِترى ما هو فاعلٌ بمشركي قريشٍ الَّذين آذوه، وعذَّبوا أصحابَه، وأخرجوهم من بلادهم، وقاتلوهم، واغتصبوا أموالهم، ولكن ماذا ينتظرون ممَّن أنزلَ الله فيه قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]؟ وماذا ينتظرون ممَّن جعله الله ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وممَّن كان رضاهُ وغضبُه للهِ لا لهوًى في النَّفس ولا لحبِّ الانتقام؟

قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**يا معشر قريش ما تظنُّون أنِّي فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**اذهبوا فأنتم الطُّلقاء**[(١)]»[(٢)].

وقد منَّ اللهُ على نبيِّه ﷺ وأصحابه بهذه النِّعمةِ؛ نعمةِ فتحِ مكَّة، وانتهاءِ دولة الشِّرك والكفر في جزيرة العرب، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: ٢٤].

وبعد أنْ تمَّ الفتحُ ومكَّن اللهُ نبيَّه؛ خطبَ في النَّاس خطبةً بيَّن فيها كثيرًا من الأحكام الإسلاميَّة ومنها قوله ﷺ: «**يا معشر قريش إنَّ الله قد أذْهَبَ عنكم نخوة الجاهليَّة وتعظَّمها بالآباء، النَّاس من آدم، وآدم من**

(١) طليق؛ أي: صار حُرًّا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ١٠٢).
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٨٢٧٦).

تراب، وتلا قولَ الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحُجرَات: ١٣]»[(١)].

وبعد انتهاء خطبته الَّتي بيَّن فيها كثيرًا من الأحكام الإسلاميَّة شرَعَ النَّاس يبايعونه على الإسلام، وجاء رجل يرتعد خوفًا، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**هوِّن عليك فإنِّي لستُ بِمَلِكٍ**»[(٢)].

إخوتي وأخواتي:

للإسلام ذكريات كالنَّسائم الرَّخيَّة[(٣)] تهبُّ في النَّهار القائظ[(٤)] لها روعةٌ كروعة الإشراق بعد الظَّلام، وهدًى يفيض على القلوب، وضياءٌ يهتدي به مَن ضلَّ، وجَرْسٌ[(٥)] على الأسماع يطيب له الإنصات، ويقع حديثُها في القلوبِ قبلَ أن يقعَ على الآذان، وسرُّ ذلك هو دين الإسلام؛ الدِّينُ الَّذي تطيبُ به الحياة، ويقول لأمِّته: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النّحل: ٩٧].

والإسلامُ دينٌ؛ يضمن للعامِل به صلاحَ الدُّنيا والآخرة، قال تعالى:

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٥٦)، بلفظ: «**قد أذهبَ اللَه عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّة وفَخرها بِالْآباء، مؤمنٌ تَقي، وفاجر شقي، والنَّاس بنو آدم وآدم من تراب**» وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٣١٢).

(٣) الرُّخاء بالضمِّ: الريح اللينة طيبة الهبوب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ١٣٩).

(٤) القائظ: شديد الحر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٠/ ٢٦٣).

(٥) الجَرْس: الصوت المجروس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٥/ ٤٩٣).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾ [العنكبوت: ٩].

ودينٌ نبيِّهُ هو الإنسانُ الكامل الَّذي جاء ليُخرِجَ النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، ومن الحيوانيَّة إلى البشريَّة.

وأختَتِمُ كلمتي بقول الله تعالى من سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾ [الجُمُعَة: ٢-٤].

نور وكتاب مبين

نعيش هذه الأيَّام ذكرى عزيزةً على كلِّ مسلمٍ، هي ذكرى العشر الأوائلِ من ربيع الأوَّل، ذكرى مَوْلِدِ البشير النَّذير، والرَّحمةِ المُهْدَاة، والنِّعمة المسداة.

سمعنا وما زلنا نسمع، وسنسمع في كلِّ يومٍ من أيَّام هذه الذِّكرى ماضيها وحاضرها ومستقبلها، حكايات المَوْلِد ومعجزاته وصفاتِ المولود عليه الصَّلاة والسَّلام، وكلُّ ذلك يقوله القائلون، والقول إذا لم يؤيِّدُه العمل فلا خيرَ فيه، فيجب على من يقول أن يفعلَ، وعلى من يَنْصَحَ أن ينتَصِحَ قبل أن ينصح؛ لِيَخرجَ كلامَهُ من قلبه إخلاصًا، والكلام إذا خرج من اللِّسَان لا يتجاوز الآذانَ، وحتَّى يكون النَّاصح قدوةً لغيره، ولا يكون ممَّن ذمَّهم الله في قوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصَّف: ٢-٣].

والشَّاعر العربيُّ أبو الأسود الدؤَلِي يقول:

يا أيُّها الرَّجل المعلِّم غيره هلَّا لنفسك كان ذا التَّعليم

تَصِفُ الدَّواءَ لذي السَّقام وذي الضَّنا كيما يصح به وأنت سقيم

لا تنهَ عن خلقٍ وتأتي مثله عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيم(١)

ومحمَّدٌ رسولُ الله ﷺ الَّذي نعيش ذكراه هذه الأيَّام هو محمَّدُ بن عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ بنِ هاشم، الأسوةُ الحسنةُ لمن كان يرجو الله واليومَ الآخرَ، عرفنا عظمته من سيرته وخبره الثَّابت، وأخلاقه المُطَهَّرة، وآثاره الخالدة، ونفسه الكبيرة.

والنَّاس في كلِّ مكانٍ وزمانٍ يجتهدون ليتَّخِذوا لهم من رجالهم مثلًا أعلى، وقدوةً صالحةً يتَّبعون طريقهم في حياتهم.

ومحمَّد ﷺ هو المثل الأعلى الَّذي ضَرَبَه الله للإنسانيَّة، فهو على خُلُقٍ عظيم، كما وَصَفَه ربُّه، والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليومَ الآخرَ، وهو النِّعمة المهداة، والرَّحمة المسداة، والهداية للضَّال في هدايته، والقدوة للمتعبِّدِ في عبادته، والمثل الأعلى للرَّجُلِ في بيته مع زوجته إن كان زوجًا، ومع أولاده إن كان أبًا، ومع أبويه إن كان ولدًا، والمثل الصَّابر للعامل في عمله، وللأمين المُؤْتَمَنِ في معاملته، والمُقْتَدَى به للحاكم في حكمه، وللزَّعيم في زعامته، وللقاضي في قضائه وعدله، وهو المثل الأعلى في الشُّكر، والصَّبر والإخلاص، والصِّدق، والعفو، والتَّواضع.

وأعظم نعم الله علينا - نحن المسلمون - نعمة الإسلام، الَّتي بَعَثَ

(١) شرح شذور الذهب، لابن هشام (١/ ٣١٠)

الله بها محمَّدًا ﷺ رسولًا، فهدانا بها من الضَّلال، وأخرجنا بها من الجهل، وأضاء بها بصائرنا من الغواية، وجمعنا بها بعد الفُرْقَة، فقد قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].

إنَّها النِّعمة الكبرى، إنَّها رسالة محمَّدٍ ﷺ، الَّذي جاءنا بالحقِّ بشيرًا ونذيرًا، كما قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فَاطِر: ٢٤]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسرَاء: ١٠٥]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سَبَإ: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرَّعد: ٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزَاب: ٤٥-٤٦].

وقرأت هذه الآية من سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المَائدة: ١٥-١٦].

محمَّدٌ ﷺ هو النُّور، ومعه الكتاب المبين الَّذي يهدي به الله من اتَّبَعَ رضوانه، ذلك الكتاب الَّذي لا ريبَ فيه هدىً للمتَّقين والَّذي أنزله الله على عبدِه ورسولِه محمَّد ﷺ تبيانًا لكلِّ شيءٍ، وهدىً ورحمةً وبشرىً للمسلمين، يهدي للَّتي هي أقومُ، ويبشِّر المؤمنين الَّذين يعملون الصَّالحات أنَّ لهم أجرًا كبيرًا، أنزله الله كما قال: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا

شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ٢-٣].

إنَّ الله ﷻ وَصَفَ هذا القرآن بأنَّه كتابٌ مبينٌ، يهدي به الله مَنِ اتَّبع رضوانَهُ سُبُلَ السَّلام.

وما أحسن ما كتبه المرحوم العلَّامَة الشَّهيد السَّيِّد قطب في كتابه «**في ظلال القرآن**» في تفسير هذه الآية، قال رحمه الله: «**إنَّه السَّلام الَّذي يسكبه هذا الدِّين في الحياة كلِّها**»[1]، سلامُ الفرد والجماعة والعالم والضَّمير والعقل والجوارح والبيت والأسرة والمجتمع والأمَّة والبشر والإنسانيَّة، السَّلامُ مع الحياة والكون ومع اللهِ ربِّ الكون والحياة، إنَّه السَّلامُ الَّذي لا تجده البشريَّة ولن تجده يومًا إلَّا في هذا الدِّين ومنهجه ونظامه وشريعته ومجتمعه الَّذي يقوم على عقيدته وشريعته.

وحقًّا إنَّ الله يهدي بهذا الدِّين الَّذي رضيه مَنْ يَتَّبع رضوانه سُبُلَ السَّلام كلِّها في هذه الجوانب جميعها، ولا يدرك عُمْقَ هذه الحقيقة أحدٌ كما يدركها من ذاقَ سُبُلَ الحروب في الجاهليَّة القديمة أو الحديثة، ومن ذاق حروب القَلَقِ النَّاشئ من عقائد الجاهليَّة في أعماق الضَّمير، وحروب القلق النَّاشئة من شرائع الجاهليَّة وأنظمتها الَّتي تتخبَّط في أوضاع الحياة.

وما أحوجنا الآن إلى إدراك هذه الحقيقة، والجاهليَّة من حولنا تذيقنا ويلات الحروب، وحروبًا في الضَّمائر، والعقائد، والتَّشريعات والتَّعليم، والأخلاق، حروب تتبعها حروب، وما أكثرها من حروب.

وما أحوجنا نحن الَّذين عاش آباؤنا وأجدادنا مدَّةً طويلةً من التَّاريخ

(١) انظر: في ظلال القرآن (٢/ ٨٦٢).

في هذا السَّلام، ثمَّ خرجنا من السَّلام إلى حربٍ طويلةٍ مشبوبة[١]، حطَّمَت أرواحنا وقلوبنا، ومجتمعاتنا وأخلاقنا، وجعلتنا نعاني ويلاتِ الجاهليَّة فُرْقةً وذِلَّة وضلالًا وجهلًا.

أيُّها الإخوة: إنَّها والله خسارة أن نستبدلَ الَّذي هو أدنى بالَّذي هو خيرٌ، ونتَّبع الضَّلالة دونَ الهدى، علمًا بأنَّ كتابَ الله بين أيدينا يخاطبنا بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، يدعونا للَّتي هي أحسن، يقول لنا: هلمُّوا إليَّ، واتَّبعوا هدايَ أهدكم سُبُلَ السَّلام وأخرجكم من الظُّلمات إلى النُّور، ومن ظلمات الجاهليَّة، والخرافات والشَّهوات والحيرة والغواية والاضطراب والظُّلم إلى النُّور المشرق الَّذي يمحو كلَّ ظلامٍ، فيُشْرِقُ أمامه كلُّ شيءٍ، وينكشف للمبصر كلُّ شيءٍ، ويستقيم العقل ويستنير، فلا حيرةَ ولا شرود، وإنَّه لا سلام إلَّا أن نعود إلى الله، ونعملَ بكتابه، حينئذٍ لا خوفَ علينا، وحينئذ نكون مؤمنين، ومتى كنَّا مؤمنين كان الله معنا، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، وإنَّ الله مع المؤمنين، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

ذكرى الهجرة

مطلع القرن الخامس عشر

أذكر أنِّي كلَّمتكم من خلف هذه الشَّاشة في العام الماضي في يوم الخميس (٣) محرم (١٤٠٠هـ) الموافق (٢٢/ ١١/ ١٩٧٩م) في الهجرة

(١) مشبوبة: مشتعلة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٤٨١).

النَّبويَّة وأهمِّيَّتِها في التَّاريخ الإسلاميِّ، وأنَّ الله تعالى عَلِمَ أنَّ هجرةَ النَّبيِّ محمَّد ﷺ من مكَّةَ إلى المدينة ستكون فتحًا مبينًا ونصرًا مؤزرًا، فأنزل الله في ذلك آيةً نتلوها في سورة التَّوبة، ونسمعها من كلِّ من يتلوها، وفي مَطْلَعِ كلِّ عامٍ هجريٍّ نبدأ حفلات الذِّكرى بتلاوتها، وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التّوبَة: ٤٠].

أيُّها الأخوة: بتلك الهجرة الَّتي أُخْرِجَ فيها رسولُ الله ﷺ من مكَّةَ مُبْعَدًا من وطنه جعل الله كلمة الَّذين كفروا السُّفلى وكلمة الله هي العليا.

وأذكر أنِّي ذكَّرتكم في كلمتي تلك ببطولة الصَّابرين، وأنَّ الله ﷻ مع الحقِّ؛ لأنَّه قال جلَّ جلاله - وقوله الحقُّ المبين -: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبيَاء: ١٨]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسرَاء: ٨١].

وماذا فعل أولئك الَّذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حقٍّ؟ لم يفعلوا شيئًا إلَّا أنَّهم قالوا: ربُّنا الله، فعُذِّبُوا وأُوذُوا وخرج كثيرٌ منهم من ديارهم فِرَارًا بدينهم، وكَادَ المشركون لرسولِ الله ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفَال: ٣٠].

وها نحن نستقبل بعد يومين عامًا جديدًا وبدايةَ قرنٍ جديدٍ، إنَّه عام (١٤٠١) للهجرة مبدأُ القرن الخامسَ عشرَ الهجريِّ ومَطْلَعه، ومعنى ذلك

أنَّنا عِشْنَا بعد هجرة المصطفى (١٤٠٠) سنةٍ وسنةٍ، والهجرة جاءت بعد بَعْثَةِ المصطفى بثلاثَ عشرةَ سنةٍ.

أيُّها الإخوة والأخوات: في هذه القرون والسِّنين مرَّت أحداثٌ وأحداثٌ سجَّلَ أكثرَها التَّاريخُ، فيها ذكرى لمن تذكَّرَ، وعِبْرَةٌ لمن اعتبرَ، ونصرٌ مبينٌ مشرِّفٌ، وهزائمُ مخزيةٌ، والنَّصر لا يأتي إلَّا بعد تعاونٍ وتآلفٍ، والهزيمة لا تأتي إلَّا بعد تنازعٍ وتخالفٍ، وللنَّصر لَذَّة حتَّى لمن سمع أخباره، فكيف بمن رآه وحَضَرهُ وسُرَّ به ونَعِمَ بسعادته، والخذلان بؤسٌ ونكدٌ وكدرٌ، والله جلَّ شأنه حذَّرَنا من أسباب الخذلان فقال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وأمرنا بالعُدَّة للنَّصر، وأهمُّها قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢]، وذكَّرَنا بأنَّ الأُلْفَة خيرٌ لمن تمسَّكَ بها، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وأخبرنا جلَّ شأنه بأنَّ الإنسان خاسرٌ ما لم يتواصَ ويتعاون فقال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، والصَّحابة رضوان الله عليهم عَدُّوا الهجرةَ مبدأً لنصر الإسلام فاتَّخذوا منها مبدأَ التَّاريخ، فهجرة المصطفى ﷺ لم تكن مجرَّدَ انتقالٍ من مكانٍ إلى مكانٍ، بل كانت صورةً كريمةً مجسَّمَةً رسمها تاريخ الإسلام لذلك الرَّجل العظيم الَّذي أُخْرِجَ من بلده لا لشيءٍ فَعَلَه إلَّا أنَّه أراد أن يجعلَ من الإنسان عبدًا لربِّه لا عبدًا لهواه، يَسْمَعُ ويُبْصِرُ ويعقل، كريمًا في نفسه، وحياته، عزيزًا لا يَذِلُّ إلَّا لله، حُرًّا لا يعبد إلَّا الله.

وبالهجرة اهتدت الإنسانيَّة إلى ربِّها، فلم تخضع لغيره ولم تَذِلَّ لسواه، وعَلَت على النَّقائض والمحقِّرات واتَّجهت إلى فضائلِ الأعمال ومعالي الأمور فسارت في حياتها على منهاجٍ رشيدٍ وأسلوبٍ حكيمٍ، وفُتِحَت الآذان بالهجرة فسمعت الحقَّ، وفتحت البصائر فأبصرت السَّبيل المستقيم، وانجلت القلوب، وصقلت العقول.

وبالهجرة تحرَّر الإنسان من قيود التَّقاليد وضلالات الجاهليَّة والأوهام والخرافات، وعاش النَّاس في حضارةٍ يسودها الحبُّ والإخاء، ويظلِّلُها الأمنُ والسَّلام.

هذه هي رسالة محمَّدٍ ﷺ الَّتي أَوْقَفَ لها حياته، وتعرَّض من أجلها لأشدِّ أذىً يتعرَّض له كلُّ داعٍ إلى الله، لكنَّه مضى يبشِّر بدعوته وهو أقوى الدُّعاة، ويهدي لها وهو أرشد الهادين وأهدى المرشدين، وما يزال محمَّد ﷺ فينا نذكر اسمه صباحَ مساءَ خمسَ مرَّاتٍ في اليوم، يذكره المؤذِّن ونسمع صوته يقول: «**أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله**»، ونذكره في صلاتنا ومجتمعاتنا، ونصلِّي ونسلِّم عليه، ونفتخر أنَّنا من أمَّته ونسير في سبيل هدايته، فهل نحن صادقون؟!

أيُّها الإخوة: مضت قرون على الهجرة عددها (١٤) قرنًا، وبعد غدٍ يبدأ القرن الخامس عشر، ومضى في جملة هذه القرون قرن الرِّسالة وما بعده، وقد لقي الإسلام في هذه القرون من أعدائه ما لقيه منهم في عهد إشراقه، وعرف المسلمون أنَّ أعداء الإسلام هم اليهود والملحدون، والكائدون الحاقدون، وعرفوا كيف يحيكون المكيدة بخبث، فقاومهم الإسلام وظفر، وتلقى ضربات وجّهت إليه فكافح بيسره وسهولته والقوَّة الكامنة فيه، وصبر حتَّى انتصر.

ولكن ماذا حلَّ بنا اليوم حتَّى قَسَت القلوب، وذُلَّت الرِّقاب، وانتشر الجهل بأحكام الدِّين ومعانيه وكتابه وسنَّة نبيِّه، فجهل المسلمون أحكام دينهم وكتابه، وأعرضوا عن قول نبيِّهم وعن اتِّخاذه أسوةً لهم، واستغلَّ أعداء المسلمين هذا الجهل في المسلمين فهبُّوا في وجهه في كلِّ مكان وزمانٍ، وظنُّوا أنَّ الإسلامَ قد ماتَ، ولكنَّ الإسلام لا يموت ولن يموت، فقد جالدهم وهو أعزل، وانتصرَ عليهم بلا سلاحٍ؛ لأنَّ عنصرَ القوَّةِ كامن في طبيعته، وانتصر عليهم؛ لأنَّهم عبيد والإسلام حرٌّ أبيٌّ، ولأنَّهم أذلَّةً والإسلام لا يرضى الذِّلَّة والعبوديَّة إلَّا لله ربِّ العالمين.

وأعداء الإسلام يحاربون الإسلام، فقد حاربوا نبيَّه من قبل والخلفاء الرَّاشدين؛ لأنَّ الإسلام وقف لهم في الطَّريق يعوقهم عن الطُّغيان والتَّسلُّط والاستغلال، فقالوا: إنَّ الإسلامَ دين قسوةٍ، ونسوا أنَّ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، ونسوا ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: ١٢٥]، وتغافلوا عن قول الله ﷻ لنبيِّه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ [قٓ: ٤٥]، وأخذوا على الإسلام أنَّه دين قصاص، وأنَّه يضرب على يدِ كلِّ مستكبرٍ، ويقطع يدَ كلِّ طامعٍ، ويقمعُ رأسَ كلِّ معاندٍ، ويقضي على كلِّ طاغيةٍ، ويقطع دابرَ كلِّ من يسعى في الأرض فسادًا، ونسوا أنَّ هذا هو العدل، وتعاموا عن الحقِّ وكأنَّهم لم يعلموا أنَّ هذا هو السَّبيل الوحيد لنشر الأمن والسَّلام؛ لأنَّ الفِتْنَة أشدُّ من القتل، والفساد في الأرض شرٌّ من الفِتْنَة.

أيُّها الإخوة: إنَّ في ذكرنا الهجرةَ عِبَرًا وذكرى، والذِّكرى تنفع المؤمنين، والعِبْرَة يتقبَّلها من كان له قلب، ولكنِّي أختم كلمتي هذه معكم بتلاوةِ هذه الآياتِ الثَّلاثةِ الكريمة من سورة الصَّفِّ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ

ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصَّف: ٧-٩]، وصدق الله العظيم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

يوم عرفة

نستقبل بعد يومين يومَ عرفة، يومَ يقف الجميع متجرِّدِين من زينة الحياة الدُّنيا في صعيد واحد خاشعين لله متضرِّعين إليه، وقد تركوا ديارهم وأموالهم وأحبَّتهم وأهليهم، وافدينَ على ربِّهم، لا يريدون من هذا كلِّه إلَّا أن يتقبلَّهم ربُّهم، ويفي لهم وعدَهُ على لسان نبيِّه المصطفى ﷺ: «**من حجَّ فلم يرفُث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه**»(١).

أيُّها المشاهدون: وأنتم في أوطانكم، وفي بيوتكم تَنْعَمُون بالاستقرار والهناء شاركوا إخوانَكم هناك بالدُّعاء والاستغفارِ، واستمعوا معي قولَ نبيِّكم ﷺ حين سُئِلَ عن صوم يوم عرفة، فقال ﷺ: «**يكفِّرُ السَّنَة الماضية والسَّنة الباقية**»(٢)، فانتهزوا أيُّها الإخوة هذه الفرصة فإنَّ فَضْلَ الله كبيرٌ على عباده، ولا يتقاصر عن نيلِ هذا الفضل إلَّا المحروم، ولكن من جدَّ وَجَدَ، ومن سعى نَالَ ومن عمل فاز، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التّوبَة: ١٠٥]، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْ

(١) رواه البخاري، رقم: (١٥٢١)، ومسلم، رقم: (١٣٥٠).
(٢) رواه مسلم، رقم: (١١٦٢).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ [الأنبياء: ٩٤]

أيُّها الإخوة المشاهدون: إنَّ لله نفحاتٌ[١]، وله في يوم عرفة نفحاتٌ كبرى، وقد ثبت ذلك في السُّنة، وإنَّ الله ﷻ يباهي ملائكته بأهل عرفةَ، فيقول: «**انظروا إلى عبادي جاؤوني شُعْثًا**[٢] **غُبْرًا ضاحينَ**[٣]، **جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ يرجون رحمتي ولم يروا عذابي**»[٤]، وقال ﷺ: «**فلم يُرَ يومٌ أكثر عتيقًا من النَّار من يوم عرفة**»[٥].

مولد سيِّدنا عيسى عليه السَّلام

نحن الآن في اليوم السَّابع والعشرين من شهر ديسمبر الشَّهر (١٢) من السَّنة الشَّمسيَّة سنة (٧٩) من القرن العشرين، وقبل يومين كان اليوم الخامس والعشرون الَّذي اتُّخِذَ يوم ذكرى ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه وعلى نبيِّنَا أفضلُ الصَّلاة والسَّلام، فأَحبَبت أن أذكرَ طرفًا من هذا

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٠٨٣)، بلفظ: «...**فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده...**».

(٢) الأشعث: هو المغبرُّ الرأس، المنتتف الشعر الحافِّ الذي لم يدَّهن. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٢٧٩).

(٣) الضاحي من كل شيء: البارز الظاهر الذي لا يستره منك حائط ولا غيره. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٤/ ٤٧٨).

(٤) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣٥١٩٦).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٣٧٧٤).

المولد الكريم وقصَّته الَّتي خلَّدَها الذِّكر الحكيم في سورتين من سوره الكريمة: سورة آل عمران، وسورة مريم.

وقد جاء ميلاد المسيح عيسى بن مريم على غير ما أُلِفَ في المواليد من الأحياء في عالم البشر خاصَّةً، وإنَّها صورةٌ عجيبةٌ فريدةٌ لا مثيلَ لها فيما تلد الأمَّهات.

جعل الله الخالقُ المبدعُ جلَّ شأنه مريمَ المصطفاةَ المطهَّرَةَ المباركةَ معرضًا من معارض قدرته، ومجْلَى من مجالي صنعته وإبداعه فيما يصنع ويبدع، وجعلها شاهدًا من شهود تلك القدرة الَّتي أقامها فوق السُّنَنِ والأسباب، لا إله إلَّا هو، القادر جَّل شأنه، يُخْرِجُ الحيَّ من الميِّت، ويُخْرِج الميِّتَ من الحيِّ، خَلَقَ أصل الإنسان من غيرِ ذكرٍ وأنثى، فقد خَلَقَ آدمَ من ترابٍ، ثمَّ قال له: كن بشرًا سويًّا فكان، وخلق عيسى ونفخ فيه من روحه، وجعله آيةً للنَّاس ورحمةً منه، فكان أمرًا مقضيًّا، وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ٥٩]، وأمُّه المطهَّرة مريم المصطفاة على نساء العالمين، حين أحسَّت أمُّها امرأةُ عمرانَ أنَّها حُبْلَى بها، توجَّهَت إلى الله جلَّ شأنه بكيانها، ودعائها الخاشع، وإيمانها تدعو: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عِمرَان: ٣٥]، فنذرتها لله تعالى، ظنًّا منها أنَّها ستلد ذكرًا، يَصْلُحُ للخدمة في بيت الله ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عِمرَان: ٣٦]، والنَّذر للمعابد لم يكن معروفًا إلَّا للصِّبيان؛ ليخدموا في المعبد ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عِمرَان: ٣٦]، لكنَّ الله جلَّ شأنه رضيَ من امرأة عمران إخلاصها، وتقبَّلَ نذرَهَا.

ونشأت مريم مباركةً بكفالةِ زكريَّا رئيسِ المعبد، وشيخ سدنته، وزوج

خالةِ مريمَ، وظلَّت مريم في بيت الله خادمةً تتعبَّدُ في محرابها، وتتلقَّى من المعبود جلَّ جلاله فيوضَ الرَّحماتِ وهواطلَ الخيرات، فإذا بالملائكة المكرَّمين تنادي السَّيِّدةَ البتول: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ٤٢-٤٣]، وهذه هي البِشَارة الأولى، وهذا هو الاصطفاء والاختبار.

إنَّ الله اصطفى مريمَ لتكونَ منها الآية، واختارها لتتلقَّى النَّفخةَ المباشرةَ فتلد الكلمة، واصطفاها للأمر المفرد في تاريخ البشر، وفضَّلَها على نساء العالمين تفضيلًا مطلقًا يرفعها إلى الآفاق العالية، والمكانة الخالدة الأبديَّة.

ثمَّ بعد هذا النِّداء المبشِّرِ بالاصطفاء والاختيار والطُّهر، يأتي النِّداء الآخر المبشِّر بالكلمة: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ٤٥-٤٦]، وهذه بشارةٌ أُخرى كاملةٌ صريحةٌ، وإفصاحٌ عن الأمر كلِّه، بشارةٌ بكلمةٍ من الله اسمه المسيح، واسمه عيسى ابن مريم.

واتَّجهت مريم إلى ربِّها تناجيه وتتطَّلع إلى كشف هذه الغُمَّة، كيف يكون ذلك وهي فتاةٌ طاهرةٌ عذراءُ عرفت البشرَ وهي منهم، وعاشت بينهم، وعلمت مألوفهم؟ إنَّه أمرٌ يتيه فيه العقل ويحتار فيه القلب؛ لذلك قالت مريم تناجي ربَّها: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ [آل عِمرَان: ٤٧]، فجاءها الجواب: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمرَان: ٤٧]، و﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ

مِّنَّآ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مَريَم: ٢١]، وهكذا تَزُوْلُ الحَيْرَة، ويطمئنُّ القلب، وتقول مريم لنفسها: كيف عجبت من هذا الأمر، وأنا أعلم أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير؟! ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مَريَم: ٢٢-٢٨]، فتساءل قومها كيف تَلِدُ امرأةٌ من غير زوجٍ؟ ذلك أمرٌ لم تأتِ به امرأةٌ، وشيءٌ لم يُعْرَف في سابق الأمر ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مَريَم: ٢٩].

وجاء المعجزةُ؛ معجزة البراءة الشَّاهدة لمريم البتول بالاصطفاء والطُّهر والعفاف، وكلَّمهم وهو في المهد في أوَّلِ ساعةٍ من ساعاتِ حياته فـ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مَريَم: ٣٠]، وكان كلامه واضحًا فصيحًا ككلام الكهول والشَّباب بلسانٍ فصيحٍ واضحٍ مفهومٍ باللُّغة الَّتي ينطِقُ بها السَّامعون، وقال لهم: إنِّي عبد الله؛ ليكونَ شاهدًا على طُهْرِ أمِّه وعفافها، وليبرِّئَ ساحةَ عِرْضِها من أن يَعْلَقَ بها شيءٌ ممَّا تلوكه[1] الألسن، وتوسوس به الظُّنون في حالٍ كحالها.

والنُّطق في المهد أمرٌ غير مألوف، خارجٌ عن طبيعة البشر، ولكنَّ هذا الوليد المختار الَّذي جعله الله آيةً للنَّاس، بدأَ حياته ناطقًا منذ مولده، فهو

(١) يلوكه: يعلكه، ويلوك عرضه؛ أي: يقع فيه بالتنقيص. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/ ٣٢٥).

سيسلك في الحياة مَسْلَكًا غير مَسْلَكِهم، ويسير في سبيلٍ غير سبيلهم.

صحَّت البِشارة، بشارة الملائكة لمريم، حين بشَّرتها بكلمةٍ من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم، وجيهًا في الدُّنيا والآخرة، ومن المقربين، ويكلِّم النَّاس في المهد وكهلًا ومن الصَّالحين، وعلمت مريم بإلهامٍ من الله أنَّ هذا الوليد الَّذي تكلَّم في المهد لا يخرجه كلامه هذا عن كونه بشرًا، ولا تخرجه آيةُ مولدِهِ عن طبيعة البشر ما دام عبد الله، وسيكون مختارًا من لدنِّ خالقه ربِّ العالمين، وما كان هذا الكلام الَّذي نَطَقَ به في المهد إلَّا دفاعًا عن التُّهمة الَّتي رُمِيَت بها أمُّه من لدنِّ قومها، حين قالوا لها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مَريَم: ٢٧-٢٨]، بعد ذلك أخذ المسيح عليه الصَّلاة والسَّلام حياته على مألوفِ المواليد من سائر البشر.

والقرآن الكريم لم يذكر لنا فيما قصَّه عن مولد عيسى ابن مريم عليه الصَّلاة والسَّلام شيئًا عن صمته أو كلامه بعد تلك الوقفة الَّتي وقفها في المهد دفاعًا عن شرف مولده، وطُهْرِ أمِّه وعفافها.

ونحن مع ذلك نحترم موقف القرآن، ونقف من هذه القصَّةِ حيث وقف ونقول: إنَّ المسيحَ عيسى بن مريمَ عليه السَّلام تكلَّم في المهد تلك الكلماتِ الواضحةِ المحدودةِ، فأَرَى قومَهُ معجزةً من الله كالمعجزة الَّتي وُلِدَ بها.

وقد أخبر المسيح عليه الصَّلاة والسَّلام قومَه بما تكلَّمه في المهد، بأنَّ اللهَ قدَّر في الأزل فجعله نبيًّا، وجعله مباركًا أينما كان، وأوصاه بالصَّلاة والزَّكاة ما دام حيًّا، وأوصاه بالبرِّ بوالدته، ولم يجعله جبَّارًا شقيًّا، وجعله مباركًا أينما كان، ينفع النَّاس، ويشفي مرضاهم ويباركهم،

ويُبْرِئ الأكمهَ والأبرصَ بإذن الله، وأخبر أنَّه سيعيش في سلام من يوم مولده إلى يوم موته ويوم يبعث حيًّا، وقال الله في ذلك: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مَريَم: ٣٠-٣٣]، وهنا نطرح سؤالًا: هل كان مولد المسيح في الشِّتاء وفي يوم (٢٥) ديسمبر من السَّنة الشَّمسيَّة؟

الجواب مختلفٌ فيه، فيقول الأرثوذكس: إنَّ مولدَهُ كان في (٦) جنوري، ويقول غيرهم: إنَّه كان في الصَّيف، وهذا الاختلاف لا يهمُّ، إنَّما المهمُّ المولود الَّذي جعله الله آيةً للنَّاس ورحمةً منه، واختاره ليكون مُصَدِّقًا لِمَا بين يديه من رسالة موسى، ومُبَشِّرًا برسالة رسولٍ يأتي من بعده اسمه أحمد.

وعاش المسيح عيسى بن مريم حياتَهُ مع شعب اليهود، أشقى شعبٍ عَرَفَه التَّاريخ، عاش فيهم نحوًا من (٣٣) سنة، حتَّى رَفَعَه اللهُ إليه طاهرًا مُطَهَّرًا سليمًا، وقال فيه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مَريَم: ٣٤-٣٦].

شهر رمضان

يُصَادِفُ هذا اليوم ثالث أيَّام رمضان الشَّهر المبارك للأمَّة الإسلاميَّة، هذا الشَّهر الَّذي تؤدى فيه فريضة الصِّيام، والَّذي اختصَّه الله لنفسه، فقال

سيِّدنا محمَّد ﷺ: «**كلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ: الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمثَالِهَا إلى سَبعِمِئَةِ ضِعفٍ، قَالَ اللهُ تَعَالى: إلَّا الصَّومُ فَإنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِن أَجْلِي**».[١]

ونبدأ حديثنا هذه اللَّيلة بالكلام عن الصَّوم وفضائله، ولا شكَّ أنَّ الجميع يعرف أنَّ الصَّوم هو الرُّكن الرَّابع من أركان الإسلام الخمسة، أو السَّهم الرَّابع من أسهم الإسلام الثَّمانية، فقد جاء في الحديث الشَّريف قول رسول الله ﷺ:

«**بُنِيَ الإسلَامُ عَلَى خَمسٍ: شَهَادَة أن لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ الله، وَإقَامِ الصَّلَاةِ، وَإيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَومِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيتِ اللهِ الحَرَامِ**».[٢]

وجاء أيضًا في الحديث الشَّريف أنَّ: «**الإسلامُ ثمانيةُ أسهمٍ: الإسلامُ - ومعناه: شهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله - سهمٌ، وَالصَّلَاةُ سَهْمٌ، والزَّكَاةُ سَهْمٌ، وَصَومُ رَمَضَانَ سَهْمٌ، وَالحَجُّ سَهْمٌ، والجِهَادُ سَهْمٌ، والأمْرُ بالمَعرُوفِ سَهْمٌ، وَالنَّهيُ عَن المُنْكَرِ سَهْمٌ**».[٣]

والصيام جهادٌ ولكنَّه جهادٌ مع النَّفس، وصراعٌ معها يشترك فيه كلُّ مسلمٍ، فلا فرق بين ذكرٍ وأنثى، ولا بين كبيرٍ وصغيرٍ، ولا يخفى أنَّ جهاد النَّفس أقوى أنواع الجهاد، فهو صراعٌ داخليٌّ أشدُّ وقعًا من الصِّراع مع الأعداء في المعارك، وأبسط أنواع هذا الجهاد أنَّ الحياة لا تسير مع كلِّ

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١٦٣٨).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٨) ومسلم، رقم: (١٦).
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٧١٧٩).

إنسانٍ كما يشتهي فهي يوم يسرٍ ويوم عسرٍ، والحياة أيضًا سعادةٌ وشقاءٌ، والنَّفس البشريَّة طمَّاعة لا تقنع بما تجد هكذا خلقها الله وفطرها على هذه الطَّبيعة، ولكنَّ الصَّوم يُعلِّمنا أن نقنع بالموجود، وألا نطمع في غيره.

إذن لا بُدَّ من التَّدريب، وخيرُ تدريبٍ لنا - نحن المسلمون - هو أن نمنع أنفسنا حتَّى عن الموجود امتناعًا اختياريًّا في فترة من الوقت؛ لنُعطي أنفسنا القدرة على التَّحمُّل إذا تحكَّمت فينا ظروف الحياة ومنعتنا مما نشتهي، فإنَّ الحياة كلُّها صراعٌ والعمر يومٌ لك ويومٌ عليك، فالحمد لله الَّذي أكرمنا بأن مَنَحَنَا من الفرائض التَّعبُّديَّة ما يَصلُح به حالُنا في هذه الحياة، ثمَّ يُجزينا به الثَّواب والمغفرة.

وللإسلام في شهر رمضان ذكرياتٌ محبَّبةٌ إلى نفس كلِّ مسلم لا يزال المسلم يذكرها كلَّما أهلَّ عليه رمضان، ففي رمضان بُعِثَ المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام، وفيه أُنزل عليه القرآن، وفيه جاءَ نصرُ الله لرسوله يوم بدرٍ، وفيه جاءَ فتح مكَّة، وفيهِ دَالَت دولة الشِّرك وحُطِّمَت الأصنام، ومن هذه الذِّكريات أيضًا بعثة المصطفى الهادي محمَّد ﷺ بالدَّعوة العالميَّة والنُّور الوهاج والكتاب المبين، بعثته بأول آيات أنزلت عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]

نعم، لقد كانت رسالة محمَّد ﷺ بالقلم والعلم، وهذه الرسالة للعالم أجمع لا تختصُّ بأمَّةٍ واحدةٍ، وتبدأ بهذه الكلمات: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وفاتحةُ الكتاب حمدٌ لله، وثناءٌ على الله، وطلبُ معونةٍ من الله، ثمَّ طلبُ الهداية إلى الصِّراط المستقيم.

والصَّلاةُ تنظيمٌ اجتماعيٌّ ومساواةٌ وتسويةُ صفوف، والنِّداءُ للصَّلاة

كلمةٌ حلوةٌ على الأسماع نسمعها خمس مرات في اليوم: حيَّ على الفلاح؛ والفلاحُ: ربحٌ ونجاحٌ، وتوفيقٌ وصحةٌ، وأمنٌ وعدلٌ تُسعَد بها الأمم جميعًا.

والزَّكاة تذوِّب الفوارق بين النَّاس؛ لأنَّها حقٌ واجبٌ ومعلومٌ عند مَن أيسر، وبوجوبها تُبذَلُ للسَّائل والمحروم، فتكونُ المعونةُ من الموسر إلى المعسر، والبَذلُ محبَّةٌ، والإحسانُ وسيلةُ أُلفَةٍ ووفاقٍ، فشريعة الإسلام لا تتعصب لجنسٍ معيَّن ولا لأمَّةٍ معيَّنة بل تجمعها كلمة الإسلام، وتجعل منها أمَّةً شعارها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠] وغايتها أن هذه أمتكم أُمَّةً واحدةً، وتعارفها بكلمة: السَّلام عليكم.

وللإسلام عيدان؛ عيدٌ بعد أداء الرُّكن الرَّابع ركن الصِّيام وهو عيد الفطر، وعيدٌ بعد أداء الرُّكن الخامس؛ ركن الحجِّ وبعد وقوف الحُجاج في عرفة وهو عيد الأضحى، والأعياد تهانٍ وزيارات أراد بها الإسلام نشر المحبَّة والتآلف والسَّلام بين المسلمين، والإسلام لم يكن يومًا من الأيَّام جافًّا جامدًا، ولا كان نبيُّه متشدِّدًا، وإنما يريد بأمَّته اليُسرَ، ولا يريد بهم العسر وكان ﷺ يأمر أصحابه بقوله: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**»[1] لكنه كان يقف عند الحدود فلا يتعداها، وعند المكارم فلا يَحِيد عنها، وعند الخُلُق الحسن فلا يرضى به بديلًا.

أخوتي وأخواتي حفظ الله تعالى عليَّ وعليكم ديننا، وهدانا إلى كتابه الكريم وصراطه المستقيم، ووفَّقنا جميعًا إلى ما يكسبنا رضاه إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٩)، ومسلم، رقم: (١٧٣٤).

والفجر وليالٍ عشر

نعيش هذه الأيَّام اللَّيال العشر الَّتي أقسم الله ﷻ في كتابه الكريم بها بقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفَجر: ١-٢] وفي تاسعها يوم عرفة: «**والحجُّ عرفة**»[١].

والحجُّ ركنٌ من أركان الإسلام، وشعيرة من شعائره يتطلَّب القيام بها بذل المال والنَّفس، والحجُّ المبرور لا جزاء له إلَّا الجنَّة، والحجُّ إقبالٌ على الله، وسموٌّ بالرُّوح وتجردٌ من الدُّنيا وبعدٌ عن زينتها وطيِّباتها ومشاغلها، وفي عرفات مساواةٌ تراها ظاهرةً بين عبيد الله المؤمنين باللِّباس الموحَّد بالوقوف في صعيدٍ واحدٍ لغايةٍ واحدةٍ بإخلاص نيَّةٍ لا يُخَالِطهَا رياءٌ ولا سمعةٌ.

والحجُّ عرفة وماذا في عرفة؟ ترى في يوم عرفة طوائف من البشر ليست بينهم أرحامٌ ولا أنسابٌ تعدَّدت لُغاتهم واختلفت ألوانهم وتباعدت ديارهم جمعتهم كلمة الإسلام في موقف واحد، وقد تركوا دنياهم وأعمالهم، وتركوا أهلهم وأولادهم ومالهم، ونسوا الأحقاد والنَّزوات والأضغان والشَّهوات، وجاؤوا كما قال جلَّ شأنه: من كلِّ فجٍّ[٢] عميق ممتثلين أمر الله يهتفون باسمه ويذكرونه بالتَّقديس والتَّسبيح والتَّهليل

(١) رواه الترمذي، رقم (٨٨٧).

(٢) الفج: الطريق الواسع بين جبلين، وقيل: كل طريق بَعُدَ فهو فجٌّ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ١٣٧).

والتَّكبير ويلهجون[١] بقولهم: لبيك اللَّهمَّ لبيك. . .إلخ.

والحجُّ يعطينا ذكريات دينيَّة ماثلةً أبدًا في أذهاننا تحنُّ نفوسنا لها، ونتخذ منها حافزًا يدفعنا - إن شاء الله - إلى مستقبلٍ أزكى وأهدى.

هل تنفع الذِّكريات؟

أيُّها الإخوة المستمعون: أحدِّثكم من وراء هذا المذياع، ونحن في السَّابع من عشر ذي الحجة التي أقسم الله بها في كتابه العزيز، وأتحدث إليكم الآن وحُجاج بيت الله الحرام في مكَّة يستعدون للتَّوجه إلى منى وعرفات، غدًا يوم التروية[٢] يوم التَّجرد للإحرام بالحجِّ لمن تمتع بالعمرة إلى الحجِّ، أو لمن كان مقيمًا في مكَّة قبل أشهر الحجِّ.

غدًا ينتقل جميع الحُجاج إلى منى، وبعد غدٍ سيذهبون إلى عرفات للوقوف هناك طاعةً لله ووفودًا على الله، وقال ذلك رسول الله ﷺ: «**الحُجَّاجُ والعُمَّارُ وَفدُ اللهِ إِنْ دَعَوهُ أَجَابَهُم، وَإن استَغفَرُوهُ غَفَرَ لَهُم**».[٣]

فهنيئًا لمن فاز بما أمل، وهنيئًا لمن تحقق له ما طلب، نقول: هنيئًا ونأمل أن يحقِّق المولى لهم هذا الدُّعاء: اللهمَّ تقبَّل منا ومنهم، وأصلح

(١) ألهج بالشيء: أولع به فثابر عليه واعتاده. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ١٩٢).

(٢) التروية: سُمِّي بذلك لأن الحجاج يتزودون فيه من الماء، وينهضون إلى مِنى ولا ماء بها فيتزودون ربهم من الماء. انظر تاج العروس (٣٨/ ١٩٤).

(٣) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٨٩٢).

مستقبلنا ومستقبلهم، واجعلهم ممَّن قال فيهم عبدك ورسولك محمَّد ﷺ: **«مَنْ حَجَّ ولَم يَرفُثْ وَلم يَفسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَومِ وَلَدَتهُ أُمُّهُ»**.(١)

واجعلهم ممن تُباهِي بهم ملائكتك في أُمسِية يوم عرفة، فقد أخبرنا بهذا النَّبي الكريم ﷺ فقال: **«مَا مِنْ يَومٍ أَفضَلُ عِندَ اللهِ مِنْ يَومِ عَرَفَةَ، يُبَاهِي اللهُ بأهلِ الأَرضِ أَهلَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: انظُرُوا إِلَى عِبَادِي جَاؤُونِي شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِينَ جَاؤُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ يَرجُونَ رَحمَتِي وَلَم يَرَوا عَذَابِي، أُشهِدُكُم أَنِّي قَد غَفَرتُ لَهُم»**.(٢)

ميلاد عامٍ جديدٍ

منذ يومين كنا في عطلةٍ رسميَّةٍ، وهي بداية السَّنة الشَّمسيَّة لعام (٧٩) للميلاد، وهو تاريخٌ اتَّفق سكان هذا الكوكب الأرضي في شرقه وغربه على مبدئه ومنتهاه.

فيحسب التُّجار فيه حساب أرباحهم وخسائرهم، وما لهم وما عليهم في كلِّ يوم، ويحسب الموظف فيه أيَّام شهره ليقبض راتبه، ويحسب النَّاس فيه أعمارهم، وليُحْيُوا ذكرها في أيَّامه وأشهره، وبأيَّامه نؤرخ حوادثنا وما يجري لنا فيها من خيرٍ أو شرٍّ، والحكومات تهتمُّ به أكثر من الشعوب فلها شأنٌ في التَّاريخ أهمُّ من شأن الأمم.

وسمَّينا هذا اليوم في الماضي عطلة، ثمَّ سمَّيناه رأس السَّنة، وأخيرًا

(١) رواه البخاري، رقم: (١٥٢١).
(٢) رواه أبو يعلى في المسند، رقم: (٢٠٩٠).

سمَّاه بعضنا عطلة رأس السَّنة أو عيد رأس السَّنة وليسمِّه من شاء بما شاء من الأسماء، فالأسماء لا تباع ولا تشترى، ولكن الَّذي يَعنِيني في هذا الأمر أنَّ هذه الأعوامُ تنقضي لتأتي بعدها أعوامٌ جديدةٌ نفرح بقدومها ونحتفل بها احتفالَ فرحٍ.

ونحتفل فيها بمرور ذكرى ولادة أو زواج نفرح لهذه المناسبة ولتلك، ونفرح بمرور العام لذكريات هي بالنسبة لنا كبيرة، فهل نحن فرحون بها حقيقة كما نقول؟

إنَّ الفرحة لا تكون إلَّا للأَبيِّ العزيز والحرِّ الكريم، ولقد مرَّت إحدى وثلاثون سنة على النكبة، نكبة وجود الكيان الصُّهيوني في بلادنا، ولقد مرَّت اثنتا عشرة سنة على سقوط المسجد الأقصى - قِبلتنا الأولى ومسرى نبيِّنا - بِيَدِ الصُّهيونية الَّتي هي أشدُّ النَّاس عداوةً للإنسانيَّة، وما زالت الاعتداءات تَتْرَى[1] على إخواننا في الدِّين، وهناك نفوسٌ تُقتَل وممتلكاتٌ تُغتَصب، وأعراضٌ تُنتَهك، ومقدساتٌ تُدنَّس، وكراماتٌ تُذَلُّ وتُهان.

أيُّها الإخوة المستمعون: إننا ننتظر عيدًا يحقِّقُ الله فيه وعده لعباده المؤمنين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنَافِقون: ٨] وليس ذلك ببعيد على ذوي الهمم العالية، وذوي النَّوايا الصَّافية الَّذين يقولون ويفعلون، وإنَّه العيد الَّذي ينتظره المؤمنون بحقهم وبعزَّتهم الَّتي أرادها الله لهم.

إنَّه عيدُ وحدة النِّيات والجهود والقصد، ولعلَّ سائلًا يقول: ومتى يا ترى يكون هذا العيد؟

---

(١) تترى: أي: متواترين واحدًا بعد واحد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ٣٣٩).

فأقول له: إنَّه آتٍ ما دام للحقِّ طالب، وكلُّ آتٍ قريب، وإنَّه اليوم الَّذي وعدنا الله به يوم نكون كذلك: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الرُّوم: ٤-٦].

مع رمضان في ذكرياته

أقبل شهر رمضان الكريم كلُّ عامٍ وأنتم بخيرٍ، والحمد لله على طول الأعمار وتردد الآثار، ونسأل الله جلَّ جلاله أن يعيننا على طاعته، ويجعلنا ممن: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] ولا بُدَّ لنا في هذه المناسبة أن نتكلم قليلًا عن الصِّيام.

فرض الله الصِّيام في السَّنة الثَّانية من الهجرة في شعبان، ونزلت بفريضته الآيات الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٤﴾ [البَقَرَة: ١٨٣-١٨٤].

فالصِّيام فرضٌ، وهو ركنٌ من أركان الإسلام الخمسة الَّتي بُنِيَ عليها، والَّتي لا مَنَاصَ[1] من أدائها، ولا عذر لأحدٍ في تركه إلَّا أولئك الَّذين لا

(١) المناص: المفر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٨/ ١٩٥).

يطيقونه، وهم الَّذين يَصعُبُ عليهم ويُكلِّفَهم ما لا طاقةَ لهم به كالشَّيخ الفاني أو العاجز من كبرٍ وهرمٍ، أو المريض الَّذي لا يُرجى بُرؤه كالسَّرطان أو السِّلِّ - نسأل الله العافية - أو مرضٍ يتفاعل مع الصَّوم فيزيد صاحبه سوءًا كقرحة المعدة أو الأمعاء، فهؤلاء وأمثالهم يَفطِرون ويُطعِمُون عن كلِّ يومٍ مسكينًا.

واختار الله للصَّوم شهر رمضان من جميع أشهر السَّنة، فهو الشَّهر الَّذي أُنزِلَ فيه القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] فجعل لنا صوم رمضان تذكيرًا لنا بنعمة إنزال هذا القرآن، فهو دستوره لعباده في الأرض، فنشكره على هذه النِّعمة الكبرى.

وذكريات رمضان في الإسلام ذكرياتٌ عذبةٌ تَطِيبُ بذكرها المجالس، وترتاح لسماعها الآذان، وأوَّل هذه الذِّكريات: ذكرى بعثة محمَّد ﷺ ونزول أوَّل آيات من القرآن، فقد بعث الله رسوله محمدًا ﷺ في ليلةٍ من ليالي رمضان ووصفها جلَّ جلاله بأنَّها ليلة القدر في سورة القدر، ووصفها بأنَّها اللَّيلة المباركة الَّتي قال تعالى فيها: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدّخان: ٤] وذلك في أوَّل سورة الدُّخان.

ونزل القرآن في هذا الشهر هدًى للنَّاس: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسرَاء: ٩] كتابٌ لا عِوَج فيه أنزله الله قيمًا لينذر الكافرين ويبشر المؤمنين، وأتى به رسولٌ كريمٌ على خُلُقٍ عظيم بعثه الله رحمةً للعالمين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الخير والمحبَّة والحياة الطيبة، وداعيًا للتآلف والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى والتَّواصي بالحقِّ والصَّبر.

ومن ذكريات هذا الشَّهر أيضًا غزوة بدر ففي هذه الغزوة المجيدة نصرَ اللهُ أهلَ الإيمان على أهل الكفر والطُّغيان، وكان المسلمون في هذه الغزوة متدرِّعين بالإيمان والصَّبر والتَّقوى فنصرهم الله على أعدائهم وصدق وعده لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل: ١٢٨].

ومن ذكريات رمضان أنَّ الله تعالى مكَّن نبيَّه ﷺ من فتح مكَّة أمِّ القرى، فهي مَسقَطُ رأس الرَّسول ﷺ ومَهْبَطُ الوحي، وقد كان ﷺ يتشوَّق لفتحها ويعلم أنَّه إذا فُتِحَت مكَّة انقادت العرب لدعوته؛ لأنَّ مكَّة مقدَّسةٌ عند جميع العرب، وأهل مكَّة هم أفضلُ النَّاس في نظر جميع العرب.

وكان في مكَّة أصنامٌ للعرب، وكان حول الكعبة (٣٦٠) صنمًا غير ما كان في الحرم، فخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين في رمضان في السَّنة الثَّامنة من الهجرة متَّجهًا إلى مكَّة لفتحها، فكان أمامه نصر الله ففتح مكَّة وانقاد له أهلها طاعةً وإسلامًا، وطهرها مما كان فيها من أصنام، وبهذا الفتح الَّذي سمَّاه المؤرخون الفتح الأعظم جاء نصر الله، ودخلَ النَّاس في دين الله أفواجًا، يَفِدُون إلى المدينة وفدًا بعد وفدٍ طائعين لله مخلصين له لا يبتغون غير الإسلام دينًا؛ لأنهم علموا يقينًا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

حديث رمضان

الإنسان المؤمنُ عاقلٌ عالمٌ بطبيعته؛ لأنَّه وُلِدَ ليتعلَّم، وأبواه يعلِّمانه

الحركةَ والحبوَ والمشيَ والنُّطق وكلَّ شيءٍ، ولكنَّه متى جَهِلَ أصبح ضالًا كما قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٧٩].

ولقد جَهِلَ المسلمون الكثير من علوم الدُّنيا والآخرة بعد أن جَهِلُوا دينهم وتعاليمه، وبذلك أصبح المسلمون عرضةً للتيارات الفكريَّة المعاكسة فبينما هو يأخذ بسبيله إلى الخير فإذا بالشَّهوات تُزَيِّنُ له سلوكَ سبيلِ الشَّرِّ.

والإيمانُ كامنٌ في الكثير من هؤلاء النَّاس، ولكن قد يُرَانُ[1] على قلب المؤمن فلا تضيء ومضته، وكم سمعت من أصوات تكلِّمني أنَّه قد حصل منه ما يخالف أَمرَ الدِّين، وأنَّه في قلق مما حصل ولا يأمن عقوبة الله! ربَّما هبَّت نفحةُ إيمانٍ في قلبه، أو ربَّما استيقظت ومضةُ إيمانٍ في ضميره بعد أن زيَّن له الشَّيطان عمله لتقول له: ويلك آمن، اهتدِ بعد ضلالٍ، استيقظ بعد غفلةٍ.

وهو صراعٌ مستمرٌ في نفس كلِّ إنسان يحمل في قلبه ذرَّة إيمان تقول له: افعل الخير وعليك بالفضيلة، أما الجهل بتعاليم الإسلام فتقول له: افعل الشَّرَّ، وانتهز اللَّذَّة فالجهل لا يأمر بالخير، أيُّها الإخوة:

إننا في حربنا مع النَّفس والضَّمير بين كرٍ وفرٍ، ولا سلاح لنا إلَّا الإيمان بالله، فالنَّفسُ أمَّارةٌ بالسُّوء تدعونا إلى الإثم والشَّرِّ، والضمير هو طبيعةُ الخيرِ في الإنسان الَّتي تدعونا إلى فِعْلِ الخير، ولكي نتحاشى الإثم والسُّوء يجب علينا أن نؤمن بصدقٍ، وإنَّ للإيمان لِذَّةٌ خاصَّةٌ - كما قلت

(١) الرين: صدأ يعلو الشيء الجلي. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ١٣٠).

لكم في حديثٍ سابقٍ - لا يشعر بها إلَّا المؤمن، ولكن مَن هو المؤمن؟ إنَّ المؤمن مَن هو في صلاته خاشعٌ، والَّذي هو عن اللَّغو معرضٌ، والَّذي هو للزَّكاة فاعلٌ، وعلى الجماعة محافظٌ، ولشعائر الإسلام قائمٌ، ولواجباته مؤدٍ فلا يشغله عنها شاغلٌ، وللحقوق حافظٌ، وبتعاليم دينه عالمٌ.

إخوتي وأخواتي: إن جَهلَنا بديننا جَعَلَنا نخرب دنيانا بأيدينا وبأيدي أعدائنا، نعم خربنا دنيانا الَّتي لا تَصلُحُ إلَّا بتطبيق قواعد ديننا بكلِّ شأنٍ من شؤوننا على حركاتنا وسكناتنا، وفي أحكامنا ومعاملاتنا، وفي مساجدنا وأسواقنا، وفي مدارسنا وبيوتنا.

فإنَّ ديننا لا يعجز عن حلِّ المشاكل الَّتي تمرُّ في حياتنا كأفرادٍ ومجتمعاتٍ فهو يستطيع أن يشمل تَصَارِيف الدُّنيا بالفعل والعدل والفصل، فديننا دين عملٍ وعلمٍ، فلم يزل يعانق العِلم ولن يزال، ولو عَلِمنَا ما في الإسلام من معالٍ وعَمِلنا بها كما يجب علينا فِعلَها لاستطعنا أن نجذب إلينا العاقل والعالم والـمُنصِفَ مِن النَّاس، ولاستطعنا أيضًا أن نناقش بكلِّ هوادةٍ ولينٍ وصراحةٍ، ولاستطعنا أن نُذلِّل العقبات في سبيل من يريد الخير لنفسه.

إنَّ علينا أن نوضِّح للنَّاس جوانب اللِّين والخير في الإسلام، فهي أجدر أن تحقِّق لنا ما نريده وما يريده الله منا، ولكن متى نستطيع ذلك؟ لا نستطيع ذلك حتَّى نتعلَّم فالعلمُ أساسُ الخيرِ.

العيد

اليوم ينتهي رمضان ولنا في هذا اليوم بُشْرَى بشَّرَنَا بها نبيُّ الإسلام محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام وتلك البشرى معناها أنَّه إذا جاء آخر يومٍ في رمضان ونظر الله إلى عباده المؤمنين منحهم الرِّضا والمغفرة وإجابة السؤال في الدُّنيا والآخرة، وذلك كجزاء العامل إذا عمل عمله.

وغدًا عيد الفطر وللمسلمين عيدان لا ثالث لهما؛ عيد الفطر وعيد الأضحى، وما سوى هذه الأعياد مما سمَّاها النَّاس أعيادًا بدعةٌ لا أساس لها من الصِّحَّة، ويمكن أن نسميها ذكرى.

فقالوا: عيد العلم، وللإسلام في كلِّ يومٍ من أيَّامه عيدٌ للعلم، والشَّاهد على ذلك قول الله ﷻ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طـٰه: ١١٤] وقول نبيِّه ﷺ: «**إذا أَتَى عَلَيَّ يَوْمٌ لَا أَزْدَادُ فِيهِ عِلمًا يُقَرِّبُنِي إِلَى الله فَلَا بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمسِ ذَلِكَ اليَومِ**».(١)

وقالوا: عيد الأمِّ وكلُّ أيَّامِ الأمِّ عيدٌ، وكلُّ صباح يستقبل المسلم فيه أمَّه عيدٌ، ومفتاحُ باب الجنَّة للولد ابتسامته في وجه أمِّه، وقالوا عن الذكريات: هي أعياد، ولكن الأولى أن نسميها ذكرى.

وسُمِّي العيد عيدًا؛ لأنَّه يَعُودُ كلَّ سنةٍ بفرحٍ مُجدَّد، والإنسان - كما قال تعالى - خُلِقَ ليشقى فهو يتلمَّس دائمًا أسباب السُّرور ليسعد ويستريح بعد شقائه، وأعيادُ الإسلام جميلةٌ فهي أعياد حبٍّ ورحمةٍ وإنسانيَّةٍ،

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم (٢٨٦٨٧).

وأعياد نفعٍ وصدقاتٍ وتفريج كروب، وكلٌّ مؤمن يهنأ في العيد بمساعدة المنكوب وإعانة البائس ورعاية اليتيم.

وعيد المسلم جليلٌ في معناه ورائعٌ في مغزاه يحبُّهُ الكبار كما يحبُّه الصِّغار؛ لأنَّ العيد تحيةٌ عذبةٌ يتبادلها الجميع لها جلالها وبهجتها.

وليوم العيد إشراقة ونضارة فالنَّاس بعد إشراقة الشَّمس في خلقٍ جديدٍ ويومٍ سعيدٍ تغمرهم السَّعادة، وتعمهم الفرحة، ولماذا؟ لا يدرون إلَّا أنهم في يوم عيد، ففي العيد تلتقي الأرواح والأشباح، ويحيا الأمل وتصفو القلوب، وتمحى الضغائن وتتعارف النُّفوس ويذهب العبوس، ومن أجل ذلك كان العيد عند المسلم تآلفًا وتعارفًا وتواصلًا.

وغدًا عيد الفطر الَّذي جاء بعد انتهاء شهر رمضان، وهو شهر الصَّوم والرُّكن الرَّابع من أركان الإسلام الَّذي أتممنا فيه فرض الصَّوم، فعيدنا أن نكون حامدين لله على أداء ما أوجبه علينا وسائلين المولى أن يَمُنَّ علينا بالقبول والعودة إلى أمثاله موفَّقين إلى طاعةٍ تُؤدَّى وقبولٍ يُمنَح.

وغدًا - أيُّها الإخوة والأخوات - صلاةٌ ثمَّ زيارات وتهانٍ تنشر المحبَّة بين المواطنين وبها تتآلف القلوب وتغسل العداوات؛ لأنَّ المحبَّةَ والولاءَ تعاونٌ وقوَّةٌ، وغدًا تصافحٌ وقبلاتٌ بين الإخوة والأصدقاء فلا حسد ولا عداء ولا حقد ولا بغضاء في العيد.

وغدًا تتواصل القلوب بكلمة الإسلام السَّلام عليكم، فهي كلمةٌ خفيفةٌ على اللِّسان لها إيقاع في الآذان.

غدًا لنا اجتماعٌ كبيرٌ في مساجدنا ومجالسنا فالكلُّ يبتسم ويحمد الله على رابطة الأخوَّة الإسلاميَّة الَّتي شعارها لا إله إلَّا الله محمَّدٌ رسول الله.

الإسلام دينُ يُسْرٍ يُساير العقل ويجمع بين المصالح، ومن هذه المصالح: صلاح الفرد وصلاح الأمَّة، صلاح البدن وصلاح الوطن، صلاح الدُّنيا وصلاح الآخرة، هو صلاحٌ شاملٌ يربط بين النَّاس جميعًا بحسن المعاملة وقال: الدِّينُ معاملةٌ، وأصلح الأخلاق فحرَّم الرَّذائل وأوجب الفضائل وقال: الدِّينُ حُسنُ الخُلُقِ، وأصلح الجسم وأمر المسلم أن يحفظ نفسه وصحته؛ لأنَّ العقل السليم لا يكون إلا بالجسم السَّليم.

عيد النحر سنة (١٣٩٨هـ) (١)

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا.

الحمد الله الَّذي جعل الأعياد بعد أداء العبادات مواسم إكرام وإحسان، فجعل عيد الفطر موسم رحمةٍ وقبولٍ لمن صام رمضان، وجعل عيد الأضحى لمن حجَّ البيت موسم عفوٍ وغفران.

الحمد لله نحمده كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، ونسأله أن يَمُنَّ علينا بعظيم فضله وإحسانه، وأن يشملنا بواسع رحمته وغفرانه، ونشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له نسأله الحماية من الزَّلل، والتَّوفيق لصالح العمل.

نسأله أن يعيننا على مكافحة الظُّلم والظَّالمين الكفرة المفسدين،

ومقاومة الإلحاد والملحدين الَّذين يريدون أن يُطفِئُوا نور الإسلام بباطل أقوالهم وسموم أقلامهم، ويريدون أن يشوهوا أحكام الإسلام ويعيبون على من تمسك بأوامره وانتهى عن نواهيه بزيف حُجَجِهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التّوبَة: ٣٢].

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك سيِّدنا محمَّدٍ الَّذي بعثته بالحقِّ ليخرج النَّاس من الباطل، وأرسلته بالنُّور ليخرجهم من الظُّلمات ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، وعلى آله وأصحابه والتَّابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

اتقوا الله عباد الله، اتقوا الله حقَّ تُقاته، ولا تموتن إلَّا وأنتم مسلمون، اتقوا الله وآمنوا برسوله القائل: «**لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا**»(١).

إذن فالمحبَّة شرطٌ لدخول الجنَّة، ولما لها من ثمارٍ يانعةٍ وفوائدَ عظيمةٍ نافعةٍ قرَّر الإسلام تنميتها، وأوجب على المسلمين اتِّباعها وتربيتها، فبنى أركان الإسلام على الصَّلاة والصَّلاة جماعة جامعة، وعلى الزَّكاة والزَّكاةُ إحسانٌ ومحبَّةٌ، وعلى الصِّيام والصِّيام رِقَّةٌ ورحمةٌ، وعلى الحجِّ والحجُّ رابطةٌ بين المسلمين في سائر أقطارهم يفدون من تلك الأقطار ليجتمعوا في مكانٍ واحدٍ، أعدَّه الله لهذا الأمر فيرشدون ويسترشدون، ويفيدون ويستفيدون، ويتآلفون ويتناصرون، وليشهدوا منافع لهم.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٨٣٧٢).

أيُّها المسلمون: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

وقد زعم بعض النَّاس الَّذين إذا سَمِعُوا الحقَّ أعرضوا عنه أنَّ الإسلام دينٌ معقدٌ وشديدٌ لا يرضى بتقدُّم البشريَّة يريدون بكلامهم هذا أن يُطفِئُوا نور الله بأفواههم والله مُتِمُّ نوره ولو كره الكافرون.

فليس في الإسلام تعقيدٌ وليس فيه تشديدٌ، وليس فيه تعارضٌ للمدنيَّة إنَّ الإسلامَ مُبَسَّطٌ وبساطته بارتكازه على التَّوحيد، والتَّوحيد مُثْبَتٌ بكلمة لا إله إلَّا الله، ولا إله إلَّا الله كلمةٌ سهلةٌ تنفي الألوهيَّة عن كلِّ أحد وتثبتها لله وحده، والله واحدٌ ولا إله غيره، فليس كمثله شيءٌ وكلُّ ما يخطر ببال الإنسان فالله أعظم وأجلُّ منه؛ لأنَّ عقل الإنسان لا يحيط به: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعَام: ١٠٣] فالخالق خلاف المخلوقين، والعقل المخلوق لا يُدرك غير المخلوق، لهذا أمر الإسلام أُمَّتَهُ أن يتفكَّروا في آلاء الله، وألا يتفكَّروا في ذات الله، وجعل هذا التَّفكير عبادةً وذكرًا يتقرَّب به الإنسان لله بينما كان هذا التَّفكير علمًا فتح الآفاق للإنسان ليصل إلى ما لم يصل إليه مخلوق غيره، وليحقِّق وعد الله لهذا المخلوق: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجَاثيَة: ١٣].

والله ﷻ وصفَ المؤمنين بأنَّهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفَال: ٢-٣].

والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وصف أخلاق المؤمن بأنَّها قوَّةٌ في

دين، وحزمٌ في لين، وإيمانٌ في يقين، وأنَّ المؤمن لا يرتكب إثمًا مع مَن يحبُّ، ولا يعتدي على مَن يبغض ولا يطعن ولا يلعن، وأنَّه يُخالط النَّاس كي يعلم، ويُناطق النَّاس كي يفهم، فإنسان هذه صفاته وهذا سلوكه جديرٌ بأن يكون الله معه، وحقيقٌ بأن يَسُودَ، وأن تُفتح له الصُّدور محبَّةً به وشوقًا إلى لقائه.

أيُّها المسلمون: والإيمانُ بالله وبرسالة محمَّد بن عبد الله إذا تحرَّك في النَّفس تحوَّل إلى صورةٍ حقيقيَّةٍ، وشمل حياة المؤمن، فانحلَّت أمامه العُقد وتفتَّحت به الأقفال ألم تسمعوا قول النَّبيِّ ﷺ: «**ونُصِرتُ بِالرُّعبِ**»[1] ذلك أن المؤمنَ مُهابٌ؛ لأنَّه صادقٌ، ونحن اليوم - أيُّها المسلمون - في حاجةٍ إلى بعثٍ جديدٍ في العقيدة؛ لأنَّ التَّشكيك الَّذي حاربنا به عدونا هزَّ شبابنا وزعزعه، وبَلبَل[2] أفكاره وأفسده.

إننا في حاجةٍ إلى إسلامٍ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وإننا في حاجةٍ إلى بعثٍ في الهِمَّة، يرفعُ عنَّا هذه الميوعة الَّتي بسببها أصبحنا نقولُ ولا نفعل، ونَعِدُ ولا نَفِي، ونَهِمُّ ولا نُنَفِّذُ.

الإسلام هو كتاب الله الخالد، وهو العقيدة والحقيقة والرسالة الخالدة، فجديرٌ بأُمَّة ارتضاها الله للإسلام أن تعود إلى الإيمان بكتابه وبرسالة نبيه، فتعمل بما أمر به الإسلام، وتنهى عما نهى عنه الإسلام وصدق الله العظيم حين قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٩٧٧)، ومسلم، رقم: (٥٢١).

(٢) بلبل: هيج وحرك. انظر: تاج العروس (٢٨/ ١١٤).

يا أيُّها الإخوة المسلمون: جديرٌ بنا أن نسير في هذا السبيل وأن نَسلُكَ هذا المَسلَك، ففيه النَّجاة لمن خافَ سوء العاقبة، وفيه البرهان لمن أراد الذِّكر الحسن: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٣].

عيد النَّحر (١٣٩٨هـ) (٢)

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولله الحمد.

الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا.

الحمد لله على آلائه ونعمه، والحمد لله نحمده ونسأله المزيد من فضله، ونشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، القائل: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصّلَت: ٤٦].

وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله بَشَّرَ عبادَ الله بأنَّ النَّصر مع الصَّبر، وأنَّ العاقبة للمتَّقين.

اتَّقوا الله أيُّها الإخوة المسلمون، اتَّقوا الله الَّذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل: ١٢٨].

وبعد:

فإنَّ هذا اليوم عيد للمسلمين في جميع أوطانهم، وهو يوم مَغْفِرَةٍ شاملةٍ لمن حجَّ، فلم يَرْفُث ولم يَفْسُق، كما بَشَّرَ بذلك رسول الله ﷺ.

فما أهنأه عيدًا لمن حُطَّت عن ظهورهم أوزارُ السَّيِّئات، وقصدوا الله بحسن النِّيَّات وصفاء الطَّويَّات[1].

وما أهنأه عيدًا لمن هبُّوا لنُصْرَة دينهم، وعملوا بما يرفع شأنَ أمَّتهم، وامتثلوا أمرَ ربِّهم ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢]، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].

وما أهنأه عيدًا لمن اعتزُّوا بدينهم فعُزُّوا، ونصروا الله فنُصِرُوا، ورفعوا من شأن الإسلام فرَفَعَ الله شأنَهم.

فهل يعود علينا ذلك العيد ويبتسم لنا ذلك اليوم السَّعيد فنرى للمسلمين الكلمةَ العليا الَّتي يفتخر بها المسلم، وتلك المكانة السَّامِيَة الَّتي يعتزُّ بها المسلم، ويحقِّق الله وعده لمن آمن بالله ورسوله؟ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنَافِقون: ٨].

أيُّها المسلمون: ما ذلك على الله ببعيد، فقد قال الله ﷻ في كتابهِ العزيز في سورة النُّور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النُّور: ٥٥].

عباد الله: تقرَّبوا إلى الله في هذا اليوم والأيَّام الَّتي بعده بنحرِ الأضاحي، فإنَّها سُنَّة أبيكم إبراهيمَ ونبيِّكم محمَّدٍ ﷺ، فقد قال ﷺ في يوم الأضحى: «**ما عَمِلَ آدميٌّ في هذا اليوم أفضلَ من دمٍ يُهرَاق إلَّا أن**

(١) الطوية: الضمير. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٥١٣).

يكون رحمًا مقطوعةً تُوْصَلُ»[١]، والأُضحِيَّة للحيِّ أفضل منها للميِّت؛ لأنَّها فِدْيَةٌ وأضحيَّة، وأبونا إبراهيم عليه السَّلام ضحَّى بها عن ولده إسماعيل، وهو حيٌّ.

والمُضَحِّي يقول: اللَّهُمَّ هذا منك ولك، اللَّهمَّ تقبلَّ منِّي كما تقبَّلت من إبراهيم خليلك، ومن محمَّدٍ نبيِّكَ.

وللمُضَحِّي أن يُشْرِكَ معه من يشاء من أقاربه وأحبابه؛ الأحياء والأموات، وليَحتَسِب أضحيَّته لله ﷻ، فإنَّ الله يقول - وقوله الحقُّ -: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾ [الحَجّ: ٣٧].

عباد الله: اسألوا ربَّكم وأنتم موقنون بالإجابة وقولوا: اللَّهُمَّ إنَّا نسألك من أنفسنا ما لا نملكه إلَّا بك، فأعطنا منها ما يرضيك عنا، وأصلح ذاتَ بِيْنِنَا بإصلاح وليِّ أمرنا.

اللَّهُمَّ أرِهِ الحقَّ ووفِّقه لاتِّباعه، وأرِهِ الباطل ووفِّقه لاجتنابه، اللَّهُمَّ واحفظه بالإسلام قائمًا وقاعدًا، وأحسنْ عاقبتَهُ في الأمور كلِّها.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك رحمةً من عندك، تهدي بها شبابنا، وتُؤَلِّفَ بها بين قلوبنا، وتجمع بها أمرنا، وتَلُمَّ بها فُرْقَتنا، وتزكِّي بها أعمالنا، وتعصمنا بها من كلِّ سوءٍ، واغفر لنا ذنوبنا، واهدنا سبيلَ السَّلام، واجعلنا ممَّن يستمعون القولَ فيتَّبِعونَ أحسنَهُ، اللَّهُمَّ وانصر دينك، وانصرنا به على القوم الكافرين.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٩٤٨).

وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ [الإسرَاء: ١١١].

عيد الفطر (١)

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر ما انتبه المسلمونَ في جميع أوطانهم لكيد الكائدين، وما تناصروا ضِدَّ المعتدين، وما جاهد مسلم بنفسه وماله لنُصْرَة هذا الدِّين، وما ذُكِرَ مَجْدُ المسلمين في التَّاريخ وذُكِرَت عزَّتُهم، وما تآلفت قلوبهم واجتمعت كلمتهم، الله أكبر أعان من تعاونوا على البِرِّ والتَّقوى، وتَوَاصَوا بالإحسان.

سبحان الله وبحمده، يَنْصُرُ من نَصَرَ دينه، ويمدُّه بتوالي نعمته، سبحان الله وبحمده، يُذِلُّ من أذلَّ دينه، ويُنْزِل به عظيم نقمته، سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلَّا الله، والله أكبر.

الحمد لله مالك المُلْكِ، يؤتي المُلْكَ من يشاء، ويَنْزِع الملك ممَّن يشاء، ويُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، بيده الخير، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، بَعَثَه رحمةً للعالمين كافَّةً، فكانت أمَّتُهُ قوَّةً في هذه الأرض، نصرهم الله لأنَّهم نصروه، ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين.

اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك سيِّدنا محمَّدٍ الَّذي كَشَفَ الله به الغُمَّةَ عن هذه الأمَّة، وجعله للبشرِ رحمةً، وعلى الإنسانيَّةِ نعمةً، وعلى

آله وصَحْبِه أفضلِ أئمَّةٍ.

أمَّا بعد:

فبالأمسِ كنَّا صائمين لله تعالى في وقتٍ يَحْرُمُ علينا فيه الإفطار، واليوم قد أفطرنا في حالٍ يَحْرُمُ علينا فيه الصَّوم، فالحمد لله الواحدِ الأحدِ الَّذي أحلَّ الحلال وحرَّمَ الحرام، وله الشُّكر جلَّ جلاله على كلِّ حالٍ، وفي كلِّ حالٍ، ونستنجزه[1] وعدَهُ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَة: ١١١] أن يزيدنا من فضله، وهو القائل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أيُّها المسلمون: انتهى رمضان، وما رمضان إلَّا أيَّامٌ معدودةٌ، كتب الله علينا صيامه، وجعله ركنًا من الأركان الَّتي أسَّسَ عليها الإسلام، واختصَّ هذا الرُّكنَ لنفسه، فكان شهرُ رمضانَ شهرَ اللهِ من بين شهور السَّنَةِ، وكان الصَّوم في رمضانَ لله وحدَهُ وهو يَجْزِي به، وكان جزاؤه للصَّائمين بغير حسابٍ، وجعل للصَّائمين فرحتين: فرحةٌ عند الفطر، وفرحةٌ عند لقائه يوم الجزاء، فنسأل الله تعالى لهذه الفرحة حُسْنَ الخاتمة حتَّى نفوزَ مع الفائزين بها يوم نلقاه.

أيُّها الإخوة: إنَّ الدِّين عند الله الإسلام، فمن اعتزَّ به عُزَّ، ومَنْ أعرضَ عنه ضلَّ وذلَّ، ومن استضاء بنوره هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ، هو دينٌ عمل به أسلافنا فعاشوا حياتهم طيِّبَةً، وعزُّوا في الدُّنيا فكانوا أئمَّةً مصلحين صالحين، هداةً مهتدين، مرشدين راشدين، وخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ طال عليهم الأمد فضاعوا، وأضاعوا الدُّنيا والدِّين، وعكفوا على

(١) استنجز حاجته: طلبها وسأل إنجازها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٥/ ٣٤٤).

كلِّ ما يشين، وتركوا فعلَ الحسنات واتَّبعوا الشَّهوات، وتفاخروا بالأعمال السَّيِّئات، وخسروا كلَّ شيءٍ في هذه الحياة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]، و﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]. أيُّها الإخوة المسلمون: ما أسعد هذا العيد لو أنَّنا اتَّقينا الله، وتآلفنا كما أمرنا الله، وأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وتَجَنَّبنَا الشُّبُهات، وابتعدنا عن الشَّهوات.

لكنَّا واأسفاه لم نكن كذلك، بل كنَّا كما أراد لنا عدوُّنا فأعرضنا عن ديننا، وأُهِيْنَ دينُنَا أمامنا فلم نغضب، وهُتِكَت حُرُمَاتنا فلم نُنْكِر، ودِيْسَت مقدَّساتُنا فلم نَثُر ولم نتأثَّر، ولنا إخوان مشرَّدون عن بلادهم، هَلَكَ أكثرهم جوعًا وعُرِيًّا، يقاسون من البرد أضرَّه، ومن الصَّيف أحرَّه، وفي كلِّ أرضٍ من بلاد الإسلام تنكيلٌ، وفي كلِّ شَعْبٍ من شعوبه تقتيلٌ، وفي بعض أوطانه عداءٌ تُسْفَكُ بسببه الدِّماء وتُزْهَق الأرواح، وتُهْتَك الأعراض، وفي بلادٍ أخرى مسلمة يُهَان الإسلام ويقتل المسلمون، وهذا ما يجري في الفلبِّين، وأرتيريا، ومالي وبورما وأواسط إفريقيا وفي غيرها من بلاد الإسلام شرقًا وغربًا.

فكيف نفرح بالعيد أيُّها المسلمون؟! كيف نفرح وهذه حال إخواننا في جميع أوطاننا؟!

أيُّها الأخوة المسلمون: نقول: إنَّنا فرحون بالعيد؛ لأنَّ العيد قد عاد، ولكن بأيَّةِ حالٍ عاد؟

وقد قلنا: إنَّ العيدَ أفراحٌ وتهانٍ، وبهجةٌ وزياراتٌ، فهل العيد لبيتٍ

من المسلمين دون بيت أو لبلدٍ دون بلدٍ؟! وهل العيد لقطرٍ دون قطرٍ؟ لا، أيُّها الإخوة المسلمون، العيد عيدُ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ كلِّها، فهل أمَّتنا - أيُّها المسلمون - صادقةٌ في فرحتها بالعيد؟ هل فرحت بأعياد مضت وهل ستفرح بعدُ بالأعياد؟

أيُّها المسلمون: إنَّ الله أرادَ لهذه الأمَّة أن تكون أمَّةً واحدةً، فهل كنَّا كما أراد الله لنا أن نكون؟!

إنَّ الله أمرَ هذه الأمَّة أن تتعاون على البرِّ والتَّقوى، ونهاها عن أن تتخاذلَ وتتنازع، فهل فعلت ما أمرها الله به، انتهت عمَّا نهاها عنه؟!

إنَّ الله قال لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٢-٣]، وقد أكثرنا الكلام ولم نفعل، ووعدنا ولم نَفِ، وعاهدنا ولم نُنَفِّذ، وصدق فينا قول الله ﷻ: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٣].

وما زِلنا نذكر الأقصى، وأسره وبعده عن الحُرْمَةِ الَّتي أرادها الله له، والأقصى من مقدَّساتنا وانتُزِعَ منَّا، وأُهِيْنَ على عِلْمٍ منَّا، فمن الَّذي انتزعه وأهانه؟

انتزعه الَّذين كفروا ولُعِنُوا بما قالوا، لُعِنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم، وكانوا أشدَّ النَّاس عداوةً لديننا ولنا، وقد أعانتهم القوى الاستعماريَّة وناصرتهم قرى الكفر، لا حبًّا لهم ولكن كرهًا للإسلام وكيدًا للمسلمين.

وقد يسأل سائلٌ نفسه فيقول: وَعَدَ اللهُ - ووعده الحقُّ - أنَّه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا، فكيف انتصر الكافر على المسلم،

والمسلم موعود بالنَّصر؟!

وإنِّي أسأل هذا السَّائل: هل نحن مؤمنون حقًّا؟ الإيمانُ - كما قلنا في مواقف سابقة - عقيدةٌ وعملٌ ومعاملةٌ، فهل كنَّا كما أراد الله لنا أن نكون؟! قال لنا الله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهل تآمرنا بالمعروف وتناهينا عن المنكر؟!

وقال لنا: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فهل انتهينا عمَّا نهانا الله عنه؟

وقال لنا رسول الهدى ﷺ: «**كونوا عباد الله كما أمركم**»(١)، فهل كنَّا كما أراد لنا هذا النَّبيُّ الكريم؟

وقال الله جلَّ شأنه لنا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، فهل أطعناهما حتَّى نكون مؤمنين ونَظْفَرَ بالعِزَّة الَّتي كتبها الله لرسوله وللمؤمنين؟

لو كنَّا كما أراد الله لنا فلن يكون للكافرين علينا سبيل، فيا أمَّة محمَّدٍ، قد قال لنا محمَّدٌ ﷺ منذ أربعةَ عشرَ قرنًا وما يزال قوله يَرِنُّ في آذان المسلمين من المصلحين: لن يَصْلُح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صَلَحَ به أوَّلها(٢).

ولقد صَلَحَ أوَّلها بالدِّين، فألَّفَ الدِّين بين قلوبهم، وأصلح ذاتَ بينهم، وجمع شملهم، فكَثُرُوا به بعد قِلَّةٍ وعُزُّوا بعد ذُلَّةٍ، وأُثْرُوا بعد

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٦٣)، بلفظ: «...**وكونوا إخوانًا كما أمركم الله**».
(٢) تقدم الكلام عليه.

فاقة، وسادوا سائرَ الأمم، فغَلَبَت قِلَّتهم كَثْرَةَ أعدائهم، وطلبوا الموت فوهب الله لهم الحياة، وكانوا به مع الله فكان الله معهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل: ١٢٨].

عيد الفطر (٢)

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر، والحمد لله، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّد عبد الله ورسوله، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّد عبدك ورسولك، وارضَ اللَّهُمَّ عن آله وصحابته.

يا عباد الله: خَلَقَ الله الإنسان وكَرَّمَه، ووهبَه العقلَ والقوَّة، وأعطاه الحياةَ؛ ليقف معها وجهًا لوجه مؤمنًا بالله الَّذي خلقه، ومؤمنًا بنفسه وقوَّته وعقله، فكلُّ أمَّةٍ تقف قبالة الحياة واعيةً قوَّيةً عزيزةَ النَّفس قد تعاون أفرادها على بناءِ مجتمعها كلٌّ حَسْبَ طاقته هي أمَّةٌ عزيزة الجانب مجتمعها قويٌّ، ولها مكانتها بين الأمم، فلا يُدَاس لها كيان، ولا يهتك لها حمًى.

وكلُّ أمَّةٍ تضعف أمام الحياة هي أمَّة ضعيفة خسرت حياتها، وخسرت مستقبلها، وطمع بها عدوُّها، وامتلك حرِّيَّتها، وذلك هو الخسران المبين، فإنَّنا في زمن الغَلَبَةُ فيه للقوَّةِ، والنَّصر فيه للأقوياء المجاهدين من الرِّجال والنِّساء، إنَّنا في زمنٍ لا يُجِيز لنا الفِرَار من معركة الحياة، وديننا يأمرنا بذلك ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩].

أيُّها المسلمون: نحن نعلم يقينًا وكلُّنا نعرف أنَّه لن يَصْلُحَ آخرَ هذه الأمَّة إلَّا بما صَلَحَ به أوَّلُها، هكذا أخبرنا نبيُّنا ﷺ[1]، وهكذا علَّمنا، وبهذا ندين، فقد صَلَحَ سلفنا بالدِّين، فجمع الله به شملهم، وألَّف بين قلوبهم، وأمدَّهم بالإيمان، فآمنوا بالله ووعده ونصره، فغلبت قِلَّتُهم كَثْرَة أعدائهم، وكان سلاحهم الإيمانَ بأنَّ الله معهم، ومن كان مع الله كان الله معه.

وأمَّا اليوم فلا دينٌ ولا دعوةٌ إلى دين، ولا ندري كيف نعيش بلا دين، وأيُّ فائدةٍ تأتينا من حياة مجرَّدةٍ من دين؟!

يا عباد الله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العَصر: ٢-٣]، وخير الأعمال الصَّالحات ما عمَّ نَفْعُهُ الأمَّةَ، وعاد خيرُهُ على المجتمع، فإنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وثرواتكم ومظاهركم وظواهركم وأقوالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم ونيَّاتكم، فأصلحوا ذلك مع الله يُصْلِح الله لكم أحوالكم، وانصروا الله ينصركم ويثبِّت أقدامكم، وكونوا مع الله يكن الله معكم، واعتصموا بحبل الله يعصمكم من كيد الكائدين ومكر الماكرين.

عباد الله: قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، فاسألوا الله ربَّكم وأنتم موقنون بالإجابة.

اللهمَّ إنَّا نسألك من أنفسنا ما لا نملكه إلَّا بك فأعطنا منها ما يرضيك عنَّا، وأصلح ذات بيننا بإصلاح وليِّ أمرنا.

---

(١) تقدم الكلام عليه.

اللهمَّ أرِهِ الحقَّ ووفِّقه لاتِّباعه، وأرِه الباطل ووفِّقه لاجتنابه، واحفظه بالإسلام قائمًا وقاعدًا، وأَحْسِن عاقبتَه في الأمورِ كلِّها.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك رحمةً من عندك تهدي بها شبابنا، وتؤلِّف بها بين قلوبنا، وتجمع بها أمرنا، وتَلُمَّ بها فُرْقَتَنا وتزكِّي بها أعمالنا وتعصمنا بها من كلِّ سوء، اللَّهُمَّ اغفر ذنوبنا، واهدنا سبيلَ السَّلام واجعلنا ممَّن يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنه، اللَّهُمَّ انصر دينك وانصرنا به على القوم الكافرين.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسرَاء: ١١١].

غدًا العيد الوطنيُّ

والعيد الوطنيُّ أو (٢٥) فبراير عيدٌ سنويٌّ شعبيٌّ يعود في كلِّ سنةٍ شمسيَّةٍ في (٢٥) فبراير، وكان أصله ذكرى إعلان استقلال الكويت عن الحماية الأجنبيَّة الخارجيَّة، وكان ذلك في (١٩) جون سنةَ (١٩٦١م).

ولمَّا كان هذا اليوم يأتي بالصَّيف الشَّديد حرُّه في الكويت أمر الأمير السَّابق رحمه الله بإبداله رسميًّا بهذا اليوم (٢٥/ ٢)؛ لكونه في فصلٍ ربيعيٍّ لطيف، والرَّبيع في الكويت لطيفٌ كاسمها، فلا يتثاقل الجميع من إظهار فرحتهم فيه.

وفي هذا اليوم، واللَّيل الَّذي يسبقه، واللَّيل الَّذي يليه، نرى الزِّينات تكسو جميعَ الوزارات والمؤسَّسَات الكبرى، ونرى في النِّهاية

المهرجانات الشَّعبيَّة على اختلاف أجناسها وجنسيَّاتها، كما نرى المدارسَ بقطَّاعَيْهَا الحكوميِّ والأهليِّ، وعلى اختلاف درجاتها، تخرج لتُظْهِرَ فرحتها بيومها الوطنيِّ؛ لأنَّه عيدٌ يعود في كلِّ عامٍ.

نعم، إنَّه عيد وطنيٌّ، أراده الشَّعب ووليُّه أن يكون عيدًا وطنيًّا؛ لأنَّ الوطن هو تركة السَّلف للخَلَفِ، وتركة السَّلَف عند الخَلَف أمانةٌ، ووَجَبَ على هذا الخلف أن يحفَظَهُ أمانةً؛ ليؤدِّيها لمن بعده أمانةً، فالأجيالُ كلُّها خَلَفٌ لِسَلَفٍ، فسلفنا خَلَفُ مَنْ كان قبله، ونحن سَلَفٌ لمن يأتي بعدنا، وكلُّنا راحلٌ، ولكنَّ الوطنَ باقٍ حتَّى يأتي أمر الله.

وإنَّ سلفنا وسلفه والأسلاف الَّتي قبله دافعوا عن هذا الوطن بالأرواح والأموال، وجاهدوا في سبيل الله عنه بأموالهم وأرواحهم، حتَّى حفظوه وسلَّموه لنا عزيزًا كريمًا، وعلَّمونا كيفيَّة الدِّفاع عنه حتَّى نحفظه ونحفظ عزَّته وكرامته واستقلاله.

ووَجَبَ علينا أن نربِّي الأجيال من بعدنا على حبِّ هذا الوطن والدِّفاع عنه بالمال والنَّفس؛ ليذكُرَنَا الخَلَفُ كما ذكرنا نحن السَّلف.

إخوتي وأخواتي: لا أستطيع أن أنتقدَ هذه الزِّينات، فإنَّها من دافع الفرحة ووحي السُّرور، لكنِّي أودُّ أن أقولَ كما قلتُ من قبل: إنَّ الزِّينة الحقيقيَّة هي حُسْنُ الخلق ومكارم الصِّفات، والمعاملة الكريمة فيما بين المواطنين، وهي أن نقولَ الحَسَنَ ونفعله، ونعزِمَ على فعل الخير، ونتوكَّل على الله، ونربِّيَ أولادنا على تكريم أسلافِنَا وذِكرِ محاسنهم في مجالسنا، ونعلِّمَ أولادنا معنى الوطنيَّة حتَّى يفهموها حقيقةً لا لفظًا.

إنَّ تاريخنا - أيُّها الإخوة والأخوات - مجهول، وإنَّ لنا رجالًا ذهبوا شهداء؛ دفاعًا عن هذا الوطن وفداءً لمستقبله الغالي وقد أغفلهم التَّاريخ،

فيجب علينا أن نخلِّدَ تاريخهم، ونعلِّمَهُ جيلَ المستقبل في مدارسنا، ونعلِّمه أولادَنا؛ ليكونوا قدوةً لهذا الجيل الَّذي يمثِّل رصيدنا، ورصيد كويتنا، ورصيد هذه البقعة العزيزة علينا، ورصيد هذا الشَّعب الَّذي نتمنَّى له حُسْنَ الحال وحفظ المستقبل.

إخوتي وأخواتي: رصيدُ الوطن ليس في ذهبٍ يُخَزَّن، ولا في معادنَ تستخرجُ، ولا في أبنيةٍ تُشَادُ، ولا في مظاهرَ تُظْهَرُ، ولا في دراهمَ ودنانيرَ تُكَدَّسُ، إنَّ رصيد الأمَّة في ناشئته آباءِ غدِهِ وأمَّهاته ومحطِّ آماله، وشباب المستقبل.

قبل أن أختِمَ كلمتي هذه أسأل اللهَ الَّذي إذا سُئِلَ أعطى، وإذا دُعِيَ أجاب، أن يعيدَ أمثالَ هذه الذكرى على كويتنا الحبيبة محفوظةً من كلِّ سوءٍ، والكلُّ قد عَلِمَ الحقَّ وفَتَحَ له بصيرتَهُ.

وختامًا أسأله تعالى لأميرنا المحبوب أن يدفعَ عنه السُّوءَ، ويعيدَهُ إلينا سالمًا غانمًا رافلًا بِحُلَلِ الصِّحَّة والعافية.

وأقدِّم لنائب الأمير ووليِّ عهده صاحب السُّموِّ الشَّيخ جابر الأحمد التَّهانيَ والتَّبريكاتِ بهذه الذِّكرى الحبيبة، ولنائب رئيس مجلس الوزراء ولأعضاء الحكومة الرَّشيدةِ ولشعبِ الكويت ولكلِّ من حَلَّ في الكويت التَّهانيَ والتَّبريكات بهذه الذِّكرى، وأسأل الله أن يجعلَ التَّوفيقَ للجميع حليفًا في كلِّ عملٍ مثمرٍ.

يوم الحجِّ الأكبر

غدًا الجمعة يوم الحجِّ، و«**الحجُّ عرفة**»[1]، أخي المسلم: الإسلام دينُكَ جاء يحمل دعوةً عالميَّةً، فأوَّل آيةٍ نزلت من كتاب الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العَلق: ١]، والعلم للعالم كلِّه، لا تختصُّ به أمَّة دون أمَّةٍ.

ويبدأ كتابه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفَاتِحَة: ١] ورحمة الله وسعت كلَّ شيءٍ، وفاتحة الكتاب: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] وكلمة العالمين تَشْمَلُ جميع العالم، ونداؤه حيَّ على الفلاح، والفلاح لا يختصُّ به أحدٌ دون أحدٍ.

والصَّلاة تنظيمٌ جماعيٌّ ومساواةٌ وعدمُ تفرقةٍ وتسويةٌ في الصُّفوف لا فَرْقَ بين إنسانٍ وإنسانٍ.

والزَّكاة حقٌّ معلوم لكلِّ محروم، تذوبُ بها الفوارق، وتُبْذَلُ بوجوبها المعونةُ من الموسر للمعسِر، والبذل محبَّةٌ، والإحسان وسيلة أُلْفَةٍ ووفاقٍ.

والحجُّ مؤتمر يأتي إليه المؤمنون من شتَّى أنحاء العالم، ومن كلِّ فجٍّ عميق.

وشريعة الإسلام لا تتعصَّبُ لجنسٍ دون جنسٍ، ولا لأمَّةٍ ضدَّ أمةٍ فـ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٨٨٩).

وهكذا كان الإسلامُ، إنَّه دعوةٌ عالميَّةٌ في شريعتها، ويسيرةٌ في شعائرها، وإنسانيَّةٌ في نظامها، وسليمةٌ في عقيدتها وواقعها وشكلها وموضوعها ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والحجُّ ركنٌ من أركان الإسلام وشعيرةٌ من شعائره، يتطلَّبُ القيامُ بها بذلَ المال والنَّفس، «**والحجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّة**»(١)، و«**من حجَّ فلم يَرْفُث ولم يَفْسُق رَجَعَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(٢)، رواهما البخاريُّ ومسلمٌ.

والحجُّ إقبالٌ على الله، وسموٌّ بالرُّوح، وبُعْدٌ عن الدُّنيا ومشاغلها وزينتها وطيِّبَاتها، ومساواةٌ بين عبيد الله المؤمنين باللِّباس والامتناع عن المحظورات والوقوف في صعيدٍ واحدٍ لغايةٍ واحدةٍ، واحتسابٌ الله، وإخلاصُ نيَّةٍ لا يُخَالطها رياءٌ ولا سمعة.

وأيُّ مظهر أجلُّ وأروعُ من تجمُّعِ طوائفَ من البشرِ ليست بينهم أرحامٌ ولا أنسابٌ، وقد اختلفت ألوانهم وتعدَّدت لغاتهم، اجتمعوا على صعيدٍ واحدٍ، وقد تركوا دنياهم وأعمالهم، وفارقوا الأهلَ والمالَ والولدَ، ونسوا أحقادهم وأضغانهم ونزواتهم وشهواتهم، كلُّهم جاء مُمْتَثِلًا أمرَ الله جلَّ شأنه، مُقِرًّا بوحدانيَّتِه، يتضرَّع إليه، ويهتِفُ باسمه ويذكُرُه بالتَّقديس والتَّسبيح والإكبار والإجلال، ويلهجُ بالثَّنَاءِ عليه قائلًا: «**لبَّيك اللَّهُمَّ لبيكَ**»، وهذا الصَّعيد الجامع هو عرفة، والوقوف فيه عمدةُ أفعالِ الحجِّ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**الحجُّ عرفة**»(٣)، والوقوف فيه يومَ يقف النَّاس جميعًا.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٧٧٣)، ومسلم، رقم: (١٣٤٩).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١٥٢١)، ومسلم، رقم: (١٣٥٠).
(٣) رواه الترمذي، رقم: (٨٨٩).

وهنا أحبُّ أن أبيِّنَ كلمةً اختلف فيها النَّاس وهي يوم الحجِّ الأكبر، فقد قالوا: إنَّ الوقوف بعرفة إذا كان في يوم جمعةٍ كان هو الحجُّ الأكبرُ، وذلك لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان حجُّه يومَ جمعة، وأقول: نعم، كان حجُّه ﷺ يوم جمعة.

لكن يوم عرفة هو يوم الحجِّ الأكبر في أيِّ يومٍ من أيَّامِ الأسبوع، وذلك لأنَّ رسولَ الله ﷺ حين بعثَ عليًّا كرَّمَ الله وجهه ببراءة ليعلن بها للنَّاس يومَ الحجِّ الأكبر كان الوقوف بعرفة يوم الاثنين وليس يوم الجمعة.

والحجُّ كما قالوا: هو مؤتمر المسلمين الجامعُ الَّذي يتلاقون فيه مجرَّدين من كلِّ آصرةٍ سوى آصرة الإسلام، ومتجرِّدين من كلِّ سمةٍ إلَّا سِمَةَ الإسلام، عرايا من كلِّ شيءٍ إلَّا من ثوبٍ غير مَخِيْطٍ يستر العورة، وهذا الثَّوب لا يميِّز فردًا من فردٍ ولا قبيلةً من قبيلة، ولا جنسًا من جنس.

إنَّ قَرَابة الإسلام هي القَرَابة وحدها، وإنَّ نسب الإسلام هو النَّسب وحده، وإنَّ صِبْغَةَ الإسلام هي وحدها الصِّبغة، فقد ذابت الفوارق في هذا الموقف وذابت الامتيازات.

إنَّها مساواةٌ أرادها الإسلام لِتُلْغَى بها الفوارق المصطنعة بين النَّاس ويحقَّقَ بها قوله جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجرَات: ١٣].

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨]، ذِكْرُ هدايةٍ وشكرٍ لله تعالى على هذه الهداية، ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨].

وفي الحجِّ زيارةُ البيت العتيق الَّذي شرَّفَهُ الله بأن أضافه إلى نفسِهِ، فهو بيت الله الَّذي جعله مثابةً للنَّاس وأمنًا، وطهَّرَه للطَّائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود.

وفي الطَّواف بالبيت صفاءٌ للنَّفس وإعدادٌ لها لِأَن تكونَ أهلًا للسَّعادة القصوى في الدُّنيا والآخرة، على أنَّ شعائرَ الحجِّ تثيرُ في النَّفس ذكرياتٍ حلوةً ترتبط بتاريخنا الإسلاميِّ، والحجُّ يعطي هذه الذِّكريات ظلالًا تجعلها شاخصةً في العيون ماثلةً في الأذهان، والمسلم يهفو دائمًا إلى ذكرياتٍ دينيَّةٍ، وتحنُّ نفسه إليها، ويتَّخِذُ من هذه الذِّكريات حافزًا قويًّا يسمو به، ويدفعه إلى مستقبلٍ هو أزكى وأهدى من حاضره.

أسأل الله أن يوفِّقَ المسلمينَ جميعًا إلى أُلْفَةٍ تجمعهم وكلمةٍ توحِّدُهم، وهدايةٍ ترشدُهم إلى الصِّراط المستقيم.

فهرس الموضوعات

سألوني عن المرأة

المرأة في الإسلام (١) ٧
المرأة في الإسلام (٢) ١٨
الأسرة في الإسلام ٢٤
بمناسبة يوم الأمِّ ٣٣
ديمومة الأسرة في الإسلام ٣٦
الرَّجل القوَّام ٤١
الإسلام دين الحياة ٤٨
ذبذبة المرأة بين المدنيَّة والإسلام ٥٥
الحجاب والتَّبرُّج وصيانة المرأة ٦٤
ريح الولد من ريحِ الجنَّةِ ٦٧
«ابن المطلَّقة» ٧٢
«سفعاء الخدَّين» ٧٣
واجب الوالدين نحو البنت ٧٤
حدود طاعة الوالدين ٨١
لتسكنوا إليها ٨٥
الملكيَّة محترمةٌ والنَّاس أحرارٌ ٨٨

هل تزوَّجت خديجة قبل زواجها بالنَّبيِّ؟ ٨٩
تسابق عائشة رضي الله عنها مع النَّبيِّ ﷺ ٩١
أمُّ كلثوم.. زوجة عمر ٩٣
الحجاب الأسود ٩٤
تعليم الأبناء ١٠٢
غسل الزَّوج لزوجته ١٠٣
الامتناع عن الإنجاب بدعةٌ ١٠٤
ختان البنات ١٠٥
باعها أبوها ١٠٦
لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق ١٠٧
هل يصِحُّ أن تنام المعتدَّة في المستشفى؟ ١٠٨
الخروج من العِدَّة ١١١
استعمالات المرأة المعتدَّة ١١٢
عِدَّة المطلَّقة ١١٤
ماذا يَحْرُم على المعتدَّة ١١٥
هل على الزَّوجة الثَّالثة عِدَّة؟ ١١٦
طلاق بورقة ١١٧
التَّحجير أو ربط الفتاة لابن عمِّها ١١٨
هل أطيع الزَّوج إذا أمر بالتَّبرُّج؟ ١٢٠
الطَّلاق بسبب العقم ١٢١
صَدَاق ١٢٣

الحجاب زينة المرأة ١٢٣
ضرب الأطفال واليتامى ١٢٤
طلاق الغضبان ١٢٥
الطَّلاق بلفظ الثَّلاث ١٢٦
استعمال النَّاس للطَّلاق ١٢٨
كان أولى أن تستُري ١٣٠
صلة الرَّحم ١٣٢
العادة الشَّهريَّة وقت الحجِّ ١٣٣
مدَّة النِّفاس ١٣٥
إهمالٌ أو تقصيرٌ ١٣٦
الوفاء كما أخذت ١٣٧
حيض المُدَرِّسة وتعليم الدِّين ١٣٨
الحيض والنِّفاس ١٣٩
الدِّين عقيدةٌ ١٤١
زواجٌ بإكراهٍ ١٤٢
الزَّواج قسمةٌ ونصيبٌ ١٤٣
هل أترك زوجي طاعةً لأمِّي؟ ١٤٤
لا تُكْرِهوا بناتكم على الزَّواج ١٤٥
لا تُصدِّق ١٤٦
خبَّبَ امرأة على زوجها ثمَّ تزوَّجها ١٤٨
أرشدني ١٤٩

الرِّجال قوَّامون على النِّساء ١٥٠
امرأةٌ تاجرةٌ ١٥٢
حُسْن الظَّنِّ ١٥٣
إرغام البنت على الزَّواج ١٥٥
برُّ الوالدين ١٥٧
رؤية المخطوبة ١٥٨
امرأةٌ تقوم مَقَام العاقد ١٦٠
لا تقصير في ذلك ١٦١
مفهوم الزَّواج ١٦٣
قطيعة الرَّحم ١٦٦
حجُّ الخرساء ١٦٧
حجُّ الحُبْلَى ١٦٨
لباس المرأة في الحجِّ ١٧٠
اقتصادُ زوجة ١٧١
غلاء المَهْر ١٧٢
زوجتي عاقر ١٧٤
الحجُّ دون مَحْرَم ١٧٥
أرغب في الحجِّ ولا أملك إلَّا راتبي ١٧٦
لا بدَّ من رضا الزَّوج ١٧٨
وأد الأولاد وموانع الحمل ١٧٨
بيت العزِّ ١٨٠

الصِّيام وتأثيره على الجنين ١٨١
تأثير الصَّوم على الحامل ١٨٣
الضَرَّة مُرَّة ١٨٤
الحَسَبُ والنَّسب في الزَّواج ١٨٦
الغلاء في المهور ١٨٩
دم الاستحاضة ١٩٠
صوم الحائض ١٩١
هل الغياب عن الزَّوجة ذَنْبٌ؟ ١٩٢
العمل مع الرِّجال ١٩٣
زكاة المهر المؤجَّل ١٩٤
الزَّكاة لزوجة الأب والإخوة منها ١٩٥
باعت الأمُّ ابنتها بالمال ١٩٧
لقد فعلت الصَّواب وهنَّ الشَّاذَّات ١٩٩
الجهر بالقراءة للمرأة ٢٠١
لباس المرأة في الصَّلاة وبعدها ٢٠١
خال الوالدَين خال الولد ٢٠٢
أمِّي تسيء إليَّ ٢٠٣
أذان المرأة ٢٠٥
زوجي يطالبني بخلع الحجاب ٢٠٦
الجمع بسبب المرض ٢٠٧
عدم القدرة على القيام ٢٠٨

زوجها يمنعها من الصَّلاة ٢١١
أذنبتما، فما ذنب الثَّالث؟ ٢١٢
الطَّاعة والمعصية ٢١٤
صبغ الشَّعر والأظافر ٢١٥
هل تنقض ملامسة المرأة الوضوء ٢١٦
هل العُقْرُ عيب في الزَّواج ٢١٧
ابعد عن الشَّرِّ تسلم ٢١٨
الَّذين يرمون البريئات بالسُّوء ٢١٩
لبن الأمِّ ٢٢١
رأي الدِّين في تعليم البنت ٢٢٢
حبوب منع الحمل ٢٢٣
مدَّة الجنين في بطن أمِّه ٢٢٥
مرتَّب الزَّوجة لها ٢٢٦
زواج بين من يَجهل ومن يَحمل الشَّهادة ٢٢٧
تقصير واتِّهام ٢٢٨
لباس المرأة أمام غير محارمها ٢٢٩
تجميل جسم المرأة المشوَّه ٢٣١
صراع على السُّفور ٢٣٣
بدعة غريبة ٢٣٧
النِّساء شقائق الرِّجال ٢٣٨
زوجة تسرق من زوجها ٢٤٠

رحمة بالأولاد ٢٤٢
حراسة البنت في ليلة زفافها ٢٤٤
قراءة الفنجان ٢٤٥
المحبَّة ٢٤٧
مدَّة حمل مريم بعيسى ٢٤٨
لا تُنْزِلوا نساءكم الغرف ولا تعلِّموهنَّ الكتابة ٢٤٩
هل الإسلام يفرِّق بين الذَّكر والأنثى؟ ٢٥٣
شهادة الرَّجل والمرأة في المعاملات التِّجاريَّة ٢٥٦
العقم عيب ٢٥٧
الزَّواج فطرة، فلا تطمسوا فطرة الله ٢٥٨
حليمة السَّعديَّة ٢٦٠
أخوات الرَّسول من الرَّضاع ٢٦٢
الشِّفاء قابلة الرَّسول ٢٦٣
زوجاتُ الرَّسول وأسماؤهنَّ ٢٦٤
زواج الإمام عليٍّ من فاطمة ٢٦٦
زينب بنت عليٍّ بن أبي طالب؛ أخت الحسين ﷺ ٢٦٧
فاطمة الزَّهراء وورقة بن نوفل ٢٦٨
فاطمة الزَّهراء ٢٦٩
زوجات الإمام عليٍّ بعد فاطمة الزَّهراء ٢٧٠
أمَّهات أولاد: سادة ٢٧٢
أمُّ خلاد ٢٧٤

أمُّ النَّبيِّ موسى عليه السلام ٢٧٥
ذات النِّطاقَيْن ٢٧٥
الأزواج المطهَّرة ٢٧٦
تحديد النَّسل ٢٧٧
رعاية الصِّغار ٢٨١
صوت المرأة ٢٨٢
الجنُّ والأسياد ٢٨٤
أطيعي الله في لباسك ٢٨٨
السُّخْرَة ٢٨٩
احتشامُ المرأة في لباسها ٢٩١
نصيب النِّساء من التَّجلِّي ٢٩٢
العِدَّة وعقدةُ النِّكاح ٢٩٤
معنى القَوَامَة ٢٩٥
حَرْثٌ لكم ٢٩٨
نَظَرُ الخاطبِ إلى المَخطُوبَة ٣٠٠
زوجةُ الأبِ كالأمِّ ٣٠٣
خصوصيَّات ٣٠٤
لا تُكرِهُوا فتياتِكم على البِغَاء ٣٠٦
إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة ٣٠٨

فهرس الموضوعات

سألوني في التفسير

أولًا: تفسير معاني الآيات قرآن الفجر (١) ٣١٥
قرآن الفجر (٢) ٣١٨
قرآن الفجر (٣) أوَّل سورة الفاتحة (الحلقة الثَّانية) ٣٢١
قرآن الفجر (٤) تفسير الفاتحة (الحلقة الثَّانية) ٣٢٤
قرآن الفجر (٥) تفسير الفاتحة (الحلقة الثَّالثة) ٣٢٧
قرآن الفجر (٦) (بقيَّةُ الفاتحة) ٣٣٠
قرآن الفجر (٧) تفسير سورة النَّاس ٣٣٤
قرآن الفجر (٨) (تفسير سورة الفلق) ٣٣٨
قرآن الفجر (٩) تفسير سورة الإخلاص ٣٤٢
قرآن الفجر (١٠) تفسير سورة المسد ٣٤٥
قرآن الفجر (١١) تفسير سورة النصر سورة النصر مدنيَّة ٣٤٩
قرآن الفجر (١٢) تفسير سورة الكافرون ٣٥٢
قرآن الفجر (١٣) تفسير سورة الكوثر ٣٥٦
قرآن الفجر (١٤) تفسير سورة الماعون ٣٥٩
قرآن الفجر (١٥) تفسير سورة قريش ٣٦٢
قرآن الفجر (١٦) تفسير سورة الفيل ٣٦٤

قرآن الفجر (١٧) تفسير سورة الهمزة ٣٦٧
قرآن الفجر (١٨) تفسير سورة العصر ٣٧٠
قرآن الفجر (١٩) تفسير بقية سورة العصر ٣٧٣
قرآن الفجر (٢٠) تفسير سورة التكاثر ٣٧٧
قرآن الفجر (٢١) تفسير سورة القارعة ٣٨٠
قرآن الفجر (٢٢) تفسير سورة العاديات ٣٨٣
قرآن الفجر (٢٣) تفسير سورة الزلزلة ٣٨٧
قرآن الفجر (٢٤) تفسير سورة القدر ٣٩٠
قرآن الفجر (٢٥) تفسير سورة البيِّنَة ٣٩٥
قرآن الفجر (٢٦) تفسير بقيَّة سورة البيِّنَة ٣٩٨
قرآن الفجر (٢٧) تفسير سورة العلق ٤٠٢
قرآن الفجر (٢٨) تفسير بقيَّة سورة العلق ٤٠٥
قرآن الفجر (٢٩) تفسير سورة التِّين ٤٠٩
قرآن الفجر (٣٠) تفسير سورة الشَّرح أو الانشراح ٤١٢
قرآن الفجر (٣١) تفسير سورة الضُّحى ٤١٤
قوَّة الإيمان (٣٢) ٤١٧
شرح الصُّدور (٣٣) ٤١٩
الطَّيِّبات (٣٤) ٤٢٢
الصِّلات الإسلاميَّة (٣٥) ٤٢٤
صلاح القلوب (٣٦) ٤٢٦
ثانيًا: أحَادِيث في المنَاسبَات الإسْلَاميَّة ٤٣١

العظمة في شخصيَّة المصطفى ﷺ ٤٣١
الإيمان اطمئنان لذا يجب أن نربِّي أولادنا على الإِيمان ٤٣٩
الدِّين الخلق ٤٤٥
كتاب الله ٤٥٦
الإسلام والسَّيف ٤٦٠
الكِبْرُ والتَّكَبُّر ٤٧١
الدَّاعيةُ والدَّعوةُ ٤٧٤
بالعملِ الصَّالحِ تطيبُ الحياةُ ٤٧٧
الاقتصادُ في الإسلامِ ٤٨٠
إصلاح ذات البين ٤٨٥
الإسلام دين العدل ٤٩١
الإخلاص لله فوزٌ ٤٩٧
القتالُ دفاعٌ وردٌّ للأذى ٤٩٩
أهميَّة المسجد في الإسلام ٥٠٢
الفتوى في الكويت ٥٠٤
الذِّكر نعمة والحمد لله ٥٠٩
غزوةُ الفتح الأعظم أو فتح مكَّة ٥١١
نور وكتاب مبين ٥١٥
ذكرى الهجرة مطلع القرن الخامس عشر ٥١٩
يوم عرفة ٥٢٤
مولد سيِّدنا عيسى عليه السَّلام ٥٢٥

شهر رمضان ٥٣٠
والفجر وليالٍ عشر ٥٣٤
هل تنفع الذِّكريات؟ ٥٣٥
ميلاد عامٍ جديدٍ ٥٣٦
مع رمضان في ذكرياته ٥٣٨
حديث رمضان ٥٤٠
العيد ٥٤٣
عيد النحر سنة (١٣٩٨هـ) (١) ٥٤٥
عيد النَّحر (١٣٩٨هـ) (٢) ٥٤٩
عيد الفطر (١) ٥٥٢
عيد الفطر (٢) ٥٥٧
غدًا العيد الوطنيُّ ٥٥٩
يوم الحجِّ الأكبر ٥٦٢
فهرس الموضوعات ٥٦٧

قَبَسٌ مِن مُقدِّمةِ الأعمَالِ الكَامِلةِ

لبنةٌ مُبارَكةٌ، تحتوي الأعمالَ الجليلةَ لعالمٍ مِن عُلماءِ النَّهضةِ العلميَّة في كويت الخير... الأعمالُ الكاملةُ لفضيلةِ الشَّيخِ العلَّامةِ عبد الله النُّوري رَحِمَهُ اللهُ، هي: نِتاجُ حياةٍ مُباركةٍ مَليئةٍ بالجِدِّ والنَّشاطِ، والاجتهادِ والمثابرةِ، وأعمالِ البِرِّ والخير؛ فجاءتِ الأعمالُ ثريَّةً متنوِّعةً بين علميَّة مُنَمَّقة، وأدبيَّة مُشوِّقة، وتُراثيَّة مُدَقِّقَة، واجتماعيَّة مُتَعمِّقة، فيها خُلَاصةُ الفِكر، وزُبدةُ المخضِ، وحُليَةُ الأدبِ، وروائعُ مِنَ التَّاريخ.

تأتي هذه الأعمالُ المُباركةُ ضمنَ سِلسلةِ جمعِ تُراثِ عُلماء الكويت؛ لحفظِ تُراثِ الأجدادِ، وإثراءِ المكتبةِ الإسلاميَّة عمومًا، والمكتبة الكويتيَّة خصوصًا؛ لتكونَ منارة للقُرَّاءِ والباحثينَ والدَّارسينَ على مَرِّ العُصورِ، ينهلونَ مِن مَعِينِهَا بمختلف العلوم والمعارف، لِيَصْدُقَ فيهم قولُ الشَّاعر:

وإنِّي وإيَّاكُم لَكَالنَّحلِ نَصطَفِي ... رَحِيقَ مَجَانِيهِ لألسُنِنَا شَهدًا

د. عَبْد المُحسِن عَبْد الله الجَار الله الخَرَافي